



تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر



السنة الرابعة

منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

تاريخ أمريكا الحديث والمعاصر
(١٩٤٥م-١٩٩٢م)

الدكتور حسام النايض
الأستاذ المساعد في قسم التاريخ

جامعة دمشق

١٤٣٧. ١٤٣٨ هـ

٢٠١٥. ٢٠١٦ م



فهرس المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
١١	المقدمة
١٣	الفصل الأول: أمريكا اللاتينية ما قبل كولومبس
١٥	أولاً- الموقع والاسم
١٥	١-الموقع والامتداد الجغرافي
١٧	٢- قضية الاسم
٢٦	ثانياً- إمبراطوريات أمريكا اللاتينية ما قبل كولومبس
٢٦	١-إمبراطورية المايا
٣١	٢- إمبراطورية الأزتك
٣٤	٣- إمبراطورية الإنكا
٣٩	الفصل الثاني: الغزو والكشف الأوروبي للقارة (١٤٩٢-١٥٢٢م)
٤١	مقدمة
٤٢	أولاً- اكتشاف أمريكا قبل كولومبس
٤٨	ثانياً- حقيقة اكتشاف العرب والمسلمين لأمريكا
٤٨	١ - الفينيقيون وأمريكا
٥٢	٢ - المسعودي وخشخاش القرطبي:
٥٢	٣ - الإدريسي والشباب المغربي:
٥٦	٤- ابن الوردي يصف أمريكا:
٥٩	٥ - اعترافات غربية:
٦٤	ثالثاً- الكشف الجغرافية الاستعمارية الأوروبية
٦٤	١- دوافع الكشف الجغرافية

٧٤	٢ - الكشف الجغرافية الإسبانية والبرتغالية الاستعمارية في جنوب القارة الأمريكية ووسطها (ما يعرف باسم أمريكا اللاتينية)
٨٧	٣ - الكشف الجغرافية الإنكليزية
٨٩	٤ - الكشف الجغرافية الفرنسية
٩٢	٥ - الكشف الجغرافية الهولندية
٩٣	٦ - الكشف الجغرافية الروسية
٩٥	الفصل الثالث: التوسع الاستعماري الأوروبي داخل القارة
٩٧	مقدمة
١٠٠	أولاً- الاستعمار الإسباني، والبرتغالي في أمريكا الجنوبية، والوسطى
١٠٠	١ - غزو بنما (كاستيا دل أورو)
١٠٢	٢ - غزو المكسيك
١٠٦	٣ - غزو البيرو (مملكة قشتالة الجديدة)
١١٢	٤ - غزو فنزويلا وكيئو:
١١٥	٥ - مملكة غرناطة الجديدة (كولومبيا)
١١٧	٦ - الأرجنتين والتشيلي:
١١٩	٧ - البرتغال وغزو البرازيل
١٢٢	ثانياً- الاستعمار البريطاني في أمريكا الشمالية
١٢٢	١ - دوافع الاستعمار البريطاني
١٢٤	٢ - أهم المستعمرات الإنكليزية
١٣٨	خاتمة
١٤١	الفصل الرابع: النظام السياسي الاستعماري الأوروبي في القارة الأمريكية
١٤٣	أولاً- الإدارة الإسبانية (إدارة الهند الغربية)
١٤٥	١- الهيئة المركزية (السلطة التشريعية)

١٥٠	٢ - السلطة التنفيذية
١٦٠	ثانياً - الإدارة البرتغالية في البرازيل
١٦٠	١ - المرحلة الأولى (١٥٣٤-١٥٧٢م)
١٦٢	٢ - المرحلة الثانية - فترة الحكم الإسباني (١٥٧٢-١٦٤٠م)
١٦٢	٣ - المرحلة الثالثة - عودة الحكم البرتغالي (١٦٤٠ - ١٨٢١م)
١٦٣	ثالثاً - الإدارة الإنكليزية في المستعمرات
١٦٣	١ - أنواع المستعمرات
١٦٤	٢ - الحاكم العام، و المجلس التنفيذي، والمجلس العام
١٦٧	٣ - نظام الانتخاب والتوظيف
١٦٨	٤ - الحكم المحلي
١٦٨	٥ - المراقبة الاستعمارية
١٦٩	٦ - قوانين البحرية
١٧٠	٧ - التنظيمات الخاصة بالصناعات والعمل
	الفصل الخامس: لمحات من الحياة الاقتصادية في القارة الأمريكية
١٧٣	خلال فترة الاستعمار الأوروبي
١٧٥	مقدمة
١٧٦	أولاً - السياسة الاقتصادية الإسبانية:
١٧٦	السياسة الاقتصادية الإسبانية حتى بداية القرن الثامن عشر
١٩٠	السياسة الاقتصادية الإسبانية ما بين ١٧١٣-١٧٩٥م
١٩٤	ثانياً - السياسة الاقتصادية البرتغالية:
١٩٤	زراعة قصب السكر
١٩٥	تجارة العبيد
١٩٨	ثالثاً - السياسة الاقتصادية في مستعمرات أمريكية الشمالية

١٩٨	١- الزراعة
٢٠١	٢- الصناعة
٢٠٢	٣- صيد الأسماك، وتجارة الفراء
٢٠٢	٤- التجارة
٢٠٣	٥- مشاكل العملة
٢٠٣	٦- حالة العمل والعمال
٢٠٤	٧- الرقيق
	الفصل السادس: لمحات من الحياة الاجتماعية في القارة الأمريكية
٢٠٥	خلال فترة الاستعمار الأوروبي
٢٠٧	أولاً- المستعمرات الإسبانية، والبرتغالية
٢٠٧	١- التقسيمات الاجتماعية (طبقات المجتمع)
٢١٤	ثانياً- السياسة الدينية الأوروبية في أمريكا اللاتينية
٢١٤	I- سياسة التبشير الإسبانية
٢٢٣	II- سياسة التبشير البرتغالية
٢٢٧	ثالثاً- ضعف السلطة المركزية الإسبانية وبداية اللامركزية
٢٣١	رابعاً- الحياة الاجتماعية في المستعمرات الشمالية
٢٣٧	الفصل السابع: الجوانب السلبية والإيجابية للاستعمار الأوروبي في أمريكا
٢٣٩	مقدمة
٢٤١	أولاً- الجوانب السلبية للاستعمار الأوروبي
٢٤١	١- استعمار القارة الأمريكية من الوجهة الأخلاقية، والقانونية
٢٤٨	٢- الميراث الاقتصادي
٢٥١	٣- الميراث الاجتماعي
٢٥٤	ثانياً- الإسهام الإيجابي للأيبيريين في أمريكا اللاتينية

٢٥٧	خاتمة
٢٥٩	الفصل الثامن: حرب الاستقلال الأمريكية
٢٦١	مقدمة
٢٦٣	١- الأسباب الرئيسية للثورة الأمريكية
٢٦٦	٢- التحرك نحو الاستقلال
٢٧٥	٣- المؤتمر القاري الثاني سنة ١٧٧٥م
٢٧٨	٤- إعلان الاستقلال ٢ تموز ١٧٧٦م
٢٨٢	٥- الاستقلال، والدستور الأمريكي
٢٨٥	٦- المؤتمر الائتلافي ووضع الدستور الفيدرالي
٢٨٨	٧- النتائج العامة لثورة الاستقلال الأمريكية
٢٩٣	الفصل التاسع: تحرر أمريكا اللاتينية (١٨١٠-١٨٢٥م)
٢٩٥	مقدمة
٢٩٧	أولاً- الأسباب الخارجية لثورات الاستقلال الأمريكية اللاتينية
٣٠٢	ثانياً- الأسباب الداخلية
٣١٠	ثالثاً- الثورات
٣٢٤	خاتمة
٣٢٧	الفصل العاشر: الحرب الأهلية
٣٢٩	مقدمة
٣٣١	أولاً- الأسباب العامة للحرب الأهلية
٣٤١	ثانياً- قيام الحرب
٣٤٦	ثالثاً - مراحل الحرب
٣٥١	رابعاً- النتائج العامة للحرب الأهلية الأمريكية

	الفصل الحادي عشر : التوسع الخارجي للولايات المتحدة الأمريكية،
٣٥٣	وجامعة الدول الأمريكية
٣٥٥	أولاً - مبدأ مونرو وعزلة الولايات المتحدة الأمريكية
٣٦٦	ثانياً- التوسع الأمريكي في البحر الكاريبي وأمريكا الوسطى والجنوبية
٣٧٨	ثالثاً- جامعة الدول الأمريكية
	الفصل الثاني عشر
٣٨٣	الولايات المتحدة الأمريكية والحربان العالميتان الأولى والثانية
٣٨٥	أولاً- كسر العزلة في أثناء الحرب العالمية الأولى
٣٨٥	أ- التمسك بالعزلة
٣٨٨	ب- الحياد الإيجابي
٣٩١	ج- الاشتراك في الحرب
٣٩٥	ثانياً- العودة إلى العزلة بعد الحرب العالمية الأولى:
٣٩٥	أ- العوامل الداخلية
٣٩٦	ب-العوامل الخارجية
٣٩٧	ج- مظاهر العزلة بين الحربين
٣٩٩	ثالثاً- كسر العزلة نهائياً في الحرب العالمية الثانية
٣٩٩	أ- على المستوى الداخلي
٤٠١	ب-على المستوى الخارجي
٤٠٣	ج- دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية
٤٠٧	المصادر والمراجع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

يُعد اكتشاف القارة الأمريكية، وطريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح أعظم حدثين وأهمهما في تاريخ البشرية الحديث. ولم تكن حكمة البشر تستطيع أن تتنبأ بأية فوائد أو بأية مصائب للبشرية ستنتج عن هذين الحدثين العظيمين من الآن فصاعداً. فقد قَدَم اكتشاف أمريكا مساعدة جوهريّة لوضع أوروبا؛ فاتحاً سوقاً جديدة لا تُستنفذ، أدت إلى توسع ضخّم للقوى المنتجة، وللدخل الحقيقي والثروة^(١).

ظل تاريخ القارة الأوروبية الحديث يعالج من خلال أحداث التاريخ الأوروبي الحديث رداً من الزمن؛ بسبب أن أوروبا كانت تشكل مركز الثقل السياسي الذي يوجه سياسة القارة الجديدة، ويدير شؤونها من جهة؛ ولأن شعوب نصف الكرة الغربي من العالم كانت تعود في أصولها إلى أصول أوروبية من جهة ثانية. وهكذا ظلت أوروبا، وأسرها الحاكمة تشكل زمام المبادرة في قيادة هذا الجزء من العالم الجديد؛ وبالتالي فهي صانعة جذوره التاريخية.

وقد تغير الوضع السياسي في القارة الأمريكية بعد قيام ثورة شعوبها ضد الاستعمار الأوروبي: الإنكليزي، والفرنسي، والإسباني، وغيره؛ بسبب الأخطاء التي نجمت عن ممارسة أسلوب القهر والظلم والتعسف في القيادة من جهة وبسبب خطأ التقدير من جهة ثانية. فثارت شعوب القارة الجديدة على الدول الأم، وناضلت من أجل حريتها واستقلالها السياسي الذي أخذته بالقوة.

(١) تشومسكي، نعوم: ٥٠١ سنة الغزو مستمر، دار المدى، طبعة ثانية، دمشق ١٩٩٩، ص

وبعد الاستقلال الأمريكي تشكلت في القارة مجموعة كبيرة من الحكومات والجمهوريات الأمريكية ربطت بين أفراد شعب كل منها رابطة القانون ورابطة المواطنة والانتماء إلى الوطن الجديد. وقد تمخض عن هذا كله أحداث جديدة ومتغيرات جديدة برز من خلالها تاريخ جديد للدول الأمريكية المستقلة كجزء مستقل عن التاريخ الأوروبي الحديث. وأصبح من الضروري أن يدرس تاريخ هذه الدول كجزء مستقل تماماً عما كان عليه قبل عهد الاستقلال.

بعد مرور أكثر من خمسة قرون لا تزال رحلة كريستوف كولومبوس تثير المزيد من الأسئلة. أسئلة حول أهمية الرحلة. وأخرى حول الرجل الذي قام بالرحلة. هل كانت فتحاً جديداً من فتوح البشرية، أم دماراً مؤكداً لحضارة نقيّة عاشت، وتطورت بعيداً عن آفات العالم القديم؟ وهل كان الرجل بطلاً، ومكتشفاً باهراً، أم سفاحاً لا يقل هولاً عن بقية السفاحين الذين عرفتهم البشرية؟ فقد شكّلت الرحلة نهاية زمن وبداية زمن جديد. في العام نفسه (١٤٩٢م) سقطت آخر قلاع المسلمين في غرناطة، وبدأ عصر الأفول العربي. استولت على غرناطة الملكة إيزابيلا وهي نفسها التي مولت رحلة كولومبوس وباركتها. وبدأت مريثة الغروب للحضارة العربية، وأعلنت الحضارة الغربية انتصارها المدوي، سواء في العالم القديم - عندما حاصرت كل طرق التجارة التقليدية باكتشاف الطرق البحرية الجديدة، وتنامت قوتها العسكرية ضد كل رفاق الحضارة القديمة - أو في العالم الجديد عندما اقتحمت مجاهل الأطلسي حتى اكتشفت قارة كاملة. وهكذا أصبحت ذكرى كولومبوس مناسبة عالمية أكثر منها مناسبة تهمة أمريكا أو أوروبا وحدها^(١).

(١) كولومبوس: بداية الحلم أم ذروة المأساة، دراسة مركز أبحاث مجلة العربي (مجلة العربي، العدد ٤٠٠، آذار ١٩٩٢، ص ص ١٤٤-١٥٦)، ص ص ١٤٤-١٤٥.



الفصل الأول
أمريكا اللاتينية ما قبل كولومبس



أولاً- الموقع، والاسم

١-الموقع، والامتداد الجغرافي

تشغل أمريكا اللاتينية مساحة واسعة من الأمريكيتين، حوالي الثلثين بعد حذف مساحة غرؤنلدة. وتشرف على مساحات محيطية كبيرة، الأطلنطي شرقاً، والباسيفيكي غرباً، وبحار جانبية واسعة يتبعثر فيها عدد كبير من الجزر المهمة، مثل: خليج المكسيك، والبحر الكاريبي. وتمتد على مسافة ١٥ ألف كم، من درجة عرض ٣٣° شمالي خط الاستواء من مصب نهر الكورادو في خليج كاليفورنيا تقريباً إلى حوالي درجة عرض ٥٦° عند رأس هورن جنوبي خط الاستواء، حيث تقترب أراضيها من أراضي القطب الجنوبي، وتكاد تلتصق به.

أما امتدادها بين المحيطين، فيختلف كثيراً بين شمالها، ووسطها، وجنوبها؛ إذ يبلغ أقصى ضيق لها في القسم الأوسط منها، في بنما، حيث استغل هذا الضيق هنا ففتحت فيه قناة بنما المشهورة في وصلها المحيطين، بينما يبلغ أقصى عرض لها في أمريكا الجنوبية بين خطي ١١٧° غربي غرينتش بين الشاطئ الشمالي الغربي لكاليفورنيا على المحيط الباسيفيكي و ساو روك على المحيط الأطلنطي.

يؤثر الامتداد الواسع لأمريكا اللاتينية في المقام الأول في مظاهرها الجغرافية، فيغنيها بالمناطق الطبيعية التي تتوزع بين الشمال، والجنوب، والغرب، والشرق. ولهذا يمكن عدّ أمريكا اللاتينية ككل وحدة طبيعية كاملة لا علاقة لها من حيث التكوين الجيولوجي، والتطور المناخي والنباتي والتضاريسي بالأقسام الشمالية من أمريكا؛ أي: أمريكا الأنغلوسكسونية، والمكسيك. ومن جهة أخرى ففي أمريكا اللاتينية اختلافات طبيعية في التفاصيل، بين المكسيك، وبقية أجزاء أمريكا الوسطى؛ وبين أمريكا الوسطى والجنوبية أيضاً. وإن كان يمكن القول: إن أمريكا الجنوبية أكثر تكتلاً من الناحية الطبيعية من الأجزاء الأخرى من القارة .

إن وحدة القارة الأمريكية اللاتينية أوضح وأمتن إذا ما نظر إليها من وجهة النظر البشرية والاقتصادية، فهي، وإن لم يكن من الممكن جمع شعوبها وجماعاتها في وحدة بشرية متجانسة تمت بصلة إلى الجماعات الأنغلوسكسونية المجاورة أو شعوب العواصم الأخرى في آسيا وإفريقية وأوروبا، فإنه بالإمكان عدّها وحدة بشرية مترابطة على أسس ثقافية لغوية ودينية قام على أساسها مجتمع يشده إلى بعضه الآن هدف واحد وهو تطوير اقتصاد متخلف نسبياً في سبيل خدمة غالبية السكان الذين تتحكم بمصائرهم القوى الرأسمالية الغربية المعتمدة على فئة محلية قليلة معزولة عن السكان يتناقص نفوذها باستمرار مع تزايد الوعي السياسي في القارة النامية.

يظهر أثر امتداد القارة اللاتينية أيضاً في تنوع تفاصيل مناخها، ونباتها، ومواردها الاقتصادية؛ إذ توجد فيها معظم أنواع المناخات المعروفة من أوصحها برودة إلى أشدها حرارة، ومن أكثرها جفافاً إلى أعظمها أمطاراً، وما ينجم عن ذلك من مجموعات نباتية كثيرة التنوع، كما أن في باطن هذه الأرض موارد معدنية، ونفطية مهمة لا يزال استثمارها في مراحلها الأولى؛ بسبب التجزئة السياسية، وقلة الخبرة، والاستقرار في دولها المتطورة. مع العلم أن الحركات الاستقلالية والتطلعات نحو مستقبل مشرق لأصحاب البلاد يستهدف نزع الاستغلال الأجنبي، قد مكّن من حصول معظم دول القارة على استقلالها لتقوم ببناء مستقبلها بنفسها لصالحها.

وتقسم دول أمريكا اللاتينية إلى ٢٤ دولة ذات سيادة:

- ◆ سبع في أمريكا الوسطى، هي: المكسيك، وغواتيمالا، وهندوراس، والسلفادور، ونيكاراغوا، وكوستاريكا، وباناما.
- ◆ وست دول في جزر الأنтил، هي: كوبا، وسانتو، دومينيغو، وهايتي، وجامايكا، وترينيداد وتوباغو، وباربادوس.

♦ إحدى عشرة دولة في أمريكا الجنوبية، هي: غويانا، وفينزويلا، وكولومبيا، والاكوادور، والبيرو، وبوليفيا، والبرازيل، والباراغوي، والأوروغوي، والأرجنتين، والشيلي^(١).

٢ - قضية الاسم

لقد مر قرن ونصف القرن منذ قام هيجل بنوعته عن أمريكا في حين كان ينفي أنه يتنبأ. وما كان مستقبلاً بالنسبة إليه أصبح الآن حاضراً بالنسبة لأمريكا. والقارة التي كانت بالنسبة إليه طبيعة "أصبحت تاريخاً" وقد تحدث عن أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية معاً:

(١) للتفاصيل حول أمريكا اللاتينية انظر:

ساطع محلي، أمريكا اللاتينية، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق ١٩٧٤، الفصل الثالث وما بعده.
(٢) مورينو، سيزار فرناندث: أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات، ترجمة أحمد حسان عبدالواحد، سلسلة عالم المعرفة، قسمان، القسم الأول، العدد ١٦٦، آب ١٩٨٧، ص ٣٠٣.

♦ وفي أمريكا الشمالية تقوم حالياً أقوى دولة في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية.

♦ أما أمريكا الجنوبية، تحت الاسم الجديد لأمريكا اللاتينية، فتمثل إحدى أكثر الأفكار ديناميكية في العالم المعاصر. وقد وضعتها سلسلة من العوامل في مكان الصدارة من التوقع العام : أول هذه العوامل هو الانفجار السكاني، إذا قبلنا هذا التصنيف التكنولوجي الذي يصف عملية الميلاد، فمعدل تزايد القارة هو أكبر معدل في العالم: ٩,٢ % سنوياً. وتعدادها الحالي يزيد على ٢٧٠ مليوناً من السكان، موزعين بصورة غير منتظمة على مساحة ٢١ مليوناً من الكيلومترات المربعة. هذا الانفجار الذي يجري في إطار السياق الاقتصادي المسمى بالتخلف، يهدد بأن يتحول - بدوره - إلى انفجار سياسي^(١).

عندما نتحدث عن أمريكا اللاتينية، فإن أول شيء يتبادر إلى أذهاننا هو قضية الاسم، فتعبير أمريكا اللاتينية تعبير غير دقيق بصورة واضحة، فما هي أمريكا اللاتينية؟ ولماذا نسميها باللاتينية؟ وهل هنالك أسماء أخرى؟ لقد قيل عن النصف الغربي للكرة الأرضية بأنه قارة الأخطاء؛ لأن العالم الجديد قد اكتشف وسُمي خطأً، ومازال يخطئ الكثيرون الذين يحاولون تفسير هذا العالم إلى يومنا هذا. لقد أخطأ الأوروبيون الذين كانوا يبحثون عن طريق إلى قارة آسيا، حينما اعتقدوا أنهم وصلوا للشرق الأقصى، وأطلقوا على هذه الأراضي اسم الهند (Indias) ولكي يصححوا هذا الاسم الخطأ، فإنهم أضافوا إليه بعد فترة صفة

(١) المرجع نفسه، القسم الأول، ص ١٣-١٤.

الغربية (Occidental) أو الغربي التي يمكن عدّها أيضاً صفة خاطئة، وأصبحت تعرف باسم الهند الغربية (Indias Occidental) لكي تتميز عن الهند الشرقية. كما أطلق على الأراضي التي زارها كولومبس (خطأ أيضاً) اسم أمريكا تكريماً للبحارة الإيطالي أمريكو فيسبوتشي (Américo Vespucio)، والذي يعد أحد الأوائل الذين حددوا معالم هذه الأراضي كجزء لا يتجزأ من العالم الجديد، كما أنهم أخطؤوا أيضاً على الصعيد العالمي في تحديد كلمة أمريكا على أنها فقط جزء من القارة، فقد كانت أمريكا أساساً خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر هي ذلك العالم الجديد الذي يحتله الإسبان والبرتغاليون منذ القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر. فعندما تقال كلمة أمريكا في شبه الجزيرة الإيبيرية كان يقصد بها، في الواقع، الأراضي الإسبانية الواقعة في نصف الكرة الغربي، وحالياً نجد أن كلمة أمريكا تعرف بها على المستوى العالمي الولايات المتحدة الأمريكية، وهكذا نجد أنفسنا مستمرين في الخطأ.

لو دققنا جيداً باللغة الإسبانية لوجدنا العديد من الأسماء التي استخدمت للتعبير عن هذه المنطقة، ومن أهمها: أمريكا الإيبيرية (Ibero-américa)، وأمريكا الإسبانية (américaHispano)، وأمريكا الهندية (Indo-américa)، وأمريكا الجنوبية (sud-américa)، وأمريكا اللاتينية (América-latina). ولو دققنا الملاحظة حول هذه الأسماء لوجدنا فيها أخطاء كثيرة :

- ◆ فأمريكا الأيبيرية اسم غير دقيق؛ لأنه يستبعد دولتين، هما: سورينام وهايتي.
- ◆ أما بالنسبة لأمريكا الإسبانية، فهو لا يأخذ بالحسبان الأغلبية الساحقة من الهنود^(١)، والزنج، والأجناس الأخرى، والتي تكون اليوم شعباً تغلب عليها

(١) السكان الأصليون في القارة الذين أطلق عليهم تسمية الهنود خطأ

الصفة السائدة، وهي صفة المهجنين أو الملونين أو ذوي الأصول الهندية الأمريكية أو سكان المستعمرات البرتغالية (البرازيل).

ويؤكد عدد كبير من المؤرخين بأن الميراث الثقافي الإسباني تحديداً هو الذي وحد العناصر المتناثرة جداً الموجودة، والتي تشكل هذا الواقع في العصر الحاضر، أي: أمريكا الإسبانية المهيمنة أو الملونة.

♦ أما بالنسبة للفظ أمريكا الجنوبية، فقد استخدم في الأرجنتين منذ انعقاد مؤتمر توكومان (Tucuman)^١ عام ١٨١٦م، وهذا اللفظ بما يعنيه من ضيق في المساحة لا يتفق مع المساحة الشاسعة للمنطقة.

♦ أما بالنسبة لمصطلح أمريكا الهندية، فقد دافع عنه بشكل أساسي أصحاب الأرض الأصليون (أو من تبقى منهم)، فقد عدّ المدافعون عن أمريكا الهندية أن هذا اللفظ يدعو إلى المطالبة بالتفاوت؛ إذ أنه يتضمن كل الهنود والإسبان والبرتغاليين والزنج والمولنين، كما يتضمن كل الجماعات العرقية التي أتت من أوروبا وإفريقية والشرق، كما أن هذا المصطلح لا يعطي استثناءً ولا أولوية لكل ما هو هندي؛ لأن مقطع إندو الذي يدخل على كلمة أمريكا يعني: هندي، ليس مشتقاً في هذا المقام من كلمة هندي؛ بل مشتق من اسم القارة الذي كان مستخدماً منذ عام ١٤٩٢م، ولفترة طويلة من الزمن امتدت حتى القرن الثامن

^١ مؤتمر توكومان (Tucuman): عُقد هذا المؤتمر في العاصمة الأرجنتينية بوينس آيرس، وكان الهدف الأساسي من انعقاده إيجاد صيغة مشتركة للقارة الأمريكية المستقلة، وظهرت خلاله خلافات حول تسمية القارة، ومن أهم الأسماء التي ظهرت في هذا المؤتمر، هو: أمريكا الجنوبية.

عشر. والذين يفضلون إطلاق هذا الاسم؛ إنما يفضلونه لإدراج جميع الأجناس تحته، وكذلك الوقوف على الإسهامات الثقافية المختلفة للفترات التاريخية^(١). ونأتي الآن إلى مصطلح أمريكا اللاتينية، فما هي أمريكا اللاتينية؟ ولماذا نسميها اللاتينية؟^(٢).

من بين الدول التي حققت اكتشاف القارة الجديدة وغزوها واستعمارها كانت ثلاثاً منها لاتينية لغوياً، وهي: إسبانيا والبرتغال وفرنسا؛ وبالتالي فإن أشمل مفهوم تاريخي للإقليم يجب أن يضم أراضي القارة الجديدة كلها التي سكنتها تلك القوى، المعارضة في مجموعها لأمريكا الأنغلوسكسونية المتمركزة في الشمال^(٣).

بالنسبة لتعبير أمريكا اللاتينية، فقد ظهر لأول مرة في كتابات المؤرخين الفرنسيين في القرن التاسع عشر، وشاع استخدامه إلى وقتنا الحالي^(٤). حيث يقول إستواردو نوبيث: "في أواخر القرن التاسع عشر يبدأ التمييز بين ما هو أمريكي شمالي، وما هو أمريكي لاتيني بسبب نشوء الظاهرة السياسية لاستقلال الشمال"، ويبدأ بين الكتاب الفرنسيين قبل كل شيء استخدام تعريفات جديدة لأمور

(١) أوخينيو تشانج رودريجيث: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ترجمة عبد الحميد الغلاب وأحمد حشاد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٧، ص ١٩-٢٠.

(٢) مصطلح اللاتينية: لو بحثنا عن اللاتينية لوجدنا أنها بدأت في اللسيوم، وهو إقليم صغير مجاور لروما، وأخذت تنمو في دوائر متحدة المركز على طول التاريخ، ضمت أولاً إيطاليا كلها، ثم اتسعت بعدها للجزء من أوروبا الذي استعمرته الإمبراطورية الرومانية، لتعود فتقتصر على البلدان والمناطق التي تتحدث بلغات مشتقة من اللاتينية، ثم تنتقل أخيراً إلى القارة الأمريكية التي كانت الحلقة الرابعة في ذلك التوسع المدهش. لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر: سيزار فرناندث بمورين. مرجع سابق، ص ١٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٤.

(٤) أوخينيو تشانج رودريجيث: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ٢٠.

أمريكا غير السكسونية، مثل: دول أمريكا اللاتينية، وشعوب أمريكا اللاتينية، وديمقراطية أمريكا اللاتينية. وهذه التعبيرات الجديدة تميل إلى مفهوم هو في وقت واحد عرقي، وثقافي، وسياسي، لكن حدث أنها جاءت لتحل محل تعبيرات أخرى ذات مضمون جغرافي صرف، مثل: أمريكا الجنوبية، وأمريكا الوسطى، وأمريكا الاسترالية.

وهكذا ينشأ الخلط الأول حول أمريكا اللاتينية، ففي المفهوم الجغرافي يظل التعبير مقتصرًا على شبه القارة الجنوبي، الإيبيرو أمريكي بصورة أساسية (أي: الإسباني والبرتغالي)، أما المفهوم الجديد، فيتسع كذلك للفرنسيين المقيمين في أمريكا الشمالية.

وكما هو واضح، فإن المحصلة التي تؤدي بنا إليها فكرة اللاتينية تتجاوز تلك الفكرة ذاتها، وإذا حاولنا الآن الرجوع إلى الوضع الأصلي للإنسان الأمريكي، فإن الصفة في تعبير أمريكا اللاتينية تذوب في السياق التاريخي، ونجد أنفسنا غارقين في الجوهر البشري الخاص للموصوف الذي من الواضح أنه أسبق مما هو أوروبي وغريب عنه. وبذلك نجد أنفسنا في مواجهة الثقافات العظيمة السابقة على الاكتشاف، وفي مقدمتها ثقافة أمريكا الوسطى والأنديز التي قضى عليها غزو القرن السادس عشر، لكنه في الوقت نفسه منحها حياة جديدة بقدر ما حولها إلى شرط ضروري لعملية أوروبية، كما أثرت هذه العملية في سكان أمريكا المتبقين الذين نالوا في تلك الفترة درجات أدق من التطور، أولئك السكان الذين يطلق عليهم كجنس اسم الهنود الحمر من قبل المكتشفين بدافع الخطأ الجغرافي الهائل الذي حملهم على الاعتقاد بأنهم وصلوا إلى آسيا، وتحديدًا الهند^(١).

(١) سيزار فرناندث مورينو: أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات ، ص ١٥.

بالإضافة إلى ذلك، يجب التأكيد داخل أمريكا اللاتينية الحالية -على وجود عالم آخر غير لاتيني بصورة جذرية: هو الإفريقي. وطبقاً للنظرية المسماة "من القارات إلى الانجراف" فإن أمريكا كانت تشكل في عصر جيولوجي سحيق- وحدة عضوية مع إفريقية، وبانفصالها إثر ذلك بفعل القوى الجوفية في كوكبنا، اكتسبت ذاتيتها كقارة. وفي تلك المغامرة الرائعة، انتزعت القارة الأمريكية نباتات وحيوانات إفريقية فقط، دون بشرها.

كذلك قدم الأفارقة بعد ذلك إلى أمريكا منذ أقدم العصور التاريخية. ففي الكاريبي الأخضر الشفاف، في ذلك البحر الذي يكشف في دعة عن حميميته ، وفي تلك الجزر التي ترصعه بإطار ثمين مزدوج من الطحلب والرمل، جرت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الظاهرة الفظة لتجارة العبيد *استخدام البشر من لون معين كأدوات من جانب بشر من لون آخر*. تم اصطياد مئة مليون ونقلهم من إفريقية، لم يصل سوى ثلث عددهم إلى وجهتهم الأمريكية؛ ورغم ذلك أدت هذه العملية إلى النتيجة المدهشة التي يمكننا الآن رؤيتها : فقد أضاف العبيد إلى سادتهم الكثير، فنقلوا إليهم كل ما استطاعوا الحفاظ عليه من ثقافتهم، وعلموهم الكثير من الأمور كالغناء والرقص حتى النضال من أجل حريتهم.

وفي الوقت نفسه، فإن ما هو إفريقي في أمريكا اللاتينية يصبح هو السمة المشتركة التي تربطها مع أمريكا الأنغلوسكسونية؛ إذ إن ذلك الجنس وثقافته هما اللذان يتوليان اللحمة بين جزئي شبه القارة اللذين يشكلان الأمريكيتين. فجزر الكاريبي وأمريكا الوسطى تمثل انتقالاً بين أمريكا الجنوبية -اللاتينية بصورة نموذجية- وأمريكا الشمالية -الأنغلوسكسونية بصورة نموذجية-. في هذه المنطقة لا يصبح دقيقاً حتى ذلك التحديد المتبادل والأساسي بين تلكما الثقافتين المستعمرتين؛ إذ إن كلتيهما قد تعايشتا، ومازالتا تتعايشان فيها.

وأمریکا الإفريقية هذه محسوسة بقوة، ليس في هذه المنطقة الوسيطة فحسب؛ بل كذلك في حدودها مع المنطقتين الآخرين؛ أي شمالي أمريكا الجنوبية، وجنوبي أمريكا الشمالية، بحيث تمثل هذه البينية، (الوضعية الوسطى) في الآن ذاته حاجزاً وطريقاً معاً، كما تمثل في الحالات كلها إثراء للنسق الكلاسيكي الذي نشأ منه مفهوم أمريكا اللاتينية نفسه: فالأمريكتان المتباعدتان تتقاربان في ثقافة ثالثة لدرجة أن تشكلا سوياً، أفرو أمريكا واحدة، هي صلة الوصل التي تنتجه إلى توحيد الأمريكيات الجغرافية الثلاث ثقافياً^(١).

على كل حال نستطيع بعد أن انتهينا من تناول مشكلة الاسم لهذه القارة أن ننتقل إلى تاريخها الذي نستطيع تقسيمه إلى قسمين رئيسين:

١ - أمريكا اللاتينية ما قبل كولومبس:

ويشمل الحضارات الكبيرة والعظيمة التي وجدت على هذه الأرض قبل أن تطأها أقدام كولومبس؛ أي: الفترة ما قبل عام ١٤٩٢م.

٢ - أمريكا اللاتينية ما بعد كولومبس:

والذي نستطيع تقسيمه إلى أربع مراحل أساسية، وهي:

١. مرحلة الغزو والاستعمار، وتمتد ما بين ١٤٩٢ - ١٥٤٢م
٢. مرحلة المستعمرات، تمتد ما بين ١٥٤٢ - ١٨١٠م
٣. مرحلة الكفاح من أجل الاستقلال السياسي والممتدة ما بين ١٨١٠ - ١٨٢٤م.
٤. مرحلة الحياة السياسية المستقلة التي تمتد من عام ١٨٢٤م حتى الوقت الحالي.

(١) المرجع نفسه، ص ١٦-١٧.

ثانياً- إمبراطوريات أمريكا اللاتينية ما قبل كولومبس:

اشتمل العالم الجديد على إمبراطوريات وتاريخ وحضارة عاشت وترعرعت على أراضي هذه القارة، من أهمها: حضارة المايا، وإمبراطوريتا الأزتك في المكسيك، والأنكا في بيرو.

وقد شهدت هذه الإمبراطوريات والحضارات عظمة، وتوهجاً في فنون البناء والنحت، والنقش، والصياغة، والخزف، والأدب، والكتابة، والحساب، والفلك، والأساطير، تساوت في عظمتها مع حضارات العالم القديم، وتفوقت عليه في بعض المجالات.

١- إمبراطورية المايا

امتدت حضارة المايا من منتصف القرن الثالث الميلادي إلى القرن العاشر الميلادي. وخلال هذه الفترة أسس المايا أكبر مدنهم، وحققوا إنجازاتهم المتميزة في مجالات الأدب والعلوم؛ وبالإضافة إلى ذلك، بدأ المايا ممارسة تشييد النصب التذكارية تخليداً للأحداث المهمة في حياة قادتهم.

وفي القرون الثلاثة الأولى من المرحلة الكلاسيكية كانت المدينة المكسيكية، تيوتواكان مركز إمبراطورية كبيرة. وكان لحضارة تيوتواكان تأثير قوي في فن المايا، ومعمارهم. وأثر مؤقتاً سقوط ثيوتوا الذي حدث في القرن السابع الميلادي في المايا. ومثال ذلك أن المايا أوقفوا حركة البناء في مدنهم، وأوقفوا تشييد النصب التذكارية. وبعد مدة قصيرة دبّت الروح مرة أخرى في حضارة المايا، واستمرت في التطور لمدة ثلاثمئة سنة إضافية. ومع بداية القرن التاسع الميلادي، شيد المايا النصب التذكارية في كل مدينة. وتخلوا عن مراكزهم الرئيسية في الأراضي الجنوبية المنخفضة الواحد بعد الآخر. وفي النهاية غادروا المنطقة بصفة نهائية. ولا زال العلماء يحاولون اكتشاف الأسباب التي أدت إلى انهيار مجتمع

المايا. ويعتقد بعض الخبراء أن الانهيار يُمكن أن يكون ناتجاً من عوامل، مثل: المرض، وتلف المزروعات، وانتقال مجموعات بشرية أخرى إلى منطقة المايا. ومع ذلك يعتقد عددٌ من المؤرخين أن مزارعي المايا ثاروا ضد حكومة الرؤساء والكهنة لسبب ما، وأسهموا بذلك في انهيار مجتمع المايا.

بقيت مراكز المايا في شمال يوكاتان مئة سنة بعد أن تلاشت مراكزهم الموجودة في الأراضي الجنوبية المنخفضة. وحتى بعد أن هجر المايا المراكز الشمالية، استمرت بقيّتهم في العيش في تلك المنطقة. وفي منتصف القرن العاشر الميلادي غزا التولتيك -وهم شعب جاء من الأراضي المرتفعة لوسط المكسيك- يوكاتان. وأسسوا إمبراطورية في المكسيك عاصمتها تولا، في شمال ما يعرف اليوم بمكسيكو سيتي، واستولوا على المدينة القديمة للمايا، تشيشن إيتزا، وحكموا جميع السكان في شمالي مايا. وأثر التولتيك في فن المايا وهندستهم، وأدخلوا عبادة الإله الثعبان المريش سموها كوكولكان. وانهارت العاصمة تولا في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وانتهى حكم التولتيك ليوكاتان في القرن الثالث عشر الميلادي.

وعقب نهاية حكم التولتيك شيدت مجموعة من زعماء المايا عاصمة في مايابان، وأعاد المايا بناء ثقافتهم من جديد، حيث شيدوا مسلات حملت نقوشاً. ومع ذلك، ظهرت تحولات في مجتمعهم. مثال ذلك: غلبت التجارة على المعتقدات الدينية التي كانت مهيمنة على ثقافة المايا. وأصبحت مدن المايا مراكز تجارية مزدهرة، وبدأ الناس يديرون التجارة بحرية ونشاط.

وحوالي سنة ١٤٤٠م ثار بعض زعماء مدن المايا على حكام مايابان وهزمهم. وبعد هذا أصبحت يوكاتان مقسمة إلى ولايتين. استولى الغزاة الإسبان على بلاد المايا في بداية القرن السادس عشر الميلادي، وحوالي منتصف القرن السادس عشر الميلادي، قضوا تقريباً على ما تبقى من المايا.

لا يعرف المؤرخون الكثير عن حكومة المايا. كل مدينة كانت تحكم المنطقة المحيطة بها، وربما كانت المدن الكبيرة تحكم عدداً من المدن الصغيرة. والغالب على الظن أن الحكام كانوا من رؤساء القبائل والرهبان، وربما كان هناك قائد كبير يحكم المدينة، ويجمع بين السلطتين السياسية والدينية. ولم يتفق المايا قط على تشكيل حكومة مركزية. ولكن في المراحل الأخيرة من حضارة المايا، كان لحكام المدن، مثل: شيشن إتر، و مايا بان سلطة على مجموعات كبيرة من السكان. عبد شعب المايا عدة آلهة وإلهات كغيرهم من شعوب ذلك العصر. وهناك مخطوط للمايا يذكر أكثر من ١٦٠ من هذه الآلهة. ومثال ذلك أن المايا عبدوا إلهاً للذرة اسمه أممون، وإلهاً للمطر عُرف باسم شاك، وإلهاً للشمس اسمه كنيش أهو، وإلهة للقمر اسمها إكسثيل. وكان كل إله يُرتجى على جزء من حياة المايا. فكانت إكسثيل مثلاً إلهة الطب والغزل.

أدى الدين دوراً كبيراً في الحياة اليومية للمايا. وكان لكل يوم في سنة المايا أهمية دينية خاصة، وكانت الاحتفالات الدينية تقام على شرف إلهتهم في أيام خاصة خلال السنة. وزعم المايا أن إلهتهم ذات قدرة على المساعدة والإيذاء. ومن أجل الحصول على مساعدة الآلهة، كان المايا يصومون ويصلون، ويقدمون القرابين وفق معتقداتهم، ويقومون احتفالات دينية عديدة. وكانت الأيائل، والكلاب، والديكة الرومية تُذبح قرابين للآلهة تقرباً وتضرعاً، وكان المايا غالباً ما يقدمون دماءهم التي كانوا ينشرونها على أجزاء من الورق المصنوع من لحاء (قلف) الأشجار. وقدم المايا بعض القرابين البشرية، مثل: إلقاء ضحايا في آبار عميقة أو قتلهم في ماتم القادة الكبار. وفي المدن بنى المايا أهرامات عالية من الأحجار الكبيرة، وأقاموا على رأسها معابد. وكان الكهنة يتسلقون درجات الأهرامات، ويقومون الشعائر الدينية في المعابد، وكانت الاحتفالات الدينية الكبرى التي تتعلق بالسنة الجديدة عند المايا من الطقوس المقدسة، وتقام لكل شهر احتفالات.

ويؤدى المايا شعائر خاصة عند دفن الموتى؛ فالحجث تُصبغ بالأحمر، وبعد ذلك تُعطى بحصير من التبن، ويوضع معها بعض الممتلكات الشخصية، ثم تُدفن تحت المنازل. بينما يدفن حكام المايا والشخصيات المهمة الأخرى مع حليهم النفيسة في الأهرامات. وكان الخدم يُقتلون ويدفنون معهم، إلى جانب المجوهرات وأدوات المنزل؛ لاستعمالها في العالم الآخر.

عاشت عائلات المايا مجتمعة، بما في ذلك الآباء، والأبناء، والأجداد. يسهم كل فرد من أفراد العائلة في العمل، فالأطفال الكبار، والرجال يقومون بالعمل الزراعي، مثل: إعداد الحقول، وتنقيتها من الأعشاب، وزراعة المحاصيل. كما عملوا أيضاً بجانب الزراعة في أعمال القنص، والصيد. وتقوم النساء، والبنات الشابات بإنتاج ملابس العائلة، وإعداد الطعام، وتربية الأطفال الصغار، وتزويد البيت بأخشاب الموقد والماء. ولم يكن للمايا مدارس، فالأطفال كانوا يتعلمون مهارات مختلفة من خلال ملاحظة الكبار، ومساعدتهم.

شكّلت الاحتفالات الدينية واحدة من أهم الأشكال المفضلة للترويح عند المايا. وأقيمت هذه المهرجانات في أيام خاصة خلال السنة. ويتخللها الرقص والأكل؛ وبالإضافة إلى هذا كان للمايا لعبة مقدسة تشبه كرة السلة تُلعب في ملاعب صُممت لها بصورة خاصة. وكان اللاعبون يحاولون ضرب كرة من المطاط من خلال دولا ب حجري بوساطة المرفق أو الخصر.

ومن أهم المنتجات والمحاصيل الزراعية التي اهتم بها المايا: الفاصولياء، والذرة، واليقطين. وشكلت الذرة الغذاء الرئيس للمايا، وهيات النساء الذرة الشامية بطرق مختلفة، حيث صنعن حلوى مسطحة من الذرة الشامية، تسمى اليوم تورتيلايس وهي تُعد نوعاً من الخبز.

استعمل المايا الذرة الشامية كذلك لإنتاج نوع من المشروب يسمى بالش الذي يضاف إليه العسل. وزرع المايا منتجات زراعية أخرى، مثل: الأفوكادو

والطماطم، والفلفل الحار. وهياً المزارعون حقولهم من خلال قطع الأشجار بالفؤوس الحجرية. وأحرقوا الأشجار والأغصان، وبعد ذلك استعملوا العصي لغرس البذور في الرماد، وبعد أن تصبح التربة ضعيفة، يعمل المزارعون على تهيئة أراض إضافية، ونقل حقولهم إلى مواقع جديدة، وكانت الكلاب هي الحيوانات الأليفة الوحيدة لدى المايا، وربوا الديكة الرومية، والنحل في حقولهم. واصطادوا الأيائل، والأرانب، وغيرها. وجمعوا القشريات من الأودية، والبحر. كما قطفوا الفواكه، والخضراوات من الريف.

استعمل الكهنة كذلك الرياضيات، وعلم الفلك لتطوير نوعين من التقويم؛ الأول: تقويم مقدس على حد قولهم يتكون من ٢٦٠ يوماً. وحمل كل يوم اسماً مع واحد من أسماء عشرين يوماً ورقماً من ١ إلى ١٣. وكان لكل اسم من العشرين يوماً إله أو إلهة مرتبطة به. وكان الكهنة يعتقدون أن باستطاعتهم التنبؤ بالخط السعيد أو السيئ بوساطة دراسة تركيب الآلهة أو الإلهات، والأرقام. وكان للمايا تقويم من ٣٦٥ يوماً مبني على مدار الأرض حول الشمس. وقسمت هذه الأيام على ١٨ شهراً باحتساب ٢٠ يوماً لكل شهر زائداً ٥ أيام عند نهاية السنة. وعداً المايا هذه الأيام الخمسة الأخيرة في السنة سيئة الحظ للغاية. وخلال هذه المدة كانوا يصومون، ويقدمون عدة قربانين، ويتجنبون أي عمل غير ضروري. واستعمل المايا الأعشاب، والسحر لمعالجة المرضى. وبالرغم من ذلك، لا يعرف العلماء إلا القليل عن معرفة المايا بالطب^(١).

(١) مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية، دمشق ٢٠٠٧، ط١، ج١٧، ص ٥٩٨-٦٠٠.

٢ - إمبراطورية الأزتك:

كانت تمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ، ومن هضبة المكسيك حتى نيكاراغوا. وكان الأزتك قد جاؤوا من الشمال في القرن الثالث عشر، وأنشؤوا مدينة في وسط المستنقعات، وفي المكان الذي شاهدوا فيه نسراً كبيراً يأكل حية ضخمة. فاعتقدوا أنها إشارة من ربهم "مكسيتلي" لوقف سيرهم، وبناء عاصمتهم التي ستحمل اسم مكسيكو. وسرعان ما تحددت القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية. وسادت قوانين الأزتك، وانتشرت آلهتهم في كل المنطقة. وتحدث الفلاسفة، وعلماء الآثار عن عادات الأزتك وما تركوه من قصور، ومعابد، وأهرامات. وعلمنا ألا ننسى وحشية الأهالي في هذا الإقليم، وهذا العصر. وذلك أن الأزتك كانوا يحبون الدماء، وكانوا يتركون للفرد حرية اختيار مستقبله، ولكن على أساس احتفاظ الدولة بحق التضحية به، وكما نرى، بمجرد أن تطلب الآلهة تقديم القرابين والأضحيات لها. وقام الأزتك بذبح عشرين ألف رجل، وبإحراق قلوبهم بعد انتزاعها من أجسادهم، كضحية لافتتاح معبد مكسيتلي. وكان الأزتك يسلخون بعض البنات -وهن أحياء- في احتفالات عودة فصول معينة من كل عام. أما المجتمع فكان أوليجاركياً في أول الأمر، وله مجلس شورى، وينتخب رئيسين مدى الحياة: الأول لإدارة الأمن، ولجمع الضرائب، والثاني لقيادة الجيش، ولإشراف على الكهنة. ثم تفوق الثاني وأصبح الرئيس الأوحده للبلاد، وكان ينتخب من أفراد أسرة معينة، وأصبح إمبراطورياً وراثياً. وكانت السلطة تمر بعد وفاته إلى أخيه، أو إلى أقرب أقربائه، من ناحية الأم^(١).

(١) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، المكتب

الجامعي الحديث، الإسكندرية، د. ت.، ج ٤، ص ٢١٠.

تألف مجتمع الأزتكَ من أربع طبقات رئيسة، هي: ١- طبقة النبلاء. ٢- طبقة العامة ٣- طبقة الأتباع ٤- طبقة العبيد. وعلى الرغم من هذا التقسيم الطبقي؛ فقد ارتبطت عائلات من طبقة النبلاء بعائلات من طبقة العامة بصلات قري وثيقة، وانتمت هذه العائلات كلها إلى مجموعات الكالبولي. وامتلك أفراد المجموعة مساحة من الأرض ملكاً مشتركاً. وكان يُسمح لكل عائلة أن تزرع قطعة كبيرة من الأرض تكفي لسد حاجاتها؛ وبالإضافة إلى أرض الكالبولي كان معظم النبلاء يمتلكون أراضي خاصة بهم أو أراضي كانوا قد حصلوا عليها من الحكومة لاستخدامها خلال شغلهم لمناصبهم الحكومية. وشكّل العامة غالبية السكان، وعاش عددٌ كبيرٌ منهم على زراعة أراضي الكالبولي. وعمل الأتباع في الأراضي التي يملكها النبلاء، وكانوا يستمرون فيها، وإن انتقلت ملكيتها إلى نبيل جديد. وكان العبيد يُعدّون ملكية خاصة، لكن أولادهم كانوا يولدون أحراراً. وكان عدد كبير من العبيد أسرى حرب، وعدد آخر اشتراه الأزتكَ من جماعات أخرى. وهناك عبيد استرقوا؛ لأنهم كانوا مجرمين أو أناساً عجزوا عن دفع ديونهم.

وكان للدين أهمية فائقة في حياة الأزتكَ. وكُرِس الناس معظم أوقاتهم للعبادة، حتى أنهم كانوا يشنون الحروب، بصورة رئيسة؛ بغية الحصول على أسرى يقدمونهم قرابين لآلهتهم. عبد الأزتكَ مئات من الآلهة. وكانوا يزعمون أن لكل واحد منها سيطرة على حركة أو أكثر من الحركات البشرية، أو على مظهر أو أكثر من مظاهر الطبيعة. ولما كان اقتصاد الأزتكَ يعتمد على الزراعة كان لشعبهم عدد كبير من الآلهة الزراعية، منها سنتيوتل للذرة، وتلانوك للمطر والخصب، وزايب توتك للربيع، وإحياء الأرض.

كان للأزتكَ الكثير من الطقوس الدينية، ويُقام أكثرها أهمية أيام الزراعة، والحصاد، ومناسبات أخرى خلال السنة الزراعية. وكان العديد من هذه الطقوس الدينية تهدف إلى ضمان محاصيل وفيرة حسبما كانوا يعتقدونه من عطف آلهتهم.

أدت القرايين البشرية دوراً أساسياً في معظم الطقوس الدينية. وكان الكهنة يشقون صدر الضحية الحية، وينتزعون منها القلب، إذ كانوا يعتقدون أن آلهتهم تحتاج إلى قلوب، ودماء بشرية كي تبقى قوية. وكان المتعبدون يأكلون -أحياناً- أجزاء من جسد الضحية. وربما كانوا يعتقدون أيضاً أن قوة الشخص الميت وشجاعته تنتقل إلى كل من يأكل لحمه. وكان معظم الضحايا من أسرى الحروب أو العبيد، ولكن الأزتك كانوا يضحون بأولادهم لإلههم تيالوك.

كان التقويم الديني عند الأزتك يتألف من ٢٦٠ يوماً. وقد استخدم الكهنة التقويم لتحديد أيام السعد للقيام ببعض الأعمال، مثل: بذر المحاصيل، وبناء البيوت، والخروج إلى الحرب. كما كان لهم تقويم شمسي يتألف من ٣٦٥ يوماً. وكان التقويم الأخير يتألف من ١٨ شهراً، وكل شهر يتألف من ٢٠ يوماً، علاوة على خمسة أيام إضافية.

كان الأزتك يقيمون احتفالاً كبيراً كل ٥٢ سنة، يُدعى ربط السنوات أو مهرجان النار الجديدة. وقبل بداية الاحتفال يطفئ الناس مواقد نيرانهم، ليشعل الكهنة ناراً جديدة فوق صدر أحد القرايين عند فجر دورة الـ ٥٢ سنة الجديدة. وكان الناس يقومون بوخز أنفسهم ليضيفوا دماءهم إلى القربان. ومن ثم يشعلون من هذه النار الجديدة نيران مواقدهم ثانية، ثم يحتفلون^(١).

وكان الأزتك يعرفون الذهب والرصاص والبرونز، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد، وكانت تجارتهم بدائية تعتمد على المبادلة والمقايضة، أو تستخدم بعض قطع القصدير أو النحاس، أو كمية من التبر (الذهب) في أنابيب من ريش الطيور، كعملة بدائية. وكانوا لا يعرفون العجلات أو الخيول أو أي دابة من دواب الحمل، فكان الحمالون يحملون كل ما يرغبون في نقله، ويسيرونها في ممرات صغيرة

(١) الموسوعة العربية، ج ٢، ص ٥-٧.

وضيقة، شقها المساجين وسط الجبال أو الغابات، وكانت الممرات نفسها هي الطرق الوحيدة الموجودة في ذلك العصر، والتي كان يستخدمها كل من الحجاج والحملات العسكرية. وكان الحج إجبارياً، كما كان يسمح بالإشراف على استبعاد القبائل المهزومة. وأما الحملات العسكرية، فكانت تسهل تمويل المعابد بالضحايا البشرية اللازمة لإرضاء الآلهة، وكانت الإمبراطورية تنقسم إلى عدد من الأقاليم، يتمتع كل منها بالاستقلال الذاتي، سواء في الشؤون الإدارية أو السياسية، ولكنه كان يرسل كمية معينة من الضرائب العينية، من: ملابس، وحبوب، وفواكه، ونسور حية، وعقود من الذهب، كما كان يرسل عدداً معيناً من الرجال للخدمة في جيوش الحكومة الإمبراطورية. ولقد عاشت إمبراطورية الأزتك منطوية على نفسها، ولم تتصل بإمبراطورية الأنكا التي نمت إلى الجنوب، لاسيما وأن الجبال والبحار والمستنقعات والغابات والمحميات كانت تفصل بينهما^(١).

٣ - إمبراطورية الأنكا:

كانت قد أنشأت في الأقاليم الاستوائية من أمريكا اللاتينية في بداية القرن الحادي عشر، وأصبحت تمثل تجربة تاريخية مهمة لإقامة حكومة تعتمد على التوجيه، وعلى التخطيط؛ ولخلق مجتمع منظم وسط للفوضى؛ وفرض نظام جماعي لشعوب متباينة تضم المزارعين والرعاة. ولقد تمكن أحد رؤساء قبيلة الأنكا من السيطرة على الإقطاعيين، ومن توحيد الهنود الحمر، ثم واصل خلفاؤه عملية مركزية الحكم من بعده، وضموا أراضي السادة، وعملوا على مد الإمبراطورية على طول سواحل المحيط الهادئ، بشكل جعل من الهنود رعايا للأنكا.

(١) جلال يحيى: المرجع نفسه، ص ٢١١.

وكان الأنكا الأعظم هو رأس التشكيل السياسي لهذه الدولة، ويعتقد أنه من سلالة الشمس، ويمثلها على الأرض. وكان يسيطر على رؤساء القبائل أو الكاباك الذين يشرفون بدورهم على رؤساء الجماعات والموظفين المسؤولين. وكانت مجموعات الأنكا وجماعاتهم تشتمل على عشرة أو خمسين أو مئة أو خمسمئة ، أو ألف رجل، ثم على وحدات أخرى أكبر من عشرة آلاف ومئة ألف. وكان كل شيء يبدأ من الأنكا، وكان كل شيء ينتهي إليه. وكانت الإدارة متدرجة متسلسلة، ومتخصصة، وكان اختيار الضباط والمديرين وكبار الموظفين يقع بين الكاباك، ثم يتبع ذلك اختيار الضباط وأصحاب الحوانيت، ويقوم رئيس وحدة العشرة بأعمال الأمن العادية. أما الأراضي فكانت ملكاً للأنكا، كما كانت في مصر القديمة ملكاً لفرعون، وكان على الأهالي زراعتها، على أن يقسموا المحصول إلى ثلاثة أقسام: الأول للشمس؛ أي: للكهنة، والثاني للدولة؛ أي: للعجزة، والأرامل، والأيتام، والثالث للمجتمع، ويقسم بين الأسر الموجودة.

وكان العمل إجبارياً، كما كان تنظيم أوقات الفراغ إجبارياً كذلك، وبشكل لا يترك للفردية أي مجال، وكان الإنتاج يُحفظ في مخازن عامة، كما كان الاستهلاك محدداً ومخططاً. وكانت المساكن متشابهة، وكذلك الوجبات، من الذرة والبطاطا. وكان النظام دقيقاً والعقوبات صارمة، وكان هناك تحديد لعدد الملابس، ولأوقات تناول الطعام، وتحديد لأماكن الإقامة، ولساعات اللهو والفراغ. وأدى هذا التخطيط إلى تقليل الشخصية والفردية، وإلى زيادة الطاعة والسلبية.

وكان الأهالي يعرفون صهر النحاس، وتشكيل البرونز، ونسج الصوف، وبناء القصور، والمعابد، والحصون، ولكنهم كانوا يجهلون الحديد، والعجلات، والكتابة. ونجح النظام الشيوعي (أو المشاعي) عند الأنكا، وضمن للأهالي حاجاتهم الضرورية، ومنع عنهم أخطار المجاعات. ورأى بعض المؤرخين أن هذه الإدارة

الجماعية كانت كل شيء، وقضت على كل شيء فيما عداها، وحتى على الإنسان الذي أصبح يمتاز بالكسل والخمول العقلي، ويرفض التغيير والتعديل.

والواقع أن إمبراطورية الأنكا قد أخضعت غيرها في الوقت الذي زادت فيها سلطات رأس دولتها على السلطات التي يتمتع بها رئيس أي دولة شيوعية. وكانت الإمبراطورية تهضم كل إقليم تستولي عليه، وتخضعه لها، ولكنها تترك له آلهته، في الوقت نفسه تحاول فيه إدخال ديانتها، وعبادة الشمس فيه. وكان الموظفون يعملون على تطبيق قوانين الإمبراطورية في هذه الأقاليم، كما كانوا يعملون على نقل الأسر والقبائل غير الخاضعة من منطقة إلى أخرى، حتى يصلوا إلى كسر شوكتها وإذابتها في النطاق الجماعي. وقدّر العلماء عدد سكان إمبراطورية الأنكا بأثني عشر مليوناً، وهو عدد يقارب عدد سكان إمبراطورية الأزتك^(١).

أما بقية القارة فكان يعيش فيها بضعة ملايين آخرين؛ موزعين بدون حكومات ومن دون حضارات مهمة، وازدهرت الحياة المستقرة في المنطقة المدارية حيث كانت الأمطار تساعد على نمو النباتات، والذرة تنبت بالأمطار وبدون زراعة. وكانت معظم القبائل الأخرى شبه مرتحلة، أو تعمل بالرعي أو الصيد. وكانت هناك بعض مجالس الشيوخ أو الحكماء لإدارة قبائل سكان البميا وغابات الأمازون ومراعي الشمال، وكانت هذه القبائل تعبد أصناماً معينة أو أنواعاً من الحيوانات، وكانت تأكل لحم الجاموس البري، وتذخن الطباقي^(٢)، وتعتبر الأنهار في قوارب تتحتها من جذوع الأشجار، كما كانت تستخدم القوس والسهم. وكان الهنود الحمر بصفة عامة لا يتورعون عن قطع رؤوس أعدائهم بعد الانتصار عليهم،

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٢١١-٢١٤.

(٢) الطباقي: يصنع التبغ من أوراق نبات الطباقي، ويعتقد أن أول الشعوب التي قامت بتدخينه هي شعوب المايا، وقد نقله كريستوف كولومبس إلى أوروبا عندما اكتشف القارة الأمريكية عام

ويجمعون هذه الرؤوس أو يعلقونها. وروى كولومبس نفسه أنه رأى بعض بقايا جسم بشري تطهى في قدر على النار، واستند في ذلك إلى أن الهنود الحمر كانوا يأكلون لحم البشر في الوقت نفسه يأكلون لحوم البيغاوات.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل كانت روايات الإسبان عن هذه الحضارات السابقة لهم روايات حقيقية علمية؟ وهل كان من حقهم أن يفرضوا حضارتهم، وطريقة معيشتهم على غيرهم بالقوة؟ وهل كان من حقهم نهب موارد الأقاليم وذهبها وإرساله إلى أوروبا؟

إذا كان في وسع الإسبان أن يصلوا إلى العالم الجديد، ومهما انتصفوا به من القسوة والتحكم، فإنهم كانوا يحملون للأهالي في العالم الجديد وسائل حياة، ونظم تسمح لهم بتحسين حالهم. فقد كانت الحضارات السابقة لكولومبس، وحتى المتفرعة منها متأخرة عن حضارة أوروبا في ذلك الوقت بألفي سنة: وإذا كان الأرتك يسلخون القرابين البشرية؛ والأنكا تنخفض بمستواهم إلى الكسل والسلبية، وتقوم قبائل البراري بأكلهم، فلا يمكننا إلا أن نرى تقدماً واضحاً مع مجيء الإسبان، الذين نزلوا بمستوى كل الهنود الحمر إلى مستوى العبودية.

وإذا رضي الأهالي أو ثاروا، فقد كان عليهم أن يخضعوا لحكم الغزاة؛ إذ لم تكن لديهم الوسائل الكافية للصمود أمامهم، أو للدفاع عن أنفسهم. فقد كان الإسبان مزودين بالخيول، ومهروا في ركوبها حتى أصبح الفارس، وكأنه مربوط بفرسه، وكانوا مزودين بالبارود الذي يقتل عن بعد، ويرعد مثل البراكين ويجعل الأهالي ينظرون إليهم كآلهة. لقد تفتحت أمريكا للغزو الإسباني بسهولة، وكان ساحلها الشرقي ممتلئاً بآلاف الخلجان، وآلاف المصبات، والأنهر الصغيرة. وإذا كانت أوروبا قد نظرت إلى العالم الجديد كعقبة في سبيل الوصول إلى الهند، فإن

هذه النظرة لا تمنع من كون أمريكا عقبة سهلة؛ بل ومحطة متوسطة يمكن عبورها، والوصول منها، وبها إلى الهند^(١).



(١) - جلال يحيى، المرجع نفسه، ص ٢١٤.



الفصل الثاني

الغزو والكشف الأوروبي للقارة (١٤٩٢م-١٥٢٢م)



مقدمة:

مما لا شك فيه أن معول عصر النهضة الأوروبية قد حطم نظام العصر الوسيط، وهدم أسس النظام الإقطاعي في أوروبا. لقد جاء عصر النهضة الأوروبية بمدلولات واسعة ضمت كل التغيرات التي طرأت على المجتمع الأوروبي في نظمه: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، والتعليمية، والفنية. وأوجد بذلك ظروفاً حضارية، وتاريخية متميزة عن الظروف التاريخية، والحضارية الخاصة بعصر الإقطاع الأوروبي.

لقد برزت مظاهر عدة رئيسة في عصر النهضة الأوروبية كان من أهمها قيام حركة الكشوف الجغرافية الأوروبية، أو ما نسميه بحركة الملاحة البحرية في بلاد أوروبا الغربية. وقد نشطت هذه الحركة ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، ثم تطورت في القرون: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر الميلادي، وبلغت أوجها في القرن السادس عشر الميلادي. وكان من أهم أسباب هذا الاندفاع الأوروبي الاستعماري في إفريقية، وآسيا، والعالم الجديد التعصب الديني الصليبي الذي كان سبباً رئيساً من أسباب حركة التوسع الأوروبي خارج القارة الأوروبية.

وكانت النزعة المادية، والتعطش الشديد للربح التجاري، واستغلال المواد الخام على اختلاف أنواعها، ومصادرها سبباً رئيساً من أسباب قيام هذه الحركة التي تعد في مفهومها الأوسع حركة استعمارية أوروبية جامحة^(١).

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة: تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، دار المريخ-الرياض، ١٩٨٧. ص ١٣-١٤.

أولاً- اكتشاف أمريكا قبل كولومبس:

ثمة عناصر وأحداث شتى في تاريخ العالم القديم وأساطيره تلقي بظلالها على شهرة كولومبس الاكتشافية. وبما أنه وُجد كثيرٌ من التناقضات في تاريخ حضارة أمريكا، واكتُشفت آثارٌ لزوارٍ من العصر القديم في أمريكا ما قبل كولومبس فإنَّ علم الأمريكيات (التاريخ الأمريكي) مازال منشغلاً بالنقاش الآخذ مجراه بحدةٍ للإجابة عن السؤال متعددٍ المناحي العلميَّة: هل الثقافة الأمريكية نابعةٌ من ذاتها أو إنَّها متأثرةٌ بالغرباء؟.

في هذا النزاع يقف المدافعون والخصوم بعضهم من بعض موقف العداء موقفاً لا يقبل المهادنة، قلَّ ذلك أم كثر. فالمدافعون يعتمدون دائماً وباستمرار على الهجرات عبر طريق البيرنج، وعلى التقارب عندما يضطرون لإيجاد شرح المتطابقات الواضحة والكثيرة بين العالم القديم والجديد. ونظرة التقارب تشتق الحلول ذاتها في المواقف الحياتية الإنسانية المعنوية ومن الطبيعة الفكرية نفسها. وعلى النقيض من ذلك يعرض الخصوم التنويه إلى طريق البيرنج^(١) "Bering" بصورةٍ نسبية؛ لأنَّهم لا يرونه ذا أهميةٍ إلا في عصر ما قبل التاريخ، بينما تشير المتوازيات التي جرت عبر الأطلسي إلى اتصالاتٍ تمت في العصر الحديث. والحق لا يعدُّ هذا الرأي جديداً، فقد أبدى الأوروبيون - بعيد الاكتشاف أو بالأحرى

(١)- مضيق بيرنج: مضيق يربط بين المحيط المتجمد الشمالي مع بحر بيرنج، ويفصل بين قارتي آسيا وأمريكا الشمالية في أقرب نقطة لها. اكتشفه فيتوس يوهانسن بيرنج (١٦٨١م - ١٧٤١م) رحالة بحري، وضابط في الجيش الروسي، والريان البحري ترأس البعثتين الجغرافيتين العلميتين في شبه جزيرة كامتشاتكا، وبلغ ساحل شمال أمريكا، واكتشف عدداً من جزر ألويوت. وقد أطلق اسم بيرنج على جزيرة، ومضيق، وبحر.

الغزو الذي قام به الإسبان - استغرابهم من وجود أفارقة سود في أمريكا، وهذا يقوّي الاعتقاد بأن كولومبس لم يكن أوّل زائر لأمريكا في العصر القديم^(١).

وعلى أية حال، فهناك نظريات معاصرة عدّة تناولت مسألة بلوغ القارة الأمريكية أكّدت على أنّ حضارات مختلفة تحدّثت عن القارة الأمريكية، أو أشارت إليها بشكل أو بآخر. وقد ذهبت بعض تلك النظريات إلى أنّ الهجرة إلى القارة لم تتمّ عبر مضيق بيرينغ، وهي نقطة العبور التي تربط أمريكا الشمالية بآسيا من جهة القطب الشمالي، وهذا ما أكّده الأبحاث التي قامت بها عالمة الآثار البريطانية نيد غيدون "Ned Gideon"، فقد رأت أنّ الشعوب القديمة وصلت إلى أمريكا من عدّة جهات عبر البحر؛ خاصةً وأنّها كانت تعرف قوانين الملاحة اللازمة، وتمتلك القوارب الكفيلة بالوصول إلى هناك.

فقد كان الإغريق سبّاقين في هذا المجال لكثرة كتاباتهم وما تبقى من هذه الكتابات التي شكّلت ميراثاً مهماً لحضارات الشعوب الأخرى. فقد كتب أفلاطون "حوار طيماوس" سنة ٣٨٠ ق.م. وذكر أنّ جدّه كريتياس حظي بمخطوط للمشرع الكبير صولون، دُوّنت فيه أخبارٌ مهمّةٌ عن تاريخ بلدانٍ عديدةٍ وجغرافيتها، فيقول كريتياس: إنّ العلماء المصريين أوضحوا له موقع أطلنطا وتاريخها التي غرقت نهائياً في المحيط الأطلسي بعد أن قوّض أركانها زلزالٌ قويّ. ويتكلّم أيضاً عن وجود جزر الأنتيل في الأطلسي، وأراضٍ واسعة الأرجاء بعيداً جداً ما وراءه. وهذه

(١) هاينكه زودهوف: معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، تعريب حسين عمران، مكتبة العبيكات، الرياض ٢٠٠١، ص ٢٧-٢٨.

الأرض الثابتة هي قارةٌ حقيقية^(١). ومنذ تلك الأيام سمّي البحر الكبير الممتدّ حول أوروبا وإفريقية بالمحيط الأطلسي^(٢).

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحدّ، فهناك حضاراتٌ قديمةٌ وعريقةٌ أخرى تحدّثت عن الوصول إلى القارة الأمريكية، ومن تلك الحضارات التي لا يمكن إغفالها الحضارة الفرعونية التي دامت أكثر من خمسة آلاف سنة، وبلغت مراحل متقدّمة جداً في المجالات المختلفة ولاسيّما في مجالات الملاحة. فهناك عدّة دراسات واجتهادات تتحدّث عن وجود آثار الحضارة الفرعونية ومعالمها في القارة الأمريكية.

وكذلك يمكن أن نتحدّث عن الجانب اللغويّ في وسط القارة على وجه الخصوص، فقد دُوّن كتابُ المايا المقدّس "البو بول بو" برسوم وصور تحاكي تلك الرسوم المعتمدة في اللوحات الفرعونية القديمة، كما يمكن أن نجري مقارنةً بين المفاهيم الهندية القديمة، والمفاهيم الفرعونية، ولا نتحدّث هنا عن مقارنةٍ دقيقةٍ بل عن بعض التشابه بين الحضارتين من حيث المفاهيم القديمة (الغيبيات، العالم الآخر، والبنية الاجتماعية، وألوهية الملك والحاكم، إلخ...).

كما نستطيع التحدّث عن المباني الضخمة التي كانت تقام في بعض المناطق الأمريكية، لاسيّما مناطق أمريكا الوسطى والمكسيك؛ تلك المباني الهائلة المشابهة للأهرامات، وهي تسمّى أيضاً (الأهرامات) على الرغم من وجود

(١) نبيل خليل خليل: أمريكا بين الهند والعرب، دار الفارابي، بيروت، لبنان، طبعة ثانية،

٢٠٠٦م، ص ١٨-١٩.

(٢) Le Vicomte H..Onffroy de thoron. L'Amérique Equatoriale. Son Histoire pittoresque et politique, Paris 1866, p. XT.

اختلافاتٍ نسبيةً في هيكلها واستعمالها. فهذا كله يوحي باحتمالات وصول الفراعنة إلى هناك^(١).

ويتفق هذا الوصف مع ما أورده أرسطو في كتاب "المنطقة المجهولة" الذي يتحدث فيه عن مدن فردوسية الجمال، بغاباتها وثمارها تقع في الغرب البعيد، أنهارها صالحة لاستخدام السفن، فيها جبالٌ عالية. ومن المعروف عن أرسطو أنه لم يكن خيالياً، ولهذا يمكن القول: إن أرسطو كان يعكس في وصفه الواقع العلمي الدقيق لعصره، ثم إنه ليس من الضروري التمسك بتعبير جزيرة؛ فمن الطبيعي ألا يخطر في ذهن بحار يرى من بعيدٍ عند الأفق أرضاً مجهولةً أن تكون تلك الأرض قارة؛ بل إن أكثر ما يتبادر إلى ذهنه مصطلح "الجزيرة".

ويشير المؤرخ ديودوروس سيكولوس إلى أن الفينيقيين "أخبروا كل العالم عن هذه الجزر بعد أن تعرفوا إلى جمال وخصوبة البلاد المجهولة"^(٢).

وحول هذه الجزر كتب تيوبومبوس أحد أشهر مؤرخي القرن الرابع قبل الميلاد، عن "وجود جزرٍ عظيمةٍ ما وراء العالم المعروف في مكان ما في الأطلسي". وكذلك ذكر كلاديوس في القرن الثاني الميلادي جزراً لها علاقة مع قادش الميناء المثالي للانطلاق إلى هذا الهدف الثاني. وكذلك تحدث منستوس آفينيو أحد أهم المؤرخين في القرن الرابع الميلادي عن رحلة بحريةٍ استغرقت أربعة أشهر قام بها الأدميرال ميلكو "Melco" وصل بعدها إلى جزر سورلينجا غير المحددة جغرافياً.

ومن خلال استعراض هذه النصوص القديمة يتبين لنا أن بحارة العصر القديم قد استطاعوا عبور الأطلسي، والدليل الأكبر على ذلك: أن بحارة العصر

(١) نبيل خليل خليل: المرجع نفسه، ص ١٩-٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٨-٤٠.

القديم كانوا يخشون "بحر الظلمات"، البحر المرعب ذو الأعشاب البحرية اللزجة التي تطفوا فوق الأمواج، وتثبت السفن كأذرع التقاط. فهذا الوصف ينقله إلينا العلماء المعاصرون للبحارة الأوائل. فهل هذا من التخيّلات التي لا تصدق ولا يعول عليها، والتي نتهّم بها أسلافنا؟ بالطبع "لا" فمثل هذا البحر موجود في الواقع، إنّه موجود في الأطلسي إلى الجنوب من جزر برمودا، ويحمل اسم "بحر سارجاسو" نسبة لنوع "سارجاسوم باسيغيروم".

فقد كان بحر سارجاسو على الدوام كابوساً ثقيلاً لكل البحارة. فإذا غرضنا الطرف عن أعشاب البحر المعوقة، لا بل الخطرة لبعض أنواع السفن، فقد كانت هناك فترات محدّدة تسكن فيها الريح؛ ممّا حدا بالبحارة إلى تجنّب هذه المنطقة قدر المستطاع، ولم يكن بمقدورهم فعل ذلك دائماً. وهذا ما ذكره كولومبوس في كتاب يومياته مؤكداً الرعب الذي سببه بحر سارجاسو لفريق بحارته.

وتدلّ معرفة بحارة العصر القديم ببحر سارجاسو إلى أيّ مدى توغّلوا باتجاه الغرب. وهو موجود، بحسب ما يراه بحارّ متوسطيّ أمام أمريكا مباشرة. ولو أنّ سفينة من العصر القديم منطلقة من البحر المتوسط وصلت لأوّل مرّة إلى بحر سارجاسو لما تبقّى إلّا مسافة قصيرة تقطعها للوصول إلى تلك الشواطئ التي توجّه إليها كولومبوس بعد أكثر من ثلاثة آلاف عام^(١).

وتشير الدراسات التاريخية إلى أن الأوروبيين كانوا قد اتصلوا بالقارة الأمريكية الشمالية منذ عام ٩٨٥م عندما كان بعض السكان الإسكندنافيين يجوبون البحار الشمالية، فوصلوا إلى شواطئ أمريكا الشمالية ومنها اتجهوا إلى الغرب. وقد نزل البحار ليف إركسون "Leif Ericsoon" الأرض الأمريكية الشمالية أو ما تسمى اليوم بالولايات المتحدة الأمريكية في حوالي عام ١٠٠٠م.

(١) هيريدوت: مرجع سابق، ص ٤٠-٤٤.

ومن الثابت أن الأوروبيين الذين وصلوا إلى أمريكا الشمالية لم يستطيعوا الاستقرار هناك، ولم يتركوا كتابات أو سجلات تاريخية تعبر عن وجودهم. وظل جهدهم ضائعاً لا يوجد دليل ملموس عليه. وتشتت هذا الجهد خاصة عندما لم يحالفه البقاء والاستقرار في هذه المناطق. وظل هذا الجهد خيراً وحديثاً يروى عن طريق الروايات القابلة للشك لا عن طريق الآثار التي تدعم الحادث التاريخي وتركزه^١.

^١ عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٩-١٠.

ثانياً - حقيقة اكتشاف العرب والمسلمين لأمريكا:

لقد تأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن العرب والمسلمين قد عرفوا أمريكا والعالم الجديد منذ أمدٍ بعيد، والأدلة الوثائقية على ذلك باتت جاهزة وواضحة. وسأسلسل هذه الحقيقة مع ذكر دلائل أخرى متفرقة، وكل ذلك يصب في بوتقة أسبقية العرب والمسلمين في كشف هذا العالم الجديد.

١ - الفينيقيون وأمريكا:

وكذلك استطاع الفينيقيون تأسيس عددٍ من المدن الساحلية الاستعمارية مثل: (مفيس وقبرص، وأوتسيكا في شمال إفريقية) كما استطاعوا تأسيس قادش في القرن الثاني عشر قبل الميلاد التي امتازت بوقوعها في ممر جبل طارق، وهذا يدل على تجرؤ الفينيقيين على التوجه نحو الأطلسي. ومن المعروف أن قرطاجة كانت تعدّ أهم مدينة مستعمرة فينيقية، فقد كانت مهياًة من خلال موقعها المركزي في تونس على ساحل شمال إفريقية لتتبوأ مركزاً مهيماً ضمن مدن المتوسط التجارية. وبعد أن تأسست قرطاجة كإحدى مدن المتوسط، ارتبطت أولاً ولعدة قرون بعلاقة صلبة مع المدينة الأم الواقعة على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط. غير أن هذا الوضع تبدل في القرن السادس قبل الميلاد، عندما تمكنت قرطاجة من انتزاع السيطرة بسبب تغير الأوضاع السياسية في الساحل الشرقي نتيجة الغزو البابلي للمدن الفينيقية، وفرض الحصار على عاصمتهم صور، وتمكن الفينيقيون من الهروب من المدن المحاصرة باتجاه جزر الغرب النائية عن طريق قرطاجة. ولكن القرطاجيين حاولوا منع سكان المدينة الأم المهمومة من تأسيس مستعمرة في الغرب النائي. وعلى هذا الأساس ولتأكيد هذا المنع وإقامة حاجز لمنع هروب اللاجئين الفينيقيين أغلقت قرطاجة في عام ٥٤٠ قبل الميلاد ممر جبل طارق تجاه

كل السفن الأجنبية. وهكذا ظل هدف الهروب "الجزر النائية" مفتوحاً أمام القرطاجيين لسنوات عدة^(١).

ونتيجةً للتفوق البحري الفينيقي، فقد كلّف الفرعون المصري نيشو (نخاو الثاني) عام ٦٠ ق.م الفينيقيين بالإبحار في أسطول من السفن للالتفاف حول القارة الإفريقية منطلقين من البحر الأحمر عبر ممر جبل طارق، على أن يعودوا بأسرع ما يمكن إلى مصر ثانية، وكما يذكر هيرودوت، فقد احتاج الفينيقيون لهذه الرحلة سنتين كاملتين؛ لأنهم قطعوا رحلتهم مرات عدة لكي يزرعوا القمح على شواطئ إفريقية، وبهذا يكون القمح زادهم في الرحلة التالية. وقد اقتبس هيرودوت جزءاً كبيراً من التفاصيل التي ذكرها حول هذه الرحلة من كتاب "أسفار فينيقي" وعلى الرغم من عدم قناعته بما كُتب في هذا الكتاب، فقد اقتبس منه الآتي: "عندما أبحرت السفينة حول الرأس الجنوبي لإفريقية رأينا الشمس ظهراً على ناحية اليمين"^(٢). ولم يكن بمقدور هيرودوت كإنسان يعيش في النصف الشمالي من الكرة الأرضية أن يتصور بأن الشمس تقف في نصف الكرة الجنوبي، أي في رأس إفريقية الجنوبي، وأنه عند الإبحار باتجاه مسار الشرق-الغربي تبدو الشمس فعلاً من موقع قيادة السفينة كما لو أنها يجب أن تسطح غرباً.

وبعد بضعة عقود تمكن القاضي القرطاجي هانو من الإبحار حول إفريقية في الاتجاه المعاكس. فقد شرع برحلة تحوي ستين مجدافاً لكي يؤسس على طول الساحل الغربي لإفريقية مستعمرات جديدة للفينيقيين، وحافظت آثار هؤلاء المستوطنين الفينيقيين على نفسها في الشاطئ الإفريقي الغربي مدة أطول من

(١) هاينكه زودهوف: المرجع نفسه، ص ٣٥-٣٧.

(٢) هيرودوت: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبوظبي ٢٠٠١، ص

سلطة الفينيقيين على الساحل الشرقي. وفي القرن الأول ذكر المؤرخ الإغريقي سترابون أنه كان يتمّ التحدّث باللغة الفينيقية في الشاطئ الغربي الإفريقي على الرغم من أنّ السكّان هناك كانوا من الأفارقة السّود. وكان الفينيقيون أنفسهم قد هربوا قبل مدّة طويلة باتجاه الغرب كي يستقروا في الجزر النائية، وقد استغرقت تلك الرحلة ثلاثين يوماً من الإبحار. هذا ما يدلي به سترابون الذي يقتبس من الأفارقة أقوالهم الدّالة على منطقة نائية تقع في الغرب التي لم يعرفوا عنها شيئاً سوى الأحاديث.

أثبت العديد من الباحثين وصول الفينيقيين إلى أمريكا الجنوبية، وأنهم استعانوا على ذلك بمهندسين مصريين، ومن بين هؤلاء العالم النمساوي (شونهاغن) الذي يقول: «إن الفينيقيين وصلوا لسواحل البرازيل حوالي سنة ١١٠٠ ق.م، ويعتقد آخرون بوصولهم سنة ٩٥٠ ق.م»، ومن الأدلة التي يستند إليها القائلون بوصول الفينيقيين إلى البرازيل ما عثر عليه في شمال شرق البرازيل، حيث اكتشف بعض العمال لوحة صخرية من أربع قطع سنة ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م، حفر عليها كتابات غريبة.

وتوصل العلماء إلى أن هذه الكتابة الغريبة هي كتابة فينيقية، وترجموها على النحو التالي: «نحن أبناء كنعان من صيدون، مدينة الملك، هي التجارة التي أوصلتنا إلى هذا الساحل البعيد، أرض الجبال، ولقد قدمنا في ذبيحة للآلهة والآلهات في السنة التاسعة عشرة لحيرام ملكنا العظيم، أقلعنا من عصيون جابر (إيلات حالياً) في البحر الأحمر بقافلة من عشرة مراكب، كنا معاً في البحر سنتين كاملتين حول أرض حام (إفريقيا) لكن عاصفة من يد بعل فرقتنا، ولذلك انفصلنا عن مرافقينا، وهكذا جنّا إلى هنا، ونحن اثنا عشر رجلاً وثلاث نساء، إلى ساحل جديد أشرف عليه أنا الأميرال، ونرجو من الآلهة أن يوفروا لنا النعيم».

وأشار العالم (بليني) إلى رحلة لفينيقي آخر هو (هيميلكو) الذي وصل إلى (كورنول) جنوب غرب بريطانيا ، وذلك للبحث عن القصدير ، ومن الباحثين من رأى أن تسمية ميناء (بلتيمور) البريطاني مكونة من مقطعين هما (بعل تيمور) أي مكان أو معبد الإله الفينيقي (بعل).

كما قد نشر (لودفيكو شونهاغن) عدة مقالات في مدينة ساوباولو فيما بين عامي ١٣٤٧ . ١٣٤٨ هـ = ١٩٢٨ . ١٩٢٩ م عن تاريخ البرازيل القديم، وأورد بعض الرسوم التي عُثر عليها هناك، وقال إنها تشير إلى المناجم التي استثمرها الفينيقيون في البرازيل، ومن هذه الرسوم خريطة طولها (١٢ متراً) كتب عليها رموز خاصة^(١).

ومن العوامل الجغرافية التي ساعدت على اتجاه الفينيقيين إلى البحر: وجود البحر المتوسط ووجود الكتل الجبلية إلى الشرق وهي تعوق اتصالهم بمن يجاورهم، ووجود خشب الأرز الذي صنعوا منه سفنهم، وموقع بلادهم حيث أحاطت بلادهم دول قوية، الحثيون في الشمال، والفلسطينيون في الجنوب، والآراميون في الشرق، كما أن صفاء سماء بلادهم ساعدهم على معرفة النجوم والاستعانة بالنجم القطبي في أسفارهم، وجذبهم للملاحة عمق المياه المجاورة لسواحلهم، وفي الوقت نفسه كانت الطرق البرية تحت سيطرة الأمم القوية، وخصوصاً الطريق الذي يربط بين بابل ومصر على طول وادي الفرات، ثم الهبوط إلى وادي العاصي، بين سلسلتي جبال لبنان ثم افتراق أرض فلسطين ومن هنا اتجه الفينيقيون إلى البحر^(٢).

(١) إميل إده: الفينيقيون واكتشاف أمريكا، دار النهار، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٦٨، ٦٩. محمد محمددين: الجغرافيا والجغرافيون، دار العلوم للطباعة، ص ٦٠، ٦٢، ٦٣. وانظر مجلة الفيصل: (عدد ١٧٩) عام ١٩٩١م، ص ٩٨.

(٢) محمد محمددين: الجغرافيا والجغرافيون، ص ٥٧، ٥٨. إده: الفينيقيون واكتشاف أمريكا، ص ٩٨.

٢ - المسعودي وخصخاش القرطبي:

يخبرنا المؤرخ الكبير المسعودي (ت ٣٤٦ هـ = ٩٥٧م) في كتابه الشهير «مروج الذهب ومعادن الجوهر» بقصة شاب أندلسي قرطبي هو خصخاش بن سعيد بن أسود، وبصحبه عدد من فتيان قرطبة، بأنهم استقلوا مراكب مناسبة للرحلة وتوغلوا بها في المحيط غرباً سنة ٢٧٦ هـ = ٨٨٩م، ثم عادوا سالمين غانمين غنائم كثيرة. والفتى خصخاش هذا هو الذي تولى قيادة الأسطول العربي الأندلسي أثناء تعرض سواحل الأندلس إلى غارات بحرية شنها الأسطول النورماندي (الفايكنج)، وقد استبسل خصخاش في مجاهدة النورمانديين حتى سقط شهيداً.

واليك نص المسعودي عن تلك الرحلة الأندلسية في معرض حديثه عن بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) يقول: «وله أخبار عجيبة ... أخبار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه، ومن نجا منهم، ومن تلف، وما شاهدوا منه وما رأوا، وأن منهم رجلاً من أهل الأندلس يقال له خصخاش، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها، فجمع جماعة من أحداثها وركب بهم مراكب استعدادها في هذا البحر المحيط، فغاب فيه مدة ثم انتفى بغنائم واسعة، وخبره مشهور عند أهل الأندلس»^(١).

٣ - الإدريسي والشباب المغررين:

ويروي لنا الإدريسي (ت ٥٦٠ هـ = ١١٦٦م) أيضاً في رائعته كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» قصة مغامرين مخاطرين شجعان سَمَاهم (الشباب المغررين) وهم عصابة من الشباب تتألف من ثمانية رجال، كلهم أبناء عم من

(١) علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح قاسم الرافعي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ج١، ص١١٥.

مدينة الأشبونة (لشبونة عاصمة البرتغال اليوم) قاموا ببناء مركب بحري مناسب لرحلتهم الطويلة، وأبحروا في بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) في القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي، وكان هدفهم الرئيس الاكتشاف ومعرفة ما في هذا البحر من الأخبار والعجائب.

وبالفعل فقد وصلوا إلى نهاية بحر الظلمات بعد مسيرة بحرية استغرقت حوالي الشهر، عندما لاحت لهم جزيرة وجدوا فيها عمارة وحرثاً، وما إن نزلوا حتى حوصروا فيها، وقابلوا ملكها في اليوم الرابع من الحصار، وكلموه بواسطة مترجم عربي يعيش في الجزيرة، ثم عادوا بواسطة مساعدة ملك هذه البلاد.

وأكد العلماء أن هؤلاء الفتية وصلوا من خلال رحلتهم هذه إلى شاطئ إحدى جزر أمريكا الجنوبية، ولكن العجيب والمثير للاستغراب وجود عرب في هذه الجزيرة قبل الفتية المغربين، أي قبل كولومبوس، بذليل وجود مترجم للغة العربية، ويحتمل من تصرف الملك في سجن الفتية ووضع العصائب على أعينهم وبعد المسافة كذلك على أنها الأرض الجديدة (أمريكا) كما يدل الخبر على أن الملك كان يعرف أن جزيرته مجهولة.

وسأذكر نص رحلة الشباب المغربين من نزهة المشتاق كاملاً لأنه يعد وثيقة فائقة الأهمية، يقول الإدريسي : «ومن مدينة لشبونة كان خروج المغربين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وأين انتهاؤه كما تقدم ذكره^(١)، ولهم بمدينة لشبونة بموضع بمقربة الحمة درب منسوب إليهم يعرف بدرب المغربين إلى آخر الأبد ، وذلك أنهم اجتمعوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم، فأنشؤوا مركباً حملاً وأدخلوا

(١) ذكرهم الإدريسي في الجزء الأول في مناسبة حديثه عن جزيرة الغنم، انظر: محمد بن محمد ابن عبد الله الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ج١، ص٢٢٠.

فيه من الماء والزراد ما يكفيهم لأشهر، ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية، فجروا بها نحو من أحد عشر يوماً فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء، فأيقنوا بالتلف فردوا قلاعهم في اليد الأخرى وجروا مع البحر في ناحية الجنوب اثني عشر يوماً، فخرجوا إلى جزيرة الغنم وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ولا تحصيل، وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر إليها فقصدوا الجزيرة ونزلوا بها فوجدوا بها عين جارية وشجرة تين بري عليها، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على أكلها فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها إلى عمارة وحرث فقصدوا إليها ليروا ما فيها فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق هناك وحملوا في مركبهم إلى مدينة على ضفة البحر فأنزلوا بها فرأوا فيها رجالاً شقراً زعراً شعور رؤوسهم سبطة، وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب فاعتقلوا منها في بيت ثلاثة أيام ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي فسألهم عن حالهم وفيما جاؤوا وأين بلدهم فأخبروه بكل خبرهم فوعدهم خيراً، وأعلمهم أنه ترجمان الملك، فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم أحضروا بين يدي الملك فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فأخبروا بما أخبروا به الترجمان بالأمر من أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الأخبار والعجائب ويقفوا على نهايته، فلما علم الملك ذلك ضحك، وقال للترجمان خبر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر، وأنهم جروا في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء، وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدي، ثم أمر الملك الترجمان أن يعد القوم خيراً، وأن يحسن ظنهم بالملك، ففعل ثم انصرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جري الرياح الغربية فعمر بهم زورق وعصبت أعينهم وجرى بهم في البحر برهة من الدهر، قال القوم قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها حتى جيء بنا إلى البر فأخرجنا وكثفنا إلى خلف وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار وطلعت الشمس

ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكثاف حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحننا بجمالنتنا فاقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة فحلونا من وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا، وكانوا برابر، فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا لا . فقال : إن بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين . فقال زعيم القوم: وا أسفي فسمي المكان إلى اليوم أسفي، وهو المرسى الذي في أقصى المغرب»^(١).

يقول شكيب أرسلان: «بالاختصار الأخوة المغرورون كانوا قد وطئوا البر الأمريكي بأرجلهم، ولكنهم بقلّة عددهم وقلة الوسائل التي بين أيديهم، لم يتقدموا إلى الأمام، ويغلب على الظن أن كريستوف كولومبوس لم يكن يجهل قصة المغرورين هذه»^(٢).

ومما ذكره المؤرخ الجغرافي كراتشكوفسكي عن هذه الرحلة: «اعتقد المتخصصون في جغرافيا العصور الوسطى أن هذه الرحلة ربما ساهمت في الحث على الرحلات المتأخرة التي قام بها الملاحون الأوروبيون في المحيط الأطلنطي، وقد لاقت تسمية هؤلاء الملاحين بالمغربين انتشاراً واسعاً»^(٣).

ويظهر الصدى القوي لهذه الرحلة في أوروبا حين نلمس أنها قد حُورت وعُزيت إلى راهب إيرلندي اسمه القديس (برناندان)، حيث تقول الأسطورة أنه عاش في القرن السادس الميلادي = الأول للهجرة، وزعموا أن هذا القديس سافر للبحث عن الجنة التي كان يتصورها في جزيرة تقع غربي المحيط الأطلسي فجهز سفينة ملاءها بالزاد وسار على متنها مع ١٧ من رفقائه من الرهبان من شواطئ إيرلندا، وبعدما

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج ٢، ص ٥٤٨، ٥٤٩.

(٢) شكيب أرسلان: الحلل السندسية، المطبعة الرحمانية، مصر، ط ١، ١٩٣٦م، ج ١، ص ٩٥.

(٣) إغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر صلاح الدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ٢، ١٩٨٧م، ص ١٥٣، ١٥٤. و أكد على رحلة المغررين محمود شاكر في كتابه: الكشف الجغرافية، المكتب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٣م، ص ٤٥ . ٥٠.

ساروا في عرض البحر المحيط مدة من الزمن انتهى بهم التجوال إلى جزيرة (الغنم)، ومنها وصلوا إلى جزيرة (الطيور) التي أطلقوا عليها هذا الاسم لكثرة ما كان يعيش فيها من الطيور، وقد شاهدوا في الجزيرتين كثيراً من العجائب والغرائب، وذكروا أنه صادفتهم جزيرة جرداء قاحلة فنزلوا بها، فلما عمدوا إلى إشعال النار لطبخ طعامهم ارتجت أرضها كما لو وقع زلزال عظيم، فإذا بالجزيرة لم تكن سوى حوت ضخم كان راقداً على سطح الماء، وتألم من إشعال النار فحرك ظهره، وبعد ذلك عاد الرهبان إلى بلدهم إيرلندة ليحدثوا قومهم بما شاهدوه^(١).

٤ - ابن الوردي يصف أمريكا:

إن عمراً بن المظفر المشهور بابن الوردي (ت ٧٤٩ هـ = ١٣٤٩م) والذي عاش قبل كولومبوس بمائة عام تقريباً، ترك لنا وصفاً هاماً وفريداً لأمريكا، حيث ذكر أنه يوجد وراء الجزر الخالدات (أي جزر كناري) جزائر وصفها يكاد ينطبق على أمريكا.

وتدعو هذه الحقيقة إلى الريبة والشك في كولومبوس، وأنه استلهم المعلومات من كتاب ابن الوردي، وخاصة إذا عرفنا أن نسخ هذا الكتاب قد انتشرت في أوروبا، وتحفظ المكتبة الوطنية بباريس لوحدها بتسع نسخ خطية منه. فمعلومات ابن الوردي الجغرافية عن أمريكا الجديدة كانت معروفة في أوروبا منذ وقت مبكر، وليس بمستبعد إن لم يكن في حكم المؤكد أن يكون كولومبوس قد اطلع عليها ودرس الخرائط الملحقة بها، حيث ثبت أنه وقبل قيامه برحلته المشهورة درس كتباً كثيرة تصف السفن العربية الإسلامية والآلات المستعملة في الملاحة عند المسلمين، واطلع على أوصافهم للبلدان والبحار والجزر وعلى مصوراتهم؛ بل

(١) العربي: تاريخ الرحلة والاستكشاف، ص ٨١.

يقال: إنه وقف على كتاب جغرافي عربي واستعمله بنصه العربي مباشرة من دون ترجمته، مستعيناً ببعض المدجنين ممن كانوا تحت النفوذ الإسباني. ولئن شكك أحد في هذه المعلومات، فإننا لن نذهب به بعيداً فهذا كولومبوس نفسه يعترف بأن العرب والمسلمين في بعض مصنفاتهم هم الذين أوعزوا إليه بوجود قارة جديدة وراء المحيط. وأورد ذلك المؤرخ الفرنسي المعروف أرست رينان في كتابه «ابن رشد ومذهبه»، ومما قاله: «إن كولومبوس ترك رسالة بعد وفاته يقر فيها بذلك».

وكتاب ابن الوردي الكنز هذا هو «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» وكان الشيخ عبد القادر المغربي رحمه الله (ت ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م) رئيس المجمع العلمي بدمشق وأحد أعضاء مجمع اللغة العربية، وأحد أبرز الأدباء واللغويين في زمانه، أول من تنبه إلى وصف ابن الوردي للقارة الجديدة، فقد أشار في إحدى محاضراته عام ١٣٥٠هـ = ١٩٣١م، إلى أن ابن الوردي ذكر في كتابه الخريدة أنه يوجد وراء جزر الخالدات جزائر عظيمة فيها خلق كثيرون، وأن ابن الوردي قد وصف تلك الجزائر وصفاً يكاد ينطبق على قارة أمريكا^(١).

ونأتي إلى اقتباس بعض الأوصاف التي أمدنا بها ابن الوردي عن قارة أمريكا الجديدة، وهي تقع تقريباً في ثمانى عشرة صفحة من القطع الجيد، وقد عنونها بـ: «فصل في بحر الظلمة وهو البحر المحيط الغربي». ثم يقول: «ويسمى المظلم لكثرة أهواله وصعوبة متته، فلا يمكن لأحد من خلق الله أن يلج فيه، إنما يمر بطول الساحل لأن أمواجه كالجبال الرواسي وظلامه كدر، وريحه ذفر، ودوابه متسلطة».

(١) انظر مقبل: دور العرب في اكتشاف العالم الجديد، ص ٦٠-٦٢. مجلة الفيصل، ص ٩٦.

وبعد أن يتكلم عن الجزر الخالدات أي جزر كناري يشير إلى جزيرة العوس، وأن «بها أيضاً صنم وثيق البناء لا يمكن الصعود إليه»، ثم يشير إلى أن وراء الجزر الخالدات وجزيرة العوس جزراً عظيمة، ونورد ذكره لـ: جزيرة الرخ: «وهذا الرخ الذي تُعرف به هذه الجزيرة طير عظيم غريب». جزيرة السعالي: «وهي جزيرة عظيمة بها خلق كالنساء، إلا أن لهم أنياباً طوالاً بادية، وعيونهم كالبرق الخاطف، ووجوههم كالأخشاب المحترقة، يتكلمون بكلام لا يفهم ... ولباسهم ورق الشجر، ويحاربون الدواب البحرية ويأكلونها». جزيرة القروذ: «وهي كبيرة وبها غياض وقروذ كثيرة». جزيرة العرر: «وهي جزيرة طويلة عريضة كثيرة الأعشاب والنباتات والأشجار والثمار».

جزيرة قلهاث: «وهي جزيرة كبيرة وبها خلق مثل الإنسان إلا أن وجوههم وجوه الدواب، يغوصون في البحر فيخرجون ما يقدرّون عليه من الدواب البحرية فيأكلونها». جزيرة الطيور: «يقال إن فيها جنساً من الطيور في هيئة العقبان ذوات مخالب تصيد دواب البحر، وبهذه الجزيرة ثمر يشبه التين أكله ينفع من جميع السموم»^(١).

وهذه الأوصاف من ابن الوردي بالنظر العلمي إليها ترقى إلى مستوى الصحة مع استبعاد بعض التهويلات التي يضيفها المؤلفون لاسترضاء العامة من الناس التي تميل إلى سماع الغرائب والمفاجآت، والتي حشدها في تضاعيف وصفه لإشباع نهم الجماهير التائقة للأساطير التي تغذي أخيلتها. فهذه الأوصاف جديرة بالتأمل والمحاكمة، فهو عندما وصف أهل جزيرة السعالي بأن وجوههم كالأخشاب المحترقة، فإنه جاء بالحقيقة فهؤلاء السكان الأصليون لقارة أمريكا الذين أطلق

(١) عمر ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح محمود فاخوري، دار الشرق العربي، حلب، ص ١١٠-١٢٨.

عليهم كولومبوس فيما بعد اسم الهنود الحمر لأنه وجدهم ذوي بشرة حمراء، ولون الخشب المحترق يميل إلى الحمرة الداكنة، ولا يخفى أن تشبيه وجوههم بالأحجار ينطوي على صرامة وقسوة تتميز بها وجوه الهنود الحمر.

وهو أيضاً عندما قال إن لهم أنياباً طويلة، فهو يرجع إلى أن الهنود الحمر كانوا يصبغون وجوههم ويرسمون حول أفواههم خطوطاً بيضاء، ترى من بعيد وكأنها أنياب. وعندما ذكر أن وجوه أهل جزيرة قلهات كوجوه الدواب، فمرد ذلك إلى تلك الأقنعة التي تحاكي وجوه بعض الحيوانات التي كان الهنود الحمر يضعونها لتخويف الغرباء. وكأن ابن الوردي في وصفه لجزيرة الطيور يتحدث عن العقاب الأمريكي الذي اتخذ الأمريكيان منه فيما بعد شعاراً قومياً، وهو لا يوجد في غير أمريكا، وهو قريب من السواحل يتربص بالسماك^(١).

٥ - اعترافات غريبة:

أكدت مجلة «نيوزويك» الأمريكية في عددها الصادر في نيسان من عام ١٩٦٠، أن أمريكا كانت معروفة للعرب والمسلمين، وأن الوثائق التي عثر عليها تثبت أن العرب وصلوا قبل سنة ١٠٠ م إلى عدة مواضع على الساحل الأمريكي، ولا غرابة في ذلك حسب ما أثبتنا قبل قليل^(٢).

ومن عجائب المفارقات ما ذكره أحد الباحثين وهو الأستاذ رفيق العظمة، ذكر أن صديقه الدكتور (جون فاندنيك) المعروف في الأوساط العلمية في بيروت، أبرز له أمام مجموعة من الحاضرين في مجلسه، رسالة كانت قد وصلت له للتو من أمريكا

(١) انظر مجلة الفيصل، ص ٩٨، ٩٩.

(٢) مجلة الفيصل، ص ٩٨.

تتضمن صورة فوتوغرافية لمحراب عليه آيات قرآنية كريمة مكتوبة بالخط الكوفي القديم اكتشف حديثاً في إحدى الخرائب المهجورة في أمريكا.

وقد أكد أحد المؤلفين الغربيين وهو (برتن كرين) في مقالة مختصرة وجود كلمات عربية خالصة في لغات ما اصطلح على تسميتهم هنود أمريكا، وقد رد تاريخ استخدام هذه الكلمات إلى عام ١٢٩٠م، أي قبل قرنين من وصول كولومبوس إلى الأرض الجديدة، كما أشار إلى وجود أبنية عربية الطراز مثل الأبنية التي اتخذها المايا والأزتيك، مع الإشارة إلى أن الأزتيك اسم محرف من اسم قبيلة الأزد العربية اليمينية.

كما وعثر مدير متحف البرازيل قبل نهاية القرن التاسع عشر على صخرة إلى جوار مدينة ريودي جانيرو عليها نقوش قريبة الشكل من الحروف العربية القديمة. وما يلفت الانتباه أن الكاتب الأمريكي الأسود (أليكس هيلي) اختار لأشخاص كتابه الشهير (الجدور) أسماء عربية إسلامية، وتفسر الكاتبة (فريدمان) ظاهرة انتشار الإسلام والثقافة العربية بين الأمريكيين السود بأنها عودة إلى منابع الثقافية، إذ يقول السود : «كان أجدادنا مسلمين عندما جلبوا إلى الولايات المتحدة، ونحن لا نفعل شيئاً غريباً عندما نعتنق دين أجدادنا».

وفي المؤتمر الواحد والسبعين بعد المائة للجمعية الشرقية الأمريكية في فلادلفيا، والمنعقد في آذار من عام ١٩٦١م، ألقى الدكتور (هوي لين) أستاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا، وهو من أصل صيني محاضرة استند فيها إلى وثائق محفوظة في الصين يعود عهدها إلى القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي، وأكد من خلال هذه الوثائق في محاضرته إلى أن المسلمين انطلقوا بسفنهم في عام ٤٩٤هـ = ١١٠٠م من الطرف الغربي للعالم الإسلامي ومن ميناء الدار البيضاء على وجه التحديد، لترسو سفنهم في نهاية الرحلة بنجاح في عدة أماكن على سواحل أمريكا الشمالية والجنوبية، وقد وصل (لين) إلى هذا الرأي بعد أن قضى

ثمانية أعوام في تتبع انتشار المحاصيل الزراعية والحيوانية في شتى أنحاء العالم، وقد أيد هذه الحقيقة كل من الدكتور (لين يانغ) أستاذ علم التاريخ واللغة الصينية بجامعة هارفارد الأمريكية، والدكتور (ريتشارد رودلف) رئيس المؤتمر نفسه، والذي عقب على محاضرة (لين) بقوله : «والآن ينبغي على الأساتذة العرب أن يتابعوا دراسة تاريخهم وليبدأوا من هذه النقطة»^(١).

وأكد المؤرخ (كوندي) أن الأسطول الإسلامي أبحر في القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي من ميناء لشبونة مستكشفاً جزر (أسورس) وبعض جزر (الأنتيل) فكان أول من مزق الحجب . على حد قوله . عن المناطق المجهولة في المحيط الأطلسي.

وقال الباحث الألماني (هدويك فتزلىر) : «إن العرب قاموا برحلات بحرية متعددة قبل البرتغاليين لا لاكتشاف إفريقيا الغربية فقط، بل للولوج في البحر غرباً أيضاً». وذكر بعض الباحثين أن الانتشار العربي في إفريقيا بلغ الغاية القصوى في القرن التاسع الميلادي = الثالث الهجري، وامتد جنوباً في غرب القارة إلى (منديجو) ومنها انتقل إلى (مشوكان) على خليج المكسيك، وأن آثار العرب في لغات أمريكا ترد كلها إلى ذلك المكان وإلى (منديجو).

وقال بعضهم: إن حضارة الأرتك (التي تعني قبيلة الأزدي اليمنية) والمايا هي حضارة عربية، ومنهم من ذكر أن مستعمرات عربية وجدت في أمريكا بين سنتي ١١٥٠ . ١٢٠٠م، أي قبل أن يولد كولومبوس في جنوة بنحو ثلاثة قرون.

ونُقل عن جريدة (الهدى) العربية التي كانت تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية قولها : «إن أتراكاً متجولين في مقاطعة (سيمسو جوفل) في المكسيك،

(١) مقبل: دور العرب في اكتشاف العالم الجديد، ص ٥٨-٦٠. شاكرو: الكشوف الجغرافية، ص ٥٣، ٥٤.

عشروا في أثناء تجوالهم على قبيلة تتكلم العربية، وتوطن منطقة جبلية منيعة، ولا تزال هذه القبيلة في عزلة عن العالم، ولم تتصل بمن حولها، وهي محافظة على عاداتها الشرقية، وقال بعض أفرادها للتجار المشار إليهم إنهم يقطنون تلك الأصقاع منذ مئات السنين».

وكانت صحيفة (الغريال) العربية التي كانت تصدر في مكسيكو قد نشرت تحقيقاً ممتعاً عن اكتشاف أحد اللبنانيين المسمى (طنوس الشنتيري) لقبيلة عربية في منطقة (سيمسو جوفل) الجبلية بالمكسيك، وأشارت إلى أن الشنتيري تحدث مع أفرادها بلهجة عربية، وفهم منهم أنهم من عرب (سجلماسة) بالمغرب، وأنهم لا يسمحون لأحد بدخول منطقتهم، وأن لديهم أموالاً وتحفاً وآثاراً كثيرة يودون لو استطاعوا إيصالها إلى مكة المكرمة.

وجاء في مجلة (الشرق) البرازيلية أن الدكتور (برزينو مادوريا دو بينيو) أحد كبار المسؤولين البرازيليين وضع تقريراً رفعه إلى حكومته أشار فيه إلى وجود مسلمين برازيليين يقطنون مجاهل ولاية (باهيا) البرازيلية منذ زمن بعيد، ويعرفون باسم (الوفائيين) أو قبيلة الوفاء، وعددهم كبير لأنهم يزدون على نصف الزوج الموجودين في تلك الولاية، ويقول الدكتور البرازيلي: «إن هؤلاء المسلمين دخلوا البرازيل منذ قرون عدة قادمين إليها من إفريقيا»^(١).

وجاء في «مجلة المقتطف» شهر آب ١٩٢٦م، مقالة ملخصة عن مقالة لبرتن كلين في «مجلة العالم اليوم» شهر شباط ١٩٢٦م، ويتكلم فيها عن كتاب عنوانه: إفريقية وكشف أمريكا؛ لمؤلفه ليوفينر، ويذكر فيها: إن كلمات عربية موجودة في لغات هنود أمريكا، ويقول المؤلف: «إن قدم هذه الكلمات يعود لعام ١٢٩٠م، أي

(١) مجلة الفيصل، ص ٩٩.

قبل قرنين من وصول كولومبوس إلى أمريكا»، وقال أيضاً : «إن هناك بعض العمران العربي مثل بناء الأزد وبناء المايا»^(١).

وأخيراً؛ أليس كل ما ذكرناه أعلاه يشكل محفزاً لنا نحن أبناء الحضارة العربية الإسلامية على إجراء دراسات حقيقية، ألا يدفعنا لبذل جهود جبارة لاستعادة حقوقنا الفكرية على الأقل، أليس ذلك فرصة للدول العربية والإسلامية لكي تحفظ ماء وجهها أمام هذا التخاذل العجيب بحق تاريخنا، بأن تبني مؤسسات علمية بحثية، وبأن تُفرغ الباحثين والمؤرخين للعمل العلمي فقط، ألا نرى مؤسساتنا الإعلامية ترصد الملايين لبرامج الطرب والغناء والمسابقات، بينما تحجم عن دفع عشر ذلك على برنامج علمي، أليس هذا من الغرائب بل ومن الفضائح، في حين كان أجدادنا يشقون المحيطات ويتجاوزون الجبال في سبيل البحث العلمي!!!.

(١) شاكر : الكشف الجغرافية، ص ٥١.

ثالثاً- الكشف الجغرافية الاستعمارية الأوروبية:

١- دوافع الكشف الجغرافية

يتفق مؤرخو العصر الحديث على القول: إن اكتشاف أمريكا؛ إنما كان نتيجة حتمية لتوسع الحضارة الأوروبية في أواخر العصور الوسطى. لقد مثلت تلك الفترة في نظرهم تصاعداً مستمراً في سلطة أوروبا التجارية والسياسية، وكان هذا الاكتشاف أهم حدث في ذلك التصاعد. وإن هذا التوسع الأوروبي قد جعل الوقت ناضجاً لاكتشاف كريستوفر كولومبوس، ولو لم يكن كولومبوس قد قام بهذا العمل، لكان بالإمكان أن يقوم به شخص آخر. ولفهم حدث اكتشاف أمريكا، فإنه لا بد من استعراض الخلفية التاريخية له في أوروبا، ومن خلال ذلك، فإننا سنرى أن هذا الاكتشاف لم يكن عملية منعزلة بنفسها - وأهم عملية في ذلك - ولكنه كان خطوة في طريق التوسع الأوروبي ككل. لقد كان الإسبان أول من قدم الحضارة الأوروبية إلى العالم الجديد، وتلاههم في ذلك البرتغاليون ثم الفرنسيون ثم البريطانيون.

بينما كان الوجه الشرقي للعالم المسيحي الذي اجتاحته جحافل الأتراك مهدداً بالانهيار، كانت أوروبا بالمقابل في الغرب تفيض نشاطاً وحيوية، وقبل أن يصل القرن الخامس عشر إلى نهايته، كانت الضرورة تدعو البحارة والتجار إلى عبور الأطلسي والدوران حول إفريقيا. آنذاك بدأ عهد الاكتشافات الكبرى؛ أي عهد المغامرة التي لا يذكرها اليوم الأوروبيون إلا ويشعرون بنوع من العزة والافتخار^(١). مع الكشف الجغرافية نتعامل مع جذور، أو على الأقل بذور، الاستعمار المعاصر مباشرة، فقد ولد الاستعمار الحديث من حجر الكشف الجغرافية ولا نقول

(١) جان بيرنجيه، إيف دوران، فيليب كونتامين، فرنسيس راب: موسوعة تاريخ أوروبا العام، ترجمة وجيه البعيني، الجزء الثاني (أوروبا منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر)، منشورات عويدات، بيروت-باريس، طبعة أولى ١٩٩٥، ص ١٩٩.

في رحمها، ففي أواخر القرن الخامس عشر خرجت أوروبا تضرب في المجهول، فعادت تحمل إلى العالم عالماً جديداً؛ بل عوالم جديدة. من الصعب علينا في القرن الواحد والعشرين أن نقدر حقاً مدى ضخامة ووقع الهزة التي أحدثها هذا الكشف في وقت كانت رقعة المعمورة المعروفة (بالنسبة لأوروبا) محدودة ثابتة لا تكاد تتغير، ثم فجأة وفي عالم متمدن بأقصى سرعة تضاعف العالم مرات عدّة، وربما لا يعدل تلك الطفرة في عالم الإنسان شيء من قبل إلا كشف الزراعة.

وقد قلبت الكشوف الجغرافية استراتيجية العالم القديم من صميمها:

فأولاً- مع اتساع أبعاد العالم اتسعت أبعاد الصراع بين القوى، وخرج الاستعمار لأول مرة عن دائرته التقليدية المغلقة حول حوض البحر المتوسط وتخومه، وانتقل من عروضه المألوفة إلى عروض مختلفة كل الاختلاف تحمل معها بيانات مغايرة جداً، ومن الناحية العملية قفز الاستعمار من عالم متناه إلى عالم غير متناه، وبعد أن كان محلياً أو إقليمياً أصبح عالمياً تماماً.

ثانياً: بعد أن كانت السياسة والاستراتيجية تتحرك في عالم مسطح أفقي أو إقليدي (نسبة إلى إقليدس) بكل معنى الكلمة، أصبحت تتفاعل في وسط كروي مجسم. ولم يعد للمكان يمين وشمال فحسب؛ بل وخلف وأمام أيضاً. بلا شك أن أعظم حقيقة تمخضت عنها الكشوف هي وحدة المحيط، فقبلها كان العالم المعروف يتألف من يابس واحد ومحيطين اثنين، أما بعدها فقد أصبح العالم يتألف من محيط واحد ويابس متعدد^(١). ولم يكن من بدّ من أن يؤدي ذلك إلى اهتزاز العلاقات المكانية بين القارات والأقاليم والدول، فما كان منها بالأمس بؤراً مركزياً قد صار اليوم هامشياً متطرفاً وبالعكس.

(١) جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق-بيروت، طبعة أولى، ١٩٨٣،

ثالثاً- كان أخطر مظاهر هذا الانقلاب بروز أهمية المحيط إلى الصدارة، فقد خرج العالم القديم إلى المحيط، واتسعت الحركة البشرية نفسها بعد أن كانت محدودة بالمرحلة البحرية. فضاعت أهمية البحار الداخلية المغلقة. فإذا بالبحر الأبيض المتوسط وبحر البلطيق يفقدان أهميتهما التاريخية. فتحول الأول إلى زقاق مغلق، والثاني إلى بركة لصيد الأسماك، بينما يتحول المحيط الأطلسي إلى "البحر المتوسط" الجديد. ومع هذا الانقلاب تغير التوجه الجغرافي للقارات والأقاليم، فقلبت القارات رأساً على عقب تطلّعاً إلى المحيط، وانحدرت قيمة دول البحر المتوسط وموانئه لتنتقل الزعامة إلى دول غرب أوروبا وموانئها^(١).

رابعاً- من الناحية السياسية، أصبح الوقوع على المحيطات ميزة كبرى تتمتع بها الدول الساحلية، وتجنّى حصادها الثراء الفاحش، فبدأ عصر الإمبراطوريات البحرية العظمى، بينما أخذت الدول الداخلية القارية تحاول الوصول إلى البحار والمحيطات، وبمعنى آخر اشتد الصراع بين البر والبحر^(٢).

ولكن السؤال المنطقي قبل أن نتتبّع خطى الكشف هو: لماذا خرجت أوروبا الغربية في ذلك التاريخ بالذات ؟ والجواب: إنه في أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر بدأ التوجه الأوروبي نحو الكشف الجغرافية مدفوعاً بعوامل عدة يمكن إجمالها بالنقاط الآتية:

I- الدوافع الدينية:

لم تكن أسباب هذه المغامرة الطويلة المعقدة أسباباً تافهة ولا بسيطة. ورغم كون فكرة الجهاد المقدس لم تجذب الكثير من الناس لملاقاة العثمانيين، إلا أنها بقيت ناشطة في إسبانيا كما في البرتغال. ففي عام ١٤٨٠م، كانت إحدى الممالك

^(١) Derwent Whittlesey, Earth & state, Wash., 1944, p. 56-59.

^(٢) جمال حمدان، المرجع نفسه، ص ٥١.

الإسلامية لا تزال تسيطر على إسبانية. وبغية تقليصها، والقضاء عليها أضطر الملوك الكاثوليك إلى القتال طيلة عشر سنوات. وعندما غادر كولومبوس ساحل بالوس لم يكن قد مضى عشرة أشهر على سقوط غرناطة. أما دولة البرتغال، فإذا كانت قد استعادت استقلالها في وقت مبكر جداً، فإنها تابعت القتال ضد المسلمين، فيما وراء البحار. وقد أعطى مارتن الخامس وخلفاؤه على عرش القديس بطرس لهذه الحملات تشريعاً أقره القانون الكنسي في الحروب المقدسة، وهو أن المحاربين يفيدون من الغفران المطلق^(١).

على كل حال تتلخص الدوافع الدينية في متابعة أوروبا حربها الصليبية ضد المسلمين، على الرغم من أن تلك الحروب التي بدأتها إسبانيا (حرب الاسترداد) والحملات الصليبية على المشرق والمغرب الإسلامي، قد شارفت على نهايتها في ظاهرها، فإن الروح التي تولدت من ذلك الصراع الدموي العنيف كانت روحاً تزميتية انتقامية عند بعض الملوك والأمراء، وأرادوا مطاردة العرب المسلمين ومهاجمتهم في عقر دارهم، وانتزاع ما يملكون من خيرات، ومكاسب اقتصادية.

لتحقيق ذلك، فإنهم شرعوا يبحثون عن ذلك البلد المسيحي الواقع على طريق التوابل والذي قيل لهم إنه قريب من أرض المسلمين، ويحكمه القديس يوحنا الراعي، حتى يتحدوا معه في حربهم ضد الإسلام، ومن المحتمل أن يكون هذا البلد هو الحبشة.

ومن جهة أخرى رغبة الأوروبيين في كشف مناطق تبشيرية جديدة في إفريقيا، وزيادة عدد المؤمنين بالمسيحية.

(١) جان بيرنجيه، المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

II- الدوافع الاقتصادية:

تعدّ العوامل الاقتصادية من أهم العوامل الدافعة، فقد كانت أوروبا في القرن الخامس تشكو من ندرة المعادن الثمينة لديها، ومن ثم قلة النقد المتداول؛ مما أعاق التجارة الأوروبية، وخلق بلبلة في الأمور النقدية. ويرجع ذلك إلى نضوب مناجم الفضة في أوروبا، وانقطاع وصول الذهب من السودان عبر إفريقيا الشمالية إلا بكميات ضئيلة.

فأرت أوروبا أن تبحث عن تلك المعادن في إفريقيا، ومن ناحية أخرى، فإن أوروبا كانت بحاجة إلى التوابل التي تنتجها الدول الآسيوية والتي كانت تأتيها على سفن عربية، تصل إلى الموانئ العربية حيث يشتريها البنادقة، ويقومون بتوزيعها في أوروبا. وكان الممالك في سورية ومصر يتقاضون أثماناً عالية لها من البنادقة؛ مما يجعلهم -أي البنادقة- يبيعونها في أوروبا بأسعار فادحة. وأمام هذا رأت أوروبا أن تصل إلى البلاد المنتجة للتوابل مباشرة، بالالتفاف حول إفريقيا، أو بالتوجه في المحيط الأطلسي غرباً، وذلك لتحصل على حاجتها دون الوسيط العربي المملوكي، والاحتكار البندقي الذي عانى منه التجار والجنويون بشكل خاص.

لذا كان كل ملاح جنوي مستاء من احتكار البندقية للتجارة في المتوسط، يحاول أن يستتبط طريقة لاختراق نطاق ذلك الاحتكار أو الدوران من حوله. وظهرت عند ذاك شعوب جديدة هوت التجارة البحرية، ومالت إلى البحث عن طرق جديدة تؤدي إلى الأسواق القديمة؛ وذلك لأن الطرق العتيقة كانت مغلقة في وجوههم. فبدأ البرتغاليون مثلاً يطورون تجارتهم بإزاء شواطئ المحيط الأطلسي.

وبهذا أخذ ذلك المحيط يستيقظ من جديد بعد مدة إهمال مترامية ترجع إلى مقتل قرطاجة على يد الرومان^(١).

III - الدوافع السياسية:

كانت أوروبا في العصور الوسطى تعيش في عالم إقطاعي ممزق، عالم الفرسان والأقنان، والأمراء وعبيد الأرض. وكانت تتألف من عدد لا نهاية له من الوحدات المحلية والإقليمية الضيقة، سواء من دوقيات وبارونيات الإقطاع أو دول المدن، الكل مزقته الحروب والصراعات الصغيرة. ولم يكن من الممكن لمثلها أن تخرج إلى ميدان الكشف بهذا الهيكل السياسي الممزق^(٢)، وفي إبان ذلك انهار الكيان السياسي للإمبراطورية التي عرفت العصور الوسطى، لتحل محلها الدول القومية الآخذة بالنمو. فبالرغم من تمشي فكرة المملكة العامة التي تسندها الكنيسة العامة مع أمانى أوروبا خلال قرون عدة، فإن هذه الفكرة لم تشكل تماماً لتتفق مع احتياجات أوروبا. وبينما كانت السلطة المدنية تمضي قدماً في السيطرة على الإقطاع كانت الدول القومية تشق طريقها في خطوات بطيئة مضنية، وقد ظهرت في إنكلترا أولاً، حيث كانت الظروف مواتية لظهورها، ثم ظهرت في الدول المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وفي فرنسا، وفي الإمارات الكبرى من الدول الألمانية. وما إن أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى توطدت دعائم الحكومات القومية في إنكلترا وفرنسا وإسبانيا.

(١) هـ. ج. ولز: معالم تاريخ الإنسانية، أربع مجلدات، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الطبعة

الثالثة، ١٩٦٣، ج ٣، ص ٢٧٣.

(٢) جمال حمدان، المرجع نفسه، ص ٥٢.

تمكن العثمانيون بعد احتلال القسطنطينية عام ١٤٥٣م من بسط سيطرتهم على شرقي المتوسط، وإغلاق الطرق الموصلة إلى الشرق الأقصى، وخياراته بوجه أوروبا، كما أن العثمانيين بتوسيعهم في شرقي أوروبا، أصبحوا يشكلون خطراً على الكيانات السياسية الجديدة التي قامت في أوروبا نتيجة نمو مفهوم الدولة القومية فيها في القرن الخامس عشر، وبناءً على ذلك يمكن القول: إن اندفاع أوروبا نحو المغامرات الاستكشافية كان له هدفان:

١- تطبيق القوة الإسلامية الجديدة الناهضة؛ ممثلة بالدولة

العثمانية، وضربها من الخلف، والقضاء عليها.

٢- تثبيت الوجود القومي للكيانات السياسية الناشئة، ودعم

اقتصادها، وتحقيق نفوذها السياسي على أكبر رقعة من

الممتلكات في أوروبا، وخارجها.

IV- الدوافع القومية:

يُعدُّ القرن السادس عشر أول قرن اتضحت فيه معالم العصور الحديثة، ويقدم لنا أقوى تعارض لوجهة النظر الرومانية والكهنوتية التي سيطرت على العالم في العصور الوسطى، فقد استرد التفكير العلماني اعتباره، وكذلك بدأت دراسة جدية ستؤدي إلى نمو العلم الحديث، وشغلت الجغرافية قسماً مهماً من هذه المعرفة الجديدة. فقد كان احتلال البرتغاليين لسبته على الساحل الإفريقي عام ١٤١٥م بمثابة الحلقة الأولى في تلك السلسلة الطويلة من المغامرات البحرية المثيرة التي أدت إلى دوران فاسكو دي غاما حول إفريقيا ١٤٩٢م، وتأسيس الإمبراطورية البرتغالية في الشرق، كما أدت إلى اكتشاف العالم الجديد فيما وراء المحيط الأطلسي على يد الملاح الجنوبي كريستوفر كولومبوس. ومنذ ذلك الحين لم يعد البحر المتوسط مركز العالم المتمدن، فقد انتقل التفوق التجاري من المدن

الإيطالية إلى الأمم القريبة من المحيط الأطلسي: البرتغال أولاً ثم إسبانية فالأراضي المنخفضة بفرنسا وإنكلترا، وترتب على ذلك أن انتقلت على السفن عابرات المحيط إلى أقصى الأرض تلك الحضارة التي نشأت في الشرق الأدنى القديم ثم انتشرت حول سواحل المتوسط ، وأخذت أوروبا تدخل مرحلة جديدة من تاريخها، وهي مرحلة تتميز بتأسيس المستعمرات والإمبراطوريات فيما وراء البحار وبالاتشار التدريجي للنفوذ الأوروبي في شتى أنحاء المعمورة^(١).

وكان ظهور الملكيات القومية في القارة إيذاناً بعصر من التنافس الدبلوماسي الحاد تحكمه فكرة التوازن الدولي. في حين زال ما كان يشعر فيه الأوروبيون في العصور الوسطى من وجود مصلحة أوروبية عامة، لم تستطع دولة واحدة أن تقدر قوتها ومواردها الحقيقية. إلا أن الكشف عن العالم الجديد كان إيذاناً بانفجار حروب قاسية وانتشار القرصنة في أعالي البحار لقرون عدة. وأصبح المال أكثر توفراً في أواخر العصور الوسطى، ثم ازداد وفرة قبل أن ينتهي القرن السادس عشر حين تدفقت على أوروبا فضة البيرو. أما التجارة فقد نمت في كل الأقطار الغربية على أثر الدافع الأول الذي أنعشها في أثناء الحرب الصليبية، وترتب على ذلك ظهور طبقة وسطى ذات نفوذ قوي، ومصالح مادية تتعارض مع استمرار فوضى الإقطاع. وفرض رأس المال نفسه على الحياة العامة، وأصبح رأس المال قوة للدول القومية الناشئة يشد من أزرها وعُدَّت سلطانها الوثيق مستمد من الحقائق الجديدة التي تميز أوروبا في القرن السادس عشر^(٢).

(١) هيربرت فيشر: أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، ترجمة زينب عصمت راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٥، ص ١٢، ١٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤-١٦.

وكان ظهور الملكيات القومية من أهم الأسباب التي دفعت الدول القومية إلى الدخول في مضمار السباق الاستعماري، حيث إن بقاءها متفوقة على المسرح العالمي مرتبط بقدر ما تملكه من مستعمرات. وقد وجدت أن هناك شعوباً لم تطلها يد التقدم الإنساني (بحسب وجهة النظر الأوروبية)، وعلى الأقل تقدم العصور الوسطى^(١).

٧- الدوافع الفكرية والتقنية:

أخذت أوروبا منذ القرن الثالث عشر تستيقظ من سبات العصور الوسطى الفكري، وبدأت تتحرر تدريجياً من المعتقدات الوهمية والخرافية، ولاسيما في ميدان المعرفة الكونية، فقد نسي الأوروبيون خلال العصور الوسطى علم اليونان القائل بكروية الأرض، وسيطرت على فكرهم الخرافات حتى تخيلوا أن المحيط الأطلسي يكتنفه الظلام الدامس، وأن المياه في جنوبيه تشتت حرارتها حتى تصل لدرجة الغليان ثم تسقط في هوة كبيرة.

إلا أن احتكاك أوروبا بالإنتاج الفكري العربي الإسلامي بدد تلك الجهالات، ولاسيما بما قدمه العرب في ميدان علم الفلك، والجغرافية، سواء أكان إنتاجاً ذاتياً كمؤلفات المقدسي، وياقوت الحموي، والبيروني، أو كان ترجمة للكتب اليونانية القديم الكبرى، وأشهرها المجسطي لبطليموس^(٢).

وهكذا ارتد الأوروبيون إلى الأفكار القديمة عن كروية الأرض، وظهرت ملامح نهضة جغرافية، كانت العون الأكبر لحركة الكشف الجغرافية في تقدمها.

(١) عبد العزيز نوار: محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مدينة نصر-مصر، ١٩٩٩، ص ٥٥.

(٢) ليلى الصباغ: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، مطبعة جامعة دمشق، طبعة ثانية، ١٩٩٠، ص ٧٦-٧٧.

وقد ساعد هذه النهضة الجغرافية؛ بالإضافة إلى أخذ المعرفة العربية في هذا الميدان، ما قدمته البرتغال في شخص أميرها هنري الملاح للمعرفة الجغرافية من خدمات، من أهمها: إنشاء مركز للدراسات الجغرافية، ولرسم الخرائط، وإرسال بعثة بحرية كل عام إلى الجنوب لزيادة معرفتها بسواحل إفريقية، لتعمل على إنشاء تلك الخرائط المصورة. كما عمد هنري الملاح إلى ترجمة كتاب بطليموس عام ١٤٠٩ إلى اللغة اللاتينية.

وفي هذا المجال يجب ألا ننسى حركة الترجمة الواسعة التي بدأها عدد من المفكرين الأوروبيين، والجامعات، منذ القرن الثالث عشر، واستمرت خلال القرون التي تلت، وكانت تتوخى نقل أمهات الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية وما ترجمه العرب من المؤلفات القديمة. وقد ساعد على انتشار الترجمة والكتب المؤلفة حديثاً اختراع الطباعة، وانتشارها في معظم أنحاء أوروبا، ولاسيما في إيطاليا، والبندقية منها بالذات.

ولم يكن بوسع الأوروبيين الانطلاق في المحيطات، لولا التقدم الذي أحرزه علم الملاحة في القرن الخامس عشر، ولاسيما بعد اكتشاف السفن القشالية الخفيفة والمرتفعة، كما اكتشفت دفعة القيادة المحورية التي ساعدت بقوة عملها على زيادة أبعاد السفن.

وفي الوقت نفسه، فإن تطور البوصلة والإسطرلاب العربي، أدى إلى تطور تقنيات الاتجاه؛ مما ساعد على الابتعاد عن الشواطئ، وشق عباب البحار المجهولة^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٨١-٨٤.

٢- الكشف الجغرافية الإسبانية والبرتغالية الاستعمارية في جنوب القارة الأمريكية ووسطها (ما يعرف باسم أمريكا اللاتينية):

في الوقت الذي بدأت فيه البرتغال البحث عن مستعمرات لها في طريق التجارة الهندية اتجهت إسبانية هي الأخرى إلى تدعيم مركزها السياسي الأوروبي بالكشوف، والتوسع الخارجي، وقد توحد الإسبان والبرتغاليون في هدف واحد هو الوصول إلى جزر التوابل، لكنهما تعاكسا في الاتجاه. فبينما اتجه البرتغاليون شرقاً، كان اتجاه إسبانيا إلى الغرب^(١).

وقد خرجت إسبانيا إلى الكشف والاستعمار بعد التوحيد مباشرة مغربة في الأطلسي، ومن الطريف ذكره أن الكشف الإسبانية التي أدت إلى كشف القارة الأمريكية قامت على أكتاف غير الإسبان في البداية، فقد تزعم حركة الكشف الإسبانية كولومبوس الجنوبي، وماجلان البرتغالي^(٢).

I- رحلات كريستوفر كولومبوس الأربع:

ينسب البحار الشهير كريستوفر كولومبوس (١٤٥١م-١٥٠٦م) إلى جنوب إيطاليا، حيث تزوج في برشلونة من ابنة قائد كان قد أبحر عبر الأطلسي حتى وصل إلى جزر أثورس. ومن قراءة رسائله ويوميته التي دونها عن رحلاته، فقد آمن كولومبوس بالنظرية التي تقول: إن الأرض كروية. وكان يريد إيجاد طريق إلى آسيا المشهورة بتوابلها^(٣)، كما استطاع الطبيب والفلكي الفلورنسي توسكانييلي

(١) عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين، المرجع نفسه، ص ٦٤. وانظر أيضاً: عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث (من ظهور النورجوانية الأوروبية إلى الحرب الباردة)، جزأين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، الجزء الأول، ص ٢٣٤.

(٢) جمال حمدان، المرجع نفسه، ص ٥٨-٥٩.

(٣) أوخينيو تشانج رودريجث، المرجع نفسه، ص ٨٥.

إقناع كولومبوس بعرض خطة استعمارية جريئة تهدف إلى الوصول إلى بلاد العجائب (الهند) عن طريق الإبحار غرباً لا شرقاً؛ تجنباً للأخطار التي كانت تتعرض لها المراكب الأوروبية باتخاذها الطريق البحري المألوف بالإبحار شرقاً نحو جنوبي آسيا^(١).

نشأت خطة كولومبوس من خلال الرغبة العارمة التي كانت تسود أوروبا في القرن الخامس عشر من أجل الوصول إلى الشرق الساحر المليء بالذهب والتوابل. وكانت الروايات المبكرة، التي قدمها المستكشف الإيطالي ماركو باولو التي اختلط فيها الواقع بالخيال، قد فعلت فعلها في إثارة هذه الرغبات كلها وألهبت خيال كل مغامري أوروبا وأفريقيا^(٢).

ومن أجل ذلك، فإنه عرض من دون نجاح فكرته على حكومته ثم على الحكومة البرتغالية، والإنكليزية. وبعد الكثير من المحاولات الفاشلة وجد أخيراً من يسمعه، ويمد له يد العون، وهي الملكة إيزابيلا ملكة إسبانيا الطامعة لملء الخزائن الإسبانية الفارغة بعد حروب الاضطهاد المريرة ضد العرب المسلمين، وطمعاً بالوعد الذي قطعه كولومبوس للبلاط عن رغبته في الإبحار إلى **مناطق يستخرج الذهب من أرضها كما يستخرج الحديد دون الحاجة إلى شرائه بالمال**^(٣). وطبقاً للأسطورة الشهيرة فقد قامت الملكة إيزابيلا بزهن مجوهراتها؛ لكي تتفق على هذه الحملة الجريئة^(٤).

وبعد الحصول على موافقة الملكة الإسبانية، ومباركة زوجها الملك فرديناند اللذين منحاه لقب حاكم على الأراضي المكتشفة، زوداه أيضاً بثلاث سفن صغيرة،

(١) ساطع محلي، المرجع نفسه، ص ٢٧-٢٨.

(٢) كولومبوس، بداية الحلم أم ذروة المأساة، المرجع نفسه، ص ١٤٦.

(٣) المرجع السابق نفسه. نقلاً عن ي.ج. جاكوب، مذكرات ورسائل ووثائق كولومبس، ١٩٥٦.

(٤) أوخينيو تشانج رودريجت، المرجع نفسه، ص ٨٥.

بدأ البحار الجنوبي حملة استكشافية بحرية إلى المحيط الأطلسي انطلقت من ميناء بالوس في الثالث من آب عام ١٤٩٢م حاملاً معه تسعين ملاحاً، متوجهاً نحو الغرب قاصداً الهند من دون أن يعرف أن هناك قارة لا بد من اجتيازها قبل الوصول إلى آسيا.

سار كولومبوس وبعثته وسفنه في المحيط مدة شهرين، وتسعة أيام لاقى الجميع فيها الأمرين قبل أن يصلوا إلى الأرض؛ تلك الأرض التي تعرف بجزر الباهاما التي أطلق عليها اسم سان سلفادور^(١)؛ معتقداً أنه وصل إلى جزر الهند الشرقية (جزر الأرخبيل الياباني على شاطئ آسيا الشرقية)^(٢) على الرغم من أنه لم يجد أثراً للتوابل. ومن الباهاما توجه إلى شاطئ كوبا الشمالية، وجزيرة هايتي التي سماها إسبانيا الصغيرة. ثم عاد في آذار ١٤٩٣م إلى إسبانيا يحمل معه نماذج من النباتات غير معروفة في أوروبا كالبطاطا، والتبغ، والذرة، والقطن؛ بالإضافة إلى كميات من الفضة والذهب اللذين جاء من أجلهما، كما حمل معه مجموعة من السكان الأصليين^(٣).

وكان من نتائج رحلة كولومبوس الأولى أن طلبت إيزابيلا وفرديناند ملكا إسبانيا من البابا ألكسندر السادس إصدار مرسوم يخول الإسبان فيه حق السيادة على كل الأراضي التي يكتشفونها، كما يمنع البرتغاليين من منافستهم في تلك الجهات^(٤). وبالفعل فقد أصدر البابا في ٢ أيار ١٥٩٣م مرسوماً أقر فيه أن كل

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ١٢.

(٢) ساطع محلي، المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٣) محمد مخزوم: مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، دار الكتاب اللبناني، طبعة أولى، ١٩٨٣، ص ٩١.

(٤) يسري عبد الرزاق الجوهري: الكشف الجغرافية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٤، ص ١٣٦-١٣٧. وانظر أيضاً: عبد العظيم رمضان، المرجع نفسه، ص ٢٣٥.

الأراضي التي تكتشف إلى الغرب من خط يقع على بعد ٣٠٠ ميل من منطقة الرأس الأخضر الممتد من القطبين تصبح ملكاً لإسبانيا، بينما الأراضي الجديدة التي تكتشف إلى الشرق من هذا الخط تؤول إلى البرتغال. ولما كان هذا الخط يعوق جهود البرتغال في الكشف في المحيط الأطلسي، فقد اعترضت بشدة على المرسوم البابوي؛ مما أدى إلى دخول البرتغال وإسبانيا بمفاوضات بواسطة البابا انتهت بتوقيع معاهدة تورديسيلاس في ٧ حزيران ١٥٩٤م، وسعت الخط الوهمي إلى ٣١٠ كم غرب جزر الرأس الأخضر^(١). وقد قوبلت هذه المعاهدة بنقد شديد من قبل بقية الدول الأوروبية؛ لأنه جعل اكتشاف الأقاليم حكراً على إسبانيا والبرتغال من دون أن تأخذ بالحسبان مصالح بقية الدول الأوروبية كإنكلترا، وفرنسا، وهولندا^(٢).

وقام كولومبوس برحلته الثانية في ٢٥ أيلول ١٤٩٤م، وفي هذه الرحلة اصطحب معه من إسبانيا كثيراً من الرجال والحيوانات المختلفة والبذور، وذلك رغبة منه في تأسيس أول مستعمرة إسبانية في جزيرة هايتي. وقد اتخذت هذه الرحلة طريقاً يقع إلى الجنوب من طريق الرحلة الأولى حيث اكتشف جزر الدومينيك، وعدداً كبيراً من الجزر الأخرى، مثل: سانتا كروز، وسانتا أورسولا، ولاريدوندا، وسانتا ماريا، كما مر على جزيرة بورتوريكو، وعندما وصل إلى إسبانيولا (جزيرة هايتي) قام بتأسيس بلدة إيزابيلا بمساعدة ١٣١٠ من الإسبان. وتعدّ هذه المدينة أولى المدن التي شيدت في العالم الجديد. وقد دمرت في أثناء الحرب مع السكان الأصليين بعد ذلك^(٣).

^(١) Hugo D. BARAGELATA. Histoire De L'Amérique Espagnole, Avec 2 cartes dans le texte, Librairie Armand Colin 103, Boulevard Saint-Michel, Paris 1936, p 20.

^(٢) محمد مخزوم، المرجع نفسه، ص ٩٢.

^(٣) Hugo D. BARAGELATA. Op.Cit, p 22.

وانظر أيضاً: أوخينيو تشانج رودريجث، المرجع نفسه، ص ٨٥

وبعد ذلك أبحر إلى الساحل الجنوبي، ومن ثم إلى جامايكا حيث اكتشف ساحلها الشمالي ثم عاد ثانياً لإتمام اكتشاف بقية الساحل الجنوبي لكوبا. وللتأكد من أنها جزء من القارة الآسيوية؛ وتبع ذلك ذهابه إلى مدينة إيزابيلا ثم رحيله إلى إسبانيا، بعد أن عين أخاه بارتلومي كولومبوس حاكماً على المستعمرات الجديدة؛ حاملاً معه كميات من الذهب، وبعض أنواع الطيور، والفاكهة، والنباتات الجديدة التي على رأسها الذرة، كما حمل معه عدداً كبيراً من السكان الأصليين للبلاد بعد أن حولهم إلى عبيد . وبعد غياب دام قرابة الثلاث سنوات وصل كولومبوس أخيراً إلى إسبانيا، وحط رحاله في ميناء قادش في ١١ حزيران من عام ١٤٩٥م^(١).

وبعد ثلاث سنوات قام كولومبوس بتجهيز أسطوله لرحلة جديدة، وفي ٣٠ أيار ١٤٩٨م غادر كولومبوس ميناء قادش مع ستة مراكب وأكثر من ٦٠٠ بحار. وفي هذه الرحلة اتجه إلى الرأس الأخضر بغية متابعة سيره غرباً. وبعد سنتين من الإبحار وصل إلى جزيرة ترينيداد. وعند مغادرته هذه الجزيرة وفي طريق عودته على طول ساحل فنزويلا شاهد كميات هائلة من المياه تتدفق من خليج أورنيوكيو فكتب إلى الملك الإسباني يقول: "إنه مقتنع بأن هذه الأرض كبيرة جداً تشبه في اتساعها قارة جديدة"^(٢)، وخلال هذه الفترة نجحت جهود الحاقدين عليه في البلاط الإسباني في تصويره بمظهر المكتشف الأفاق الذي أضاع أموال إسبانيا في رحلات لم تستفد منها الدولة إلا قليلاً، ولم تتوصل بعد إلى مركز تجارة التوابل التي يحلم بها الجميع. وكان من جراء ذلك أن وجهت له تهمة خيانة البلاط الإسباني، وتم استدعاؤه إلى سانتو دومينغو ليحقق معه، ومع ثلاث من إخوته القاضي فرانسيسكو بوديديا ممثل الملك الإسباني، حيث تم إرساله وإخوته مكبلين

(١) Hugo D. BARAGELATA, Op.Cit, p 22-25

(٢) Ibid., p 29.

بالأغال إلى إسبانيا حيث بقي أكثر من ١٨ شهراً يدافع عن رحلاته وكشوفه، وأخيراً صدر العفو عنه وتم تعيينه نائباً للملك في المستعمرات الجديدة^(١).

وفي رحلته الرابعة والأخيرة، انطلق كولومبوس يرافقه ١٤٠ بحاراً على متن ثلاثة سفن كبيرة ورابعة أصغر حجماً في ١١ أيار ١٥٠٢م من ميناء قادش الإسباني. واستمرت رحلته الأخيرة ما يقارب السنتين والشهرين شهد خلالها مصاعب كبيرة وفقد خلالها سفينتين من أسطوله وعدد كبير من الرجال وعاد أخيراً إلى إسبانيا في ٧ تشرين الثاني ١٥٠٤م من دون أن تسفر رحلته عن كشف عظيمة سوى التوصل إلى معرفة ساحل أمريكا الوسطى^(٢).

ومن سخرية الأقدار، فإن كولومبوس الذي كرم في حياته، ومنح الكثير من التقدير توفي فقيراً معوزاً في ٢٠ أيار من عام ١٥٠٦م في بلد الوليد بإسبانيا، ولم يعرف أن الأراضي التي اكتشفها تنسب إلى نصف الكرة الغربي التي كانت في ذلك الوقت مجهولة بالنسبة لمعاصريه الأوروبيين^(٣).

وقد نتج عن رحلات كولومبوس نتائج عدة مهمة، من أبرزها:

- ◆ أثارت رحلاته موجة عارمة من روح المغامرة البحرية إلى حد كبير لدى البحارة البرتغاليين الذين داروا حول القارة الإفريقية، ووصلوا إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، ولدى غيرهم من الأوروبيين.
- ◆ بدا الملوك الكاثوليك يثبتون استعمارهم، وملكيتهم على الأراضي المكتشفة جديداً.

^(١) Ibid. p. 27-29.

^(٢) Ibid. p. 32-35.

^(٣) أوخينيو تشانج رودريجت، المرجع نفسه، ص ٨٦.

♦ شجعت الإسبان أنفسهم على الاستمرار في عمليات الكشف الاستعماري، والتوغل في القارة الجديدة في الجزء الجنوبي منها^(١).

II - رحلة البحارة كابرال بيدرو ألفاريز (١٤٦٧م-١٥٢٨م)^(٢):

استمرت في حياة كولومبوس وبعدها الحملات الجديدة للتمكن من كشف معالم هذا البر الجديد على الأوروبيين، واحتلال المناطق الغنية منه. وكانت تركب السفن المبحرة نحو الغرب إذ ذاك أعداد كبيرة من البحارة وجماعات غير قليلة من رجال الدين المتعصبين المغامرين، والمرتزقة، واللصوص من الإسبان، والبرتغاليين تبحث عن السلطة والذهب والمجد في بلاد بكر تدفعهم إليها روح الحروب الصليبية التي عاشوها في أوروبا والمشرق. واكتشفت شواطئ جديدة في أمريكا منها عام ١٥٠٠م الشاطئ البرازيلي على يد البرتغالي كابرال بيدرو ألفاريز^(٣).

فقد أبحر كابرال بأسطوله المكون من ١٣ سفينة من بليم قرب لشبونة في التاسع من آذار ١٥٠٠م واتجه نحو الهند، وخطط لاتباع المسار الذي أبحر صوبه فاسكو دي جاما. وقد أبحر الأسطول في اتجاه الجنوب الغربي، ومُرَّ بجزر الكناري والرأس الأخضر. أمِلَ البحارة في هبوب رياح تحملهم حول رأس الرجاء

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ١٣.

(٢) كابرال بيدرو ألفاريز (١٤٦٧م-١٥٢٨م): رحالة برتغالي وُلِدَ بالقرب من كوفيلها في البرتغال، وتلقى تعليمه في البلاط الملكي، وأصبح عضواً في مجلس الملك. وقد عيّنه الملك عمانوئيل الأول عام ١٤٩٩م قائداً للأسطول؛ لمتابعة العمل الذي بدأه المكتشف البرتغالي فاسكو دي جاما. أبحر إلى البرازيل عام 1500م، وأعلنها ممتلكات برتغالية. وقد ساعدت رحلته إلى البرتغال على إقامة إمبراطورية ضخمة خارج حدودها في القرن السادس عشر الميلادي. انظر: الموسوعة العربية الشاملة.

(٣) ساطع محلي، المرجع نفسه، ص ٣١.

الصالح في أقصى نقطة جنوبي القارة الإفريقية، ولكن قائد الرحلة أراد تجنب خليج غانا فحاد الأسطول عن مساره، وانحرف نحو الجنوب الغربي^(١).

وفي الثاني والعشرين من نيسان، رأى البحارة ما يُعرّف اليوم بالجنوب الشرقي من البرازيل. وقد أعلن كابral المنطقة ممتلكات برتغالية. وتقع الأرض ضمن الأملاك البرتغالية كما حددتها معاهدة تورديسيلاس عام ١٤٩٤م. فقدّ كابral واحدة من السفن، وعادت سفينة أخرى إلى البرتغال لتتقل الأنباء عن رسو السفن. وبقيت السفن الأخرى في البرازيل لمدة ثمانية أيام، ثم تابعت الرحلة إلى الهند.

وفي الرابع والعشرين من أيار، هبت عاصفة وفرقت الأسطول. وقد فقدت أربع سفن، ولكن إحداها وصلت مدغشقر. أما السفن الست الأخرى فقد تلاقت في موزمبيق، وتابعت إبحارها بمحاذاة الشاطئ الإفريقي شمالاً، واجتاز الأسطول المحيط الهندي، ووصل إلى كلكتا بالهند في ١٣ أيلول، وهناك، قُتل عدد من بحارته في معركة مع مجموعة من التجار العرب. ثم أبحر أسطول كابral إلى مدينتي كوشين وكانانور في الهند حيث حُمّلت السفن بالبهارات.

وعاد الأسطول إلى لشبونة في ٢٣ تموز عام ١٥٠١م. وقد نظر الملك عمانوئيل الأول في تعيين كابral قائداً لرحلة كشفية أخرى إلى الهند، ولكنه اختار دي جاما بدلاً منه. وقد تقاعد كابral بعد ذلك من الخدمة في البلاط الملكي^(٢).

(١) عمر عبد العزيز عمر: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٢، ص ٨٨.

(٢) انظر: الموسوعة العربية الشاملة.

بعد أن استطاع كابرال الوصول إلى شواطئ البرازيل، قرر الملك البرتغالي عمانويل الأول إرسال حملات كشفية لهذه البلاد الجديدة، ووقع اختياره على الرحالة أمريكو فيسبوتشي^(١).

III - رحلات البحارة الفلورنسي أمريكو فيسبوتشي^(٢):

قام هذا البحار بعدة رحلات نحو الغرب ما بين ١٤٩٧م و ١٥٠٢م سار فيها بمحاذاة الشاطئ الشرقي لأمريكا الجنوبية من دون أن يصل إلى نهايته^(٣).

(١) عمر عبد العزيز عمر، المرجع نفسه، ص ٨٨-٨٩.

(٢) أمريكو فيسبوتشي: ولد فسيوتشي في فلورنسا، ودرس الملاحة في شبابه. قضى أعوامه الأولى في خدمة شركة لورنزو دي بيير فرانسيسكو دي ميدتشي المصرفية في فلورنسا، ثم رحل في عام ١٤٩١م إلى أسبيليا حيث التحق بشركة متخصصة في تجهيز السفن للرحلات الطويلة. ادعى فسيوتشي أنه قام بأربع رحلات إلى العالم الجديد. وبعد الرحلة التي ادعى أنها رحلته الأولى صرح بأنه شاهد قارة شاسعة (أمريكا الجنوبية). شارك فسيوتشي في عامي ١٤٩٩م و ١٥٠٠م في حملة قادها المكتشف الونسو دي أوجيدا. أبحرت سفينة فسيوتشي خلال هذه الرحلة على امتداد ساحل فنزويلا. عاد فسيوتشي للإبحار في عامي ١٥٠١ و ١٥٠٢م، ومرة أخرى في عامي ١٥٠٣م و ١٥٠٤م، وكان في كل هذه المرات مع أسطول الكابتن البرتغالي جويكالو كوليو. اكتشفت هاتان الحملتان ساحل البرازيل الجنوبي.

ترجع شهرة فسيوتشي بدرجة كبيرة إلى خطاب كتبه إلى لورنزو دي بيير فرانسيسكو دي ميدتشي في عام ١٥٠٢م أو ١٥٠٣م أخبر فسيوتشي لورنزو في هذا الخطاب عن اكتشافه لقارة جديدة، وضمن خطابه وصفاً مفعماً بالحيوية للأرض الجديدة وسكانها. نشر الخطاب في عام ١٥٠٣م أو ١٥٠٤م تحت عنوان العالم الجديد. اكتسب الخطاب شهرة واسعة وأعيد نشره في طبعات عدة وترجم إلى لغات عدة. رَسَخَ الخطاب مكانة فسيوتشي كونه مكتشفاً مشهوراً. حصل فسيوتشي على الجنسية الإسبانية في عام ١٥٠٥م، والتحق بوكالة حكومية تعنى بالروابط التجارية مع العالم الجديد، شغل منصب كبير الملاحين في هذه الوكالة من عام ١٥٠٨م وحتى وفاته. انظر: الموسوعة العربية الشاملة.

(٣) ساطع محلي:، المرجع نفسه، ص ٣٠.

وتتيح كتابات فيسبوتشي المطولة والتفصيلية تكوين فكرة قريبة عن الطريق التي اتبعها: فبعد خروجهم من الرأس الأخضر في إفريقية أبحروا في عرض البحر ما ينوف عن الشهرين (محاطون بالعواصف في الأيام الأربعة والأربعين الأخيرة) ووصلوا إلى الشواطئ الأطلسية قريباً من مدينة ريسيفي الحالية في البرازيل، وبعد إقامة قصيرة هناك، عادوا إلى البحر ثانية، ووصلوا أخيراً إلى قطب انتصاف النهار^(١).

تأتي أهمية الرحلات التي قام بها هذا البحار بنشره بعد عودته نبأ رحلاته بالكتابة عنها وعن الأشياء التي وجدها في أثناء هذه الرحلات، حيث أعلن أن البلاد التي وصل إليها هي بلاد جديدة ليست الصين أو اليابان أو الهند؛ وإنما هي أرض جديدة مختلفة عنها^(٢). وقد بعث إلى إسبانية برسالة في ١٠ آذار ١٥٠٣م يبشر بوجوده أمام قارة جديدة^(٣) غير القارة الآسيوية^(٤). واستند في إعلانه على ملاحظته أبراج النجوم المجهولة، وانقلاب الفصول في القطب الجنوبي، حيث يسود الشتاء خلال شهور الصيف الأوروبي^(٥).

نشر في عام ١٥٠٤م التقرير الذي وضعه أمريكو عن البر الجديد في سان دييغو في الفوج، فبدأ اهتمام الأوروبيين بالبلاد الجديدة، وطلب أمير اللورين

(١) لاوريت سيجورنه، أمريكا اللاتينية الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ترجمة صالح علماني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، طبعة أولى ٢٠٠٣، ص ٢٦.

(٢) عبد الفتاح حسن أبو علي، المرجع نفسه، ص ١٣.

(٣) لقد تنبأ الفلكي الإيطالي بطرس مارتور برسالة بعث بها إلى الكاردينال أسكانيوس سفورزا في الأول من تشرين الثاني ١٤٩٣، بأن كولومبس قد اكتشف عالماً جديداً لا عالماً معروفاً وشاطناً آسيوياً لبر قديم. انظر: ساطع محلي، المرجع نفسه، ص ٣٠.

(٤) ساطع محلي، المرجع نفسه، ص ٣٠.

(٥) لاوريت سيجورنه، المرجع نفسه، ص ٢٥.

ريني الثاني -مشجع الجغرافيين في ذلك الزمان- من عالم الجغرافية والرياضيات الألماني والدمولار أن يضع خريطة مناسبة عن العالم الجديد لتضم إلى تقرير أمريكي؛ مقترحاً تسمية البر الجديد فيها بأمريكا نسبة إلى أمريكي أول المتحدثين عنه^(١).

وهكذا أطلق الجغرافيون وواضعو الخرائط اسم أمريكا فيسبوتشي على القارة المكتشفة، وصارت منذ ذلك الوقت تسمى بأمريكا نسبة إليه^(٢).

IV- ماجلان^(٣) وأول دوران حول العالم:

^(١) انظر: ساطع محلي، المرجع نفسه، ص ٣٠. نقلاً عن كتاب أمريكي. قصة خطأ تاريخي لستيفان زوايغ.

^(٢) عبد الفتاح حسن أبو علي، المرجع نفسه، ص ١٣. وانظر أيضاً: أوخينيو تشانج رودريجث، المرجع نفسه، ص ٨٦.

^(٣) فرديناند ماجلان (١٤٨٠ - ١٥٢١م): قبطان برتغالي، قاد أول حملة قامت بالإبحار حول العالم. كانت رحلته أول برهان عملي على كروية الأرض. والواقع أن ماجلان لم يعيش حتى يكمل رحلته، ولكن تخطيطه المبدع، وقيادته الشجاعة جعلتا إكمال تلك الرحلة أمراً ممكناً، وبعد كثير من العلماء تلك الرحلة من أفضل الأعمال الملاحية في التاريخ.

ولد ماجلان في شمالي البرتغال عام ١٤٨٠م تقريباً. عمل في البلاط الملكي وصيفاً للملكة ليونور وعمره حينئذ اثنا عشر عاماً. وفي البلاط الملكي سمع ماجلان عن رحلات أولئك المكتشفين، مثل: كريستوفر كولمبوس الإيطالي، وفاسكو دي جاما البرتغالي. كانت أولى رحلاته في البحر عام ١٥٠٥م عندما أبحر إلى الهند مع أسطول فرانسيسكو دي ألميدا نائب ملك البرتغال على تلك البلاد. في عام ١٥٠٩م أبحر ماجلان مع أسطول برتغالي إلى ملقا. وفي عام ١٥١١م شارك في حملة قامت باحتلال ملقا، ومن ثم عاد إلى البرتغال عام ١٥١٣م، ومن هناك اشترك في حملة عسكرية ضد المغرب. وبعد أن عاد إلى البرتغال من المغرب، التمس المساعدة من الملك مانويل الأول للقيام برحلة إلى جزر التوابل، ولكن مانويل كان يكرهه، فرفض =

حفلت حركة الكشف الجغرافية الإسبانية في عهد شارل الأول، خليفة فرديناند، وملك إسبانيا، والإمبراطورية الجرمانية المقدسة، بتنفيذ أعظم مشروع جغرافي. وهو الدوران حول العالم بالانطلاق من نقطة في اتجاه واحد والوصول إليها. ويقترن هذا المشروع باسم ماجلان الذي رأى أنه يستطيع الوصول إلى جزر التوابل في الهند الشرقية عن طريق الغرب بالطواف حول الطرف الجنوبي لأمريكا؛ لأن كشفه لجزر جديدة على هذا الطريق سيجعل البرتغال في الوقت نفسه تتخلى عن ادعائها في ملكية هذه الجزر؛ لأنها تقع فعلاً إلى الغرب من الخط الوهمي الذي حدده مرسوم البابا^(١).

بعد أن فشل ماجلان في إقناع ملك البرتغال بمشروعه توجه إلى الملك الإسباني شارل الأول. ورحب الملك الإسباني بهذا المشروع وفي ٢٢ آذار ١٥١٨ وقع شارل الأول العقد المبرم بين التاج الإسباني من جهة، وبين ماجلان من ناحية أخرى. وكان من بين النقاط التي تم الاتفاق عليها إعطاء ماجلان حق الاستيلاء على جزء من عشرين من دخل البلدان التي يكتشفها وجزيرتين إذا تجاوز عدد الجزر المكتشفة ستاً^(٢).

=مساندته للقيام بتلك الرحلة. وبعد ذلك درس ماجلان علم الفلك والملاحة لمدة عامين تقريباً في مدينة بورتو الواقعة في شمالي البرتغال. وقد استخلص ماجلان من دراساته تلك بأن جزر التوابل تقع في أراضٍ مُنحت لإسبانيا عام ١٤٩٤م. ولهذا السبب قرر ماجلان أن يلتزم المساعدة من ملك إسبانيا لدعم خطته. وفي عام ١٥١٧م سافر ماجلان إلى إسبانيا، وهناك قدّم اقتراحه بزيارة جزر التوابل جزءاً من عملية إبحار حول الأرض من ناحية الغرب. هذا وقد وعد الملك أن يعطي ماجلان خمس الأرباح التي سيحصلها من تلك الرحلة؛ بالإضافة إلى مرتب يصرف له.

(١) محمد مخزوم، المرجع نفسه، ص ٩٣.

(٢) عمر عبد العزيز عمر، المرجع نفسه، ص ٩٣-٩٤.

أفلعت حملة ماجلان المؤلفة من خمسة سفن من ميناء سان لوكار، واتجهت في المحيط الأطلسي جنوباً ثم عرجت في اتجاه الجنوب الغربي وصولاً إلى شاطئ البرازيل عند ريو دي جانيرو ثم إلى مصب نهر لابلاتا ثم دار حول أمريكا الجنوبية، ووصل إلى خط عرض ٥٢ درجة جنوباً. فاكشف ممراً مائياً عميقاً محصوراً بين جبلين أطلق عليه فيما بعد اسم مضيق ماجلان^(١).

وفي عام ١٥٢٠م دخلت السفن محيطاً كبيراً أطلق عليه ماجلان اسم المحيط الهادئ (الباسيفيكي)؛ لأنه قليل الأعاصير. ووصلت بعدها السفن إلى جزر ماريانا والفيليبين (نسبة إلى الملك فيليب الثاني ولي عهد إسبانيا) التي اعتقدها ماجلان خطأ بأنها جزر التوابل^(٢). وفي الفيليبين اشتبك ماجلان مع الأهالي، وقتل في الاشتباكات، ولكن أحد رجاله المسمى ديانكو ترأس البحارة، وسار بهم باتجاه رأس الرجاء الصالح، وعبره، وسار في المحيط الأطلسي حتى وصل إلى إسبانيا في المكان الذي خرجت منه الرحلة في أيلول ١٥٢٢. وكان من أهم نتائج هذه الرحلة:

- ◆ أثبتت رحلة ماجلان كروية الأرض؛ لأنه دار حول الكرة الأرضية في ثلاث سنوات.
- ◆ هدمت جميع النظريات الخاطئة والإشاعات والخرافات القائلة عن حجم الأرض وشكلها.

(١) مضيق ماجلان: هو المضيق الواصل بين المحيطين الأطلسي والهادئ في أقصى جنوب القارة الأمريكية، أطلق عليه ماجلان عندما اكتشفه عام ١٥٢٠م اسم "مضيق جميع القديسين"، ولكن المضيق عرف فيما بعد باسم مكتشفه. انظر: لاوريث سيجورنه، المرجع نفسه، هامش ص ٢٨.

(٢) محمد مخزوم، المرجع نفسه، ص ٩٣-٩٤.

♦ برهنت على أن الأرض أكبر بكثير مما كان يعتقد كولومبوس، وغيره من الرحالة.

♦ نبهت إلى أن هناك قارة بين أوروبا وآسيا، وأن هناك محيطاً مترامي الأطراف لم يكن معروفاً من قبل.

♦ عرفت حدود العالم الجديد من جنوبيه إلى شماله.

♦ شجعت الكثير من الرحالة على القيام برحلات استكشافية جديدة^(١).

٣- الكشف الجغرافية الإنكليزية:

مما لا شك فيه أن الإنكليز استفادوا كثيراً من عمليات الكشف الجغرافي التي قام بها البرتغاليون في مناطق الشرق، ومن العمليات الكشفية التي قام بها الإسبان في العالم الجديد. واستفادوا أيضاً من تعرفهم إلى مدى ما وصلت إليه أهمية المحيط الأطلسي بعد الكشف الجغرافية الإسبانية في أمريكا في مجال التجارة والملاحة البحرية، ومدى التناقض الذي طرأ على أهمية البحر المتوسط في المجال نفسه.

وكان التنافس الإسباني - الإنكليزي في عهد الملكين فيليب الثاني الإسباني وإليزابيث ملكة إنكلترا في شأن مسألة فصل كنيسة إنكلترا عن كنيسة روما، وتبني الإنكليز للمذهب الأنجليكاني بروتستانتية الجوهر كاثوليكي الشكل، فكان هذا التنافس قد دفع الإنكليز إلى القيام بحركات عدائية ضد المراكب الإسبانية القادمة من البحر الكاريبي^(٢).

بدأت الكشف الجغرافية الإنكليزية في عهد الملك هنري السابع عندما كلف الملاح الإيطالي (كابوت) وأبنائه الثلاثة بمهمة الكشف الجغرافي، حيث

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ١٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦-١٧.

انطلق كابوت من بريستول في ٢ أيار ١٤٩٧م، ووصل إلى نيوفاندلاند ثم عاد إلى بريستول في آب من العام نفسه. وفي عام ١٤٩٨م أبحر كابوت ثانية من بريستول إلى أيسلندة، ثم إلى غرينلاند، ومنها إلى الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، ووصل إلى نيو إنجلند جنوباً. وفي عام ١٥٠٩م قام ابنه سيبستيان برحلة إلى سواحل لابرادور، وعثر على مدخل خليج هدرسون ووصل إلى خط عرض ٦٧ شمالاً.

شغل الإصلاح الديني الإنكليزي عن الكشف الجغرافي حتى عام ١٥٧٨م ما خلا رحلات هوكنز إلى البرازيل عام ١٥٣٠م، وإلى ساحل غينيا من أجل الذهب والرقيق. وفي عام ١٥٧٨م منحت الملكة إليزابيث السير جلمبرت امتيازاً تضمن احتلال الأراضي البعيدة والوثنية جميعها وسكنها التي لا يملكها مسيحي. وبدأ رحلته عام ١٥٨٣م باتجاه الغرب، ووصل إلى نيوفاندلاند، واستعمرها، لكنه غرق في طريق العودة.

في عام ١٥٨٤م منحت الملكة إليزابيث السير رالي امتيازاً باستكشاف واستيطان المنطقة الساحلية الممتدة من نهر سانت لورانس شمالاً إلى فلوريدا جنوباً. فأرسل بين عامي ١٥٨٤م-١٥٨٦م خمس رحلات إلى العالم الجديد انتهت بإقامة مستعمرة على جزيرة رونوك بفرجينيا، لكنها لم تستمر طويلاً؛ بسبب صعوبة وصول الإمدادات، ومقاومة الهنود الحمر للمستعمرين الأوروبيين.

في عام ١٦٠٦م تأسست شركة لندن، وشركة بليموث، وتولت الشركتان تأسيس المستعمرات الإنكليزية على الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية، وبسبب تعرض البيوريتان للاضطهاد بدأت الهجرة الكبرى بين عامي ١٦٢٨م-١٦٤٠م إلى هذه المنطقة، وأقاموا خمس مستعمرات سميت باسم مستعمرات نيو إنجلند، في حين استعمر اللورد بلتمور إقليم ميرلاند عام ١٦٣٤م بعيداً عن مضائق البروتستانت. حتى عام ١٧٧٦م أقيمت على الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية

ثلاث عشرة مستعمرة إنكليزية بين مين وجورجيا يقطنها نحو مليونين من السكان تشكلت منها الولايات المتحدة الأمريكية بعد حرب الاستقلال، وثورة جورج واشنطن ١٧٧٦م-١٧٨٢م.

وبناءً على التنظيم الاستعماري الإنكليزي الجديد في العالم الجديد فقد تطورت العمليات الاستيطانية، وبدأت تنتشر المستوطنات الإنكليزية في مناطق أمريكا الشمالية أو ما تسمى اليوم الولايات المتحدة الأمريكية. كما ونظمت الحكومة الإنكليزية عملية تأسيس المستعمرات الإنكليزية وحدودها في هذه المناطق.

ونلاحظ أن الإنكليز استطاعوا في مدة ثمانين عاماً أن يكونوا مستعمرات أوروبية إنكليزية في الساحل الشمالي والشرقي من العالم الجديد في جزئه الشمالي. وصارت ولاياتهم تمتد على ساحل المحيط الأطلسي من ولاية ماساتشوستس حتى ولايتي كارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية^(١).

٤ - الكشف الجغرافية الفرنسية:

قامت فرنسا بكشوفاتها الجغرافية بشكل متأخر عن البرتغال والإسبان والإنجليز. واتجهت بكشوفاتها إلى أمريكا الشمالية حيث كشفت إقليم كندا. ويعود السبق الأول في مضمار الكشف الجغرافي إلى البحار الفرنسي جاك كارتية الذي عهد له الملك فرانسوا الأول بالقيام برحلة كشفية يعبر فيها المحيط الأطلسي في اتجاه الغرب نحو العالم الجديد. وقد وصل كارتية إلى جزيرة نيوفاوندلاند المقابلة لكندا، واستطاع كشف مصب نهر سانت لورانس عام ١٥٣٤م، والتوغل داخل الأراضي الأمريكية الشمالية، فوصل إلى مونتيريل وكوبيك الحاليين، وزار

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ١٨-١٩، ٢١.

مستوطنة الهنود الحمر في ستاداكونا "Stadacona". ولقد بلغت رحلات كارتتييه في هذه المناطق أربع رحلات كشفية^(١).

في القرن السادس عشر كرس بحارة الشاطئ الأطلسي وتجاره الفرنسيون جهوداً تلقائية للأراضي الجديدة. فتوجه تجارهم وقراصنتهم صوب شواطئ البرازيل، وأنزلوا فيها عملاء خالطوا الهنديات، وأنجبوا العديد من الخلاسين ذوي الشعر الأشقر والوجه الأبيض الأنمش، وأهملوا المسيحية وتعاليمها، وحظوا بسلطة كبرى على السكان المحليين (الهنود) بروح مبادرتهم، وحسن تدبيرهم. وقام البحارة الفرنسيون بدور الوسيط بينهم وبين التجار. وقد استمال هؤلاء السكان المحليين إليهم بتواضعهم وصدقهم في المعاملة الذين أبرزوا عجرة البرتغاليين وخداعهم.

ولكن الحكومة الفرنسية لم تساند هذه الجهود مساندة تذكر، فكان عليها إرضاء أكثرية السكان في أمة تحصر اهتمامها في الأراضي والزراعة ولا تعير اهتمامها - فيما عدا ذلك - إلا الأتراك وآسيا. وقد تضايق ملوك فرنسا - بوصفهم أبناء الكنيسة - من المراسيم البابوية التي تمنح الاحتكار للإسبان والبرتغاليين. ورغبوا كذلك في إرضاء رعاياهم في اللندوك وبروفانسيا وكرسوا جزءاً من قواهم للمتوسط وموانئ الشرق الأدنى. وصرفتهم كذلك عن مساندة جهود المستعمرين مستلزمات الصراع ضد آل هابسبورغ وواجباتهم في الحلف العثماني، أضف إلى ذلك أن صفوف البحارة والتجار المستعمرين قد ضمت الكثير من البروتستانت. وقام الأميرال (كسبار دي كوليني) بين عامي ١٥٥٥م و١٥٧٢م، في ريو دي جانيرو، وفي فلوريدا بمحاولات عدة لتأسيس إمبراطورية فرنسية كان مقدراً لها - في نظر فرنسيي ذاك العهد - أن تكون بروتستانتية قبل أن تكون فرنسية. لهذه الأسباب جميعها، ساند الملوك المستعمرين حيناً، وأحجموا عن مساندتهم حيناً

(١) المرجع السابق، ص ٢٤.

آخر؛ وفقاً لحاجات التحويل الدبلوماسي على الحكومات البرتغالية والإسبانية. وبعد معاهدة كاتو-كامبريس تخلت فرنسا عن كل محاولة في أمريكا الجنوبية، ولكنها احتفظت بملء حريتها في أمريكا الشمالية^(١).

وفي سنة ١٦٨٢م نجح دي لا سال "De la Sall" في كشف نهر الميسيسيبي، ثم خليج المكسيك. ونشأت هناك مستعمرة لويزيانا الفرنسية نسبة إلى الملك لويس الرابع عشر. وأسسوا في سنة ١٧١٨م مدينة نيو أورليانز. وهكذا احتل الفرنسيون كندا، وحوض الميسيسيبي، ومنطقة سانت لورانس. إلا أن فرنسا ظلت في هذه المناطق ضعيفة أمام النفوذ الإنجليزي؛ لأنها استعمرت أراضي واسعة، ولم ترسل لها أيدي فرنسية كثيرة، ولم يستطع وضع جيش قوي في هذه المناطق للمحافظة عليها من الداخل، ومن حركة التنافس الأوروبي.

وحاولت فرنسا أن تنهج السياسة نفسها التي انتهجتها إنكلترا في العالم الجديد، فأنشأت الشركات الاستعمارية العاملة من أجل الاستيطان والاستقرار الفرنسي في المنطقة التي وصلوا إليها في أمريكا الشمالية وكندا. وكما أن فرنسا سخرت الجمعيات التبشيرية اليسوعية للعمل على نشر المسيحية الكاثوليكية هناك وذلك من أجل تركيز النفوذ الفرنسي وحمايته. وقد أسس الوزير الفرنسي المشهور ريشيليو شركة فرنسية لحماية الوجود الفرنسي في العالم الجديد إلا أن الشركة لم تستطع القيام بواجبها لانشغال ريشيليو في حرب الهيجونوت الفرنسيين.

وقد تأسست شركة فرنسية أخرى في العالم الجديد "كندا" سميت الشركة الغربية في عهد الوزير كولبير "Colbert" عام ١٦٦٤م. وقد منحت الحكومة

(١) موريس كروزيه: تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط ٢، ١٩٨٧، الجزء الرابع (القرن السادس عشر والسابع عشر، تأليف رولان موسنييه)، ص ٤٨١-٤٨٢.

الفرنسية هذه الشركة حق احتكار العمليات التجارية في الأرض الكندية. وقد أسهمت العمليات التجارية والتقدم في صناعة السفن في عملية تشجيع الفرنسيين على الاستقرار النسبي في منطقة مونتيريل وكوبيك، علماً بأن الفرنسيين الذين جاؤوا مهاجرين إلى العالم الجديد كانوا من التجار والصيادين بخاصة صيادي الحيوانات من أجل الحصول على فرائها. وظلت نسبتهم قليلة، ولم يكن الاستقرار العام غايتهم كما هو الحال عند جماعات البيوريتانية والكانتوليكية الإنكليزية وبسبب هذا ظل الوجود الفرنسي في المنطقة وجوداً ضعيفاً^(١).

٥ - الكشف الجغرافية الهولندية:

لم يقف الهولنديون موقف المتفرج من الكشف الجغرافية الأوروبية على الرغم من انشغالهم في ثورتهم ضد إسبانيا الكاثوليكية منذ عام ١٥٦٦م، حين اندلعت هذه الثورة بسبب سياسة فيليب الثاني المالية والدينية. وظل النضال الهولندي ضد الإسبان حتى تحرروا منهم عام ١٦٤٨م باعتراف رسمي من قبل الموقعين على صلح وستيفاليه.

بدأت الكشف الجغرافية الهولندية عام ١٦٠٩م عندما قام الملاح هدسون بتكليف من شركة الهند الشرقية الهولندية باستكشاف ممر إلى آسيا، حيث وصل إلى خليج نيويورك، ونهر هدسون الذي سمي باسمه. وبعد رحلة هدسون أقام الهولنديون مركزاً تجارياً في جزيرة مانهاتن، ومحطة تجارية لجمع الفراء في موقع ألباني، وبسطوا نفوذهم على إقليم هدسون، ولم يحل عام ١٦٢٤م حتى كانت هولندا الجديدة مستعمرة حقيقية، ثم احتلها الإنكليز عام ١٦٦٤م وأصبحت تسمى نيويورك.

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٢٨-٢٩.

والجدير بالذكر هنا أن الهولنديين كانوا قد وصلوا إلى رأس هورن "Cape Horn" عام ١٦١٦م عن طريق بحارهم الشهير وليم شوتين "William Schouten"، وأصبح هذا الرأس طريقاً ملاحياً مهماً^(١).

٦- الكشف الجغرافية الروسية:

شاركت روسيا في الكشف الجغرافية في عهد بطرس الأكبر عندما كلف البحار الدانيماركي (بيرينغ) بالتحقق من صدق ما يشاع عن وجود ممر بحري يفصل بين روسيا وأمريكا الشمالية، حيث نجح بيرينغ في اكتشاف الممر، وسمي باسمه.

ركز الروس اهتمامهم على شبه جزيرة آلاسكا، وأسسوا فيها مركزاً تجارياً، وأقاموا قلعة إلى الشمال من سان فرانسيسكو، واحتكروا لأنفسهم تجارة الجزء الشمالي من المحيط الهادي سنة ١٨٢١م.

كانت خشية الأمريكيين من التوسع الروسي في الجزء الشمالي من القارة الأمريكية أحد الأسباب التي دفعت الرئيس مونرو إلى إصدار مبدئه المشهور (مبدأ مونرو)، وبقيت آلاسكا مركزاً إقليمياً روسياً حتى عام ١٨٤٧، حيث اشترتها الولايات المتحدة من الحكومة الروسية بمبلغ ٧,٢ مليون دولار.

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٢٦-٢٧.





الفصل الثالث
التوسع الاستعماري الأوروبي داخل القارة



مقدمة:

كان أمراً طبيعياً ومنطقياً أن يبدأ غزو أمريكا الإسبانية واستعمارها من المستعمرة الأولى التي أنشأها الفاتحون في سانتو دومينجو، فلم يحل عام ١٦٠٠م حتى كانت الأراضي الممتدة من المكسيك الجديدة وفلوريدا شمالاً إلى شيلي ونهر دي لا بلاتا جنوباً، فيما عدا البرازيل، تخضع للسيطرة الفعلية لعرش قشتالة^(١).

لقد انتهت عملية الغزو كلها في مدة خمسين سنة، قام خلالها الغزاة الأوروبيون بالاستيلاء على إمبراطوريتي الأزتك والأنكا، وبإخضاع القبائل، وباحتلال ثلثي سواحل القارة. ومهما كان الوصول إلى أمريكا سهلاً ومهماً، وكانت وسائل البيض متفرقة إلا أن نجاحهم كان عجيباً؛ ذلك لأن بضعة آلاف من الرجال قد تمكنوا من الانتصار على ثلاثين مليون من الهنود الحمر، كما انتصروا على البعوض، والزواحف، والحُميات، وتلوج الجبال، وشمس المناطق الاستوائية، ووحوش الغابات. ولاشك في أنهم كانوا قد تمرنوا على المتاعب الجسدية، وشحنوا همهم وهزائمهم في حروبهم المتصلة ضد المغاربة في الأندلس، كما شحنوا بشعورهم بالتفوق الحضاري، والجنسي على غيرهم؛ ولذلك فإنهم كانوا يسمحون لأنفسهم بكل شيء ومن دون تردد^(٢).

وكانت الدوافع التي أوحى لملك قشتالة وملكتها بخلق إمبراطورية مترامية الأطراف في القارة الأمريكية هي الرغبة في الاستحواذ على ممتلكات أوسع كثيراً مما كانا يمتلكان، ونشر الدين المسيحي، والحصول على إيرادات كبيرة. أما

(١) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم، ترجمة محمد مصطفى زيادة، أربعة أجزاء، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة-نيويورك، ١٩٦٣، الجزء الرابع، ص ١٢٨٦، ١٢٨٩.

(٢) جلال يحيى، المرجع نفسه، ج ٤، ص ٢١٦.

القاتحون الإسبان الأولون فكانت تحركهم دوافع عدة، اختلفت قوة باختلاف الأفراد، والزمن، والمكان. فمنهم من دفعته الرغبة في الظفر بالثروة والمكانة، ومنهم من عمل لرفعة مقام عرش قشتالة ومجده، أو لنشر المسيحية، ومنهم من أغواه حب المغامرة.

وقد تمت أهم الفتوح الأولى من دون أن يتحمل التاج أية تكاليف مباشرة، فإن قواد الحملات كانوا أفراداً فتحوا ما فتحوا من أراض على نفقتهم الخاصة، وبدوافع من أنفسهم، أو باسم الجالس على العرش، أو بمقتضى مراسيم ملكية، في رجاء الحصول على إيرادات الأراضي التي وقعت في قبضتهم، أو منحهم حق حكمها وإدارتها. وعلى هذا الهدى فتح كورتيس المكسيك، وألفارادو جواتيمالا، وبيثارو بيرو، وبمينيس دي كيسادا غرناطة الجديدة، ومنتهيهو يوكاتان^(١).

وكان مشروعهم للاستعمار مشروعاً عاماً، وخاصاً في الوقت نفسه؛ ذلك أنهم كانوا مزودين بمرسوم ملكي، وكانوا يحاربون، وينتصرون باسم ملك إسبانيا ولحسابه، ولكنهم كانوا ينظمون حملاتهم على نفقتهم الخاصة أو لحساب أصحاب رؤوس الأموال المستعدين لتمويل مثل هذه المغامرات. وفي الحالة الأخيرة كانت هناك عقود موثقة تحدد نصيب كل من الأطراف المساهمة وحقوقها. وكان هدفهم هو اكتشاف أراضٍ جديدة، والإقامة فيها بأحقية وأولوية الوصول إليها وحكمها، واستغلال الأراضي والمعادن النفيسة، والمعيشة باللقاب طنانة وبمجد يثير الغيرة، والحسد لأكبر سادة قشتالة في هذا الوقت. ويمكننا أن نذكر هنا بعض الأسماء لقادة الغزو الذين سجلوا أسماءهم في العالم الجديد، مثل: بالبو، وكورتيز، وبيثارو؛

(١) وليام لانجر، المرجع نفسه، ص ١٢٨٧.

وربما كان الحظ قد ساعدهم أكثر من غيرهم، ولكنهم استحقوا تسجيل أسمائهم في التاريخ حتى ولو كان ذلك بناء على المآسي التي ارتكبوها في القارة الأمريكية^(١). وما مضى إلا وقت قصير حتى كان لعرش قشتالة سيطرة مباشرة مطلقة على إمبراطوريته فسيحة الأطراف، كما حققت الكنيسة التي كانت تحت رعاية التاج تنظيمًا كاملاً لهذه الممتلكات، وممارسة نفوذ عظيم فيها^(٢).

(١) جلال يحيى، المرجع نفسه، ج ٤، ص ٢١٦-٢١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٨٩.

أولاً- الاستعمار الإسباني والبرتغالي في أمريكا الجنوبية والوسطى:

١- غزو بنما (كاستيا دل أورو)^(١)

انضم فاسكو نونيث دي بالبوا^(٢) عام ١٥٠١م إلى حملة استكشافية إلى أمريكا الجنوبية، فعبر سواحل الكاريبي عبر شرق باناما سنة ١٥٠١م حيث مرّ بخليج أورابا حتى رأس فيلا، كولومبيا حالياً. استطاع نونيث دي بالبوا بفضل ما ربحه من تلك الحملة من العودة إلى جزيرة إسبانيولا سنة ١٥٠٢م حيث اقتنى ضيعة، وأقام سنوات عدة؛ مشغلاً بالزراعة، غير أن الحظ لم يسعفه، وتراكت عليه الديون؛ الشيء الذي اضطره لرحيل.

وصل دي بالبوا إلى منطقة بنما هارباً من إسبانيولا، حيث لوحق بسبب الديون، ومن أجل أن يهرب من الجوع الذي أحدثه تدمير السكان الأصليين، توغل إلى داخل البلاد؛ مفتتحاً بذلك المرحلة الحاسمة من الاستكشاف والاستيطان.

استطاع بالبوا الانتصار على كل مقاومة واجهته بفضل الأسلحة النارية والكلاب التي حمل عدداً كبيراً منها. وفي أقل من عشر سنوات تحول نونيث دي بالبوا إلى سيد مطلق على أرض أصبح ثراؤها خرافياً، وكانت وفرة الذهب كبيرة

(١) وتعني بالإسبانية قشالة الذهب.

(٢) بالبوا، فاسكو نونيز دي (١٤٧٥م - ١٥١٩م): مكتشف إسباني، وأول أوروبي شاهد الشاطئ الشرقي للمحيط الهادئ. وقد حفزت اكتشافاته مزيداً من الاستكشافات والفتوحات الإسبانية على امتداد الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية. ولد بالبوا في جزيرة جيريز دي لوس كبايروس في إسبانيا، لأب فقير من النبلاء. وعمل لدى أحد النبلاء الأغنياء في موجير على الساحل الجنوبي الغربي لأسبانيا. استهوت بالبوا فرص الشهرة، والثروة في العالم الجديد، فانضم عام ١٥٠١م إلى حملة استكشافية إلى أمريكا الجنوبية، وفي عام ١٥١٠م اتجه في إحدى السفن إلى مستعمرة سان سبستيان الإسبانية، ثم انتقل منها إلى الجانب الغربي من خليج يورابا، حيث أسس هناك مدينة دارين، وأصبح نائباً لحاكمها.

لدرجة أن المهاجمين تفرغوا طوال سنوات للنهب، وإبادة البشر، واصطياد العبيد من دون التفكير في المجاعات التي يهيئون لها بمحوهم التام لكل أشكال الحياة^(١). وفي أثناء اقتسامهم إحدى الغنائم، اكتشفوا وجود المحيط الهادئ، فقد فوجئ زعيم محلي شاب بجشع الغرياء تجاه الذهب، وحاول التخفيف من حدة نزاعاتهم قائلاً لهم إنهم سيجدون أكثر مما يستطيعون حمله من الذهب إلى الجنوب من "البحر الآخر" وعندما علم بالبوا أنه يوجد إلى الجنوب مناجم للذهب، وبحر آخر وأتته الفكرة بأن هذا البحر قد يكون بحر الهند، فسار لمدة عشرين يوماً داخل الغابات حتى رأى من أعلى التلال محيطاً كبيراً ليست له نهاية، فنزل في الأمواج شاهراً سيفه، وأعلن ملكية ملك إسبانية لبحر الجنوب الذي أصبح فيما بعد المحيط الهادئ. ولقد عينت إسبانيا بالبوا حاكماً على هذا البحر، فنقل أربع سفن، بعد تفكيكها، عبر البرزخ، ثم جمعها، وكان أول من يبحر على هذه المياه الجديدة^(٢). وعند وصوله إلى شاطئ المحيط الجديد، سمع دي بالبوا للمرة الثانية كلاماً عن مملكة الذهب الخرافية، عن البيرو التي سيتجهون إليها، والتي ستكون منذ ذلك الحين مشروع كل المغامرين وحلمهم، وفي تلك اللحظة عرف الإسبان كذلك أن المياه المحيطة بالجزر الصغيرة في خليج بنما تحتوي على احتياطي لا ينضب من اللؤلؤ.

كان لهذه الأخبار وقع عظيم في قشتالة، وبينما تتزايد الدسائس لعزل دي بالبوا، كانت حشود من الصناع والنبلاء تلج بصورة جماعية على السماح لها بالعبور إلى العالم الجديد. وانطلقت حملة مؤلفة من عشرين سفينة ومركبين

^(١) لاوريت سيجولانه: أمريكا اللاتينية، الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ترجمة صالح علماني،

المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، طبعة أولى، ٢٠٠٣، ص ٣٢-٣٣.

^(٢) أجال يحيى، المرجع نفسه، ج ٤، ص ٢١٦.

شراعيين سريعين. كما تم تعيين بيدرارياش دافيلاً حاكماً. ونتيجة للخلاف بين الرجلين قرر دافيلاً التخلص من الخصم المرهوب بالحكم عليه بالإعدام حين سنحت له الفرصة الأولى. وجاءت نهاية فاسكو نونييث دي بالبوا حين كان يستعد للهروب إلى البيرو في أربع سفن بنيت بكاملها على شواطئ المحيط الهادئ، بمساعدة فريق من رجاله المقربين، وبجهود شخصية جبارة وموت عدة مئات من السكان الأصليين. واتخذ الحاكم بيدرارياش دافيلاً من هذه "الخيانة للملكين" ذريعة لتصفيته. وهكذا تم قطع رأس دي بالبوا عام ١٥١٩م^(١).

٢- غزو المكسيك:

يتدرج غزو المكسيك الذي تم بعد خمس وعشرين سنة من وصول كولومبوس، في سياق نظام استعماري ذي معايير جوهريّة، هو الدفاع عن السلطة ولو على حساب التضحية بقيم أخلاقية كبيرة^(٢).

يُعَدّ فرانسيسكو أرنانديث دي كروبا أول إسباني طاف بساحل شبه جزيرة يوكوتان عام ١٥١٧م. واكتشفت في العام التالي حملة خوان دي جريخالبا ساحل الجزيرة نفسها، وأدركوا وجود إمبراطورية كبيرة للهنود هناك. ولقد تحمس لهذه الأنباء السعيدة (دييجوا بلاثيث) حاكم كوبا الذي ما لبث أن قام بتعيين الشاب هرنان كورتيس^(٣) (١٤٨٥م-١٥٤٧م) قائداً على رأس حملة عسكرية عام ١٥١٩م

(١) لاوريت سيجولانه، المرجع نفسه، ص ٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧.

(٣) هرنان كورتيس (١٤٨٥م-١٥٤٧م): مغامر إسباني، استولى على المنطقة التي يطلق عليها الآن المكسيك الأوسط والجنوبي. وقد جعلته خطته الجريئة لإحراز الأرض والقوة والثروة أشهر مغامر إسباني في الأمريكتين. وقادت انتصارات كورتيز إلى ٣٠٠ سنة من الهيمنة الإسبانية على المكسيك وأمريكا الوسطى. ولد كورتيس في البلدة الإسبانية ماديلين في قشتالة. وعندما بلغ =

التي أسند إليها مهمة غزو ذلك البلد الهندي الغني الذي جلب لهم أخباره (جريخاليا)^(١).

غادر كورتيس ميناء هافانا في شباط عام ١٥١٩م على رأس حملة قوامها إحدى عشرة سفينة تحمل أكثر من خمسمئة جندي، وعدداً من المدافع و١٦ حصاناً، ويرافقه عدد من أصدقائه المقربين، وعلى رأسهم برنال دياز دي كاستيلو وبارتولومي دي ولمبدو. وقد رحل كورتيس عن كوبا مسرعاً بعد أن وصلته أنباء عن نية الحاكم بلاثكيث تغيير قيادة الحملة^(٢).

هاجم كورتيس جزيرة جوثوميل بالقرب من يوكاتان، وهناك استطاع تحرير عدد من الإسبان، وعلى رأسهم خيروينمو دي أجيلار الذي كان قد وقع في أسر المايا منذ أكثر من ثماني سنوات. ثم تابع كورتيس حملته وصولاً إلى أراضي التاباسكوس، وبعد معارك عنيفة مع السكان المحليين حقق كورتيس النصر، وعقد اتفاقاً مع التاباسكوس حصل بموجبه على عشرين امرأة، وعلى رأسهم السيدة مارينا

=الرابعة عشرة من عمره أرسله والداه إلى سلامانكا، في وسط غربي إسبانيا؛ ليدرس القانون. لكنه سرعان ما ترك المدرسة بحثاً عن المغامرة والثروة. وأبحر كورتيز في سنة ١٥٠٤م إلى هيسبانيولا (الآن جمهورية الدومينيكان وهايتي) في جزر الهند الغربية، وفي هيسبانيولا حارب في معارك هندية عدة، واشترك في عدد من العمليات التجارية. وأسهم كورتيز في الاحتلال الإسباني لكوبا الذي قام به ديفغو بلاثكيث (Diego Velazquez) في ١٥١١م. وقد تناهى بعد مدة إلى علم بلاثكيث الذي أصبح حاكماً لكوبا أن هناك إمبراطورية هندية غنية في المكسيك. واختار بلاثكيث كورتيس ليقود حملة إلى هناك للبحث عن الذهب. والسيطرة على الأرض، وتطوير التجارة مع الهنود. انظر:

Hugo D. BARAGELATA, Op.Cit, p 85.

(١) أوخينيو تشانج رودريجيث، المرجع نفسه، ص ٨٨.

(٢) Hugo D. BARAGELATA, Op.Cit, p 85.

(مالنتشي)، وتعود شهرة هذه المرأة لمعرفتها للغات محلية عدة، والدور الكبير الذي أدته في حملات كورتيس بعد أن أصبحت مترجمته الرسمية^(١).

وقد قام كورتيس بتأسيس أو تكوين مجلس إداري بناءً على اتفاق مبدئي ينص على أن يكون هو قائد الحملة. وبما أن أصدقاء بلاثكيث حاكم كوبا لم يوافقوا على هذا الاتفاق حينئذ قام كورتيس بشنق أحدهم، وقطع أرجل الآخر، ويقال إنه أمر بتحطيم أو تدمير السفن؛ لكي يجعل من المستحيل العودة مرة أخرى.

وقد تلقى الإسبان في بيراكورث هدايا قيمة من إمبراطور الأزتك (موكتيثوما)، وأرسل إليهم سفراء يرجونهم مغادرة أراضيهم مقابل الذهب الذي يتمنوه. وعلم كورتيس في ذلك الوقت بمساعدة عشيقته، ومترجمته السيدة مارينا بالأسطورة التي تنسب إلى الإله (كيتزاكواتل) التي تقول إن لون بشرته كان أبيض، وأنه وعد بالانسحاب، وبدأ كورتيس بالفعل في نشر هذه الأسطورة التي أفادت الغزاة كثيراً. ولكي يترك الإسبان انطباعاً لدى السفراء بدؤوا تحريك الجنود، وعمل تدريبات عسكرية، كما أنهم بدؤوا يطلقون بعض الطلقات من قطع المدفعية.

وقاموا بعد ذلك بإصدار تصريحات سلمية، وأرسلوا رسالة إلى الإمبراطور يطلبون فيها السماح لهم بزيارة عاصمته، ولكن موكتيثوما رفض طلبهم، وأرسل لهم هدايا أخرى يصل قيمتها إلى ألفين دوكادوس^(٢).

وبدأ الجيش الإسباني في الزحف نحو تينوتشتيلان حينما طلبت بعض القبائل الهندية من كورتيس مساعدتها من أجل الحصول على استقلالها من الأزتك. وتغلب الإسبان على المقاومة، وذلك بمساعدة الهنود، واستولوا على غنائم

^(١) Ibid, pp. 85-86.

وانظر أيضاً: أوخينيو تشانج رودريجث، المرجع نفسه، ص ٨٩.

^(٢) دوكادوس: عملة قديمة تعادل ٦ بيزيته إسبانية (ما يعادل اليورو حالياً)

عديدة. ودخل كورتيس منتصراً تينوتشتيلان في الثامن من تشرين الثاني ١٥٠٩م. واستقبله بكبرياء الحاكم الضعيف موكتيثوما. وقام كورتيس بإلقاء القبض على إمبراطور الأزتك؛ لأنه كان يخاف من هجوم مباغت من قبل الأزتك. وفي أثناء ذلك وصلت الأخبار تنبئ عن وصول حملة بانفيلو دي نارايث إلى بيرلورث الذي أرسله بلاثكيث للقبض على كورتيس، والاستمرار في الغزو باسم حاكم كوبا. وحينما علم كورتيس بذلك خرج مسرعاً من تينوتشتيلان لكي يواجه الحملة. وبعد أن هزمهم بسهولة قام بضمهم إلى صفوفه، وعاد مباشرة إلى تينوتشتيلان؛ لأن الأوضاع كانت قد تفاقمت هناك بسبب مذبحة النبلاء الهنود التي قام بها نائبه بدرو البارادو. وبدلاً من أن يعاقب كورتيس نائبه أجبر الإمبراطور على أن يلقي خطبة على جموع شعبه الذين ما فتئوا أن رجموه بالحجارة حتى جرح، ولاقى منيته إثر هذا الحادث بأيام قليلة، وخلفه كويتا لاهواك. وقرر الغزاة ترك المدينة، وحينما بدؤوا أو شرعوا بالانسحاب تعرضوا لخسائر فادحة. وقد نجا البارادو بمعجزة حينما قفز من فوق قناة للمياه متكئاً على حريته، وهذا المكان معروف اليوم باسم قفزة البارادو. ونقول الأسطورة بأن كورتيس نعى حظه التعيس، وأطلق على هزيمته اسم الليلة الحزينة؛ وذلك لأن هذه المعركة التي كلفت الإسبان غالباً نشبت ليلاً. وبدأ الإسبان بعد هذه المعركة في إعادة تنظيم صفوفهم، وتوطيد ائتلافهم مع الهنود المعادين للأزتيك، وبدأ الجيش الإسباني يستعيد نفسه مرة أخرى بعد أن تلقى تعزيزات من جامايكا وكانارياس؛ حيث بلغ تعداد صفوف الجيش الإسباني ٩٠٠ رجل من الإسبان و ١٥٠٠٠ من الهنود معاونين و ٨٦ حصاناً. وبدأ الجيش الإسباني في محاصرة تينوتشتيلان، وكان يحكم في ذلك الوقت كوا هتيموك خليفة كوتا لاهواك الذي كان قد توفي متأثراً بمرض الجدري.

وبالرغم من الحصار الذي ضرب حول الأزتك، إلا أنهم لم يستسلموا حيث استمروا في المقاومة من مكان إلى مكان ومن منزل إلى آخر حتى هزموا وسقط إمبراطورهم في الأسر، وبدأ الإسبان في تعذيبه لكي يعترف بالمكان الذي يخبئ فيه الكنوز.

وتقول الأسطورة بأن الإسبان قاموا بمد الإمبراطور، وأحد وزرائه فوق مضجع من الفحم المستعر، وحينما رأى الوزير الإمبراطور يتألم توسل إليه أن يسمح له بالكلام، إلا أنه أجابه بصبر ربما تعتقد أنني في فراش مصنوع من الورد. وهكذا استشهد أبطال الأزتك من دون أن ينبسوا بشكوى ومن دون أن يكشفوا عن السر الذي كان يبحث عنه الإسبان. وباحتلال تينوتشتيلان، والموت البطولي لملك الأزتك الأخير سقطت إمبراطورية الأزتك.

وأعاد كورتيس تشييد الإمبراطورية، وأطلق عليها اسم المكسيك، ثم شرع بعد ذلك في تشييد مدن أخرى. وقام الملك الإسباني كارلوس الخامس في عام ١٥٢٢م بتعيين كورتيس حاكماً، وقائداً عاماً، كما أعطاه منصباً يختص بالقضاء في إسبانيا الجديدة، وكانوا قد بدؤوا في تلك الفترة يطلقون هذا الاسم على الأراضي الجديدة. ومع وصول أول نائب للملك (أنتونيو دي ميندوثا ١٥٣٥م) بدأ تاريخ نيابة الملك في إسبانيا الجديدة^(١).

٣- غزو البيرو (مملكة قشتالة الجديدة):

مذ شاعت أول الأخبار عن وجودها عام ١٥١٣م، شكّلت البيرو محط اهتمام المغامرين جميعهم، فهي الأرض الموعودة التي حلموا جميعاً بغزوها، ومحركة الحملات التي أخضعت أمريكا الجنوبية كلها خلال ثلاثين سنة.

(١) أوخينيو تشانج رودريجيث، المرجع نفسه، ص ٨٩-٩١.

فبعد أن قطع رأس فاسكو نونيث دي بالبو، واصل حاكم كاستيا دل أورو (بنما) مشروع خصمه من دون أن يصيب نجاحاً في البدء: فالقائد الذي بعث به لاستكشاف المحيط الهادئ اكتفى بنهب الشواطئ من دون أن يجرؤ على المجازفة بالتوغل إلى الداخل.

وفي عام ١٥٢٢م، قرر مستوطنان متواضعان أن يضما ما معهما من أموال ليمولا حملة جديدة ويقتسما مكاسبهما في حصص متساوية مع حاكم بنما، مقابل إضافته الشرعية على عمليات السلب، ومنحهما رتبة قائد التي لا بد منها للفتح. وهكذا انطلق فرانشيسكو بيثارو ودييغو دي ألماغرو، الجنديان المغموران اللذان لا يتقنان القراءة والكتابة، نحو مملكة الذهب النائية التي سيدمرانها^(١).

كان الملك أو "الأنكا" يقيم في العاصمة كوشكو، وهذه العاصمة وكل المدن والعواصم الإقليمية الأخرى بنيت على الطراز المعماري نفسه، ساحة كبرى تقوم فيها المباني الرئيسية وهي قصر الملك أو مقر الحاكم الإداري والمعابد الدينية، وأهمها معبد إله الشمس، وفي وسط الساحة التي تسمى "أوزنو" مبنى حجري كبير تستخدمه فيما يبدو السلطات الملكية أو الكهنوتية للإشراف على الاحتفالات الشعبية في الميدان الكبير، وهناك أيضاً قاعات حجرية مغطاة السقف مثلثة الشكل ذات فتحات كثيرة تؤدي إلى الميدان تستخدم في عقد الاجتماعات عند هطول الأمطار وعدم إمكان الاجتماع في الساحة المكشوفة. وهذه القاعات ذات الأسقف الحجرية المثلثة تسمى "هالانكا".

ولكن هذه المملكة الآمنة مطمئنة المتقدمة المنعزلة لم يكن لها أي اتصال بالعالم الخارجي، فلا أحد يأتي لها من الخارج، ولا أحد من أبنائها يتجاوز جبال

(١) لاوريت سيجولانته، المرجع نفسه، ص ٥٣.

الأنديز حيث يقيم. وفجأة جاءت هجمة من الخارج. هجمة من حضارة مختلفة تماماً. في شكل بعثة عسكرية استكشافية صغيرة من الجنود الإسبان.

كان الإسبان في ذلك الوقت قد استولوا على معظم أمريكا الجنوبية فيما عدا جبال الأنديز التي تقف شامخة مخيفة أمامها في الغرب، ووصلت هذه البعثة العسكرية الصغيرة بقيادة القائد الإسباني بيثارو إلى مدينة كاجاماركا، وهي عاصمة إقليمية للأنكا في الأنديز في العام ١٥٣٢م. كانت البعثة تضم أقل من ١٧٠ جندياً، وعدداً قليلاً من المدافع، والخيول، ولكن هذه القلة الضئيلة من الغزاة لم تكن تنقصها الروح الاستعمارية البغيضة، وينطوي صدرها على أكبر قدر من القسوة والمخاتلة والغدر.

وصلت أنباء الغرباء القادمين من وراء الأفق إلى العاصمة كوشكو. وفرّ ملك الأنكا المدعو "أتوالابا" أن يذهب بكل حاشيته وجيشه الجرار إلى كاجاماركا للقاء هؤلاء الغرباء. وليكن سلام ومحبة إذا خلصت نية القادمين، أو فلتكن هي الحرب.

وشعر القائد بيثارو أن لا قدرة له بمواجهة هذا الجيش الجرار، فوضع خطة جهنمية لأسر ملك الأنكا لإيقاع الفوضى في صفوف جيشه الذي يبلغ زهاء ٨٠ ألفاً من المقاتلين المزودين بالحرب والسهم وتمتلى بخيامهم البطاح خارج المدينة.

وأخذ الميدان الرئيس في المدينة يعج بألاف من الخدم، والموظفين، والكهنة، والجنود غير المسلحين الذين جاؤوا استعداداً للاحتفال الرسمي باللقاء بين ملكهم، وهؤلاء القادمين من العالم المجهول.

يقول بيدرو ابن عم بيثارو قائد الغزو: "رأيت كثيرين من الجنود الإسبان يبولون على أنفسهم من دون أن يدروا من شدة الخوف".

ولكن بالرغم من هذا الخوف قرر الإسبان استغلال عنصر المفاجأة لشن هجومهم الغادر، واستغل بيثارو مباني الأنكا في الميدان الكبير "أوزنو" لتنفيذ خطته الجهنمية، فوضع بعض المدافع الصغيرة في المبنى الحجري المقام وسط الميدان للإشراف على الاحتفالات، كما أخفى رجاله في القاعات ذات الأسقف الثلاثية والفتحات الكثيرة المسماة "هالانكا" التي كانت على حد تعبير أحد الجنود الإسبان "كانها صنعت خصيصاً لتناسب أغراضهم".

وعند إشارة متفق عليها مسبقاً هدرت المدافع، وخرج الجنود الإسبان المختبئون في القاعات وانهمرت النيران من البنادق على جموع الأنكا غير المسلحين الذين لم يروا في حياتهم، ولم يتصوروا في خيالهم مثل هذه الأسلحة التي تطلق النيران القاتلة، فيسقط أمامها العشرات والمئات، فانتابهم الذعر، واستبد بهم الهلع حتى أن البعض منهم ماتوا من شدة الرعب من دون أن يصيبهم سلاح. أما الجنود الإسبان، فقد انقضوا على هذه الحشود المذعورة المسالمة، وأعملوا فيهم حصداً بسيوفهم، وحرابهم، وفؤوسهم، وبنادقهم، ومدافعهم، ثم هجموا على المحفة التي جلس عليها الملك، وانتزعوه منها بعد أن قتلوا النبلاء الذين يحملون المحفة.

كتب أحد الجنود الإسبان في مذكراته مفاخراً بهذا "النصر" يقول: "في ظرف ساعتين كانت كل هذه القوات قد أبيدت، وفي ذلك اليوم كان السهل يمتلئ بجثث ستة آلاف أو سبعة آلاف من الهنود، وكثيرون آخرون جرحوا أو فقدوا أطرافهم".

وكتب آخر يقول: "كان شيئاً لا مثيل له رؤية هذا الحاكم العظيم الأنكا وهو يقع في الأسر في مثل هذه الفترة القصيرة بعد أن جاء في قمة عظمته وقوته".

بوقوع الملك في الأسر تشتت كل جيشه، وذهب هباء؛ لأن الملك هو مركز العصب في مجتمع الأنكا، ومن دونه لا يمكن أن يصنع أحد شيئاً، تماماً

كمثل خلية النحل إذا فقدت ملكتها تبعثرت وهلكت، ولذلك يقال دائماً إن فتح البيرو جاء نتيجة مثل هذه الحركة الشطرنجية في أول اللعب: "كش ملك".

سرعان ما شعر "أتوالابا" ملك الأنكا الأسير أن هؤلاء الغزاة الغريباء لا يهتمهم سوى شيء واحد هو الحصول على الذهب والفضة، وفكر أنه يستطيع أن يفدي نفسه بفدية كبيرة من هذه المعادن الثمينة، فعرض على أسريه أن يطلقوا سراحه مقابل أن يملأ إحدى حجرات القصر بالذهب والفضة مرتين.

وأجاب الغزاة إلى طلبه. وبعد الترتيبات اللازمة سرعان ما بدأت قوافل حيوان اللاما^(١) تخرج من كل شعاب المملكة، وتقطع الطرق الملتوية الضيقة عبر جبال الأنديز متجهة إلى "كاجاماركا" حيث الملك السجين. كانت هذه القوافل تحمل أطناناً من الكنوز المعدنية الثمينة التي تبرع فيها شعب الأنكا. تماثيل رجال، وحيوان، وطيور، وكؤوس ذهبية، وفضية، ومجوهرات ومصاغ وموائد قرابين ذهبية، وأوعية ضخمة مصنوعة من الذهب الخالص والفضة النقية؛ بالإضافة إلى ٧٠٠ من الصفائح الذهبية الكبيرة التي كانت تزين جدران معبد الشمس في العاصمة "كوشكو". وجيء بهذه الكنوز إلى الإسبان فدية للملك أتوالابا.

وكل هذه الأشياء الرائعة الثمينة سحقت من دون رحمة، وصهرت في قدور ضخمة لتحويلها إلى سبائك معدنية بواسطة الغزاة المتوحشين. وقد أرسلت بعض من أحسن هذه التحف إلى إسبانية، ولكنها هناك لم تنج من المصير نفسه؛ إذ أمر ملك الإسبان بصهرها أيضاً لسك العملة الإسبانية التي تحمل صورته.

من المحتمل أن تكون فدية الملك أتوالابا هي أكبر فدية دفعت في تاريخ الإنسان. إن كل ثروات إمبراطورية الأنكا التي جمعت خلال ألف سنة قد انهمرت في هذا المكان كي تملأ الحجرة بالذهب مرة وبالفضة مرتين، ولكنها للأسف لم

(١) اللاما: وهو حيوان الحمل الوحيد الذي يعرفه شعب الأنكا، ويشبه الغزال.

تكن كافية لإنقاذ حياة الملك؛ إذ بعد أن حصل الإسبان على آخر حمل جاء به آخر حيوان من قافلة اللاما، اقتادوا أتوالابا إلى الميدان العام في كاجاماركا وأعدموه بزعم أنه كان ينظم سراً هجوماً على الإسبان.

وكانت هذه كذبة كبرى؛ لأن قادة الأنكا لم يجرؤوا على مهاجمة كاجاماركا وملكهم سجين فيها خوفاً على سلامته، والحقيقة أن الإسبان؛ لاسيما بعد أن وصلتهم تعزيزات جديدة وقرروا احتلال هذه الإمبراطورية العظيمة التي اكتشفوها، خشوا أن يطلقوا سراح الملك أتوالابا بعد أن دفع الجزية خوفاً من أن يجتمع رجاله حوله، ويقوموا بهجوم، كما خشوا أن يصطحبوه معهم في تغلغلهم داخل مملكته تحسباً من أي مفاجأة^(١).

وبعد موت الأنكا أتوالابا، أصبحت الإمبراطورية تحت رحمة الغزاة. واستولى بيثارو في عام ١٥٣٣م على مدينة كوئكو بمبانيها المرصعة بالذهب^(٢)؛ الأمر الذي جعله يفرض سيطرته على البلاد عملياً. وبدأ البحث عن مكان بحيث يكون أفضل نقطة للاتصال مع إسبانيا، ويستخدمه كعاصمة للبيرو في الوقت نفسه. ومن أجل ذلك قام بتأسيس مدينة ليما (مدينة الملوك) في ١٨ كانون الأول ١٥٣٥م^(٣).

وبالرغم من القضاء على المقاومة الهندية وإخمادها، إلا أن الدولة لم تتعم بالسلام، لأنه سريعاً ما بدأ الغزاة في الانقسام على أنفسهم بسبب الأطماع السياسية والجشع، وكان بداية الانقسام هو اغتيال ديبغو ألماغرو على يد بيثارو في السجن، وتفجرت الحرب الأهلية التي استمرت أكثر من عشرة أعوام

(١) محمد العزب موسى: حضارات مفقودة، الدار المصرية اللبنانية، طبعة ثانية ١٩٩٢، ص

١٢٦-١٢٩.

(٢) لاوريث سيجولانه، المرجع نفسه، ص ٦٢.

(٣) أوخينيو تشانج رودريجيث، المرجع نفسه، ص ٩٤.

(١٥٣٨م-١٥٤٨م)، وعاشت في البيرو دماراً، وامتدت الخلافات التي بدأت بين أماغرو وبيثارو لتشمل الغزاة الآخرين، وأقامت مجتمعاً كانت القاعدة فيه هي الحنث بالعهود، والقتل غدرًا، والمذابح الجماعية، والعقوبات الصارمة، والسطو المسلح، وحين أضعف موت الممثلين الأساسيين من حدة هذه التناحرات الشخصية، كان الفساد قد استشرى، وتوطد، حتى أن بعض الإجراءات النازعة إلى حماية الوطنيين كانت كافية لإشعال الحرب من جديد، وضد الحكومة الإسبانية نفسها هذه المرة، وقد جرى اغتيال نائبين للملك (يلاسكو مونيث بيل أول نائب للملك في البيرو، وبدرو دي لاجاكسا) قبل أن يتمكن الثالث (أنتونيو دي ميندوسا) الذي كان يشغل منصب نائب الملك في المكسيك من قبل، ومع وصول هذا النائب يبدأ تاريخ الاستعمار الطويل في البيرو^(١).

٤ - غزو فنزويلا وكيثو:

لقد حوّل نهب البيرو من مسار تاريخ الفتح كله، فبعد معرفة طبيعة الغزاة الغرياء الذين فقدوا سرهم نهائياً بعد معرفة ما الذي يسعون إليه سواء في نواياهم أو في حقيقة كلامهم، أبدى الوطنيون مقاومة عظيمة في أنحاء البلاد جميعها، ونظموا حروباً توصلت أحياناً إلى إحباط محاولات الاحتلال لأمد طويل، وحيث إن سكان تلك المناطق كانوا جماعات متعددة من الوطنيين، بلا حكومة مركزية، فإن الاستيلاء على الثروات كان يتم عموماً من خلال حملات نهب لم تستطع أن تبدل شيئاً من البنى القائمة.

إن تاريخ الحملات العسكرية المتمائلة في الأنحاء كلها، كانت تتطرق بحثاً عن الكنوز، وتنتهي إلى كارثة، تكتسب في فنزويلا صيغة درامية خاصة، حيث

(١) المرجع السابق، ص ٩٤.

حافظت هذه المنطقة على حريتها بفضل السهام المسمومة؛ إذ كان الكاريبيون (القبائل المحلية المستوطنة في تلك المناطق) قد تعلموا الدفاع عن أنفسهم. لقد كان الكاريبيون يعلمون أن الكذب هو أخطر أسلحة الغرياء، وأنه عليهم بالتالي أن يهربوا قبل وصول هؤلاء، وألا يبدووا معهم، تحت أي ذريعة، محادثة قد تقودهم إلى كارثة. وانطلاقاً من ذلك، اتخذوا إجراءات فاعلة أمام اقتراب الغزاة، فكانوا يحرقون بيوتهم، ويخبئون مؤناً ورجالاً بطريقة لا تسمح بالعثور عليهم في أحيان كثيرة. وأصبح تكتيك حرب الغوار الذي يعتمد على الكر والفر لديهم أكثر اكتمالاً؛ فصاروا يحرقون معسكرات الأعداء، ويفرون هرباً من الانتقام؛ ويمارسون الانسحاب الاستراتيجي بمهارة؛ مستغلين الظروف الطبيعية إلى أقصى الحدود؛ بنقلهم المعارك نحو مناطق المستنقعات التي تعيق حركة الخيول، أو نحو الأنهار المستحيلة على الغزاة، وحيث يستطيعون هم الحركة كالأسماك؛ أو نحو الأحراش الكثيفة التي تشكل قبوراً مؤكدة للأوروبيين^(١).

بمجرد الانتهاء من غزو البيرو تم إرسال حملات عسكرية أخرى إلى أقاليم عدة. وكانت إحدى هذه الحملات تحت قيادة نائب بيثارو (سيباستيان دي بنالكاثار) الذي قام بغزو مملكة كيتو وضمها إلى البيرو؛ حيث دخل مدينة كيتو في شهر كانون الأول ١٥٣٣م، وزحف إلى الشمال، وتوغل في أراضي كولومبيا الحالية، وأسس مدينة بويان، وتجول في وادي كاوكا إلى أن وصل إلى هضبة بوجاتا.

وقد دهش حينما وجد هناك (جونثا لواخمينيث دي كيسادا) والألماني (نيكولاس دي فيدرمان)؛ إذ إن كلاً من ملك إسبانيا وألمانيا كانا قد منحا -في الوقت نفسه- غزو فنزويلا لشركة ويلسر (التي كان يمتلكها أصحاب بنوك ألمان

(١) لاوريت سيجولانه، المرجع نفسه، ص ٦٣، ٦٦.

من أوغسبورغ)؛ وذلك لأن الملك كان يدين لهم بمبالغ مالية ضخمة. وقامت عائلة ويلسر بتعيين (أمبروسيو ألفنخر) وكيلهم السابق في إسبانيا حاكماً على فنزويلا. ووصل أمبروسيو إلى فنزويلا عام ١٥٢٨م، وحينما أدرك بأنه لن يجد ثروات كثيرة فإنه قرر القبض على الهنود وبيعهم كعبيد. وقام بتأسيس مدينة (ماراكايبو) عام ١٥٣٠م.

وبدأ المكتشف القاسي بالتوغل في أراضٍ غير تابعة له إلى أن وصل إلى نهر ماجدالينا، وبعد أن دمر وخرب الأراضي التي مر بها، التقى في معركة مع السكان الأصليين، حيث سقط جريحاً جرحاً مميتاً.

وفي عام ١٥٣٤م وصلت إلى فنزويلا حملة ألمانية أخرى بقيادة (خورخي سيبيرا و نيكولاس دي فيدرمان)، ووصل فيدرمان إلى هضبة بوجوتا بعد ثلاثة أعوام من الاكتشافات، ودهش هو الآخر أيضاً حينما وجد هناك كيسادا وبالكاثار، وبما أنه لم يكن يريد العودة؛ نظراً لأوامر سيبيرا ، فإنه تنازل لكيسادا عن الجنود الذين كانوا معه مقابل ٦٠ ألف بييزيتا.

وفي عام ١٥٤٦م أوقف ملك إسبانيا كارلوس الخامس الامتياز الذي كان قد منحه للألمان، وقام بتعيين (خوان بيريث دي تولوسا) حاكماً على فنزويلا، وقام تولوسا بتأسيس بعض المستعمرات، إلا أنه توفي بعد مرور وقت قصير، وتبعه حكام آخرون. وحينما تم تأسيس مدينة كاراكاس في عام ١٥٦٠م أصبحت فنزويلا مستعمرة مؤكدة للإمبراطورية الاستعمارية الإسبانية^(١).

(١) أوخينيو تشانج رودريجث، المرجع نفسه، ص ٩٥-٩٦.

٥ - مملكة غرناطة الجديدة (كولومبيا):

بعد أن انتهت خرافات الخان الأعظم، أو الخاقان، وخرافات يوحنا الراعي، ظهرت خرافات جديدة، اتصلت بالعالم الجديد. فوجد أن أحد رجال بيزارو، ويسمى أوروبيانوا، قد سمع بعض الهنود يتحدثون عن مملكة مليئة بالذهب، وعن أن ملكها كان يغطي نفسه بالتبر، إنه الملك الذهبي "الإلدورادو"، وكان قد ورث الأنكا، وأسس إمبراطورية جديدة في داخل القارة. وانتقلت هذه الخرافة من فم لأذن، حتى أصبحت وكأنها حقيقية. وأضاف كل فرد إليها قليلاً حتى روت وجود أسدين مقيدتين بسلاسل من الذهب لحراسة القصر الإمبراطوري، وأن الأنابيب التي توصل الماء إلى النوافير كانت من الذهب، وأن جبلاً من الذهب الخالص كان يشرف على الإقليم. وقام المستكشفون بالبحث عن "الإلدورادو" العجيب لمدة قرنين، وبحثوا عنها في كل مكان من دون أن يعثروا عليه. ولكن ذلك البحث سمح لهم بالتوغل داخل القارة، وبالسيطرة على مناطق أوسع، وينهب ما تصل إليه أيديهم^(١).

كانت الأسطورة تقول إن نهر ماجدالينا هو الممر النهري الذي يفترض أنه يصل إلى بلاد الأنكا، ولكن المستنقعات التي تغمر منطقة المصب، واضطراب مياه النهر في ذلك المكان حالاً دون تحقيق المشروع، وقد وجد مستعمرو سانتا ماريا أنفسهم مضطرين للتغلب على العوائق كلها، فقد كان أحد فروع النهر صالحاً للملاحة شريطة أن تكون السفن قليلة الحمولة، وأتيح لهم تجاوز المنطقة الضحلة في المسار السفلي بفضل نهر محدد الضفاف يتصل بنهر ماجدالينا على بعد حوالي ٥٠٠ كيلومتر.

وبعد محاولات فاشلة عدة، تمكنت حملة يقودها كيسادا عام ١٥٣٦م، من اجتياز عتبة الأرض الجديدة، وقد اضطروا -لتجاوز التيار القوي- إلى تحميل

(١) جلال يحيى، المرجع نفسه، ص ٢٢٠-٢٢١.

السفن بالأغذية فقط، ووجد الرجال أنفسهم مجبرين على السير على الأقدام حتى ملتقى النهرين، على ضفة النهر الذي أفادهم كسبيل. كان الرجال الـ ٦٠٠ يحملون اللوازم الضرورية على كواهلهم؛ لأنهم ما كانوا قادرين على الاعتماد على مساعدة الوطنيين؛ ونتيجة لمشقات الطريق العظيمة؛ ولتأخر السفن عن الوصول في موعدها - غرقت السفن الأولى، وكان لابد من تجهيز سفن أخرى، مات ثلثا الرجال. ولما كان مجرى نهر ماجدالينا يصبح أكثر خطورة، تخلى كيسادا عن البيرو ليستكشف البلاد التي تشير كل الدلائل إلى أنها كانت مزدهرة ومتحضرة، فأرسل رجاله لتسلق الجبال بحثاً عن بحيرة الملح، باتباع طريق الوطنيين الذين كانوا يقايضون ملحهم بمنتجات أهالي الساحل. وعلى الجانب الآخر من المرتفعات المذهلة، انكشف لهم بلد عجيب ذو سهول غنية، وأناس متسربلون بالذهب والزمرد. ووجد الغزاة مقاومة شديدة في كل مكان، ولكن هذا لم يمنعهم من جمع الغنائم^(١).

حتى الدخول إلى مملكة تشيبيتشا، كانت القيمة المتزايدة للغنائم هي المؤشر على المراحل. فالإسبان كانوا يحلمون بالاستيلاء السريع على كنز الملك بوغوتا الشهير، أصيبوا بقنوط شديد حين واجههم هذا الملك ليلاً ونهاراً بحرب دامت أسابيع عدة، إلى أن مات بطريقة غامضة في إحدى المعارك. وقد عانى ابنه الذي نجا من الموت من التعذيب على يد الإسبان إلى أن مات لرفضه الاعتراف بمكان الكنز، فقاد المقاومة في الجبال أحد أبناء أخيه الذي اختير من قبل وجهاء المملكة. وعندما وقع هذا الأخير في الأسر، تعهد بتقديم سلة مليئة بالذهب كغدية؛ ولكنه قضى نحبه تحت التعذيب أيضاً لتأخر وصولها.

ورغم حركات المقاومة العامة، وبقاء الكنز الملكي طي الكتمان، فإن "سجل الحملة" يسجل دخول ثروات متزايدة الأهمية، وسرعان ما سيطر الغزاة

(١) لاوريت سيجولانته، المرجع نفسه، ص ٦٨-٧٠.

المعتدون على البلاد، وقادهم جشعهم إلى اقتتراف أشنع الجرائم: فقد وصل بهم الأمر إلى انتزاع الذهب والزمرد الذي تقضي الطقوس بدفنه في بطون الموتى. وعلموا أن الهنود في منطقة نيبقا يستخرجون ذهباً شديداً النقاء من الأرض، كما بلغهم وجود منجم زمرد مثير، فتفاقت صراعات حكام الإسبان، وقادتهم للسيطرة على أرض الرخاء تلك، وتمثلت في واقعة فريدة: فوادي التشتيتشين السري، وهو المملكة المحمية بعقدة لا يمكن عبورها من جبال الأنديز، وبمئات الكيلومترات من المستنقعات والأنهار والأدغال، أصبح فجأة، كالشارع الرئيس في عاصمتهم، مكان التقاء ثلاثة مرتزقة. وفعلاً، بعد أن تمكن كيسادا من حماية المكان من مواطنيه خلال ثلاث سنوات، يصل بغتة إلى هناك الألماني فيدرمان قادماً من فنزويلا، وبنالكاثار زميل بيثارو، قادماً من كيتو^(١).

إن النزاعات على ملكية الثروات التي اكتشفتها بعثات مختلفة في وقت واحد كانت طويلة وشائكة جداً؛ مما حدا بالقادة الثلاثة إلى الذهاب معاً إلى قشتالة لحسم الخلاف، وبالرغم من جهود آل ديلسير الألمان لإقناع الملك كارلوس الخامس بأن وادي التشتيتشين يقع ضمن قضاء فنزويلا، فقد انتهى الأمر بإقضاء فيدرمان عن المنطقة فكونه أجنبياً لا يؤهله للقيام بمهمة بهذا المستوى من السمو^(٢).

٦ - الأرجنتين والتشيلي:

مع مرور الزمن ترسخت مقاومة الوطنيين للغزاة، وفتح الأرجنتين والتشيلي، وهما آخر بلدين خضعا، يوضح تلك المقاومة: فتاريخ فتح هذين

(١) المرجع السابق، ص ٧٠-٧١.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٢.

الإقليمين هو سلسلة من المآسي، لم يعد فيها الوطنيون وحدهم هم اللذين يموتون؛ وإنما تكبد الأوروبيون خسائر جعلت عملية الاستيطان تعاني لوقت طويل من الإخفاق.

إن أراضي الأرجنتين الحالية، التي ارتادها سياستيان كابوتو ما بين ١٥٢٦م-١٥٣٠م حتى أعالي بنما، عُدَّت في البدء مجرد مدخل للبيرو. ومن أجل ضمها إلى إمبراطورية الأنكا، نظمت في العام ١٥٣٥م حملة (بيدرو دي ميندوثا). كما بدأ اكتشاف تشيلي كذلك كونها جزءاً من تلك المملكة الخرافية على يد ديبغو دي ألماغرو الذي لم يخافه الشك في أنه لابد لجنوبي القارة من أن يحتوي على كنوز كثيرة مثل كنوز شواطئ البيرو، ومثل بيدرو دي مندوثا، هجر ألماغرو تلك الأماكن بعد آلام لا مثيل لها، وفناء رجاله جميعهم تقريباً الذين ماتوا تحت ضربات المقاومة، أو هلكوا بفعل الجوع الذي كان السكان المحليون يتسببون به نتيجة إحراقهم لمؤنهم عند اقتراب الغزاة. كما أرعبت الأوروبيين حرائق المستوطنات والسفن التي بدأت على ضفاف نهر ري دي لابلاتا، وكثيراً ما دفعتهم إلى الهرب وهجر المنطقة. وهكذا اختفت من الوجود العواصم الأوروبية الأولى: مثل اختفاء بوينس إيرس التي بناها ميندوثا، ومدينة سنتياغو دي تشيلي عام ١٥٤١م، وهي سنة تأسيسها^(١).

وعندما وصلت الأنباء إلى ليما بالمعاناة التي عاشها الإسبان في تشيلي، قام نائب الملك (أندرس دي أورتادو دي ميندوثا) بتعيين ابنه (جارثيا) حاكماً لهذه الأراضي. وجارثيا كان شاباً يبلغ من العمر ٢٢ عاماً حينما وصل إلى تشيلي عام ١٥٥٧م، حيث استطاع إعادة السلم بشكل مؤقت إلى الإقليم، وإنهاء الحروب الطويلة مع الوطنيين، وقام الإسبان الموجودون في تشيلي بعبور جبال الأنديز،

(١) المرجع السابق، ص ٧٢-٧٣.

حيث أسسوا مدينة (ميندوثا) في الأراضي التي تنسب اليوم للأرجنتين. وهكذا أصبح الإقليم في قبضة الإمبراطورية الإسبانية^(١).

٧- البرتغال وغزو البرازيل^(٢):

نصّت معاهدة تورديسيلاس التي وقعت عام ١٤٩٤م بين كلٍّ من الملوك الكاثوليك الإسبان وملك البرتغال خوان الثاني على إقامة خط وهمي فاصل لتحديد ممتلكات هذه الدول في الأراضي المكتشفة، وطبقاً لهذه المعاهدة فإن كل الأراضي التي كانت تقع غرب هذا الخط الوهمي امتلكتها إسبانيا، ووقعت تحت سيطرتها، أما الأراضي التي كانت تقع شرق هذا الخط فقد امتلكتها البرتغال. وقد منحت هذه المعاهدة دولة البرتغال ساحل البرازيل حتى قبل أن يتم اكتشاف هذه الدولة. وسواء أكان هذا الحدث متعمداً أم من قبيل الصدفة، فإن بدرو الفاريز كابرال حينما نزل إلى الأراضي الأمريكية في عام ١٥٠١م سرعان ما أعلن أنها أملاك برتغالية^(٣).

(١) أوخينيو تشانج رودريجيث، المرجع نفسه، ص ٩٧.

(٢) البرازيل: اشتق اسم البرازيل من رحلة برتغالية مهمة اشترك فيها أمريكو فيسبوتشي؛ ذلك لأن السفن حملت في عودتها شحنة من خشب الصباغ أحمر اللون مثل "البراساس" أي "الفحم المتوهج"، وكان لونه براقاً حتى لو أن قطعة منه وضعت على كومة من الخشب لبدت الكومة كلها، وكأنها تشتعل. وقد بيع هذا الخشب بثمن مرتفع، فكان هذا أول كنز وجده البرتغاليون في ممتلكاتهم الجديدة، وهكذا صار المكان الذي جاء منه هذا الخشب "البراسا" يعرف باسم "براسيل" أو البرازيل. انظر: روز براون: البرازيل شعبها وأرضها، ترجمة محمد عيد الفتاح إبراهيم، مراجعة عز الدين فريد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة-نيويورك، ١٩٦٩، ص ٤٤-٤٥.

(٣) أوخينيو تشانج رودريجيث، المرجع نفسه، ص ١٣٥.

لم يول ملوك البرتغال المبهورون بفتوحهم الحديثة في آسيا وإفريقية اهتماماً كبيراً بالكشف الذي حققه باسمهم كابرال، ولم يذهب أحد لاحتلال الشواطئ التي وصفها فيسبوتشي؛ مما حوّلها إلى حقل نموذجي للقراصنة الدوليين، وإلى وكر مغامرات لا نهاية لها. فمِنذ الحملة الأولى، كشفت ضفاف ذلك الأقيانوس النباتي الكثيم عن وجود البرازيل، وهو جنس أشجار تشكل أخشابها الحمراء مادة صبغية ممتازة كانت تجلب من الهند منذ زمن قصير.

كانت هذه الأراضي نموذجاً من الفوضى حين قررت البرتغال استيطانها؛ إذ إنها أخضعت خلال ما يقرب من ثلاثين عاماً لاستغلال كان على السكان الأصليين الرضوخ له، تحت وطأة أشد القوى همجية. فبيوت أجنبية كثيرة، وخاصة فرنسية، عدتها أملاكاً خاصة، كما اضطهدهم إلى حد الهوس قادة أوروبيون متسلطون^(١).

لقد شجع إهمال البرتغاليين الفرنسيين على إقامة مصانعهم الخاصة بهم على الساحل الشمالي للبرازيل، وذلك من أجل استغلال هذه النوعية من الأخشاب، وفي الوقت نفسه كان الإسبان يتجولون على شواطئ هذه الأراضي بحثاً عن ممر إلى الباسفيك؛ بمعنى أنهم كانوا يبحثون عن مضيق يربط بين المحيطين.

وقام التاج البرتغالي باعتماده على الأموال التي تأتي من الاستثمارات في الشرق بإرسال أول حملة استعمارية إلى البرازيل بقيادة (مارتن الفونسو دي سوسا) وذلك في عام ١٥٣٠ وقام دي سوسا بعد ذلك بعامين بتأسيس أول منشأة برتغالية دائمة في أمريكا، وهي مدينة (سان بيثنييتي) التي تقع بالقرب من مدينة سان باولو

(١) لاوريت سيجولانته، المرجع نفسه، ص ٦٤.

الحالية. ثم قسمت أمريكا البرتغالية بعد ذلك بعامين أيضاً إلى خمسة عشر داراً للقيادة الحربية، وكانت تحكم بالوراثة.^(١)

وبشكل عام كان الاستيطان البرتغالي في البرازيل شاقاً وبطيئاً، والمدينة البرتغالية برنامبوكو التي تم إنشاؤها دمرت عام ١٥٣٠م على يد قرصان فرنسي أباد ساكنيها، وأحرق معامل تكرير السكر فيها، ولعلاج نقص اليد العاملة الذي سببته المذابح، والهرب إلى المناطق الداخلية، طُلب من برشلونة إرسال تعزيزات من الأفارقة، حيث وصلت أول دفعة عام ١٥٥٢م من أنغولا وغينيا^(٢).

(١) أوخينيو تشانج رودريجث، المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٢) لاوريت سيجولانه، المرجع نفسه، ص ٦٤.

ثانياً - الاستعمار البريطاني في أمريكا الشمالية:

١ - دوافع الاستعمار البريطاني

دافع القادة البريطانيون لمدة طويلة، ولأسباب متعددة، عن فكرة تكوين مستعمرات بريطانية في أمريكا وكانت هزيمة الإسبان في الأرمادا، والخبرة والتجارب التي قامت بها حملات جلبت ورالي، قد مهدت الطريق للنجاح في هذا السبيل.

الدوافع الاقتصادية:

- أولاً - زيادة الفائض من رؤوس الأموال ، حيث دفع هذا بأصحاب الأعمال الأثرياء على البحث عن وسائل لاستغلال رؤوس أموالهم ، كما أن الشركات المساهمة قامت ببيع جزء من أسهمها إلى بعض المغامرين بهدف مشاركة هؤلاء في المصاريف والمخاطر التي تترتب على عمل غير مضمون العواقب؛ وبذلك ظهرت عملية الاستيطان كمشاريع قامت بها شركات أو رجال أثرياء.
- ثانياً - انتشار النظرية الميركانتيلية الاقتصادية في أوروبا -أكد حاجة بريطانيا للمعادن الثمينة - لذلك فقد أمل البريطانيون في الحصول على الذهب المتوفر في المستعمرات.
- ثالثاً - حاجة بريطانيا كذلك في الحصول على المواد الأولية - بدلاً من أن تشتريها بالذهب من بلدان أجنبية - دفعت إلى تشجيع إنشاء المستعمرات في الخارج حتى يكون مصادر للمواد الأولية التي تحتاجها بريطانيا - والتي كانت تستوردها - وأهمها: المواد اللازمة للبحرية (الصواري ، القطران ، الزفت)، والأخشاب، والسكر، والتبغ، ومنتجات المناطق الاستوائية.

- رابعاً- الحاجة إلى جعل المستعمرات سوقاً للصناعات البريطانية الزائدة.
- خامساً- رغبة بعض الناس في الحصول على أرض لأنفسهم ، وذلك لتحسن أوضاع حياتهم ، شجع على الهجرة والتوطن في أماكن بعيدة .

الدوافع الدينية:

كان ظهور عهد الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا في ذلك الوقت قد دفع إلى ظهور فئات دينية ترغب في القيام بعبادتها الخاصة بدلاً من أن تخضع لكنيسة واحدة في البلاد - الكنيسة الإنجليكانية-. وبما أن الوحدة الدينية كانت مختلطة بالوحدة السياسية، فقد أجبر الملوك البريطانيون الناس على إطاعة تعاليم الكنيسة المتبعة، وبذلك فقد تعرض كل الخارجين على هذا النظام إلى الاضطهاد، وهكذا حاول المضطهدون الهروب إلى أمريكا حيث الأراضي الواسعة، والفرص المغرية لهم للقيام بالعبادات التي تتفق مع ما تمليه عليهم ضمائرهم. ومن بين هؤلاء المهاجرين الدينيين كانت جماعات من الكاثوليك ، والبيوريتانز، والكويكرز. هذا إلى جانب الرغبة لدى المتدينين في قلب الهند إلى الديانة البروتستنتية . كل هذه إذن كانت الدوافع القوية التي ساعدت على الهجرة والاستيطان في العالم الجديد .

الدوافع السياسية والاجتماعية :

- أولاً- إن وجود فائض من السكان تحت ظل نظام اقتصادي معين قد دفع إلى البحث عن وسائل للتنفيس عن هذه الزيادة ، كما أن تجمع ملكية الأرض في أيدي معدودة نتيجة ضغط النظام الإقطاعي قد أدى إلى طرد المؤجرين عن الأرض لتحويلها إلى مراعي لتربية الأغنام ومن ثم إنتاج الأصواف ذات الأرباح العالية ، وقد اضطر كثير من الناس في الأرياف

للبحث عن العمل ، وهكذا كانت الهجرة وسيلة لحل هذه المشكلة الاجتماعية.

- ثانياً- حب المغامرة للبحث عن فرص وتجارب جديدة، قد شجع البعض إلى الذهاب إلى أمريكا.
- ثالثاً- الرغبة في الحرية السياسية دفعت جماعات أخرى إلى الهجرة فيما وراء البحار، وأخيراً فإن الحكومة البريطانية كانت تعمل على إضعاف النفوذ الإسباني عن طريق إنشاء مراكز عسكرية لها في الخارج^(١).

٢- أهم المستعمرات الإنكليزية:

أ- مستعمرة جيمس تاون:

عند وفاة الملكة إليزابيث خلفها على العرش جيمس الأول عام ١٦٠٣ م. لقد عَدَّ جيمس الأول أن من حقه أن يرث كل الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية الواقع بين خطي العرض ٣٤ و ٤٥ شمالاً، وفي عام ١٦٠٦ م أعطى الملك حقاً رسمياً لشركة مساهمة تدعى (شركة فرجينيا) بالقيام بتكوين مستوطنات في الخارج؛ تلك الشركة كانت مكونة من فرعين أحدهما في مدينة لندن، ويسمى (شركة لندن)، والآخر في مدينة بليموث ويسمى (شركة بليموث)، وبموجب هذا الحق فقد أعطيت شركة لندن امتيازاً بتأسيس مستعمرات في الأراضي الواقعة بين خطوط العرض ٣٤ و ٤١ شمالاً. وقد نصَّ أحد بنود الامتياز على أن يتمتع سكان هذه المستعمرات بالحصانات والحريات التي يمكن أن يتمتعوا بها لو بقوا في وطنهم الأم، كما أعطيت الشركة حتى حق سك النقود، وفرض الضرائب، وسن القوانين هناك مع المحافظة على سلطان العرش.

(١) محمد محمود النيرب: المرجع نفسه، ص ٣٢-٣٣

وفي ربيع عام ١٦٠٧ م اتجهت ثلاث سفن إنجليزية وعلى ظهرها مئة وخمسة رجال إلى ساحل أمريكا الشرقي، حيث حطت رجالها على أرض منخفضة في خليج شيزابيك عند مصب نهر جيمس، وقد أطلق على المنطقة اسم فرجينيا، نسبة إلى الشركة، وعلى المستعمرة اسم جيمس تاون نسبة إلى الملك. ولم يكتب لهذه المستوطنة النجاح الكامل إلا بعد بضع سنوات؛ نظراً للظروف القاسية التي لاقوها في سنواتهم الأولى، ولم يستمر هؤلاء في مكانهم الجديد إلا بفضل جرأة أحد زعمائهم، وحزمه، وإقدامه، ويسمى (جيمس سميث) .

إن ما تحملته هذه المستعمرة من صعوبات يرجع إلى:

- أولاً- إن اختيار الموقع كان غير موفق، حيث كان ذلك في منطقة تحيط بها المستنقعات ومن ثم مليئة بالمalaria.
- ثانياً- عدم وجود دافع الكد والعمل لدى الأفراد طالما أنهم كانوا شركاء في الأرباح بغض النظر عن الجهد الذي يبذله أي واحد منهم.
- ثالثاً- الجهد البسيط في التأقلم مع مثل هذه البيئة والانتفاع مما فيها من خيرات.
- رابعاً- عدم ملائمة المستوطنين لهذا النوع من العمل - فمعظمهم من الرجال الذين لم يعتادوا على ما يتطلبه الاستيطان من عمل وجهد شاق.
- وأخيراً- ضياع الوقت في البحث عن الذهب، وعن ممر إلى جزر الهند الغربية .

ب- مستعمرة بليموث:

في عام ١٦٣٠ م، أصدر الملك البريطاني امتيازاً جديداً بقضي استعمار الأراضي كلها الواقعة بين خطي العرض ٤٠ ، ٤٨ شمالاً؛ أي الأراضي المعروفة باسم إنجلترا الجديدة ، وقد كان معظم المهاجرين إلى هذه الأراضي من أولئك

الذين تعرضوا للاضطهاد الديني في إنجلترا بصورة خاصة، وفي القارة الأوروبية بشكل عام. فجماعة المتدينين الانفصاليين في بريطانيا كانت تؤمن بضرورة استقلال كل مذهب ديني بحيث يضع تعاليمه بنفسه من دون تدخل الكنيسة الأنجليكانية، ولكن هذه الكنيسة رفضت السماح لهذا النظام، وبذلك بدأت جماعة الانفصاليين تعارض سلطة الكنيسة الأنجليكانية كونها سلطة تعسفية؛ مما عرض الجماعة للاضطهاد الديني. وعلى ذلك فقد قررت فئة منهم تسكن مدينة سكروبي الإنجليزية الهجرة إلى هولندا، ولكنهم لم يرغبوا في أن يصبح أبناؤهم رعايا هولنديين، فعزموا على الهجرة إلى العالم الجديد.

وقد تولت جماعة من التجار الإنجليز في لندن تمويل هجرتهم مقابل حصة من الصادرات التي تعهدوا بإرسالها إلى إنجلترا في المستقبل، وقد انضم إلى هذه الجماعة أناس من لندن رغبوا في الهجرة بحثاً عن حياة أفضل. وعلى ظهر سفينة سموها ميفلاور؛ غادر هؤلاء الحجاج - هكذا كانوا يسمون أنفسهم - مرفأ بليموث في إنجلترا في ١٦ أيلول عام ١٦٢٠ م . وكانت وجهتهم فرجينيا.

عندما أجبرت العواصف السفينة أن تتجح عن طريقها ، ووجد الحجاج بأنهم سينزلون على أرض خارج حدود منطقة فرجينيا، واتفقوا فيما بينهم على وضع ما سموه (ميثاق ميفلاور). تعهد الجميع في هذا الميثاق على إطاعة نظام الحكم تكون فيه الكلمة الأولى للغالبية، وفي عام ١٦٢١م حصل هؤلاء على ملكية الأرض التي نزلوا عليها بكتابة ميثاق مع (مجلس نيو إنجلاند) الذي خلف شركة فرجينيا، وقاموا بتأسيس مدينة صغيرة سموها بليموث في ولاية ماستشوستس الحالية.

وبجانب الزراعة، فقد زاول هؤلاء تجارة الفراء. كان أول شتاء قضاء الحجاج - هناك - قاسياً؛ مما أدى إلى موت أكثر من نصفهم. وظل تطور المستعمرة ببطيئاً ، ولم يزد عدد سكانها على ٣٠٠ نسمة. في البداية كان الحاكم

ومعاونوه يجتمعون مع كل السكان للقيام بإصدار التشريعات الضرورية للمستوطنات، وتنظيم المحاكم، وقد سميت هذه الاجتماعات في كل مستوطنة (اجتماعات القرية)، وهذه تُعد بمثابة ديمقراطية مباشرة في الحكم، وفيما بعد؛ وبسبب ازدياد عدد السكان، وباستحالة اجتماع الكل في مكان واحد، فقد أصبحت البلدان الأبعد تختار ممثلين عنها لحضور الاجتماع التشريعي العام. كان وليام برادفور هو أول حاكم لمستعمرة بليموث، وقد دام حكمه حوالي ثلاثين عاماً. في عام ١٦٨٦م، أصبحت بليموث جزءاً من (اتحاد نيو إنجلاند) الدينية الكاملة للجميع.

ج- كونيكتيكت:

إن وجود أرض خصبة حول نهر كونيكتيكت ومغريات تجارة الفراء كان الدوافع الرئيسة حول إنشاء هذه المستوطنة، أما الخلافات حول الأمور الدينية والسياسية، فقد كانت عبارة عن دوافع ثانوية في تأسيسها. وهكذا قام توماس هوكر في عام ١٦٣٦م بقيادة جماعة من المهاجرين من نواحي بوسطن متجهاً إلى الغرب، وأنشؤوا مستعمرة هارت فورد، وفي العام نفسه أقيمت مستوطنات أخرى بواسطة مهاجرين من منطقة ماستشوستس. وفي عام ١٦٣٩م قام سكان هذه المستوطنات بكتابة ما أسماه (قوانين كونيكتيكت الرئيسة) التي وضعت نظام الحكم في هذه المستوطنات، وتُعدّ هذه القوانين أول دستور مكتوب للحكم في أمريكا. وقد تضمن هذا الدستور حكومة تمثيلية لكونيكتيكت سميت (المحكمة العامة)، وقد جمعت المحكمة في يدها سلطات تشريعية وقضائية وإدارية بحيث تشبه المحكمة العامة في ماستشوستس.

وكانت جماعة بيوريتان لندن قد أنشأت ما سمته بمستوطنة **نيوهيفن** عام ١٦٣٧م بقيادة كل من القسيس جون دافنبورت والتاجر ثوفيلس إيثون. هذه

المستعمرة التي سكنها البيوريتان فقط، كانت قد تعرضت لمتاعب عدة بحيث اضطرت في عام ١٦٦٢ م بأن تنضم إلى كونيكتيكت تحت ميثاق واحد بين المستعمرتين.

د - نيوهامشير، ومين:

في عام ١٦٢٣ م، وهبت الحكومة البريطانية قطعتين من الأرض شمال ماستشوستس؛ واحدة للكابتن جون ميسون، والأخرى إلى فردناندو جورجيس. أما الأول، فقد أخذ الجزء الغربي وسماه نيوهامشير، وأما الثاني، فقد أخذ الجزء المحاذي للساحل وسماه مين. وعندما لم ينجح القادمون الجدد في عملية التوطين، فقد استوطن هذه المناطق مهاجرون من ماستشوستس، وأصبحت حكومة المناطق الجديدة تابعة لمستعمرة الخليج. وفي عام ١٦٧٩ م جعل الملك شارل الثاني نيوهامشير مستعمرة مستقلة، أما مين فقد بقيت جزءاً من ماستشوستس إلى أن دخلت الاتحاد الفيدرالي عام ١٨٢٠ م.

أما الجزء المتبقي من نيو إنجلند الذي يدعى فيرمونت، فإنها كانت جزءاً من نيويورك إلى أن قبلت كولاية مستقلة في الاتحاد الفيدرالي عام ١٧٩١ م. وعندما عارضوا حكم البيوريتانيين الديني، فقد أجبروا على المغادرة أو اختاروا طواعية أن يتركوا بوسطن، وكان جون ونثروب من أشهر قادة بوسطن، وقد خدم كحاكم معظم الفترة من ١٦٣٠-١٦٥٠ م.

هـ - مستعمرة رود آيلند:

عدم التسامح الديني الذي سيطر على حكام ماستشوستس كان لا بد من أن يؤدي إلى معارضة بعض سكان المستعمرة، وكل معارضة -كما قلنا- كان يحكم عليها بالطرد. وهذا ما حصل مع روجر وليامز أحد سكان ماستشوستس. لقد كان

قسيماً مثقفاً تخرج في جامعة كامبردج، وقد جلب على نفسه غضب حكام بوسطن البيوريتان ومعارضتهم لاختلافه معهم في الرأي بخصوص طريقة الحكم في بوسطن. لقد آمن وليامز بضرورة فصل الكنيسة عن الحكومة، ودعا إلى استقلال كل طائفة لوحدها (بمعنى أنه عارض حكم البيشوبس). كما آمن بالحرية الدينية للفرد، ودعا إلى أن الطريقة الشرعية الوحيدة للحصول على الأرض؛ إنما يجب أن تكون عن طريق شرائها من الهنود. وهكذا كان لابد لوليامز من الرحيل، حيث اتجه إلى جنوب بوسطن، وأسس هناك -مع ما لحقه من أتباع- مستعمرة رود أيلند التي أصبحت تجمع فيها مستوطنات عدة.

في البداية عندما حكم على وليامز بالخروج عام ١٦٣٥ م، هرب إلى هنود نرقنست. وفي عام ١٦٣٦ م بدأ مستوطنة بروفندس التي أصبحت أساساً لرود أيلند. ظهر هناك معارض آخر لنظام الحكم في بوسطن، وهذه المرة كانت السيدة آن هتشنسون التي أوجدت نزاعاً في بوسطن بسبب معارضتها للحكم الديني، وبذلك خرجت وأتباعها من بوسطن، وأنشأت مستوطنة بورتسموث عام ١٦٣٨ م بالقرب من بروفندس - مستوطنة وليامز. في عام ١٦٩٣ م ظهرت معارضة في بورتسموث كان قائدها وليام كود نقتون حيث أجبر أهالي المستوطنة هذه المجموعة على ترك بورتسموث، فرحل هؤلاء، وكونوا لهم مستوطنة في نيويورك. هذا وقد ظهر معارض آخر في بوسطن يدعى صامويل نيويورك، وعندما أجبر على الرحيل قام بإنشاء مستوطنة ووروك عام ١٦٤٣ م. وبهذا أصبح عدد المستوطنات في رود أيلند أربعة. في عام ١٦٤٤ م استطاع وليامز الحصول على ميثاق من البرلمان البريطاني بالسماح بوجود أربع مستوطنات في رود أيلند ، وفي عام ١٦٦٣ م أعطى البرلمان لهم ميثاقاً دائماً حيث ضمن هذا الميثاق الحرية، وفي عام ١٦٩١ م، انضمت إلى مستعمرة ماستشوستس.

وبسرعة أخذت بعد ذلك تتوطد الأمور على ساحل ماستشوستس وخاصة بعد أن وفدت جماعات كثيرة من البيوريتانيين، حيث كان هؤلاء يعترضون على الكنيسة البروتستانتية البريطانية من دون أن يفكروا في الانفصال عنها؛ إنما كانوا يريدون تنقيتها. وقد لقي هؤلاء نجاحاً سريعاً؛ بسبب تنظيمهم؛ مما جعل عددهم يزداد بسرعة.

و - مستعمرة خليج ماستشوستس:

هي أولى المستعمرات التي أنشأتها جماعة البيوريتانيين، وقد كانت هذه أكبر وأكثر أهمية من مستعمرة بليموث، وقد بدأت كمشروع تجاري للصيد البحري، وفيما بعد وفد إليها آلاف من البيوريتانيين الذين يعملون في الزراعة. في عام ١٦٢٩ م قام منشئو المستعمرة الأولين بالحصول على ميثاق بالحكم الذاتي للمستعمرة، وتُعد سنة ١٦٣٠م البداية الرسمية لهذه المستعمرة، عندما عين جون ونثروب حاكماً لها حيث استقر بقرابة ألف من أتباعه في جهة سميت بوسطن، وفيما بعد ظهرت قرى جديدة محيطة ببوسطن بين ١٦٣٠م-١٦٤٠م، نتيجة موجة من الهجرة أطلق عليها (الهجرة الكبرى)، حيث جاء حوالي ٢٥,٠٠٠ من البيوريتانيين إلى ماستشوستس للهرب من اضطهاد الكنيسة الأنجليكانية خلال حكم شارل الأول.

ز - اتحاد نيو إنجلاند الكونفدرالي :

نظراً للأخطار العسكرية التي تعرضت لها مستعمرات نيو إنجلاند من القبائل الهندية، ومن الهولنديين في الجنوب الغربي، ومن الفرنسيين في الشمال (كندا)، فقد ظهرت أول فكرة لجمع هذه المستعمرات في وحدة واحدة عام ١٦٤٣م. وقد تكون الاتحاد من أربع مناطق: ماستشوستس، وليموث، وكونتيكت ونيوهيفن،

وقد استمر هذا الاتحاد حتى عام ١٦٧٤م، ولكنه لم يكن فاعلاً إلا حتى عام ١٦٦٥م. أما (الخارج) في رود آيلند فلم يسمح لهم بالانضمام إلى الاتحاد. وقد كانت كل منطقة ترسل اثنين من الممثلين عنها ليقرروا سياسة الاتحاد تجاه القبائل الهندية ، والعلاقة مع الدول الأجنبية ، وحسم الخلافات الداخلية بين المناطق . وقد انحل الاتحاد لعدم تعاون منطقة ماستشوستس.

ح- تأسيس المستوطنات الجنوبية:

أنشئت المستوطنات الجنوبية جميعها بواسطة عقود خاصة، ما عدا فرجينيا وديلاوير حيث أنشئت كشركات تجارية.

١- ميريلاند:

كان السير جورج كالفرت قد حصل من الحكومة البريطانية على قطعة أرض تُعدُّ منحة، وتمتد من نهر البوتوماك حتى خط عرض ٣٩°٤٠'، وذلك لتوطين بعض الكاثوليك البريطانيين الذين تعرضوا للاضطهاد الديني في عام ١٦٣٢ م. وعندما توفي كالفرت آلت الملكية إلى ابنه سيليوس كالفرت. وفي عام ١٦٣٤ م أنشئت أول مستوطنة في سينت ميري، وقد نمت أحوالها منذ البداية كمستوطنة زراعية، واستفادت من خبرات فرجينيا (لأنها مستوطنة أقدم) وكذلك من المساعدات المادية التي قدمتها تلك المستعمرة. لقد كانت سينت ميري نموذجاً للمستوطنات الخاصة، فقد كان كالفرت يؤجر إقطاعات كبيرة (١٠٠٠-٣٠٠٠ هكتار) لبعض اللوردات الكبار، وهؤلاء يؤجرونها إلى صغار المزارعين، وهكذا فقد انتقل النظام الإقطاعي البريطاني إلى أمريكا. ولم يكن لصغار المزارعين أي واجبات تجاه اللوردات الكبار إلا أن يدفعوا ضريبة صغيرة ، وهكذا بصورة فعلية ، فقد كان صغار الملاك هم الذين يملكون الأرض.

٢- توطين مناطق الكارولانيا:

ما يسمى حالياً شمال وجنوب كارولينا مع كقطة واحدة في جنوب مستوطنة فرجينيا إلى ثمانية من أصدقاء الملك شارل الثاني عام ١٦٦٣ م. وقد بدأ توطين هذه المناطق بنجاح في عام ١٦٧٠ م، عندما قامت حملة استكشافية بإنشاء مدينة شارل، وفيما بعد سميت شارلستون، وقد طلب أصحاب المنحة من الفيلسوف جون لوك بأن يكتب لهم نظاماً للحكم في هذه المنطقة، وقد أطلق عليه (الدستور الأساسي لكارولينا). وقد أصبح هذا الدستور مثلاً للنظام الإقطاعي؛ مما جعل السكان لا يرغبونه؛ نظراً لاختلاف الظروف في العالم الجديد، وهكذا كان مصيره الفشل. ومع مرور الزمن فقد عمل هؤلاء لأنفسهم نظام حكم يناسبهم. فشلت هذه المناطق في تأسيس نظام زراعي ناجح؛ وبالتالي فقد اتجهوا إلى تجارة الجلود مع القبائل الهندية في الجنوب الغربي. وبمجيء عام ١٧٠٠م نجحوا في زراعة الأرز الذي أصبح يجلب لهم أرباحاً عالية، وهذا دفعهم إلى استيراد الرقيق لفلاحة الأرض، وهكذا ظهر نظام الاعتماد على الرق في العالم الجديد.

استقل القسم الشمالي من هذه المنطقة في عام ١٧٢٩م، عندما باع أصحاب العقد الأول حقهم إلى الملك، وازدهرت في المناطق الوسطى منه مستوطنات جديدة. وباستقلال هذه المنطقة عن شارلستون، ظهر فيها مجتمع ديمقراطي تتكون غالبية من صغار الملاك، حيث اختلف هذا تماماً عن النظام الأرستقراطي الذي ظهر في فرجينيا وكارولينا الجنوبية.

٣- جورجيا:

كانت هذه آخر مستوطنة بريطانية أنشئت في أمريكا الشمالية، وقد تأسست هذه المنطقة بمنح جيمس أوغليثورب - الذي كان يرأس مجلساً خيرياً -

عقداً لمنطقة من الأرض في عام ١٧٣٢ م، وفي السنة الثانية بدأ أوائل المهاجرين يصلون إلى المنطقة، وأسسوا مدينة سفانا. وكان هؤلاء المهاجرون قد حضروا من مناطق مختلفة من الجزر البريطانية: اسكتلندا، وسالزبورج، وويلز؛ بالإضافة إلى إنجلترا.

أهم البواعث التي ساعدت على إنشاء جورجيا كانت:
أولاً- خلق منطقة تفصل بين الكارولينا وبين الإسبان في فلوريدا إلى الجنوب.

ثانياً- لجعلها ملجأ لأصحاب الديون الذين كانوا في سجون بريطانيا.
ثالثاً- لجعلها ملجأ لأولئك البروتستنت الذين تعرضوا للاضطهاد الديني في أوروبا

أخيراً- لمحاولة إقناع الهنود باعتماد المسيحية. وقد كانت الخطة بأن يعتمد الاقتصاد على صغار الملاك لإنتاج الحرير والنبذ، ولكن لم تنجح هذه الخطة إلا عندما وضعت قوانين ضد الملكيات الكبيرة وضد الرق. وهكذا فقد أدى هذا إلى ظهور نظام اقتصادي يشبه ذلك الذي في كارولينا الجنوبية. في عام ١٧٥١ م، أصبحت جورجيا مستوطنة ملكية.

ط- تأسيس المستوطنات الوسطى

أصبحت المستوطنات الوسطى بريطانية في عهد الملك شارل الثاني، بعد عودة ملوك أسرة المستويات إلى الحكم. كدوق يورك، وكذلك وليام بن، والذين يُعدّان المؤسسين لكل من نيويورك، وبنسلفانيا، ونيوجيرسي، وديلاوير. كانت الأخيرة تشبه إلى حد كبير المستوطنات الجنوبية.

١- نيويورك:

أنشئت هذه المستوطنة أصلاً بواسطة الهولنديين، وقد استولى عليها البريطانيون بعد حروب ثلاثة مع الهولنديين خلال القرن السابع عشر، فقد وجد البريطانيون بأنها تفصل مستوطناتهم الجنوبية عن الشمالية، وبذلك تشكل خطراً على القسمين، كما أنها كانت تنافسهم في تجارة الفراء. ولذلك فقد منح الملك شارل الثاني أخاه دوق يورك في عام ١٦٦٤م الأرض الواقعة بين كونيكتيكت وديلاوير، وأعانه بأسطول بحري للاستيلاء عليها، وقد استطاع الدوق الاستيلاء عليها في السنة نفسها، وغُيّر اسمها إلى نيويورك، وقد كانت أول المستوطنات ديمقراطية؛ نظراً للحكم الفردي الذي تمتع به الدوق في المنطقة.

٢- بنسلفانيا:

كان وليام بن قد أنشأ مستوطنة على غرار أوغلتورب في جورجيا، وكان باعته على ذلك حتى تكون ملجأً للكويكرز من الاضطهاد الديني الذي تعرضوا له في أوروبا. في عام ١٦٨١م منح الملك شارل الثاني هذه المنطقة إلى وليام بن كتعويض لدين كان عليه لوالد وليام. وقد تمتعت هذه المستوطنة - التي أطلق عليها وليام (التجربة المقدسة) - بحرية العبادة، وبنظام حكم مستقل. كما تمتعت أيضاً بحسن المناخ والاستفادة من المهاجرين الأولين إليها. كان يحكم المستوطنة مجلس تشريعي واحد، ولكن هذا النظام لم يناسب المستوطنين؛ نظراً لاتساع رقعة الأرض، حيث كان يكره هؤلاء دفع الضريبة الصغيرة إلى صاحب العقد.

استرعت حرية النظام في هذه المستوطنة انتباه الكثير من المهاجرين، وهكذا فقد نمت أحوالها بسرعة شديدة. كان الإعلان عن نظام الحكم في هذه المستوطنة في ألمانيا قد استرعى انتباه الكثير من المتطرفين الدينيين هناك؛

خصوصاً رخص الأرض والحرية الدينية، وعلى ذلك فقد شملت هذه المستوطنة أنواعاً متباينة من المهاجرين أكثر من أي مستوطنة أخرى في أمريكا الشمالية.

٣- ديلاوير:

أنشئت هذه المستوطنة أصلاً بواسطة السويديين، ثم احتلها الهولنديون، وفيما بعد أصبحت ضمن المنطقة التي منحها الملك شارل الثاني إلى أخيه دوق يورك. في عام ١٦٨٢ م اشترى هذه المستوطنة من دوق يورك حتى يحصل على مخرج إلى البحر لمستوطنة بنسلفانيا. في عام ١٧٠٢ م، أعطى لهذه المستعمرة حق انتخاب مجلسها العام، ولكن بقيت عائلة بن صاحبة الحق فيها؛ ومن ثم كانت تعين حاكم المستوطنة.

ي- مستوطنات وست إنديز:

لم يستوطن البريطانيون في الأرض اليابسة فقط؛ وإنما أنشؤوا مستوطنات أخرى بحرية مقابل الساحل الشرقي لقارة أمريكا الشمالية. فقد أنشأ السير جورج سومرز مستوطنة في جزيرة برمودا عام ١٦١٢ م وذلك لزراعة التبغ، ثم استوطن بريطانيون آخرون في جزيرة باربادوز عام ١٦٢٥ م، وكذلك فيما بعد سينت كريستوفر عام ١٨٢٣ م وذلك لغرض زراعة قصب السكر في هذه المناطق، حيث أصبح المحصول الرئيس لها. أما جزيرة جاميكا، فقد حصل عليها البريطانيون بعد حرب مع إسبانيا عام ١٦٥٥ م؛ حيث استخدمت أيضاً لزراعة قصب السكر معتمدة على جلب الرقيق للعمل في الأرض. وقد اتضح بأن هذه المستوطنات

البحرية كانت مريحة للبريطانيين أكثر بكثير من المستوطنات في الأرض اليابسة في كل ساحل الأطلنطي الغربي^(١).

➤ التوسع الإنكليزي في كندا:

عندما ثبّت الإنكليز نفوذهم في أمريكا الشمالية، وشكّلوا المستعمرات الإنكليزية المستقرة فيها، وعندما ازدادت حدة التنافس بينهم وبين الفرنسيين المجاورين لنفوذهم بدؤوا يمدون نفوذهم في الأراضي الكندية عن طريق جماعة الإنكليز المستقرين في أمريكا الشمالية وبمساعدة الحكومة البريطانية متحدين بذلك النفوذ الفرنسي هناك.

ويعد **وليم بت** "Pitt" الذي تسلم الوزارة البريطانية عام ١٧٥٧م من أشهر السياسيين الإنكليز الذين قالوا بسياسة التوسع البريطاني في كندا كأسلوب عملي وجاد من أساليب التنافس البريطاني-الفرنسي. وكانت سياسة بت قائمة على أساس ضرورة التوسع في العالم الجديد باتجاه المناطق الشمالية والغربية من المستعمرات الإنكليزية. وكان هذا الاتجاه يشجع من قبل الجماعات الإنكليزية المستقرة هناك.

كانت الخطوة الأولى التي قامت بها وزارة بت هي الاستيلاء على لويسبرج "Lousiburg" التي تعد مفتاح المستعمرات الفرنسية في كندا، وهي واقعة على جزيرة رأس بریتون. وقد قاد الجيوش البريطانية هناك جيمس ولف "James Wolf" بالتعاون مع القائد البريطاني الجنرال أمهرست "Amherst" القائد العام للقوات البريطانية في أمريكا الشمالية.

وخرجت حملة بريطانية ثانية من ولاية ماساتشوستس بقيادة القائد العام البريطاني ددلي براد ستريت "Dudley Bradstreet" كان أفرادها من سكان

(١) المرجع نفسه، ص ٣٤-٤٢.

المستعمرات الإنكليزية في أمريكا. واستولت على قلعة فرونتناك على نهر سانت لورانس عند بحيرة أونتااريو.

وتابع البريطانيون زحفهم على الأراضي الكندية ولم يستطع الفرنسيون ردهم. فقاد الجنرال البريطاني فوربز "Forbes" يرافقه القائد الأمريكي المعروف جورج واشنطن حملة ضد الأراضي الكندية، فاستولت على قلعة ديكونز التي غير اسمها ليصبح قلعة بت ثم أصبحا فيما بعد تسمى بقلعة بتسبرغ نسبة إلى رئيس الوزراء البريطاني بت صاحب فكرة مشروعات التوسع البريطاني في كندا وأمريكا الشمالية.

لقد حاولت بريطانيا أن توحد هذه الولايات الكندية التي استولت عليها، وأصدرت القوانين التي تمنحها الحكم الذاتي -كما هو الحال في الولايات البريطانية- بإنشاء الاتحاد العام في كندا، وقد أطلق عليه اسم الاتحاد الكندي الذي ضم الولايات البريطانية في كندا. ما عدا جزيرة نيو فاوندلاند التي تشكل مستعمرة بريطانية خارجة عن هذا الاتحاد^(١).

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٢٨-٢٩.

➤ خاتمة:

الواقع أن هؤلاء الغزاة لم يكافؤوا على المجهودات التي قاموا بها إلا من الناحية المعنوية، وذلك بتسجيل أسمائهم في تاريخ الاستعمار؛ لاسيما وأنهم قد تحاربوا فيما بينهم، وشابهوا في ذلك الأطفال الذين يتنازعون لعبة معينة، كما شابهوا رجال العصابات الذين يقتتلون عند تقسيم الأسلاب، ولقد غضب البلاط عليهم. فكان يتهمهم بالخطورة إذ كانت لهم صفات رجال الدولة مثل كورتيز، وكان البلاط يقضي عليهم ويبعدهم، إذا لم يتميزوا بصفات القيادة. وكثيراً ما قضى عليهم في أثناء قيامهم بعملياتهم إما من قبل الإسبان، وإما من الهنود الحمر، مثل بالبو الذي قُطعت رأسه، وببزارو الذي طُعن بالسيف، وغيرهما ممن غرق أو توفي بالحمل، أو أصابه الجنون أو وقع بأيدي الهنود الحمر، ولكنهم قاموا بعمل استعماري واضح، وامتدت الإمبراطورية الإسبانية التي أنشؤها، واشتملت على كل جزر الأنтил، والبرزخ الذي يصل بين الأمريكيتين، والمكسيك مع سواحلها، وجزء مهم من الشريط الساحلي للقارة الجنوبية، واشتملت على إمبراطورية الأنكا والأزتك. امتدت هذه الإمبراطورية من كاليفورنيا حتى شيلي، ولمسافة عشرة آلاف كيلو متر، ولم يحكم الإسكندر الأكبر ولا روما ولا جنكيز خان مثل هذه الإمبراطورية.

ولكن هناك نقطة ضعف أخذت في الظهور بالنسبة لهذه الإمبراطورية، وكان ذلك بسبب المرسوم البابوي الذي احتفظ للبرتغاليين بالأراضي الواقعة إلى شرق خط التقسيم. ولقد تمكن كابرال من استكشاف أحد السواحل في هذه المنطقة لحساب بلاط لشبونة، وسماه ساحل الصليب المقدس "سانتاكروز". وكانت هذه المنطقة هي التي تزود العالم بخشب الموجونو. وتحولت سانتاكروز فيما بعد إلى البرازيل، واكتشف فيها أحد الغزاة في شهر كانون الثاني ١٥٣١ خليجاً جميلاً، أنشأ عليه مدينة سميت ريو دي جانيرو. وبدأت الإمبراطورية البرتغالية في

الاتساع في العالم الجديد. ولكن اليوم الذي ضمت فيه إسبانيا البرتغال سنة ١٥٨٠م وحدّ هاتين الإمبراطوريتين اللتين امتدتا من الميسيسيبي حتى أقصى الجنوب، وأصبحت كلها إسبانية، وأفادت قشتالة من كل هذه العملية^(١).



(١) - جلال يحيى، المرجع نفسه، ص ٢٢١-٢٢٢.





الفصل الرابع
النظام السياسي الاستعماري الأوروبي
في القارة الأمريكية



أولاً- الإدارة الإسبانية (إدارة الهند الغربية):

فكر الإسبان في طريقة حكم البلاد الجديدة قبل احتلالهم الفعلي لها. وتعد القرارات التنظيمية التي أصدرها كولومبس في ٢٩ أيار ١٤٩٣م أولى الخطوات المهمة في إدارة الهند الأمريكية والجزر الملحقة بها. (بما في ذلك جزر الفيليبين التي اكتشفها ماجلان فيما بعد؛ أي في عام ١٥٢١م وسماها بالفيليبين إكراماً لملك إسبانيا فيليب الثاني قبل إلحاقها بإسبانيا عام ١٥٧٣م).

كان الإسبان يرغبون في النظر إلى البلاد الجديدة التي يستولون عليها كممتلكات مكتسبة بالقوة تابعة لتاج قشتالة الإسباني، تدل على ذلك عبارة (ممالكنا خلف البحار) التي كانوا يستعملونها بكثرة. ولعل التعبير البرتغالي -"مقاطعات ما وراء البحار" الذي استخدمه سالازار منذ عام ١٩٥١م- يعود إلى التعبير آنف الذكر. أما المفهوم الحالي للاستعمار (Colonia) فلم يكن معروفاً آنذاك في اللغة الإسبانية؛ وإنما تأخر انتشاره وقتاً طويلاً قبل أن يدخله البوربونيون في القرن الثامن عشر في الاستعمال السياسي^(١).

بعد أن انتهت عملية الغزو الإسباني، بدأت فترة الاستعمار التي شملت القرنين السابع عشر والثامن عشر، واستمرت حتى فجر القرن التاسع عشر. وخلال هذه الفترة توالى على حكم شبه الجزيرة الإيبيرية كل من : فيليب الثاني (١٥٩٨-١٦٢١م)، وفيليب الرابع (١٦٢١-١٦٦٥م)، وشارل الثاني (١٦٦٥-١٧٠٠م) من البيت النمساوي. وفيليب الخامس (١٧٠٠-١٧٤٦م)، وشارل الثالث (١٧٥٩-١٧٨٨م)، وشارل الرابع (١٧٨٨-١٨٠٨م)، وفردناند السابع (١٨٠٨-١٨٣٣م) من البيت البروربوني.

(١) ساطع محلي : المرجع نفسه، ص ٨٥.

على الرغم من أن الوثائق التاريخية التي تعالج تاريخ القارة الأمريكية في القرن السابع عشر لم تكن كثيرة، وكانت غير معروفة لكثير من المؤرخين، وشملت مخطوطات تعود إلى القرن السادس عشر، فإن دراسة الاستعمار الإسباني في القارة ، التي شملت النواحي السياسية والتشريعية والاقتصادية والترتيبات الإدارية كافة لم تكن مستحيلة.

مع نهاية عهد فرديناند-إيزابيلا (١٤٧٤-١٥١٢م)، وعلى الرغم من أن الملكة إيزابيلا قد أوصت أن يتم معاملة السكان الأصليين للمستعمرات في الأطلسي معاملة طيبة، فإن خلفاءها شارل الخامس (١٥١٦-١٥٥٦م)، وابنه فيليب الثاني (١٥٥٦-١٥٩٨م)، قاما بإلغاء الحريات والحقوق كافة التي كان السكان الأصليون يتمتعون بها، على حساب استبدادهم، كما أبادوا الأساس الشعبي للوحدة الوطنية القومية للقارة الأمريكية. وكان الأمريكيون قد اعتمدوا على هذه الحقوق الوطنية للمطالبة بالاستقلال الذي كان شارل الخامس وابنه فيليب الثاني قد حرماهم منها.

وعلى الرغم من ذلك، فإن شارل الخامس وابنه فيليب الثاني كانا أكثر ملوك الأسرة النمساوية حظاً وقدرة على التأثير في تاريخ القارة^(١).

أعلن تاج قشتالة للملوك، والدول امتلاكه للعالم الجديد في عام ١٥١٩م استناداً إلى منحة الكرسي البابوي، وإلى الحقوق الأخرى، وبشكل يجعل من هذا التاج صاحباً للهند الغربية، وللجزر والقارات الموجودة في البحر المحيط، سواء التي اكتشفت أو التي ستكتشف فيما بعد، وجاء عصر الاستعمار بعد عصر الغزو؛ أي عصر الاستغلال لإتمام عملية الفتح، والوصول بالوسيلة إلى الهدف. ولم يكن الإسبان مستعدين في هذا الوقت لإدارة إمبراطورية شاسعة، بهذه الطريقة،

^(١) Hugo D. BARAGELATA, Histoire De L'Amérique Espagnole, Avec 2 cartes dans le texte, Librairie Armand Colin 103, Boulevard Saint-Michel, Paris 1936, p 133.

لكنهم تمكنوا رغم ذلك من حكمها وإدارتها، بالسيف والنهب وبالقتل، وبغيرها من الوسائل التي كانت سهلة، وأسهل بكثير من إدارة شعوب غلبت على أمرها وحكمها.

ولم يتورع الإسبان من اتخاذ أية وسيلة للوصول إلى أهدافهم البدائية التي كانت تتلخص في الحصول على الذهب وشحنه في السفن. ولم يتردد الحكام الإسبان الأوائل، قانوناً أو فعلاً، أمام وخز ضمايرهم؛ بل كانوا يعملون، ويعملون لأنفسهم إن لم يكونوا يعملون من أجل الملك. فكانوا يقسمون الكنوز بين الجنود، ويقسمون الأرض بين الضباط، وإذا قاموا بأي مجهود للإدارة، فإن هذا المجهود لم يزد عن كونه نقل نظم إسبانيا إلى أمريكا كما هي، فكانوا يعينون القضاة والقادة، كما لو كانوا في الجزيرة الخضراء، أو في قادش. وحلت السلطة الملكية مع الزمن محل أهواء الإقطاعيين والغزاة، وإن كانت العملية قد تمت على مراحل، وأنشأت هذه السلطة الملكية حكومة مباشرة، كما كانت تباشرها من إسبانيا، وتتفد تعليماتها في العالم الجديد^(١).

١- الهيئة المركزية (السلطة التشريعية):

أ- المجلس الملكي الأعلى لحكم الهنود (Consejo realy supremo de las Indias):

قامت إلى جانب سلطة الكنيسة المطلقة في البلاد اللاتينية التي حكمتها إسبانيا، "الدائرة الخاصة" التي كانت تمثل حكم البلاط القشتالي المباشر. ثم انبثق عنها ما يسمى بالمجلس الملكي الأعلى لحكم الهنود الذي بقي طوال قرنين من الزمن يقبض على السلطة في البلاد قبل أن يعاد تنظيم الإدارة عام ١٦٨٠م

(١) جلال يحيى: المرجع نفسه، ج ٤، ص ٢٢٢.

بواسطة جملة من قوانين الحكم الجديدة في نطاق دستور استعماري شامل يقع في تسع مجلدات "Relopiacion de leys des las India" ويتضمن تفاصيل إدارية كثيرة، وتنظيمات تتناول العلاقات العامة بين الناس، شبيهة في بعض أجزائها بالتشريعات الحديثة المستعملة في الوقت الحاضر (مثل النص على تحديد ساعات العمل في اليوم ومنع عمل الأطفال، وعدم إساءة استعمال الخمر، إلخ...) (١).

واصل الملوك الإسبان جهودهم الكبرى؛ ليخضعوا العالم الجديد لمركزيتهم، ولسلطتهم الملكية المطلقة، وبما أن التاج نفسه يملك الهند وقشتالة؛ لذا يجب أن تتشابه القوانين، ونظام الحكم ما أمكن التشابه، ومن هذا المنطلق أنشئ في الهند الغربية تدريجياً جهاز كامل من المؤسسات يشبه إلى حد كبير نظام الحكم القشتالي (٢).

أنشئ **مجلس الهند** إلى جانب المجالس الملكية الأخرى (كمجلس قشتالة، ومجلس أرغونة، ومجلس الحرب...) تم إنشاؤه عام ١٥١١م من قبل الملك فرديناند الكاثوليكي، وأخذ شكله التنظيمي النهائي في عهد خليفته شارل الأول عام ١٥٢٤م بعد ثلاثة عشر عاماً من إنشائه (٣). وكان عبارة عن وزارة فريدة من نوعها، تمارس سلطتها القضائية والتشريعية على شؤون المستعمرات الإسبانية في القارة الأمريكية جميعها، والتي شملت الشؤون المدنية والكنسية والعسكرية والتجارية (٤).

(١) ساطع محلي: أمريكا اللاتينية، ص ٩٠.

(٢) موريس كروزيه: تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط ٢، ١٩٨٧، الجزء الرابع (القرن السادس عشر والسابع عشر، تأليف رولان موسنييه)، ص ٥٠٤.

(٣) Pierre CHAUNU, Histoire de l'Amérique Latine, Dixième édition corrigée, Paris 1988, p.24

(٤) Hugo D. BARAGELATA, Op.Cit, p 135.

وحلّ هذا المجلس محل المراقبة العامة لشؤون الهند التي كانت قد أنشئت بسرعة بعد رحيل كولومبس الأول للعالم الجديد. وكان هذا المجلس يخضع لمستشار أعلى لشؤون الهند، وكان يعد القوانين، ويُعدّ محكمة استئناف، ويتدخل في قرارات الكنيسة كلها المتعلقة بالعالم الجديد. فكانت له في واقع الأمر السلطات التشريعية والقضائية جميعها وحتى الدينية^(١). وكان موقع هذا المجلس في مدريد، وباستثناء الملك، لا يحق لأحد التدخل في مداولات أو قرارات مستشاري هذا المجلس.

تألف مجلس الهند من عدد من الشخصيات المهمة، كثير منهم تولى مناصب مهمة في المستعمرات الأمريكية. وكانت القوانين واللوائح المعدة من قبل هذا المجلس التي ينبغي تطبيقها، يجب أن تحصل أولاً على موافقة الملك، ومن ثم موافقة ثلثي الأعضاء في هذا المجلس.

وكان من مهام هذا المجلس أيضاً اختيار المرشحين للوظائف المدنية والكنسية في المستعمرات، وتأمين أكبر قدر من الضمان للسير السلس للمسؤولين جميعهم في المستعمرات. كما تولى هذا المجلس مهمة الاطلاع على التقارير العامة والسرية الخاصة بسير العمل في المستعمرات^(٢).

ب- غرفة تجارة الهند:

منذ عام ١٥٠٣م، تأسست في إشبيلية غرفة تجارة الهند التي أشرفت على تجارة الهند كلها، وسهرت بصورة خاصة على جمع الحصة الملكية التي حددت

^(١) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج ٤، ص ٢٢٣-٢٢٤.

^(٢) Hugo D. BARAGELATA, Op.Cit, p 13٥.

بعشرين بالمئة من قيمة المعادن الثمينة. وسلمت القباطنة إيصالات بهذه الضريبة^(١).

وفي عام ١٧٦٨ تم نقل مقر غرفة التجارة إلى قادش، ثم تم إلغاؤها عام ١٧٩١م نتيجة تحرير التجارة في الموانئ الإسبانية عام ١٧٧٨م.

وكان الهدف من إنشائها تنفيذ القوانين ذات الصلة بالتجارة مع المستعمرات في القارة الأمريكية، حيث كانت تسجل السفن الداخلة والخارجة من إسبانية، وتحكم في المنازعات التجارية والجنائية المختلفة التي تنشأ بين التجار في المستعمرات وتجار البلد الأم، وكان من حقها التدخل في حال أن الجرم تم ارتكابه في المستعمرات، أو في طريق العودة، أو الذهاب من المستعمرات، وإليها^(٢).

وكانت هيئة التجارة هي التي تشرف على عملية التبادل التجاري بين إسبانيا ومستعمراتها، ولها في إشبيلية اختصاصات إدارة الهجرة، وتشرف على مدرسة بحرية، وعلى محكمة تجارية، وغرفة للقناصل. وكانت لهذه الهيئة آلة إدارية ثقيلة تخزن البضائع، وتشرف على عمليات الشحن والتفريغ، وتُحصّل الخمس الخاص بالتاج. وكانت عبارة عن وزارة لتجارة الهند، ويشرف رئيسها على أمن القوافل في المحيط الأطلسي، وتستلم خزائنه الرسوم الجمركية على البضائع، ويستلم حصص أصحاب الشركات وأصحاب السفن الخاصة ورسومهم نظير حمايته لتجارتهم. وكان هناك موظف عام يعينه القصر، ويشرف على قوافل وأساطيل الهند، ويرسل إلى الإدارات العامة في العالم الجديد كل ما يلزمها من الزئبق اللازم لتنقية المعادن، إلى الأسلحة اللازمة^(٣).

^(١) Pierre CHAUNU, Op.Cit. p 24.

^(٢) Ibid. p 135.

^(٣) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج ٤، ص ٢٤١.

وكانت هيئة التجارة مؤسسة خاضعة للدولة تشرف على العمليات الفردية الخاصة. كما تشرف على العملية من دون أن تقوم بتنظيمها؛ بل تترك للموردين والمصدرين في قادش وإشبيلية اتخاذ القرارات اللازمة لهم، لكن إشرافها كان عبئاً ثقيلاً على التجار الذين كانوا يحاولون التهرب من دفع الرسوم والضرائب حيث لم يقتصروا على خفض قيمة التجارة المفرغة أو المشحونة في تصريحاتهم الرسمية؛ بل بدؤوا في عمليات التهريب، ووجدوا في داخل هيئة التجارة من يشاركونهم في هذه العمليات، وبدأت السفن تفرغ حمولتها في البحر قبل دخولها إلى إشبيلية، وتشحن بضائع أخرى بعد خروجها من الميناء. كما اتصلوا بمهربين أجانب كانوا يقومون بنشاط عجيب في خلجان العالم الجديد. وخرج ثلث تجارة العالم الجديد من أيدي هيئة التجارة نتيجة لهذه العمليات^(١).

قنصلية الهند:

تم إنشاؤها عام ١٥٤٣م في إشبيلية، ونقلت أسوة بغرفة تجارة الهند إلى قادش عام ١٧١٨م. وتألّفت هذه القنصلية من ثلاثة أعضاء من غير المحامين، يتم انتخابهم سنوياً من قبل جمعية نقابة العاملين في مجال الشحن بين إسبانيا والمستعمرات الأمريكية، ولم يسمح للمحامين بالترافع أمام هذه القنصلية. وكان القناصل يحاولون حلّ المشكلات بين العاملين بالشحن بسرعة ومنطقية وبشكل إنساني واستناداً للقوانين. وكانت أحكامهم شفوية. وبشكل عام كانت مهمة هذه القنصلية فضّ النزاع بين التجار العاملين بمجال الشحن بين إسبانيا ومستعمراتها في الهند^(٢).

(١) المرجع نفسه، ص ٢٤٢.

(٢) Hugo D. BARAGELATA, Op.Cit, p 13٦.

٢ - السلطة التنفيذية:

إن المهمة الرسمية التي كُلف بها الحكام العسكريون في البداية كانت الاستعمار، فقد شرع الإسبان منذ بداية الغزو في تشييد القرى والبلدان وإدارات الحكومة الإسبانية التي كان لها إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس من المدن والأقاليم الواقعة فيما وراء البحار بسياسة الحكم المطلق، حيث أنابت عنها في العالم الجديد أولاً حكاماً عسكريين، ثم نواباً للملك، ثم قادة من العامة بعد ذلك. وكان الحكام العسكريون غالباً ما يدفعون تكاليف الحملة الغازية مقابل جزء من الثروات والأراضي في الأقاليم التي كانوا يخضعونها باسم الملك. وكانت الأقاليم التي يديرها الحكام تقسم إلى أحياء، كل حي يديره قاضٍ^(١).

أما السلطة التنفيذية، فكانت في العالم الجديد، وقد نظمت على أساس حكم "الأنتيمانتو" أو حكم البلديات في قشتالة، وكان هذا النظام يتلخص في إنشاء مجلس خاص في كل إقليم، يتشكل من ثلاثة أو أربعة مسؤولين، ويجتمع في أول الأمر كمحكمة، ثم أصبح يجتمع بعد ذلك كمجلس. وكان الحاكم هو الذي يرأسه ويستشير. وفي أعلى القمة نائب الملك، أو بمعنى أدق، نائبا الملك. الأول في المكسيك، والثاني في ليما، وكان كل منهما يسيطر على نصف العالم الجديد، بخلاف جزر الأنثيل، وهافانا التي كانت لها قيادة عامة خاصة بها.

وكانت هناك شخصية واحدة، هي نائب الملك، يعينها الملك، وتمثله وتهيمن على شؤون الحرب والسلام والأرواح، وكان نائب الملك يعين كبار الموظفين، ويشرف على الاقتصاد والمالية، ويراقب الكنيسة^(٢).

(١) تشانج رودريجيث، أوخينيو: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١٠٩.

(٢) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج ٤، ص ٢٢٤.

أ- التقسيمات الإدارية:

استطاعت الإمبراطورية الإسبانية إنشاء نظام مركزي موحد تابع للعرش الإسباني مباشرة، وتمكنت من خلاله التحكم بالمقدرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كافة، حيث وضعت نظاماً بسيطاً في ظاهره، ومعقداً في واقعه، يقوم على تمركز السلطة في المستعمرات بيد أشخاص يختارهم العرش الإسباني، ويتبعون بولائهم للملك مباشرة .

• نيابة الملك (La Vice-Royauté):

منذ منتصف القرن السادس عشر قسمت الإمبراطورية الإسبانية مستعمراتها في أمريكا اللاتينية إلى ولايتين كبيرتين، دعيت كل واحدة باسم نيابة الملك شملت: الأولى: المكسيك عام ١٥٣٥م، وعرفت باسم إسبانية الجديدة. والثانية: شملت ما تبقى من المناطق، وسميت نيابة ليما عام ١٥٤٥م^(١)، نسبة إلى عاصمة البيرو، وجعلت على رأس كل ولاية حاكماً يسمى نائب الملك^(٢). كما قُسمت كل ولاية إلى ممالك ومقاطعات عسكرية عدة. ومع بداية القرن الثامن عشر، ونتيجة لتوسع الإمبراطورية، وامتدادها الواسع، ورغبة منها في إحكام السيطرة أكثر على المستعمرات، أنشأت الإمبراطورية الإسبانية ولاية جديدة دعيت باسم غرناطة الجديدة عام ١٧٣٩م. وفي أواخر القرن الثامن عشر أنشئت ولاية رابعة دعيت باسم ريو دي بلاتا عام ١٧٧٦م.

^(١) Pierre Chaunu, Op.Cit, p 27.

^(٢) كان لقب نائب الملك: سعادة الدوق النائب، والقائد العام، ورئيس الديوان الملكي، والشؤون المالية مراقب المفوض الملكي للشؤون الدينية والمدنية، والمدير العام لمحكمة التعدين المحافظ، نائب راعي الملكية، وما إلى ذلك. انظر:

AHN, Consejos, leg. 20343, Exp. 3/159, f.74 r

ومن الملاحظ أن دول أمريكا اللاتينية جميعها كانت تحكمها (ليما) لوقت طويل أكثر من الفترة التي تبدأ من الاستقلال إلى اليوم^(١).

• الممالك ودور القيادة الحربية العامة:

لقد أقيمت في العالم الجديد نظم حكم سياسية شبيهة بالبلاد الأم، فأنشئت الممالك التي يحكمها ملوك محليون (حكام) وكلاء للملك (كانت هناك ست ممالك محلية من أهمها مملكة غرناطة الجديدة التي تألفت من كولومبيا وبوغوتا، ومملكة ريو دي بلاتا مع بوينس إيرس).

كما استحدثت إلى جانب الممالك الرئيسة أربع دور للقيادة الحربية العامة، وهي كوبا وجواتيمالا اللتان كانتا تقعان تحت السلطة القضائية للمكسيك، أما فنزويلا فكانت تقع تحت السلطة القضائية في (ليما) أولاً ثم في (بوغوتا) بعد ذلك، وبالنسبة لتشيلي، فإنها كانت تقع تحت السلطة القضائية لـ(ليما).

• المحاكم العليا الملكية (audiencia):

تم تأسيس المحاكم العليا الملكية على غرار المحاكم العليا في الوطن الأم، وكانت مهمتها القيام بأعمال إدارية مهمة إلى جانب أعمالها القضائية ومراقبتها الملوك المحليين في ممالكهم. ويشكل هيئة المحكمة الملكية ثمانية من القضاة؛ بالإضافة إلى العمداء الذين كانوا يساعدون، ويتشاورون، ويراقبون السلطات السياسية. والمحكمة التي تقع في مدينة رئيسة لولاية من الولايات، كانت تتولى

(١) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج ٤، ص ٢٢٤.

مهام الحكم حينما يتوفى نائب الملك، أو حين يتم عزله؛ بمعنى أنها كانت تمارس منصبه إلى أن يصار إلى تعيين بديل عنه⁽¹⁾.

كانت هذه المحاكم مسؤولة عن اختيار الموظفين المسؤولين عن القضاء وتعيينهم، وممارسة نوع من الرقابة على مجالس البلديات، والقناصل، والحكام، ونواب الملك. كما يحق لها التدخل في النزاعات القائمة بين المحاكم المدنية والكنسية. وكان لنائب الملك الحق في ترؤس المحكمة العليا، لكن لا يحق له التصويت على قراراتها، وفي حال غيابه يحل محله العضو المنتخب، وقد كان لنائب الملك في بداية الاستعمار حق التصويت⁽²⁾.

كانت جلسات الاستماع التي تجريها هذه المحكمة بمثابة حاجز أمام استبداد نواب الملك، لأنها كانت تنتظر في الطعون المقدمة ضد قراراتهم؛ إضافة إلى قرارات رجال الشرطة والحكومة، ويمكن للمحكمة في حالات تدخل الحكومة أو نائب الملك في شؤونها اللجوء إلى المجلس الأعلى للهند لفض النزاع.

وبسبب حساسية مراكز المسؤولين وأهميتها في هذه المحاكم، فقد فُرضت عليهم مجموعة من المحظورات، على سبيل المثال: عدم الزواج إلا بإذن خاص، وعدم تبديل أماكن سكنهم، أو حضور حفلات الزفاف والولائم والمآتم، أو إقامة علاقة صداقة مع شخصيات لها وزنها في المجتمع أو أصحاب النفوذ أو الأغنياء؛ إضافة إلى منعهم من ممارسة الأعمال التجارية أو رعايتها⁽³⁾.

وتعد محكمة (سانتو دومينغو) التي شيدت عام ١٥٢٤م أول محكمة في العالم الجديد، ثم أنشئ بعد ذلك بفترة ثلاث عشرة محكمة أخرى في كل من

⁽¹⁾ voyage en Araucanie, au Chili au Pérou et dans la Colombie, ou relation historique et descriptive d'un séjour de vingt ans dans l'Amérique du sud suivie d'un précis des révolutions des colonies espagnoles de l'Amérique du sud, traduite de l'anglais de w. b. stevenson; par setier, tome I., paris, 1828, p 179.

⁽²⁾ Ibid, p 179-180.

⁽³⁾ Hugo D. BARAGELATA, Op.Cit, p 136-137.

المكسيك، وجواد الاخارا، وجواتيمالا، وبنما، وكوبا، وبوجوتا، وكيتو، وكاراكاس، وليما، وكوتكو، وسانتياجو دي شيلي، وتشوكياكا، وبوينيس إيرس^(١).

• المجالس المحلية (Cabildos):

تعود أصول هذه المجالس إلى إسبانيا، حيث كانت مستخدمة في مدن كثيرة من شبه الجزيرة الإيبيرية. وتعد إحدى أهم المؤسسات الإسبانية في أمريكا، وأكثرها جدارة بالدراسة، على الرغم من سوء نية الرجال الذين شغلوا منصب أعضاء في هذه المجالس والتضارب في المصالح بينهم وبين من يمثلونهم، وتعود أهمية هذه المجالس إلى أنها المؤسسات الوحيدة التي لا يشترط لأعضائها أن يكونوا قد ولدوا في إسبانيا، ويمكن أن تضم عدداً من السكان المحليين، حيث يمارسون وظيفتهم كممثلين للشعب. وقد أعطت هذه المجالس بداية لولادة حرية المواطنين، حيث أنشئت من أجلهم.

تفاوت عدد أعضاء هذه المجالس تبعاً لحجم المنطقة التي يمثلونها، وتراوحوا ما بين ٦-١٢ عضواً (مراقباً)، يتم انتخابهم سنوياً في مقر المنطقة أو الإقليم، يضاف إليهم قاضيان محليان. وينبغي من حيث المبدأ أن يكون المرشحون من أصحاب المكانة الرفيعة في المجتمع.

والهدف الأساسي من إنشاء هذه المجالس هو إدارة المصالح القضائية والمدنية والجنائية والمحلية للمنطقة التي يمثلونها. وكانت هذه المجالس مسؤولة عن الشؤون المحلية بشكل عام؛ إضافة إلى إشرافها على عمليات تطوير المجتمع (صيانة الطرقات، وتطوير عمليات الصرف الصحي، ورعاية شؤون الأطفال الأيتام والمشردين).

(١) موريس كروزيه: تاريخ الحضارات العام، ج٤، ص ٥٠٥.

ولكن للأسف، ونتيجة تفاوت المسافة بين المناطق الأمريكية، ومراكز الحكم وصعوبة الإشراف المباشر عليها، فقد تعرضت هذه المجالس للفساد، وطغت عليها المصالح الشخصية، وتفشّت الرشوة بشكل واضح بين أعضائها، وأصبح من السهل شراء مناصب الأعضاء في هذه المجالس بسهولة؛ مما أدى لفقدانها لأهميتها في المجتمع المحلي^(١).

ب- مجلس الحكم:

وهو يمثل دور السلطة التنفيذية، وقد تألف بشكل عام من نائب الملك أو القائد العام، ورئيس، وأربعة مستمعين يعدون القرارات، يجتمع في أول الأمر كمحكمة، ثم أصبح يجتمع بعد ذلك كمجلس^٢. أنشئ المجلس الأول في إسبانيولا في عام ١٥١١م، وأنشئ مجلس ثانٍ في مكسيكو في عام ١٥٢٧م؛ وثالث في بنما في عام ١٥٣٦م؛ والرابع في ليما في عام ١٥٤٤م. وعين إلى جانب المجلس ضابط عام يتولى قيادة الجيوش، ويؤمن الدفاع، ويسهر على تنفيذ القوانين، والقرارات القضائية والإدارية. وقسم نطاق صلاحية المجلس أو الضابطة العامة إلى حكومات يتولى السلطة فيها الحكام، وقسمت الحكومات إلى محاكم يتولى السلطة فيها القضاة؛ وقسمت المحاكم إلى محاكم بلدية يرأسها قضاة عظام. وفرض على ذوي الامتيازات حلف اليمين وعُدّوا -هم أيضاً- موظفين ملكيين^(٣).

^(١) Hugo D. BARAGELATA, Op.Cit, p 137-138.

^(٢) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج ٤، ص ٢٢٤.

^(٣) موريس كروزيه: تاريخ الحضارات العام، ج ٤، ص ٥٠٥.

ج-نائب الملك :

كانت هناك شخصية واحدة، هي نائب الملك، يعينها الملك، وتمثله وتهيمن على شؤون الحرب والسلام والأرواح، وكان نائب الملك يعين كبار الموظفين، ويشرف على الاقتصاد والمالية، ويلاحظ الكنيسة، أو يراقبها^(١). كان أول نائب للملك (أنطونيو دي مندوزا)، مركز موندخار الذي عُيِّن في عام ١٥٢٩م، ووصل إلى مكسيكو في عام ١٥٣٥م، ثم عين نائب ملك آخر في ليما في عام ١٥٤٢م^(٢).

كان كل نائب ملك يتم تسميته من قبل العرش الملكي يجب عليه التوجه مباشرة إلى نيابته في أمريكا ومن دون مرافقة عائلته أو زوجته، ويجب عليه - حسب مرسوم تعيينه - نشر الديانة الكاثوليكية، وإدارة شؤون نيابته، ويحكم ويشرف على شؤون القضاء، وخلال الحرب يكون هو القائد العام للقوات البرية والبحرية، كما يجب أن تطاع أوامره كما لو أنها صادرة عن الملك ذاته^(٣). لكن في الواقع كانت سلطته تنقلص وتصبح أقل بكثير مما منحه الملك، وأحياناً كثيرة تتجاوز الصلاحيات الممنوحة له من قبل الإدارة الأم. ومع قرب نهاية الحكم الإسباني، ومع وجود عدد من الملوك الإسبان الذين أثبتوا عدم كفايتهم في إدارة شؤون البلاد والمستعمرات، نستطيع أن نجد عدداً من الطغاة والانتهازيين الذين استغلوا مناصبهم، وتسلطوا في دوائهم، ومناطقهم^(٤).

(١) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج٤، ص ٢٢٤.

(٢) موريس كروزيه: تاريخ الحضارات العام، ج٤، ص ٥٠٥.

(٣) Manuel de AMAT Y JUNIENT, Memoria de Gobierno, Edición y estudio preliminar de Vicente Rodríguez Casado y Florentino Pérez Embid, Sevilla, Escuela de Estudios Hispanoamericanos, 1947, 2p, cap I, f. 60v-f. 61.

(٤) Hugo D. BARAGELATA, *Op.Cit.*, p 134.

وبشكل عام، كانت سلطات نائب الملك واختصاصاته محدودة؛ لاسيما وأن البلاط كان يخشاه، فقيّد تعيينه بمدة ثلاث سنوات، وأجبره بعدها على البقاء في المستعمرة لمدة ستة أشهر، حتى يسمح لكل من يعارضه أو يطالبه بشيء أن يتقدم ضده بما يرغب. وفي الوقت نفسه، أعطى الملك لأعضاء المجالس حق مخاطبة البلاط مباشرة^(١). وخضع نائب الملك في نهاية فترة إدارته إلى تقييم شامل لعمله في كافة المجالات أمام محكمة خاصة تسمى محكمة الإقامة. وقد تراوح راتب نائب الملك ما بين ٤٠ و ٦٠ ألف بيزيتا سنوياً^(٢). أما في المستعمرات الأقل شأنًا فقد كان يتم تعيين قادة عاميين، يحلون محل نائب الملك في تمثيل السلطة الإسبانية^(٣).

د- الحكام والمديرون:

كان الملك يقوم بتعيين الحكام والمديرين الذين كانوا يطالبون بعدم ممارسة أي نوع من الأعمال إلى جانب مناصبهم، وعدم قبول الرشوة من مرؤوسيه، وأيضاً معاملة الهنود معاملة حسنة، كما يجب عليهم دفع مبلغ من المال قبل توليهم منصبهم، وهو نوع من الضمانة لتنفيذ التعليمات الواردة في خطاب تعيينهم، وكانوا يستعيدون هذه الضمانة في نهاية فترة حكمهم، وبعد الخضوع لمحكمة الإقامة.

وتم تعيين هؤلاء الحكام ليحلوا محل رؤساء البلديات الذين كانوا من القادة العسكريين في المرحلة الأولى من الاستعمار، والذين كانوا يديرون العمليات العسكرية على الأرض، ويمارسون السلطة الإدارية والمالية، والأشغال العامة،

(١) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ج٤، ص ٢٢٤.

(٢) Manuel de AMAT Y JUNIENT, *Op.Cit.*, f. 61.

(٣) Hugo D. BARAGELATA, *Op.Cit.*, p 134.

وإنشاء المدن. وقد طلب من هؤلاء الحكام والمديرين -أسوة بنواب الملك- نشر الديانة الكاثوليكية، والأخلاق الحسنة (حسب وجهة النظر الإسبانية) في مقاطعاتهم^(١).

هـ- الزوار والمفتشون ومحاكم الإقامة:

لأن التاج كان يغار على سلطته، ويخاف من أن يحاول ممثلوه الاستقلال يوماً ما؛ لذلك كان يرسل زواراً ومفتشين^(٢)، كان من الواضح أن مهمتهم هي العمل على تحقيق أفضل إدارة، لكنهم في الحقيقة كانوا أعياناً وآذاناً للملك؛ إذ إنهم كانوا يقومون بالتفتيش على مختلف أقاليم الإمبراطورية، وكانوا يتبعون للملك مباشرة^(٣). وكانوا مثل غيرهم من الممثلين الملكيين، يجب عليهم دفع ضمانات، وعدم الزواج أو الدخول في شراكة في مقر إقامتهم. وتمثلت مهمتهم الرئيسية في الحكم في المنازعات الجنائية والمدنية التي قد تنشأ في المقاطعات المحلية. بشرط ألا تخالف هذه الأحكام تعاليم الكنيسة الكاثوليكية. كما تم إخضاع الهنود لسلطتهم. وتجلت مهمة المندوبين بما يخص الهنود بالحفاظ على تقاليدهم وعاداتهم والإشراف على عملهم، وتحديد الأجور المناسبة لهم مقابل عملهم بالأرض التابعة لهم^(٤).

بالإضافة إلى ذلك، فقد أصدرت الأوامر بأنه في نهاية التفتيش الإداري يخضع نائب الملك وباقي سلطاته لتفتيشهم، وهذا ما يعرف باسم (محكمة الإقامة)، وهو يعني أن يقوم قاض خاص بالتحقيق في العمل الذي قام به نائب

^(١) Ibid, p 134-135.

^(٢) Manfred KOSSAK, Walter MARKOV, L'Espagne Et Son Empire D'Amérique, Traduit Marcal David et Charles Minguet, Paris 1972, p77.

^(٣) مورييس كروزيه: المرجع نفسه، ج٤، ص ٥٠٥.

^(٤) Hugo D. BARAGELATA, Op.Cit, p 135

الملك أو العامل، وبذلك يتحقق من شرعية أعماله. ونتيجة لذلك، فقد تم إرسال كولومبس مكبلاً بالأغلال إلى إسبانيا^(١). كما اضطر كورتيس لأن ينيخ عنقه لتحقيق قضاة الإقامة عام ١٥٢٦م^(٢).

ومما سبق، ورغم كون المحاكم الملكية العليا دليلاً على حكمة قوانين الهند ومركزيتها، فإن الممارسة العملية لم تأت ثمارها كما تمنى المشرعون. فقد حدث الكثير من التجاوزات؛ وبشكل خاص بما يتعلق بالشخصيات المهمة أو الخطيرة في المستعمرات. فالقانون لم يطبق في الكثير من الحالات، إذا كان متعلقاً بهذه الشخصيات. كما فعل أحد كبار الفاتحين عندما وصله أمر خطي من الملك؛ إذ أطلق مقولة شهيرة أصبحت شعبية بعد فترة قصيرة "نحن نحترم القانون لكننا لا نطبقه"^(٣).

وقد سار هذا النظام بدقة عجيبة؛ لاسيما إذا نظرنا إلى السرعة اللازمة لتقرير الأمور، وإلى اتساع الإمبراطورية، لكنه كان يتسبب في بعض التضارب بين السلطات، كما تسبب في بعض الأخطاء الواضحة، وكان أكبر خطأ فيه أنه قد وضع عن طريق الإسبان، وللإسبانيين. كما لو كانت أمريكا إحدى المقاطعات الأيبيرية، وكما لو كانت لا يسكنها ملايين السكان الأصليين (الهنود الحمر).

لقد كان وجود الهنود حقيقة واقعة، وكان من واجب الإسبان أن يحسبوا حساب هؤلاء الملايين الذين كانت لهم عقائدهم الدينية الخاصة وتقاليدهم وطرق معيشتهم، لكن أغلب المستعمرين الإسبان كانوا لا ينظرون إلى الهنود الحمر إلا نظرتهم إلى المتوحشين آكلي لحوم البشر، أو نظرتهم إلى شعوب تفضل العيش

(١) أوخينيو تشانج رودريجت: المرجع نفسه، ص ١١٠.

(٢) موريس كروزيه: المرجع نفسه، ج ٤، ص ٥٠٥.

(٣) Hugo D. BARAGELATA, *Op.Cit.*, p 137.

عراة، شعوب بأكملها من المخادعين الكذابين الخائنين، من السكارى القساة الكسولين، شعوب لا تستحق أن تدخل في المسيحية يوماً من الأيام^(١).

ثانياً - الإدارة البرتغالية في البرازيل:

١ - المرحلة الأولى (١٥٣٤م - ١٥٧٢م):

عندما اعتلى الملك يوحنا الثالث عرش البرتغال، أبدى اهتماماً كبيراً بالبرازيل؛ نتيجة تدهور أوضاع البرتغال في الهند، وبعد سماعه لقصاص الثروة الخيالية التي حصل عليها الإسبان من مستعمراتهم الأمريكية. لذلك قرر أنه لابد من عمل شيء في البرازيل قبل أن تتمكن إسبانيا من اختطافها منه؛ فوضع أمامه خريطة لساحل البرازيل، ورسم على الخريطة خطوطاً قسمت الأرض إلى أقسام متساوية تقريباً تكونت من خمسة عشر قسماً، وقام بتوزيع هذه الأقسام على عدد من رجال البلاط ولورثتهم من بعدهم بصفة دائمة ماداموا مظهرين ولائهم له، وكان عليهم أن يرحلوا مباشرة بالسفن المحملة بالجنود والمغامرين لاستيطان الأرض. وكان الدليل الوحيد على ولاءهم أن يرسلوا إليه الذهب كما يفعل الإسبان^(٢).

وهكذا قسمت البرتغال مستعمراتها في العالم الجديد (البرازيل) إلى خمس عشرة داراً للقيادة الحربية، وكانت تحكم بالوراثة. وكان لكل دار اتصال مباشر بلشبونة، وقد أطلق اسم المتبرعين على النبلاء البرتغال المشهورين الذين كانوا يلقون الحضوة عند الملك والذين أنعم عليهم بهذه الدور. ولسوء الحظ فإن العديد منهم لم يسافر أبداً إلى العالم الجديد؛ نظراً للمساعدة الضئيلة التي تلقوها من قبل التاج. أما الذين سافروا منهم، فإنهم سرعان ما تأثروا بالمناخ وقلة المعادن

(١) جلال يحيى: المرجع نفسه، ج ٤، ص ٢٢٥.

(٢) روز براون، المرجع نفسه، ص ٤٦، ٤٧.

والثروات السهلة التي كانوا يحلمون بالعثور عليها في وقت قصير. كما أن الكثير من المستعمرين تحولوا إلى مجتمعات غير منتجة، وسرعان ما تعرضت الأقاليم جميعها التي تمتلكها الدور الحربية لمشكلات إدارية خطيرة باستثناء بعض الأقاليم، مثل: (باهيا) وسان بيثتي، وبرنامبوكو؛ الأمر الذي أجبر العديد من النبلاء أو المتبرعين على إعلان إفلاسهم^(١).

أمام فشل نظام الدور الحربية، قرر الملك البرتغالي إنشاء نوع من الحكم المباشر للبرازيل، فتم إرسال مستشار الملك لويس دي بريتواي الميدا حاكماً عاماً للبرازيل، ولكنه وجد أن البرازيل تتألف من مساحة شاسعة من الأراضي لا يستطيع حاكم واحد أن يديرها، فقسمها إلى قسمين: شمالي، وجنوبي، ولكل قسم حاكم يحكمها.

وبعد أربع سنوات أثبتت هذه الطريقة فشلها، فأرسل حاكما البرازيل طلباً إلى العرش في لشبونة لإعادة توحيد البلاد، واستجاب الملك البرتغالي لطلب الحاكمين، وتمت إعادة توحيد البلاد تحت حكومة واحدة تولى رئاستها لويس دي بريتو عام ١٥٧٧م، واستمر هذا الوضع حتى عام ١٥٧٨م، حيث قتل الملك البرتغالي سيباستيان (١٥١٢م-١٥٧٨م) في معركة القصر الكبير في إفريقية من دون أن يترك وريثاً شرعياً له مما أدى في النهاية إلى انتقال العرش البرتغالي إلى فيليب الثاني ملك إسبانية. ومنذ هذا التاريخ أصبحت البرتغال، وممتلكاتها في العالم الجديد تحت السيادة الرسمية للعرش الإسباني^(٢).

(١) أوخينيو تشانج رودريجث، المرجع نفسه، ص ١٣٦.

(٢) جورج أطلس، تاريخ البرازيل، ترجمة جورج أطلس، سان باولو البرازيل، ١٩١٧، ص ٢٥-

٢- المرحلة الثانية- فترة الحكم الإسباني (١٥٧٨م-١٦٤٠م):

خلال هذه الفترة أقيم في البرازيل نظام حكم مشابه تماماً لأنظمة الحكم الإسبانية في المستعمرات الأمريكية. فتم تأسيس مجلس الهند (مجلس الأراضي الجديدة) عام ١٦٠٤م في لشبونة، ثم أقيم نوع آخر من المجالس في منطقة باهيا عاصمة البرازيل. أطلق عليها اسم ريلاكاو.

أما الحكومة الإقليمية فإنها استخدمت ما يسمى بالمجالس البلدية التي سيطر عليها أصحاب الأملاك، وكانت هذه المجالس لها سلطات أكبر من المجالس الإدارية في أمريكا الإسبانية. وكان يمثل الحاكم في التقسيمات الفرعية للمقاطعات القائد الأعلى، وهو نوع من القضاة أو المأمور القضائي. وبطبيعة الحال، فإن الأشخاص الذين كانوا يتولون هذه المناصب كانوا يتسمون بالطغيان والدكتاتورية^(١).

المرحلة الثالثة- عودة الحكم البرتغالي (١٦٤٠م- ١٨٢١م)

بعد حصول البرتغال على استقلالها، استعاد ملوكها حقوقهم في المستعمرات، فعاود الملوك إرسال الحكام إلى البرازيل، وعاد النظام البرتغالي إلى سابق عهده. ولكن بدءاً من عام ١٨٠٧م هربت الأسرة المالكة من لشبونة إلى المستعمرات، وتحولت البرازيل إلى رأس العالم البرتغالي، وشرع الملك يوحنا السادس بالعمل لجعل ريو دي جانيرو عاصمة تستحق هذا المكان، كما قام بإلغاء عدد كبير من القيود المتعلقة باحتكار التجارة، وفتح الموانئ، والأنهار للتجارة مع كل الأمم.

(١) أوخينيو تشانج رودريجت، المرجع نفسه، ص ١٤١.

ثالثاً - الإدارة الإنكليزية في المستعمرات:

لقد اقتبست الولايات الأمريكية - خلال فترة الاستعمار البريطاني لها - كثيراً من أنظمة بريطانيا السياسية، كما أن بريطانيا نفسها استفادت من خبرتها في حكم تلك المستعمرات في تكوين نظام استعماري عام يمكن تطبيقه في مناطقها الاستعمارية الأخرى. وتجدر الملاحظة بأن نظام الحكم الإنكليزي في أمريكا كان أكثر ليونة من أي نظام استعماري في العالم الجديد. من ناحية أخرى، فقد حددت جغرافية ساحل الأطلسي الغربي الموارد الطبيعية للمستعمرات البريطانية فيه، كما أن هذه الموارد بدورها كانت قد أثرت في التكوين الاقتصادي للمستعمرات بحيث أصبح بالإمكان تقسيمها إلى ثلاث مناطق متميزة: الشمالية (إنجلترا الجديدة)، الوسطى، والجنوبية.

إن المواثيق التي منحتها بريطانيا (نظام الحكم لتكوين المستعمرات) كانت قد أعطت لسكان تلك المستعمرات حكماً ذاتياً شبه مستقل عن البلد الأم؛ ونظراً لبعد المسافة بين البلد الأم والمستعمرات، فقد أهملت بريطانيا تطبيق نظام صارم عليها. وهكذا فقد كان لهذين العاملين أثرهما في أن تتمتع المستعمرات البريطانية بحرية نسبية أكثر منها في أي مستعمرات أخرى في العالم الجديد.

١ - أنواع المستعمرات:

هناك ثلاثة أنواع من المستعمرات:

١ - المستعمرات المملوكة: حيث تنقسم إلى قسمين: إما مملوكة من قبل شركة مساهمة، أو من قبل شخص واحد أو اثنين. لقد كان هناك أربع مستعمرات مملوكة من قبل شركات مساهمة، واثنان مملوكتان من قبل أشخاص، وهما: جورجيا، ونيويورك.

٢- **مستوطنات المشاركة** (حكم ذاتي): وتختلف هذه عن سابقتها بأن كل مستوطنة كان لها دستورها الخاص الذي يعطي لسكانها حق الإشراف على شؤونها المحلية والسياسية والمالية.

٣- **المستعمرات الملكية**: وقد نشأت هذه بجعل بعض المستعمرات تحت الإشراف المباشر على تلك المستعمرات. إن العقود التي منحها الملك لسكان المستعمرات قد أصبحت دساتير تحكمها، كما أعطت بريطانيا الحق لسكان المستعمرات في أن يبقوا كرعايا لحكومة البلد الأم، وهذا يختلف عما كانت تطبقه السلطات الاستعمارية الأخرى في مستعمراتها في الخارج، حيث لم تُعدّ هذه السلطات سكان المستعمرات كرعايا للحكومة الأمة، كما فعلت بريطانيا^(١).

٢ - الحاكم العام، و المجلس التنفيذي، والمجلس العام:

كان الاتجاه السائد في بريطانيا في القرن الثامن عشر الميلادي يسير نحو المركزية على الرغم من ضعف بعض ملوكها. وكان هناك ميل نحو تركيز السلطة في أقاليم الإمبراطورية بيد البرلمان البريطاني كونها إمبراطورية موحدة والسلطة المركزية فيها هي المشرفة الأولى على قواعد نظام الإمبراطورية؛ وبالتالي فالحكومة المركزية فيها هي المشرفة الأولى على قواعد نظام الإمبراطورية؛ وبالتالي فهي المشرفة على نشاط الفرد والجماعة من أجل تنمية موارد الدولة. وكانت كذلك تصدر إنتاجها الصناعي إلى البلدان التابعة لها كوسيلة من وسائل تقوية كيانها وازدياد دخلها. واتجهت بريطانيا صوب نوع جديد من الحكم المتصف بالقوة والشدّة؛ بخاصة في عهد الملك جورج الثالث (١٧٦٠م - ١٨٢٠م).

(١) محمد محمود النيرب: المرجع نفسه، ص ٤٦.

وأقرت الحكومة البريطانية نظام الحكم القائم في مستوطناتها في أمريكا الشمالية، فارتكز نظام الحكم في الولايات الأمريكية في أثناء تبعيتها لإنكلترا على قواعد، وهي: الحاكم العام، والمجلس النيابي (التشريعي)، والمجلس الاستشاري^(١). لقد تشابه نظام الحكم في المستعمرات البريطانية في أمريكا كلها. حيث منصب الحاكم العام قد بدأ كونه رئيسياً تنفيذياً لشركة مساهمة، ولكنه تحول - فيما بعد- إلى مركز سياسي في المستعمرات المملوكة، وكان الحاكم العام يعين من قبل الملك - صاحب المستعمرة. وفي مستعمرات المشاركة كان الحاكم ينتخب من قبل سكان المستعمرة؛ أما في المستعمرات الملكية فقد كان الحاكم يعين من قبل الملك.

ويعد الحاكم هو المسؤول الأول عن رعاية شؤون الولاية، واستتباب الأمن فيها شرط ألا يتعارض ذلك مع مصالح إنكلترا الأم^(٢).

كانت سلطات الحاكم العام تنفيذية: تطبيق القوانين، تعيين موظفي المستعمرة، رئاسة قوة البوليس المحلية، كما كان له حق النقض في الأمور التشريعية. وتجب الملاحظة بأن مركز الحاكم العام في المستعمرات البريطانية كان حرجاً، فمع أنه يجب عليه أن يطبق أوامر أولئك الذين عينوه، إلا أنه كان يتقاضى مستحقاته المالية من قبل سكان المستعمرة.

أما المجلس التنفيذي، فيشبه في مهماته وطريقة تعيينه تلك الطرق المتبعة مع الحاكم العام، ما عدا ماستشوستس حيث كان المجلس التنفيذي فيها منتخباً من قبل المحكمة العامة.

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٧.

لم يكن هناك فصل حاسم بين سلطات الحكم الثلاث . لقد كان الحاكم والمجلس التنفيذي يمثلان المحكمة العليا ، وكان المجلس العام يخدم كمجلس أعلى تشريعي. كان المجلس العام منتخباً من قبل السكان، ويفصل تماماً عن المجلس التنفيذي. من الملاحظ بأنه كان هناك صراع دائم بين الحاكم وبين المجلس العام، وكان الأخير يتخذ من حقه في الموافقة على الميزانية العامة وسيلة لإجبار الحاكم على بعض المكاسب، وقد جاء هذا أيضاً في مستعمرات المشاركة. لقد كانت المجالس العامة تعد فرض الضرائب ووضع الميزانية من حقها فقط، وليس للحاكم العام أي شأن بها^(١).

وأصبح لهذا المجلس سلطة نافذة، كما أصبح رمزاً للحكم الذاتي المبني على أساس ديمقراطي في ظل السيادة الإنكليزية. كما أن هذا المجلس أعطى الأمريكيين الجدد حق المطالبة بمساواتهم بالإنكليز في إنكلترا؛ إذ إن الحكومات الإنكليزية كانت تنظر إلى سكان المستعمرات في أمريكا بأنهم أقل من الإنكليز، وأن قدرتهم في إدارة دفة الحكم تبقى أقل مما هي عند الإنكليز في إنكلترا. وأن هذا المبدأ في التمييز قائم على أساس فكرة السيادة المطلقة للدولة الإنكليزية الأم على مستعمراتها، ولاسيما في عهد الملك جورج الثالث حكومته. كما أن إنكلترا ترى ضرورة تحمل المستعمرات أعباء المصاريف المالية التي تنفقها إنكلترا على الحروب، ولاسيما في حرب السبع سنوات. وأن من حق إنكلترا أن تفرض الضرائب التي تراها على سكان المستعمرات التابعة لها، وهذا الأمر يقلص نفوذ المجلس النيابي في المستعمرات الذي هو السلطة الشرعية التي تصدر عنها الضرائب، وهذا بدوره يقلص نفوذ المستعمرات في ممارسة الحكم الذاتي. وهنا ظهر البون

(١) محمد محمود النيرب: المرجع نفسه، ص ٤٦-٤٧.

الشاسع بين سكان المستعمرات في أمريكا، وبين حكومة إنكلترا ذات السيادة المطلقة في المستعمرات.

أما المجلس الاستشاري، فهو سلطة استشارية في الولاية تعمل إلى جانب السلطة النيابية فيها. وعلينا أن نلاحظ أن الحاكم في الولاية له الحق في الاعتراض على قرارات كل من المجلس الاستشاري والنيابي في ولايته^(١).

٣- نظام الانتخاب والتوظيف:

إذا قورنت حقوق الانتخاب في ذلك الوقت بتلك في وقتنا الحاضر. فيمكن القول: إنها كانت صارمة إلى حد كبير، كان المطلب الديني (ضرورة انتماء الفرد إلى كنيسة معينة) سبباً في حرمان الكثيرين من الانتخاب في القرن السابع عشر، ولكنها خفت كثيراً في القرن الثامن عشر. كان حق الانتخاب محصوراً فقط في الرجال، ومع ذلك فإن تلك المستعمرات تمتعت بحقوق أكثر حتى من المستعمرات الحيوية، فلم يكن لها مثل هذا الحق، بحيث يمكن القول: إن المجالس العامة، إنما هي عبارة عن سلطة المجموعة. فالممثلون في هذه المجالس كان يجب أن يكونوا من أصحاب الإقطاعيات الكبيرة، وهؤلاء كان معظمهم يسكنون في المناطق الساحلية. ولم توجد هناك أحزاب سياسية منظمة، وهكذا فإن مصالح السكان في الداخل كانت تختلف عن مصالح أولئك الإقطاعيين على الساحل؛ وبالتالي فقد كانت المناطق الداخلية تعارض سياسة هؤلاء الإقطاعيين في كثير من الأحوال، كما كانت تقوم بانتفاضات ضد السلطات الإقطاعية على الساحل، ومن أبرز هذه الأحداث انتفاضة بيكون.

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٤٧-٤٨.

٤ - الحكم المحلي:

في المستعمرات الحيوية ، كانت الكاونتي تمثل الوحدة الأساسية للحكم المحلي (كما كان الحال في إنجلترا)، ويُعدُّ البوليس والقضاة المحليون من أكبر موظفي المستعمرة، ويعين هؤلاء في العادة من قبل حاكم الولاية ، كانت كاونتي مقسمة إلى وحدات تسمى كل منها باريش. في نيو إنجلند كانت الوحدة الأساسية تسمى قرية، وكان لهذه مجلس محلي منتخب هو الذي يقوم بإدارة الشؤون المحلية، وكان هؤلاء يعينون الممثلين في المجالس العامة للمستعمرة، أما المستعمرات الوسطى، فكانت تطبق مزيجاً من النظامين الشمالي والجنوبي، أما القضاة في هذه المستعمرات، فكانوا يعينون من قبل الحاكم العام.

القانون البريطاني والتعاليم الدينية كانت هي القانون العام المطبق في المستعمرات. وكانت العقوبات هنا تختلف عنها في إنجلترا، فالجلد والتعليق من الأيدي والحرق بالنار وكرسي الإغراق كانت تقوم مقام السجن أو الإعدام في إنجلترا^(١).

٥ - المراقبة الاستعمارية

نظرياً كان الغرض من إنشاء المستعمرات هو أن تدر نفعاً على الحكومة البريطانية أو الرعايا البريطانيين الذين يملكونها. كانت مستعمرات بريطانيا في قارة أمريكا الشمالية أول مستعمرات لتلك الدولة فيما وراء البحار ، وعلى هذا فقد كان ينقص الحكومة البريطانية عامل التجربة في إدارة تلك المستعمرات. لقد كانت هناك عوامل عدة لها الأثر الأكبر في تشكيل نظام الحكم البريطاني في المستعمرات: الصراع المحلي في بريطانيا

(١) محمد محمود النيرب: المرجع نفسه، ص ٤٤-٤٨.

بين الملك والبرلمان، بين بريطانيا والقارة الأمريكية. هذه العوامل أعطت المستعمرات الأمريكية الفرصة في أن تتمتع بحرية نسبية لتحكم نفسها بنفسها. بمجيء آل ستيوارت إلى الحكم عام ١٦٦٠ م، وضعت الإدارة الاستعمارية تحت إشراف الملك والمجلس التابع له، ومن ثم قام الملك بتعيين ما يسمى بالمجلس التجاري الذي أصبحت مهمته القيام بتوصيات للملك بخصوص إدارة هذه المستعمرات، وكان البرلمان البريطاني يقوم بوضع التشريعات الضرورية لتنفيذ هذه التوصيات. وهكذا فقد كان مجلس الملك والبحرية البريطانية، وكذلك المحاكم تنتظر في قضايا كثيرة تتعلق بتطبيق هذا النظام الإداري، ولقد تعلم سكان المستعمرات أن يتجنبوا كثيراً من هذه القوانين التي كانوا يرون في تطبيقها ضرراً على أنفسهم.

٦ - قوانين البحرية:

لقد وضعت بريطانيا هذه القوانين لتحكم نظام التجارة والبحرية بينها وبين مستعمراتها الأمريكية، تلك القوانين كانت تؤكد المصالح البريطانية أولاً. من أهم هذه القوانين كان قانون عام ١٦٦٠م، وقد كان الغرض منه حظر نقل البضائع داخل الإمبراطورية على السفن البريطانية فقط، حيث تطلب هذا القانون بأن البضائع المتبادلة يجب أن تنقل على سفن معينة من البضائع التي لا يسمح بيعها إلا داخل الإمبراطورية البريطانية، مثل: السكر، والتبغ، والقطن، والأخشاب. وفيما بعد أضيف إلى القائمة: الأرز، والفراء، والحديد. وحتى يمكن إفادة المستعمرات، فقد حرمت زراعة التبغ داخل بريطانيا أو استيراده من بلد آخر.

وفي عام ١٦٦٣م وضعت الحكومة البريطانية قانوناً آخر فرضت بموجبه على واردات المستعمرات البريطانية من الدول الأوروبية بأن تمر على موانئ بريطانية لدفع الضريبة هناك، ولكن الحكومة البريطانية كانت تدفع تعويضات لسكان المستعمرات بحيث تجعل أسعار هذه المواد رخيصة على السكان، كما أنها

كانت مستوردة مباشرة من الدول الأوروبية . لقد حاول الأمريكيون تجاهل هذه القوانين، ولذلك كثرت شكاوي رجال الجمارك البريطانيين ضدهم وبناءً عليه، فقد قام الملك جيمس الثاني -لمحاولة سد هذه الثغرة - بوضع قانون جديد عام ١٦٦٩م.

لقد فرض قانون ١٦٦٩ م على حكام المستعمرات بحلف اليمين بتطبيق قوانين البحرية بشكل صارم، وكل من يخالف ذلك يتعرض للعقوبة. لقد عهد إلى المجلس التجاري الذي كان يتبع الملك مباشرة بأن يقوم بتنفيذ هذه القوانين، كما أعطى لرجال الجمارك حق إيقاف السفن المشبوهة وتفتيشها.

أما قانون ١٧٣٣ م فقد حرم على المستعمرات البريطانية في أمريكا أن تستورد السكر من المستعمرات الأوروبية الأخرى في منطقة البحر الكاريبي، وأجبرهم على استيراد السكر فقط من الجزر الخاضعة لبريطانيا. وقد فرض هذا القانون ضرائب عالية على المخالفين، ولكن هذا القانون لم يطبق بشكل فاعل.

إن محاولة بريطانيا السيطرة على تجارة المستعمرات كان لها محاسنها ومساوئها على اقتصاد هذه المستعمرات، كانت المساعدات المالية التي تدفعها الحكومة لإنتاج بعض المزروعات قد ساعدت المزارعين في المستعمرات على الحفاظ والاستمرار في الزراعة، كما كانت الحكومة البريطانية تدفع مساعدات مالية لأصحاب المخازن البحرية والأخشاب التي تستعمل لصناعة السفن. ومن ذلك نرى بأن هذه التنظيمات؛ إنما فسرت لصالح سكان المستعمرات، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإن تطبيقها لم يكن فاعلاً. وبناءً عليه، ففي عهد السيد روبرت والبول ودوق نيوكاسيل (١٧٢١م-١٧٦٣م) اتبعت الحكومة البريطانية سياسة (غض النظر) عن تطبيق هذه القوانين. كما يجب ألا ننسى بأن تجارة المستعمرات كانت تستفيد من حماية البحرية البريطانية لها في عرض البحر .

٧- التنظيمات الخاصة بالصناعات والعمل:

كانت الحكومة البريطانية تريد منع أي منافسة للصناعة البريطانية من قبل المستعمرات، ولذلك فقد أقرت بعض القوانين التي تمنع قيام بعض الصناعات في هذه المستعمرات من هذه القوانين قانون الأصواف لعام ١٦٩٩ م الذي منع إنتاج الملابس الصوفية في المستعمرات الأمريكية، ثم قانون القبعات عام ١٧٣٢م الذي منع إنتاج القبعات. ثم قانون الحديد عام ١٧٥٠م الذي منع إنتاج المصنوعات التي يكون فيها الحديد عاملاً أولياً. هذه التنظيمات لم يكن لها أثر فاعل في المستعمرات الأمريكية؛ حيث إن هذه المستعمرات في الواقع كانت معتمدة اعتماداً كلياً على الصناعات البريطانية. سك العملات كان يعتمد على تشريعات تقوم بها المجالس العامة في المستعمرات حسب التنظيمات التي يضعها البرلمان البريطاني، أو حسب تعاليم الحكام في الولايات؛ أولئك الذين كانوا يتلقون أوامرهم من البرلمان^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٤٨-٥٠.





الفصل الخامس
لمحات من الحياة الاقتصادية في القارة الأمريكية
خلال فترة الاستعمار الأوروبي



مقدمة:

قام الأوروبيون منذ دخولهم أمريكا بجميع الجهود التي تهدف إلى تسخير بقية الموارد الاقتصادية في أمريكا لهم فقط من دون أن تؤخذ بالحسبان مصلحة السكان الأصليين. فبدؤوا باتباع السبل كافة التي تكفل تأمين الغذاء الكافي للأعداد المتزايدة من المهاجرين الأوروبيين، واهتموا بالحصول على الثروات المعدنية التي يمكن استعمالها لتجارة خارجية رابحة؛ بالإضافة إلى عملهم في الحصول على سلع أوروبية أو محلية يستطيعون بواسطتها تغطية حاجة السوق المحلية، وتحقيق أرباح كافية. أما السكان الأصليون فقد تركوا لأعمال السخرة الزراعية في المناطق التي تم احتلالها بالقوة أو طردوا إلى مناطق الغابات أو الجبلية النائية ليمارسوا الزراعة البدائية أو تربية المواشي أو صيد الأسماك النهرية^(١).

وهكذا تكالب المستعمرون الأوائل لأمريكا اللاتينية من الأيبيريين على تحقيق المنافع الخاصة بهم من دون الاهتمام بالسكان الأصليين أو المجموعات البشرية غير الإسبانية. وبذلك تركوا أثراً سيئاً جداً من النواحي البشرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية كافة؛ بسبب اندفاعهم بنهم شديد نحو استثمار خيرات البلاد الزراعية والمعدنية على الشواطئ البرازيلية، وجبال الأنديز على حساب الشعب الهندي الأصل؛ ووفقاً لنظام إقطاعي ظالم يسام فيه سوء العذاب العمال الزراعيون من أهل البلاد والجماعات الإفريقية السوداء التي أتى بها الأسياد للقيام بالعمل الصعب في المناطق الاستوائية الساحلية المنخفضة تحت شروط مناخية طبيعية مضيئة^(٢).

(١) ساطع محلي، أمريكا اللاتينية، ص ١٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٨١.

أولاً- السياسة الاقتصادية الإسبانية:

I- السياسة الاقتصادية الإسبانية حتى بداية القرن الثامن عشر:

١- استخراج المعادن الثمينة:

كان المعمر الإسباني، أو الغازي، يعتقد أن من حقه أن يربح كل شيء، حتى ولو أدى ذلك إلى تحطيم الأهالي، مادام قد أحضر لهم المسيح، وهو أكثر من أن يقارن بأي شيء يأخذه منهم. ولذلك فإنه كان يستغل، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان. وكان هدف المعمرين الأول هو البحث عن مناجم الذهب والفضة، ورغم خيبة أملهم، فإنهم لم يفقدوا الأمل مادام الأهالي يتزينون بالجواهر، ومادام حكام الأرتك والأنكا قد تمكنوا من جمع كنوز كبيرة. وأخذ الإسبان يغسلون رمال الأنهار ليحصلوا على التبر، ويبحثون في الأرض بعناد حتى يصلوا إلى نتيجة. ووجدوا بعض الذهب، وكثيراً من الفضة في المكسيك أولاً، ثم في البيرو بعد ذلك. واكتشف أحد الهنود الذي يرعى اللاما مع أحد ضباط بيزارو جبلاً من الفضة على الهضبة: أنها مناجم بوتاسي التي سيزيد إنتاجها بشكل يسمح للأوروبيين باستخدام كلمة "بيرو" للدلالة على الثروات الكبيرة.

واضطر الإسبان إلى الحفر في الأرض لاستخراج المعدن النفيس، ولم يكن هذا المعدن نقياً في أغلب الأحوال؛ بل كانوا يضطرون إلى تحطيمه وغسله وتنقيته. وتمكن رجال الكيمياء من تحسين طرق فصل الذهب عن الفضة بمعالجتها بالزئبق. ووجد الإسبان -لحسن حظهم- مناجم للزئبق في البيرو نفسها، فتزايدت كميات الإنتاج الأمريكية بشكل مذهل. وكانت المناجم ملكاً للتاج الذي يمنحها للمستغلين الذين يتعهدون بتسليم الملك جزءاً من الإنتاج، يصل إلى النصف أو الثلث في أول الأمر، ثم إلى الخمس فيما بعد ذلك. وكان هذا المعدن

ينقل بحرياً من بيرو إلى بنما، ثم على ظهر البغال لعبور البرزخ، ولشحنه من جديد على سفن إسبانية متسعة، وبطيئة^(١).

وهكذا استمر مستعمرو البيرو في التوغل بعيداً في البلاد بحثاً عن المناجم، فاكتشفوا في المكسيك في عام ١٥٤٦م عروق زاكاتيكاس على مسافة ٧٠٠ كم من مكسيكو، وفي عام ١٥٦٧م بلغوا هندة وسانتا-بربارا في قلب بلاد البدو على مسافة ١٥٠٠ كم عن مكسيكو. منذ السنة ١٥٤٨م قامت في زاكاتيكاس بين ليلة وضحاها مدينة ضمت خمس كنائس، وحوالي خمسين مطحنة معادن. فتميز الاستعمار الإسباني منذئذ بسرعة التوسع واسترخاء الاحتلال. واعتمدت في البدء الطريقة الهندية باستخراج المعادن: يسحق المعدن الخام بين حجرين قاسيين، ويوضع فوق النار في أفران ذات ثقوب للتحليل، فتتحل الفضة في الرصاص في أثناء الذوبان. ثم يبعد الرصاص بأكسدته بالهواء.

إلا أن نفقات المحروقات كانت باهظة، والحصول على المعدن الثمين استغرق وقتاً طويلاً؛ فبات لازماً معالجة خامات تكون نسبة الفضة فيها مرتفعة. في سنة ١٥٥٤م أدخل برتولومي دي مدينا إلى المكسيك طريقة الملغم أو المزج التي اقتبسها عن أحد الألمان. يسحق المعدن الخام، ويرش بالماء، ويخلط بالملح والنحاس الممزوج بكبريتور الحديد والزنبق. يستولي الزنبق على الفضة لأنها قابلة للذوبان فيه. ثم يصعد الزنبق بخاراً وتجمع الفضة. فأتاحت هذه الطريقة وفراً كبيراً في الوقت والمحروقات ومعالجة خامات تكون نسبة الفضة فيها متدنية. وفي عام

(١) جلال يحيى، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج ٤، ص

١٥٦٣م أدخلت هذه الطريقة إلى البيرو بعد اكتشاف مناجم الزئبق في غوانكافليكا^(١).

٢ - المواصلات:

إن عمل المناجم أوجد حركة بضائع كبرى. فكان على المناجم نقل إنتاجها من المعدن الثمين، وحوالي عام ١٦٠٠م بلغ تصدير الفضة إلى أوروبا وآسيا ذروته؛ ومثلت الفضة ثلثي أو ثلاثة أرباع قيمة المشحونات. وكان على المناجم الحصول على الزئبق الذي استورد من المكسيك إلى أوروبا، وعلى الجلد الضروري لتجفيف الدهاليز ونقل الفضة، وعلى المواد الغذائية. فوجب من ثم تأمين حماية الطرقات من البدو، وتعزيز الإنتاج الزراعي، وتربية المواشي، ولاسيما أن الشيشيميك في المكسيك، قد أصبحوا فرساناً مهرة في وقت قصير، وأخذوا يحرقون تجهيزات المناجم الصغرى المنعزلة، ويمحقون الاستثمارات (فلا يبقون على كلب أو هرة على قيد الحياة)، ويهاجمون المسافرين ويقتلونهم، ويحرقون البضائع، فوجب التنقل عبر قوافل كبرى مسلحة تضم حتى ٨٠ عربية مصنوعة من الخشب السميك المتين كانت أشبه بحصون متحركة، وإحداث نقاط عسكرية يواكب جنودها المسافرين.

إلا أن الحل الحقيقي كان إعمار البلاد على جوانب طرقات المعادن بإقامة جماعات من المزارعين ومربي المواشي فيها. فأكثر نواب الملك والبلديات؛ -تحقيقاً لهذا الهدف- توزيع امتيازات استثمار الأراضي والمراعي لقطعان الماشية^(٢).

(١) موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، ج ٥، ص ٥٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٠٦-٥٠٧.

٣ - الزراعة:

حصل الإسبان من البلديات أو من نواب الملك على أملاك تقارب مساحتها ٤٣ هكتاراً من الأراضي الزراعية؛ رغبة منهم في إنتاج ثمار بلادهم وحبوبها. زرعوا القمح بصورة خاصة على جانبي الطريق بين فيراكروز ومكسيكو، وأشجار البرتقال والليمون والتوت في منطقة بوابلا وربوا دودة القز في بوابلا والمكسيك. صدر الحرير خاماً إلى إسبانيا أو غزل وحيك في البلاد. وبيع القمح بسهولة لتموين الأساطيل الإسبانية والمناجم. أما اليد العاملة فقد وفرها الهنود بأجور زهيدة بلغ من تدنيها أن العمل اليدوي حظر على البيض.

شجع نواب الملك زراعة الحنطة، ولكنهم تقيّدوا بتعليمات سرية، ووقفوا عثرة في سبيل زراعة الكرمة وشجرة الزيتون اللتين تتوفران بكثرة في إسبانيا. وهنا أيضاً توصل بعضهم، بالتخلية المباشرة أو بالشراء، إلى امتلاك مساحات كبرى، مع أن الأملاك متوسطة المساحة لم تكن نادرة.

ازدهرت في الوديان العميقة والسهول الساحلية والمنحدرات المطلة على البحر زراعة قصب السكر، وشجرة اللوز الهندي والعظم في مغارس ومشاجر صغرى منعزلة تتوزع على مئات الكيلومترات. في البدء استخدم اللوز الهندي نقداً، وفي أواخر القرن السادس عشر أصبح الشكولاتة المشروب المفضل في المكسيك وإسبانيا، ومسحوق اللوز الهندي مادة تجارة وتصدير كبيرين، ونمت زراعة قصب السكر نمواً سريعاً؛ بسبب تزايد استهلاك الحلويات الذي جعل من السكر مادة ضرورية جداً.

ونمت كذلك زراعة العظم بفضل الاحتكار الذي حصل عليه بدرو دي لداسما مكتشفه والمركز دال فاليه أحد أحفاد فرناند كورتيس، في السنة ١٥٦١م والسنة ١٥٧٢م. كانت هذه المغارس والمشاجر كلها أملاكاً كبرى أو مشاريع

رأسمالية. فوجب استخدام عدة مئات من العمال وعدة مئات من الحيوانات في كل منها لحراثتها حراثة عميقة وريها والعناية بها.

سحق قصب السكر بواسطة محادل من الخشب الصلب تحركها مطاحن تسير على الماء أو البغال، ومست الحاجة إلى قدور معدنية كبرى وقدور معدنية صغرى. كما مست الحاجة لمعالجة العظم، إلى مضخة ماء، وقدور معدنية للإنضاج، وعجلات ذات لوحات تحركها البغال لمزج المعجون، وأحواض للتصفية، وأحواض للتجفيف. فلم يتمكن من تأمين الأموال اللازمة لكل ذلك سوى كبار الملاكين.

اعتمد نائب الملك مندوزا وخلفه فيلاسكو القديم (١٥٥٠م-١٥٦٣م) النظريات الدومينيكانية وحاولا حماية الهنود وممتلكاتهم، فعين حماة للهنود في الولايات منذ السنة ١٥٤٢م. وأنشئت في مجلس مكسيكو محكمة للشؤون البلدية منذ عام ١٥٧٤م، إلا أن الهنود بقوا أحراراً في بيع ممتلكاتهم. فباعوا الكثير منها في أواخر القرن السادس عشر، مع أنهم كانوا مسؤولين عن الجزية المفروضة على جماعاتهم. ثم انتشرت الأوبئة ما بين العام ١٥٧٦م والعام ١٥٧٩م وقضت على نصف سكان الهنود. ولكن مقدار الجزية لم يتبدل. فاضطر زعماء الهنود للبيع لأجل دفع الجزية، بيد أن بعضهم احتفظوا بأموال واسعة جداً.

لم تستثمر الجماعات الهندية سوى مساحات صغرى من أراضي المكسيك. فأنشئت للإسبان الاستيطان، وتملك أرض شاسعة من دون التعرض مباشرة للجماعات. ولكن الأراضي الخصيبة في أناهواك ما لبثت أن امتدت وأحاطت تدريجياً بالقرى الهندية. فاغتصب الإسبان المزروعات الهندية. ويبدو بصورة عامة أن أراضي الجماعات كادت تكون سليمة في أواخر القرن السادس عشر. ففي أواسط القرن السابع عشر، وأمام أبواب مكسيكو بالذات، مازالت بعض الجماعات الهندية تمتلك أراضي غنية جداً. وحين أجاز قانون السنة ١٨٥٦م بيع الأملاك

العامة. كان حجم المبيعات كبيراً جداً؛ مما يثبت أن الجماعات الهندية احتفظت بمساحات كبرى حتى القرن التاسع عشر^(١).

٤ - سياسة الاحتكار الإسبانية:

استغلال الإمبراطورية واستثمارها هي من شؤون إسبانيا الخاصة وحدها، فيحظر على هذه الإمبراطورية أن تنتج أي صنف تنتج مثله إسبانيا. ونالت البيرو بصعوبة كلية الترخيص لها بغرس شجرة الزيتون في بلادها، وزرع الكرم في أراضيها المعتدلة، شريطة ألا تصدر أي شيء من إنتاج هذين الصنفين إلى أي جزء من أجزاء الإمبراطورية الإسبانية التي تتمون زيتاً وزيتوناً من الوطن الأم. وحظر على الإمبراطورية كذلك أن تصنع أي شيء مثله في إسبانيا. فلا إسبانيا وحدها الحق بشراء منتجات الإمبراطورية جميعها، كما لها وحدها الحق بأن تبيعها ما تحتاج إليه من أمور المعيشة. فإذا ما تعذر على إسبانيا أن تزودها بما تحتاج إليه، أو أن تستهلك هي نفسها منتجات إمبراطوريتها، قامت إسبانيا وسيطاً بينها وبين زبائنها.

تحدد غرفة تجارة إشبيلية التي انتقلت عام ١٧١٨م إلى مدينة قادش - لسهولة دنو سفن الشحن من المرفأ - كمية الشحن المعدة مثلاً للهند الغربية، كما تحدد منها الأسعار، وعدد السفن التي تقوم بنقل المؤن والمشحونات. وهناك أساطيل تجارية تؤلف معاً قوافل منتظمة تغادر قادش المرفأ الوحيد الذي له حق الاتجار مع أجزاء الإمبراطورية الإسبانية في أمريكا، باتجاه مرفأ بورتو بلو وقرطاجنة وفيراكروز حيث يجري تفريغ الأصناف المشحونة، ثم تباع البضاعة في الأسواق التجارية، وهي أسواق تستمر قائمة مدة أربعين يوماً، ومنها

(١) المرجع السابق، ص ٥٠٨-٥٠٩.

تنتقل براً إلى أطراف الإمبراطورية جميعها. كذلك تشحن من هذه الموانئ محاصيل بلدان الإمبراطورية جميعها.

والبضاعة الوحيدة التي يجري نقلها مباشرة، بين الإمبراطورية الإسبانية وبين بلاد المنشأ، هي تجارة الرقيق التي ألفت احتكاراً إنكليزياً، وذلك منذ عام ١٧١٣م. فلإنكليز الحق بنقل الرقيق مباشرة من إفريقية إلى بوينس إيرس وقرطاجنة وبورتو بلو، اختصاراً للوقت وللمسافات، واستعجالاً للمعاملات لما تتعرض له هذه البضاعة سريعة العطب من أخطار ومهالك.

ولوجود هذا النظام القائم على الحظر والاحتكار والاستثناء الذي فرض على الإمبراطورية؛ فاضطرت للنزول عنده والأخذ به، فألزمها الشراء بسعر عال والبيع بسعر متدن منخفض، حال -إلى حد بعيد- دون تطوير مرافق الزراعة والصناعة فيها. ففيه كل المساوئ التي عانت منه البرازيل في النظام البرتغالي، فالطريقة التي يجري عليها الاستثمار لا تساعد قط على توفير ما تحتاج إليه البلاد من رؤوس الأموال واليد العاملة. فإسبانيا والقائمون بأعمال التهريب من قراصنة البر والبحر، يسلبون الإمبراطورية، ما لديها من معادن ثمينة، فيقل النقد من التداول، وتتأخر حركة البيع والشراء.

إن تأمين كل ما يحتاج إليه العمال العاملون في الغابات يتأزم، وبطء حركة النقل، والصعوبة القائمة في توفير رؤوس الأموال التي لابد منها لتأمين هذه المستلزمات يلتهم رؤوس الأموال الزهيدة التي أمكن توفيرها (مع العلم أنه يقتضي ثلاثة أشهر لقطع المسافة القائمة بين بوينس إيرس وسلطا، كما يقتضي لقطعها ١٢ ألف بقرة، و ٦٠٠ مركبة أو عربة). وأعمال النقل تستوعب عدداً كبيراً من الأيدي العاملة. إن ثلث سكان كولومبيا ونصف البونغا في لاباز وبوليفيا هم من

البعالين، وهذه البلاد الكاثوليكية -على طريقتها الخاصة- تعد من الرهبان والراهبات عدداً لا يحصى، فلا عجب أن تفنقر افتقاراً شديداً لليد العاملة^(١).

٥- تربية المواشي:

سبق للإسبان أن أحضروا حيوانات داجنة من أوروبا للتغذية والأعمال (الخنزير - الثور - الخروف - الحصان - الحمار)، واستخدموا البغل الذي ما كان الاستعمار ليصبح ممكناً بدونه. ازدهرت تربية المواشي. فالمساحات واسعة جداً. ويكفي حراس عدة لألوف الحيوانات. ولم تكن الحراسة على ظهر الحصان عملاً خدمياً؛ بل عملاً جديراً بعرق متفوق.

خلال عقدين اجتاحت العالم الجديد موجات متعاقبة من المواشي، فالمراعي غنية بالكلاء؛ لأن حوافر الحيوانات لم تطأها، تضع الأبقار صغارها قبل أن تبلغ السنتين من عمرها. تتضاعف القطعان خلال ١٥ شهراً. يمتلك أصحاب القطعان ما بين العشرة آلاف والمئة ألف حيوان. ينخفض سعر اللحم إلى ثمنه في الأندلس، فينجم عن ذلك خدمة جلى للاستعمار، ولا خوف على الأبيض من ألا يجد ما يؤمن غذاءه. أما الجلد الذي مست الحاجة إليه للمناجم وللجيوش الإسبانية في أوروبا فقد غدا إنتاجاً تصديرياً مربحاً. ولكن تربية المواشي لم تجد سوى ملاكي القطعان الكبرى، وكان مقدر لها أن تفضي إلى الأملاك العقارية الكبرى.

حافظ الإسبان على مبدئهم القشتالي: **العشب هبة الطبيعة**، فيجب أن تكون المراعي مشتركة، وقد اعترف بالمرعى العمومي حقاً وقانوناً بعد الحصاد، تنتقل القطعان بحرية، وقد توطدت من جهة ثانية عادة نقل المواشي من المناطق المرتفعة إلى المناطق المنخفضة والعكس بالعكس؛ إنما يقتضي لمربي الماشية

(١) المرجع السابق، ص ٥١٤.

نقطة ثابتة لإقامة زرائب البهائم وأكواخها. فأخذت الجماعات تعترف للمربين بنطاق خلفي قابل للتخلية؛ أي بنقطة ثابتة لا يحق لأي مربٍ أن يقيم حولها ضمن دائرة يبلغ قطرها أربعة كيلومترات على الأقل.

إلا أن هذه الهبة لم تول حق تملك؛ بل مجرد حق استعمال. يضاف إلى ذلك من جهة أخرى أن الحرية لم تفد سوى الإنسان؛ إذ إن الهنود لا يمتلكون قطعاناً، والمواشي تجتاح مزارع الهنود فتفر جماعات كاملة إلى الجبال. حاول نواب الملك حماية الهنود بتحديد نطاق حماية حول القرى، وبإنقاص المدة المسموح خلالها الاستفادة سنوياً من المراعي العمومية، وبمحاولة رسم طرق تسلكها المواشي المنطلقة من مكان لآخر. وحاولوا أخيراً تحويل سيل القطعان نحو البورات الشمالية بمنح النقاط الثابتة مع نطاقاتها في قلب مناطق البدو، فكان نصيب بعض كبار الموظفين والمستعمرين المتنفذين بين سبع نقاط وإحدى عشرة نقطة ثابتة، فاشترى امتيازات غيرهم من المستعمرين الثانويين، وكونوا لهم أملاكاً كبرى. وإلى جانب الثور، وفرت اللحوم الشهية قطعاناً كبرى من الأغنام نسجت أصوافها، وحيكت في النقاط الثابتة عينها، وبيعت الأقمشة في أنحاء العالم الجديد كافة^(١).

٦- التجارة:

أ- تجارة العبيد:

إذا ما عبرنا المحيط الأطلسي لمشاهدة ما كان يحدث في إفريقية في الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تستعمر قارتها الأمريكية، لوجدنا أن السلطان العثماني قد استولى على مصر، وضمَّ إليه ساحل شمال إفريقية. أما في المغرب الأقصى، فإن دولة السعديين التي كانت قد جاءت من وادي درعا، كانت تقاوم

(١) المرجع السابق، ص ٥٠٧.

الإسبان والبرتغاليون الذين قاموا بالهجوم على هذا الإقليم، واحتلوا مواقع مختلفة من سواحله. وكان البرتغاليين قد ساروا على طريق فاسكو دا جاما، وعلى طول السواحل الإفريقية، وأنشؤوا عدداً من المراكز المحصنة التي كانوا يستخدمونها كمحطات لتزويد سفنهم بما يلزمها من الرأس الأخضر إلى زنجبار، فأقاموا في سان توما، وفي أنجولا في سان بودي لواندا، وفي موزمبيق، ووجدوا معادن النحاس والفضة في حوض الكونغو، أما بقية قلب القارة، من النوبة والسودان حتى رأس الرجاء الصالح، فكان بعيداً عنهم، وكانت تسكنه قبائل بدائية يجهلونهم، ولم تكن هناك علاقات اقتصادية منتظمة في هذه الفوضى الكبيرة التي ضربت أطناها في إفريقية؛ إلا للتجارة في الملح وفي الرقيق الذي كان يرسل إلى العالم الإسلامي والأقاليم العثمانية، ولكن ذلك لم يمنع من وجود إمبراطوريات كبيرة في إفريقية عرفها التاريخ، مثل إمبراطورية غانا، أو جهلها، وظل يجهلها إلى الآن. وجاءت إمبراطورية سنغاي بعد إمبراطورية غانا، وامتدت على مسافة ٥٠٠ كم بين الشرق والغرب، واشتملت على تمبكتو، وعلى غيرها من الأقاليم التي كان الإسلام قد دخلها من شمال إفريقية مع طرق القوافل. وكانت تمبكتو مركز النقاء القوافل، وتجارة العبيد مع فاس والقيروان والقاهرة وحتى مع جنوه والبندقية. وكانت تنقل الملح والذهب والنحاس والعبيد، حيث كانت إمبراطورية جاو تحتكر تجارتهم مع البلاد السودانية.

ولقد تفككت هذه الإمبراطورية حينما شعر أحمد المنصور الذهبي سلطان المغرب بشدة ضغط الإسبان والبرتغاليين والأتراك عليه، وصمم على الاستيلاء على مناجم الملح والذهب الموجودة فيها، وأرسل حملة إلى النيجر، اشتملت على عدد من الأسرى المسيحيين والإسبان والأرمن والفرنسيين واليونانيين، ولكنها كانت منظمة على الطريقة التركية. وكانت في خدمة الإسلام. وأخضعت هذه الحملة تمبكتو، رغم أن نفوذ المغرب الفعلي قد تقلص بعد ذلك من المنطقة.

وكان تجار العبيد يربحون ربحاً كبيراً من عملياتهم، وكثيراً ما كانوا يتفقون عليها مع ورؤساء القبائل، وكانوا يجمعون "العاج الأسود" ويسلمونه للتجار البرتغاليين والإسبان والإنكليز والفرنسيين، وكان العبيد يركبون السفن، بعد أن يتجمعوا في الموانئ، وكانت عملية عبور المحيط فظيعة؛ إذ كانت الأجساد ترص الواحد جوار الآخر، ودون أن تتمكن من الحركة، وكانت نسبة الوفيات تصل في المتوسط إلى ٢٠ أو ٢٥ % في خلال هذه المرحلة.

أما السبب في انتشار هذه الهجرة الجديدة الإجبارية من إفريقية إلى العالم الجديد فكان هو المعمرين الإسبان، ورجال الدين المسيحي. ولقد أوصى لاس كازاس -صديق الهنود الكبير- باستيراد العمال السود من دون أن يفكر في أن يمنحهم فوائد قوانين الحماية التي كانت قد صدرت في صالح الهنود. وعامل الإسبان القادمين الجدد على أنهم في مرتبة الحيوان، وذكروا أن أرواحهم كانت سوداء مثل جلودهم، وليس معنى ذلك أنهم كانوا يعذبونهم بعد أن يستخدمونهم في المناجم أو في مزارع قصب السكر، ولكنهم كانوا يحتفظون لهم بوضعية العبيد؛ تلك الوضعية التي تجعل منهم مجرد أدوات ومنقولات.

وكان التاج هو الذي يمنح تراخيص استيرادهم، ويربح من هذه العملية نتيجة للضرائب التي يفرضها على النقل. وكان يبيع في بعض الحالات امتيازات تجارة الرقيق إلى شركات خاصة، أو إلى دول أخرى: عدداً معيناً من الرؤوس في السنة، نظير مبلغ معين من الدوقات أو القروش. وحصل البرتغاليون والإسبان والهولنديون ثم الفرنسيون وإنكليز على عقود بهذا المعنى. أما تجار العبيد، فكانوا يربحون الكثير، وكانت السفينة نفسها التي تنقل البضائع من أوروبا إلى إفريقية، تنقل بعد ذلك العبيد من إفريقية إلى أمريكا. وتعود بعد ذلك إلى أوروبا مشحونة بالسكر والروم وكانت هذه الرحلة المثثية طبيعية، ومنظمة، وتستخدم فيها

الحمولة الكاملة للسفينة. وكان أول تصريح بالاستيراد صالح لأربعة آلاف عبد، ثم جاءت الآلاف بعد الآلاف الأخرى.

استمرت هذه العملية لمدة ثلاثة قرون، وقامت بأكبر عملية للتهجير الإيجاري في العالم، ونقلت ملايين الرجال من قارة إلى قارة، وجمعت شباب إفريقية، وعمرت بها أمريكا. وبلغ مجموع ما قام تجار العبيد باقتناصه من إفريقية ما يقرب من إثني عشر مليوناً، وقام القناصة بصيدهم من أنجولا وغينيا والسودان والسنغال جامبيا، وفي كل مكان يمكنهم أن يعثروا فيه عليهم. يفسر هذا كيف تحولت مدن مزدهرة، مثل: جاو، وتمبكتو-التي بلغ سكانها ٦٠-١٠٠ ألف- إلى مجرد قرى صغيرة، ولم تصل من هذه الملايين الاثنا عشر سوى ثمانية أو تسعة ملايين فقط إلى أمريكا. وكان يصل منهم ثلاثون ألفاً في السنة يوزعون بين الأنثيل، وخصوصاً هاييتي، وبين الأمريكيتين، ولكننا لا نجد في كل القارة الأمريكية، وبعد ثلاثة قرون من عملية التهجير إلا أربعة أو خمسة ملايين زنجي، ويرجع ذلك إلى أن القناصة كانوا يفضلون الرجال على النساء في تجارتهم. فكانت نسبة التزاوج بين الزوج في العالم الجديد منخفضة. وحالات المواليد نادرة. واحتاج الأمر إلى أجيال عديدة لموازنة أعداد الجنسين، والسماح بقيام عملية توطين طبيعية.

وكان الهنود من جانبهم غير مهينين لقبول الحضارة اللاتينية، وبلغ عددهم ثلاثين مليوناً قبل وصول كولومبس، ثم انخفض عددهم إلى ثلاثة عشر بعد قرن، ولم يبق منهم إلا عشرة ملايين بعد ثلاثة قرون من الاستعمار، ومعظم دمائهم أصبحت مختلطة. ونشأ من هذا التخليط جنس جديد في أمريكا الإسبانية البرتغالية، وكان الغزاة والمعمرون يحضرون شباباً، غير متزوجين، ثم يتصلون

بالهنديّات، ويدخلون ذلك في نطاق عملية الغزو. وعلى أي حال، فإن الإسبان غير المخلطين يُعدّون قلة^(١).

ب- التبادل التجاري مع المستعمرات:

ازداد الازدهار الاقتصادي التجاري بين إسبانية، ومستعمراتها الأمريكية، وكانت التجارة بسيطة في السنوات الأولى قبل العثور على مناجم المعادن النفيسة، ولكن التصدير ازداد مع الزمن في الوقت نفسه الذي ازدادت فيه حاجة المعمرين إلى مواد التموين، والملابس، والأدوات، والخيول، والعجول من أوروبا. وكانت إسبانيا تنظر إلى عملية التصدير هذه إلى العالم الجديد على أنها خراب لها. ولكن الميزان انقلب مع الزمن، وازدادت عملية التصدير من أمريكا بإرسال الفضة والذهب واللآلئ والأحجار الكريمة، والسكر، والقطن، والكافور، والطباقي، وكانت كلها ترسل إلى إسبانيا، ونقوم إسبانيا وحدها بتموين مستعمراتها، واحتفظت باحتكار التصدير والاستيراد والنقل من المستعمرات، إلا ما يخص تجارة الرقيق، وحرمت على السفن الأجنبية الرسو في أمريكا حتى ولو كان ذلك لإصلاح ما يصيبها من عطب، وبالطريقة نفسها التي منعت بها قرطاجة سفن الرومانيين من الرسو في سردينيا أو في ليبيا.

وفتحت إسبانيا عدداً من الموانئ للتجارة حتى تمنع التهريب، وكانت هي أشبيلية التي أخذت مكان قادش، وبعد ذلك قرطاجنة في داخل البلاد، وديوس وبورتوبالمو التي كانت تهيمن على التجارة في الداخل. ونظمت إسبانيا الملاحة في قوافل كبيرة، وبطريقة البندقية، حتى تخلص من أخطار القراصنة. وكانت القوافل

(١) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج ٤، ص

تسافر في شهر نيسان عن طريق جزر كناريا إلى الأنتيل والمكسيك، وفي شهر آب لبرزخ بنما وأمريكا الجنوبية. أما العودة فكانت القافلتان تجتمعان في كوبا، وتمر على جزر الخالدات قبل أن تصل إلى أشبيلية في شهر آذار^(١).

وادعت إسبانيا كذلك الإشراف على الصناعات الناشئة في الهند من دون أن تتمكن من القيام بذلك بطريقة عملية، وكانت المكسيك تنتج الحرير، وبيرو تنتج الأصواف، وكانت هذه السلع منخفضة السعر، وهددت بمنافسة الصناعة الإسبانية. فمنعت مدريد هذه الصناعة، ولكن نواب الملك لم ينفذوا هذه القرارات.

وازدهرت أمريكا الإسبانية بطرق مشروعة، وطرق غير مشروعة، وظهر ذلك في نمو مدنها الصغيرة التي كانت تبنى على خطوط منتظمة، حول ميدان مربع، كما هو الحال في مدن إسبانيا، وتشتمل مثلها على كنيسة، ومدرسة، وأحد الفنادق، مبنية على الطريقة القشتالية. وكانت الشوارع تتقاطع مع بعضها، وتشتمل المساكن على حوش داخلي، وعلى أعمدة. وبُنيت الكنائس والكاتدرائيات في مكسيكو وليما، وأصبحت كل من هاتين المدينتين مركزاً لرئيس أساقفة، ولها جامعة، وفتحت الكليات أبوابها للهنود مع الإسبان، وأصبحت لغة قشتالة هي اللغة الرئيسية، وخاصة في المدن. ولم تختلف فيراكروز وكراكاس عن بورجوس أو غيرها من مدن إسبانيا. وكان فيها التاجر نفسه والموظف نفسه والضابط نفسه، إلا بوجود رجال لوحت وجوههم الشمس، وبعض الهنود والزنوج، للدلالة على أنها ليست إسبانيا، ولكنها مستعمرة إسبانية.

وهكذا أصبح العالم الجديد انعكاساً للعالم القديم، بعد أن أخذ منه لغته وأسماءه وديانته، وفي الوقت نفسه الذي استخدم فيه الخيل، والعجلة، وصناعة الحديد، وقبل أن تغير أمريكا أوروبا قامت أوروبا بتشكيل أمريكا^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٠-٢٤١.

II- السياسة الاقتصادية الإسبانية ما بين ١٧١٣م-١٧٩٥م:

كان توسع الإمبراطورية الإسبانية، حتى عهد شارل الثالث، يتجه نحو الشمال، وذلك بفضل الإرساليات الكاثوليكية، على الأخص. فقد أنشأ الآباء اليسوعيون، في كاليفورنيا القديمة قرى ومعدات لهم تتأزوا عنها -فيما بعد- للآباء الدومنيكيين. كما عمل الآباء الفرنسيون من جهتهم على تطوير كاليفورنيا الجديدة، إذ ساعدوا على توطين الهنود، كما أدخلوا على البلاد زراعة الأشجار المثمرة، والبقول، والخضروات المعروفة في أوروبا. وأنشأ المرسلون لهم مراكز يشعون منها إلى أريزونا. وخلال ١٧٢٠م-١٧٢٢م، وضعت إسبانيا يدها على مقاطعة تكساس حتى مشارف النهر الأحمر. وحاول الإسبان الوقوف في وجه تقدم البرتغاليين حتى نهر ريو دي بلانا، فأسسوا عام ١٧٧٦م مدينة مونتفيديو.

وبفضل نشاط الحركة التجارية ازداد عدد السكان، كما ازداد الغنى واليسر بين الناس. وقد اقتصررت التجارة مع الإمبراطورية على بعض المرافئ، منها في المكسيك مثلاً فيراكروز. ومن هذا المرفأ كانت البضائع ترسل -عن طريق خلايا- إلى المناطق الجبلية، وأكابولكو التي كان يصلها كل سنة سفينة مانيلا محملة منتجات ومحاصيل آسيا الشرقية. أما في أمريكا الجنوبية فأهم هذه المرافئ، مرفأ قرطاجنة ومنها تشحن البضاعة باتجاه كميرو وليما، متبعة في سيرها إلى الأمام، وادي مغدالينا وكوكا، مارة بمدن مادلين وسنتا فيه بوغوتا وبوبويان، ومرفأ بورتو بلو ومنه تشحن البضائع عبر برزخ بنما، إلى مدينة بنما؛ لتحملها من جديد سفن باتجاه بوليفيا والشيلي وسلطا، ومنها تحمل على عربات نقل، إلى التوكومان، وقرطبة، وبيونس إيرس.

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٣.

وكان من المحظور وصول أية بضاعة إلى بيونس إيرس مباشرة باستثناء الرقيق والسفن التي تشحن أرقاء الزوج، والسفن البريطانية المرخص لها، وحدها تستطيع الرسو مباشرة في بيونس إيرس. وعلى طول هذا الخط التجاري الشاسع المسافات، نشأت تباعاً الاستثمارات الحرجية والمزروعة، يغذيها بما يلزم من المال، متعهدو النقل الذين تحولوا إلى طبقة غنية. وقد توفرت لهم اليد العاملة؛ إذ إن عدد كبير من الزوج سهل لهم الدخول إلى الأراضي الدافئة في كولومبية وفنزويلا، كما نشأت أسواق تجارية ضمت كل ما يلزم للتموين والإنتاج^(١).

ولذا جاء التطور الاقتصادي كبيراً. وبفضل التسهيلات التي وفرتها وسائل النقل تمركزت المناجم وتضاعف إنتاجها بعد أن كان آخذاً بالتقهقر الواضح خلال القرن السابع عشر، وأمدت أوروبا بالنقد اللازم لتطورها الصاعد، وساعدت في رفع الأسعار، فكان ذلك كله سبباً لظهور هذه التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي وقعت فيها، كما ساعدت من جهة أخرى على تطوير المحاصيل، والمواد الغذائية في أمريكا، ولاسيما في هذه المناطق المعتدلة، أو الباردة في جبال الأنديز، فازدهرت زراعة الذرة، والشعير، والقمح، والزيتون، والكرمة، بعد أن ساعدت هذه المحاصيل على اجتذاب اليد العاملة والباحثين عن أسباب الرزق.

وراح المعمرون و الإسبان المولودون في أمريكا يستخدمون العبيد من الزوج لإحياء المزيد من الأرض وإنشاء زراعات جديدة، من قصب السكر، والتبغ، والفانيلا، والكاكاو، والبن، في الأراضي السهلية الدافئة في كل من البيرو، وكولومبيا، والغويان، وفنزويلا، والمكسيك، وجزر الأنتيل. وراح الخلاسيون والهنود يستثمرون الغابات بحثاً منهم عن خشب الصباغ، وخشب الأبنوس، ولحاء شجر الكينا، منذ عام ١٧٥٠م، وزراعة الماتيه، كذلك لاقت تربية الماشية رواجاً كبيراً

(١) موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، ج ٥، ص ٣٣٥-٣٣٦.

توفيراً لحيوانات الجر، والنقل أكثر منها للحوم والجلود. وأخذت البيرو تستورد أكثر من مئة ألف بغل من التوكومان والشيلي. وكان يباع كل سنة يقام فيها معرض مالطا، أكثر من ٦٠ ألف بغل جرى تطبيعها وتدريبها. وقد قام في السهول العشبية المحيطة بنهر الأورينوك وبمرتفعات غرناطة الجديدة والأناهيوك والمكسيك الجديدة -على مقربة من الاستثمارات الزراعية والمعدنية- مزارع كبيرة تعنى بتربية الماشية. أما في السهول البعيدة عن هذه المشاريع، فقد تركت المواشي تعيش فيها نصف متوحشة أو برية، يسهر على حراستها أقوام من الخلاسيين والهنود، يعملون على وشمها واقتيادها إلى الأسواق القائمة في خلابا وتوكومان وسلطا، بقصد بيعها.

إلا أن الأسس الاقتصادية التي قامت عليها سياسة البلاد الأساسية بقيت مرعية الجانب. فنظام الاستثناءات بقي معمولاً به بشدة، والقاعدة الركنية لكل سياسة. فالشغل الشاغل الأكبر هو أن تصبح إسبانيا بعد تجددتها وبعثها خير زبون للإمبراطورية تصديراً واستيراداً، فهي وحدها دون سواها، تمد الإمبراطورية بالمواد الصناعية، وبيع بعض المواد الغذائية. فقد حرّم شارل الثالث العرق المحلي المصنوع من نبتة تسمى الغافا والذي كان ينافس العرق الإسباني المصنوع من العنب. واستمر مرفأ قادش الوحيد الذي يتولى تصدير الحبوب، والمواد الغذائية الأخرى كل سنة على الإمبراطورية التي كان بإمكانها الاستغناء عنها. وبقيت التجارة محصورة بيد الإسبان دون سواهم. وفي عام ١٧٧٨م انتهى أجل العقد الممنوح لشركة أسيننتو الإنكليزية التي تعمل في تجارة العبيد، فرأى الملك شارل الثالث في ذلك فرصة سانحة ليحتفظ بهذه التجارة، كما أجبر البرتغال على التنازل له عن جزر فرناندو-بو وأنوبون، على سواحل إفريقية الغربية، كونها مركزاً لتجارة الرقيق الأسود. وفي عام ١٧٨٠م رفض مشروعاً فرنسياً بإنشاء ترعة أو قناة تربط ما بين سان خوان وبحيرة نيكاراغوا التي ستؤدي إلى اختصار المسافة بين أوروبا وآسيا الوسطى؛

مسوغاً رفضه من خوفه أن يؤدي فتح هذا الطريق الجديد إلى اشتداد تجارة التهريب، ودخول التيارات الفكرية الأجنبية إلى الإمبراطورية الإسبانية. وبالإضافة إلى الجهود العظيمة التي قام بها لتطوير التجارة والصناعة في إسبانية، والحوول دون قيام أبناء المستعمرات الإسبانية باتباع طريق الأمريكيين الشماليين في طلب الانفصال، وانتزاع الاستقلال، راح شارل الثالث عام ١٧٧٨م يعطي حرية التجارة بين إسبانية والإمبراطورية، فمنح حرية التجارة لثلاثة عشر مرفأً إسبانياً و أربع وعشرون أمريكياً من بينها بوينس إيرس. وقد استثنى المكسيك وحدها من هذا الحق، فاحتفظ لمرفأً فيراكروز وحده باحتكار التجارة، إلا أنه لم يسمح له باستيراد أكثر من ستة آلاف برميل من مختلف البضائع والسلع في السنة كلها، إلا أن المكسيك عرف بدوره أن يتمتع عام ١٧٨٦م بحرية أكبر أدت إلى مضاعفة علاقاته مع إسبانيا والإمبراطورية، وهي حرية لم تحدث أي تبدل في صلب نظام^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٢٤١-٢٤٣.

ثانياً- السياسة الاقتصادية البرتغالية:

١- زراعة قصب السكر:

احتل قصب السكر بسرعة مركزاً متزايد الأهمية في الاقتصاد الأوروبي. ففي أواخر القرن الخامس عشر، كان السكر يباع بأسعار مرتفعة. وفي أواخر القرن السادس عشر غدا استهلاكه يومياً في البرتغال عند النبلاء والبورجوازيين، بشكل حلوى مختلفة، وتجارة شاملة.

إن أكبر كمية من السكر وفرتها في البدء جزر شرقي المحيط الأطلسي: أسور، ومادير، وجزر الرأس الأخضر، وجزر خليج غينيا، وجزيرة الأمير، وجزر القديس توما. أما البرازيل فكان دورها ثانوياً، ولكن البرازيل أدت -منذ العام ١٥٨٠ تقريباً- دوراً متزايد الأهمية، وما لبث إنتاج الجزر؛ بسبب منافستها أن انخفضت قيمته المطلقة، ويفسر نجاح البرازيل بتدني سعر كلفة السكر، فليس من حاجة هنا للري، وتسميد الأراضي المنخفضة التي تنتج قصب السكر كل ستة أشهر طيلة ثلاثين سنة ونيف، وتنتج الأراضي المرتفعة أربع أو خمس دورات متوالية دون تسميد.

وتيسر للبرازيليين أن يزرعوا قصب السكر في حقول واسعة كانت كلفتها العامة أقل ارتفاعاً نسبياً من كلفة الحقول الصغرى في الجزر، أضف إلى ذلك أخيراً أن البرازيل لم تعاني من وباء الديدان التي غالباً ما أتلّف قصب السكر في الجزر.

كان في البرازيل أكثر من ٦٠ مطحنة للسكر في سنة ١٥٧٠م، وحوالي ١٥٨٣م-١٥٨٥م، تراوح عددها بين ١١٥ و ١٣٠ مطحنة، كما جاء في كتب المؤلفين. ولعله بلغ ٢٣٥ و ٣٤٦ بين عامي ١٦٢٨م و ١٦٣٩م. وربما كان في

البرازيل حوالي عام ١٧١٠م -بعض النقصان الذي يرد إلى الحرب الهولندية- ٥٢٨ مطحنة سكر تقريباً^(١).

٢ - تجارة العبيد:

أدخل الزنوج إلى البرازيل منذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر لمساعدة الهنود على قطع الأشجار وجزها. وما أن ظهرت مغارس قصب السكر حتى استوردوا بأعداد كبيرة. في السنة ١٥٢٣م، أنشأ الحاكم "ماتين أفونسو" أولى مطاحن السكر في جزيرة "سانتو-فيسنته" أمام مدينة "سانتوس" الحالية. ثم حدا حذوه الحكام الآخرون والأسياد^(٢).

كانت النخاسة بين أفريقية والبرازيل وفقاً على البرتغاليين، فقد وجب على البرتغاليين تأدية رسوم معينة للتاج يجيبها العملاء الملكيون أحياناً، وتلزم غالباً بالتعاقد مع ملتزم يحتكر النخاسة. فيعطى هذا الملتزم إجازات للنخاسين الذين يدفعون له الرسوم.

ينقل النخاسون "قطع" العبيد، أما "القطعة" فرنجي يتراوح عمره ما بين ١٥-٢٥ عاماً، ويبلغ طوله ١,٨٠ ، ويتمتع بصحة جيدة، بين الثامنة والخامسة عشرة، وبين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، يقتضي ثلاثة زنوج للحلول محل القطعة، أما دون الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين، يقتضي أربعة زنوج، وقد حصل النخاسون على العبيد عن طريق مفاوضة الزعماء الإفريقيين الذين يبيعون أسرى الحرب. لذلك عمد النخاسون إلى الدبلوماسية بأساليب شتى، فشجعوا النزاعات وأضرموا نيران الخلافات حول وراثة العرش. ولكن الزنوج المنقولين لم

(١) موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، ج٥، ص ٥٢٦-٥٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٢٧.

ينتموا إلى الطبقات الدنيا في المجتمع الأسود فحسب. فإن شحنة الزنوج أشبه بحملة زنجية مصغرة كانت تضم مهزومي حروب وراثثة العرش من الأمراء وكبار الموظفين، ورجال الحاشية، والمحاربين والمزارعين، لهذا فقد وصل إلى البرازيل زنوج متطورون فكرياً، ضليعون في أمور الإدارة والقيادة والتنظيم، جنود وعمال أكفاء؛ أي شعوب مصغرة بلغت مستوى حضارياً رفيعاً.

استخدم النخاسون في إفريقية وسطاء زنوجاً "تأنغو سمو" يقومون بالمقايضة في الداخل، ويلجؤون عند الاقتضاء إلى الحيلة والعنف. واستخدم أصحاب المزارع في أنغولا بعض عبيدهم، البومبير الزنوج أو الخلاسين، القساء والمفسدون. وكان "التأنغو سمو والبومبير" يفاوضون عملاء الأمراء الإفريقيين "لنسادو"، وهم خلاسين مسيحيون يُعَدُّون أنفسهم بيضاً، وبقيمون في بلاط الأمراء، وبييعون عبيد هؤلاء. أما الثمن فبارود أو أسلحة من البرتغال، أو أدوات حديدية ولعب من البرتغال أو الهند الشرقية، أو "زيمبو" أو أصداف أخرى استخدم نقداً، أو "بانو" (أقمشة) تصنع خصيصاً لهذه الغاية، ترسم عليها أشعة وتكون لها قدرة تحريرية. وكانت قيمو البانو ١٠٠ ريال، أي أن عبداً ثمنه ١٢٠٠٠ ريال يشتري بـ ١٢٠ بانو.

في السنوات الأولى من القرن السابع عشر، صدر مرفأ لواندا بين عشرة آلاف واثنى عشرة ألف عبد ينقلون في سفن ذات أربعة صواري تتراوح حمولتها بين ٨٦ و ١٣٠ برميلاً، يكس فيها ٥٠٠ عبد تقريباً. وكان الملاحون يستفيدون من الرياح الجنوبية الشرقية التي تهب بين دائرتي الانقلاب من الشرق إلى الغرب، ثم من التيار الاستوائي الجنوبي، فتستغرق الرحلة ٣٥ يوماً تقريباً من أنغولا إلى برنمبوك، وأربعين يوماً إلى باهيا، وخمسين يوماً إلى ريو دي جانيرو^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٥٢٧-٥٢٨.

أتاح امتلاك العبيد في منطقة سانتو-باولو -حيث استقر صناعيون برتغاليون معوزون- قيام استعمار الأملاك الصغرى. "إذا أتى شخص إلى هذه البلاد وتوفق إلى امتلاك اثنين من الهنود، توفرت له وسائل تعهد عائلته بشرف، حتى ولو لم يمتلك أي شيء آخر؛ لأن أحدهما يؤمن له القنيس والثاني الأسماك، والآخرين يزرعون في مغارسه ويجمعون الحصاد. وليس عليه، بهذه الطريقة، أن ينفق على تأمين المواد الغذائية لهم ولعائلته ولنفسه" (الأب دي توبرغا)، إلا أن هؤلاء الهنود الأقوياء قد خيَّبوا الآمال في الأملاك الكبرى. فقد مارسوا القنص والصيد في مواعيد معينة تتخللها فترة بطالة طويلة، ولم يستطيعوا قط تعود عمل المشاجر والمغارس المنتظم الممل، ففتك الموت بأعداد كبيرة منهم. وبات لزاماً منذ سنة ١٥٣٠م جلب الزوج من إفريقية. ولكن كل مشجر أو مغرس احتفظ بعدة عشرات أو عدة مئات من المحاربين الهنود لحماية المزروعات، ومطاردة العبيد وجمعهم^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٤٩١.

ثالثاً - السياسة الاقتصادية في مستعمرات أمريكية الشمالية:

كان إنتاج المحاصيل الزراعية ووجود المواد الأولية تكوّن الدعائم الرئيسة لاقتصاد المستعمرات. وبطبيعة الحال، فإن المواد الطبيعية كانت قد حددت نوع الحياة الاقتصادية في المستعمرات. أما الصناعة المحلية، فإنها تعتمد على ما هو موجود من المواد الأولية.

١- الزراعة:

أ- الزراعة في المستعمرات الشمالية:

تشمل هذه المستعمرات كلاً من: نيوهامشير، ومارشوسستس، وكونيكتيكت، ورود آيلند. خصوبة التربة مع وجود مناطق صخرية مع تعرج السواحل قد حدد نوعية اقتصاد هذه المستعمرات. وقد مارس السكان هنا الزراعة، وتربية المواشي، والصيد، والتجارة، وساعد وجود الشواطئ البحرية الكثيرة التفرجات على بناء المرفأى الكثيرة، كما أن وجود الغابات الكثيفة في المناطق الغربية قد وفر الأخشاب اللازمة لصناعة السفن. وسمحت مجاري المياه الكثيرة المتدفقة من الجبال بإقامة المطاحن، ومصانع السكر، ومناشر الأخشاب. وهكذا فإن هذه الإمكانيات الكبيرة المتوفرة قد أعطت فرصاً ثمينة للسكان الجدد.

وبخلاف السكان في المستعمرات الأخرى، فإن السكان هنا كانوا يقومون بتطوير المناطق الجديدة، كعمل جماعي، وكانوا يتركون بيوتهم للعمل في الحقول؛ بدلاً من أن يسكنوا على الأرض التي يزرعونها، كما هي الحال في المستعمرات الأخرى، ولكن الحالة الأخيرة - السكنى على المناطق الزراعية - قد أصبحت هي الطريقة المتبعة في كل المستعمرات في وقت لاحق. على العموم كانت هذه المستعمرات قادرة على كفاية نفسها بنفسها.

ب- الزراعة في المستعمرات الوسطى: تشمل هذه المستعمرات: نيويورك، ونيوجرسي، وديلاوير، وبنسلفانيا. لقد كانت هذه تسمى (مستعمرات الخبز)؛ لأنها كانت تنتج الحبوب بأنواعها، فقد كان القمح هو المحصول الرئيس، ويتبع ذلك الذرة حيث تزرع في هذه المستعمرات كلها، كما شملت هذه الزراعة أيضاً زراعة علف الأبقار، والفواكه، والخضراوات. وبما أن هذه المستعمرات كانت (مستعمرات مملوكة)، فقد كانت الأرض تعطى للأفراد مقابل أجرة يدفعونها، وكثيراً ما كان هؤلاء المؤجرون يتفادون دفع الأجرة؛ وبالتدريج فقد أصبحوا ملاكاً للأرض مقابل ثمن اسمي. وكما في ولاية فرجينيا - في الجنوب - فإن الأرض كان يمكن الحصول عليها كحق فردي بدلاً من شرائها مباشرة، حيث لم تصبح فكرة البيع قاعدة متبعة إلا في القرن الثامن عشر، أما مصدر الأيدي العاملة الرئيس فهو لخدمة المتعاقدين. المزارع هنا في العادة كانت صغيرة.

ج- الزراعة في المستعمرات الجنوبية:

تشمل هذه المستعمرات، ميري لاند، وفرجينيا، وكارولينا (جنوبية وشمالية)، ثم جورجيا، إن خصوبة التربة، ثم نوع المناخ في هذه المنطقة (الحار الرطب)؛ بالإضافة إلى وجود منطقة ساحلية تخترقها الأنهار العديدة الصالحة لسير السفن. ساعدت هذه العوامل كلها على إيجاد اقتصاد يعتمد على تصدير المحاصيل الزراعية. كان التبغ هو المحصول الزراعي الرئيس في مناطق ميري لاند، وفرجينيا، وكارولينا، وقد اشتهرت الأخيرة أيضاً بالأرز، والنيلة (مادة تستخدم في صباغة الملابس)، وقد كانت هذه المحاصيل تستبدل بالمنتجات البريطانية، والأوروبية. أما جورجيا فقد كانت تنتج النيلة والقطن، ولكن المحصول الأخير لم يصبح رئيس الإنتاج إلا بعد عهد الثورة الأمريكية، كانت الزراعة هنا تمارس على نطاق واسع؛ بسبب الاعتماد على الرقيق المستورد، وكان إنتاج هذه المستعمرات

يزيد على استهلاكها، وبهذا كان يتوفر لديها فائض للتصدير، وبذلك أصبحت حياة سكانها متعلقة إلى حد كبير بمستوى الأسعار في أوروبا.

لقد ظهرت الإقطاعيات الزراعية الكبيرة في المناطق الساحلية، وأصبح الإقطاعيون يسيطرون على الحياة السياسية والاجتماعية في الجنوب، ويتوسع أصحاب الإقطاع في زيادة أراضيهم؛ اضطر صغار المزارعين إلى الهجرة نحو الغرب؛ حيث كانوا يقومون بزراعة التبغ والمحاصيل التي يعتاشون منها. وهكذا فقد وجد في هذه المنطقة مجتمع أرستقراطي في أسسه واتجاهاته، فكلار ملاك الأراضي كانوا يحتكرون حق التمثيل في مجلس المستعمرة، كما كانوا يتولون إدارة شؤونها؛ وتأتي بعدهم طبقة العبيد الأرقاء المحرومين من كل الحقوق، ولم توجد طبقة متوسطة بين الفريقين، كما هو الحال في الشمال.

د- الزراعة في مناطق الحدود:

توفر الأرض الخصبة المشاع دفع السكان الذين لا يملكون أرضاً إلى الزحف نحو مناطق الحدود، واستصلاح أراض يعيشون منها. وفيما عدا مناطق نيوانجلند، فإن الهجرة نحو الغرب كان يقوم بها أفراد يُعدُّون كرواد. لقد كان هؤلاء الرواد يقومون ببناء البيوت الخشبية الصغيرة في وسط الغابات، وكانوا يسوون الأرض، ويتخلصون من الشجيرات الصغيرة للقيام بزراعة الذرة والخضراوات، وبناءً عليه، فقد كانت البلطة والبندقية هما السلاح الرئيس لمثل هذه العملية، وقد كان الرائد يعول نفسه أيضاً عن طريق صيد الطيور في الغابات. كانت الحياة بسيطة، ولكنها قاسية وبذلك فقد اشتهر هؤلاء الرواد بالاعتماد على النفس والقوة، وكثيراً ما كان هؤلاء يشتررون الأرض، ويستصلحونها بالاستدانة من أرستقراطيي الساحل الشرقي، ونظراً لما كان يتحمله هؤلاء من الديون، ونظراً لاستغلال الأرستقراطية الشرقية فإن هؤلاء كانوا يُعدُّون بأن مصالحهم السياسية والاقتصادية؛ إنما تتعارض مع مصالح

هذه الأرستقراطية، وهكذا فيمكن القول: إنه منذ بداية التاريخ الأمريكي كانت قد تعارضت مصالح الساحل مع مصالح أولئك الذين يقطنون في الداخل.

٢ - الصناعة:

كان بناء السفن من الصناعات الرئيسية التي تركزت في المستعمرات الشمالية، أما المستعمرات الوسطى والجنوبية، فقد كانت تبني بعض السفن الكبيرة، ولقد وجدت المخازن البحرية في المستعمرات كلها. اشتهرت كارولينا الشمالية بالزفتة والقطران والنفط، ولقد وجدت المتاجر في المستعمرات كلها لإنتاج الأخشاب سواء لغرض التصدير أو الاستعمال المحلي.

كانت المستعمرات الشمالية تستورد الدبس من الجزر المحاذية لساحل الأطلسي الشرقي، وكانت تحول كميات كبيرة منه إلى المشروب الروحي (رم) للتصدير والاستهلاك المحلي. كان الحديد يوجد في المستعمرات كلها، وبعد عام ١٧٥٠ م، أصبحت بنسلفانيا أكثر المناطق إنتاجاً لهذه المادة الأولية. كان إنتاج المواد الأولية في المستعمرات الشمالية والوسطى يعتمد على أصحاب الحرف. كان طحن الحبوب من الأعمال الرئيسية في نيويورك وبنسلفانيا حيث وجد في هاتين المستعمرتين أكبر المطاحن في أمريكا، أما المستعمرات الأخرى، فكانت تنتج الطحين للاستهلاك المحلي فقط. كانت صناعة الملابس للاستهلاك المحلي فقط، وكانت تعتمد على الأصواف والكتان، وقليلاً ما كان يستعمل القطن، واعتمدت المستعمرات على بريطانيا في استيراد الملابس؛ بجانب صناعة الملابس، شملت الصناعات المحلية، حفظ الأطعمة، وصناعة الأثاث والأدوات الزراعية. كما أدى عدم وجود مواد أولية لبعض الصناعات في مستعمرات نيو إنجلاند إلى ازدهار الصناعة في هذه المستعمرات .

٣ - صيد الأسماك وتجارة الفراء:

مع أن المستعمرات كلها كانت تعمل في تجارة الفراء، إلا أن مركز هذه التجارة كان في منطقة ألباني (نيويورك) في الشمال، وكذلك في منطقة شارلستون في الجنوب حيث كانت تصدر كثيراً من الجلود .

كان صيد الأسماك والحيتان من الحرف الرئيسة في المستعمرات الشمالية الذي كان يشغل مئات السفن على مدار السنة في السواحل الشمالية الشرقية من ساحل الأطلسي، وكان يصدر إلى الجزر الساحلية لتغذية الرقيق الذين يعملون في الإقطاعات الكبيرة، وكذلك إلى بعض الدول الأوروبية الكاثوليكية.

٤ - التجارة:

وجود بعض المناطق الجبلية الصخرية جعل سكان المستعمرات الشمالية يتجهون إلى البحار، ليس من أجل صيد الأسماك فحسب؛ بل من أجل القيام بعملية النقل البحري من الساحل الأمريكي الشرقي والجزر المحاذية له، ولقد كانت سفن المستعمرات الشمالية تحمل الأغذية من ساحل الأطلسي حيث تستبدل هذه بالدبس، والسكر، والزنجبيل، وبعض صكوك التبديل التي كانت تستخدم لدفع أثمان البضائع المستوردة من إنجلترا. وبعد سنة ١٦٩٧ م (حيث ظهرت الإقطاعات الكبيرة)، فإن المستعمرات الشمالية بدأت تتعامل في تجارة الرقيق. كان الدبس المستورد من الجزر الساحلية يحول إلى مشروب روي في المستعمرات الشمالية، وكانت هذه المشروبات بدورها تستبدل بالرقيق، وكان نقل هؤلاء إلى الجزر الساحلية. هذا وقد تعاملت المستعمرات الوسطى أيضاً في تجارة الرقيق .

أما المستعمرات الجنوبية كانت تصدر الحبوب، والتبغ، والأرز، والنيلة إلى إنجلترا لاستبدالها ببعض المنتجات الصناعية.

٥ - مشاكل العملة:

نظراً لاعتماد المستعمرات على استيراد كل حاجاتها من البلد الأم، فقد سبب هذا ندرة الحاجات في هذه المستعمرات؛ لأن تلك الحاجات كانت تستخدم كوسيلة للاستبدال. كانت المستعمرات تحصل على الذهب عن طريق تجارتها مع أفريقيا، وجزر الهند الغربية (الجزر المحاذية لساحل الأطلسي الشرقي). كان الدولار الإسباني هو العملة الرئيسية التي تستخدمها المستعمرات في تجارتها مع الخارج، وكانت المجالس التشريعية في المستعمرات تصك العملات، حتى تخفف العبء عن كاهل موازينها التجارية، وكان البرلمان البريطاني قد حظر صك مثل هذه العملات نظراً لانخفاض قيمتها في كثير من الأحيان. في عام ١٧٦٤م، أصدر البرلمان البريطاني تشريعاً يمنع منعاً باتاً صدور مثل هذه العملات.

٦ - حالة العمل والعمال:

توطن الأرض الجديدة، واستغلال مواردها الطبيعية الكثيرة كان يستلزم وجود الأيدي العاملة الكثيرة، وقد ساعد انخفاض ثمن الأرض، وسهولة عملة الشراء، المهاجرين الفقراء -الذين حضروا للعمل- على التملك السريع، وهكذا فقد كان الطلب على العمال سواء أكانوا حرفيين أو غير حرفيين دائماً في ازدياد، وبالتالي فقد كان هناك ندرة دائمة في توفر العدد المطلوب.

كان مصدر العمال الرئيس هو أولئك الذين تعاقدوا للحضور على شريطة العمل فترة تتراوح بين ٣ - ٧ سنوات مقابل أجرة نقلهم إلى أمريكا. كان هؤلاء يعطون إلى من يدفع عنهم أكبر ثمن، وقد سمي هؤلاء (بالعمال المتعاقدين). لقد كان هؤلاء دون أية مدخرات مالية، وغالبيتهم كانوا من المستبدنين في بريطانيا أو الذين كانوا يخدمون مدة حكم عليهم هناك . لم يكن لهؤلاء أثر كبير في تطوير القارة الأمريكية.

ويجب أن نفرق هنا بين العمال المتعاقدين، وطبقة أخرى من العمال تسمى ردمبشنرز، وتمثل هذه طبقة من العمال حضروا بعائلاتهم ولديهم بعض المدخرات، كما أنهم قد حضروا بدافع من أنفسهم، لذلك فقد كانت مساهمتهم في المجتمع الجديد أكبر. ولقد استقر قسم كبير منهم في منطقة بنسلفانيا، حيث إنه بعد انتهاء مدة عقود عملهم، كانوا يعطون قطعة من الأرض مساحتها خمسون هكتاراً؛ بالإضافة إلى الأدوات الزراعية والملابس. كانت هذه الطبقة تمثل غالبية عظمى في كثير من المستعمرات.

٧- الرقيق:

كانت طبقة الرقيق تمثل مصدراً كبيراً للعمال في أمريكا. كانت المستعمرات الشمالية تستخدم عدداً كبيراً من الهنود الحمر، أو أن تستبدلهم بالرقيق السود من جزر الهند الغربية. وقد استخدم الهنود الحمر أيضاً في المستعمرات الجنوبية، ولكن يجب الملاحظة بأن الهنود الحمر لم يستطيعوا أن يتأقلموا كرقيق، ولذلك فقد بدأ استيراد الرقيق من أفريقية في عام ١٦١٩ م ، عندما بيعوا لأول مرة في جيمس تاون. وقد ازداد استيراد هؤلاء الرقيق إلى المستعمرات الجنوبية؛ خصوصاً بعد عام ١٧١٣ م، حيث كانوا يستخدمون في زراعة الأرز، والنيلة، والتبغ. وقد كان أصحاب الإقطاعيات الكبيرة يفضلون استخدام الرقيق السود عن غيرهم لقدرتهم على السيطرة عليهم أكثر. في البداية، قبلت المستعمرات الشمالية فكرة وجود الرقيق، ولكن الظروف الاقتصادية هنا لم تتناسب وجودهم تماماً، كما كان الحال في المستعمرات الجنوبية^(١).

(١) النيرب، محمد محمود: المرجع نفسه، ص ٥٠-٥٣.



الفصل السادس
لمحات من الحياة الاجتماعية في القارة الأمريكية
خلال فترة الاستعمار الأوروبي



أولاً - المستعمرات الإسبانية والبرتغالية:

١ - التقسيمات الاجتماعية (طبقات المجتمع):

لا يمكن إعطاء فكرة صحيحة تماماً عن فئات السكان المختلفة في أمريكا اللاتينية بسبب الاضطراب الكبير في المصادر التاريخية التي لا تبحث هذه الأمور بمعزل عن الميول السياسية والأهواء العنصرية؛ ولانعدام الإحصاءات الصحيحة عن أعداد السكان القادمين إلى البلاد الجديدة من القارات الأخرى أو عدد السكان الأصليين القدماء^(١) هذا من جهة. ومن جهة أخرى لصعوبة فصل عناصر السكان بعضها عن بعض نتيجة للاختلاط الشديد الذي جرى مع الزمن في المجتمع الذي كَوّن ما يعرف باسم أمريكا اللاتينية.

أ - المستعمرات الإسبانية:

لقد كان مجتمع الاستعمار في أمريكا اللاتينية مقسماً بشدة إلى طبقات اجتماعية، حتى إن الإشبان أنفسهم قد قبلوا الوضع بوجود **نظام الأجناس**. وقد اتبع هذا التقسيم الاجتماعي في القارة عن كثب الحدود العنصرية لدرجة أنه وصل لخلق نوع من الفوارق الاجتماعية بناءً على لون البشرة^(٢).

ونستطيع بشكل عام تقسيم السكان بحسب لونها إلى البيض، والهنود، والأفارقة (الزنج)، المستيزيين Mestizos؛ المولودين من البيض ومن الهنود، المولاتيين Mulattos؛ المولودين من البيض والزنج، والزامبوزيين Zambos؛ المولودين من الهنود والزنج^(٣).

(١) ساطع محلي، أمريكا اللاتينية، ص ١٠٨.

(٢) رودريجيث، ثقافة وحضارة، ص ١١٤.

(٣) السابق، ص ١١٦.

١- الإسبان (البيض):

إن معظم المهاجرين إلى المناطق الجديدة (القارة الأمريكية) في المرحلة الأولى كانوا من الرجال المحاربين أو من رجال الدين، وعندما فترت حمى الاستكشاف، والغزو بدأت هجرة الجموع العادية من الشرفاء، والمغامرين، والمجرمين، والهاربين. وكانت القلة منهم تقوم بالعمل بنفسها، والغالبية تسعى لوضع اليد على مصادر الثروة والممتلكات لترغم السكان المحليين على العمل لمصلحتها. لهذا كان يتباطأ الاستقرار مع الإسراع في الغزو. وعاش المهاجرون كطفيليين، على تجارة المؤسسات الوطنية ولم يحاولوا تفهم الحياة التي تحيط بهم. واستمروا في جهلهم للغة الأصلية طويلاً، واحتقارهم للعادات الوطنية.

وكانت تسيطر على الإسبان الذين ذهبوا إلى أمريكا الروح العنصرية السائدة التي كانت تسود في بلادهم في أثناء حروب القمع والإرهاب التي شنوها ضد عرب الأندلس، وسياسة الاضطهاد القاسية التي اتبعتها محاكم التفتيش ضد العناصر غير الإسبانية ولاسيما المسلمين^(١).

وبشكل عام، فقد حملت موجات الهجرة التي أتت من إسبانيا عناصر متباينة من المجتمع الإسباني، فكان من بين هذه العناصر النبلاء الفقراء الذين كانوا يصبون بشكل ميثوس منه إلى الثراء، كي يعيشوا في الترف والنعيم الذي كان مقصوراً على أعلى الطبقات الأرستقراطية، كما كانت هناك أيضاً أعداد مرتفعة من الجنود والمحامين والهاربين من العدالة، إضافة للغزاة الذين عاشوا كالأشخاص العظيمة، وجعلوا معاملتهم مع الناس على هذا النحو، وقد أحاطوا أنفسهم بالأبهة، وأورثوا هذه الأبهة للمحدرين منهم.

(١) ساطع محلي، أمريكا اللاتينية، ص ٨٢.

وعلى أي حال، فإن الإسبان غير المخلطين يُعدّون قلة. وكان كولومبس قد توصل إلى تبديل عقوبة الإعدام بالنفي إلى المستعمرات، عملاً على تعميمها، فوصل مجرمو شبه الجزيرة الأيبيرية إلى أمريكا، وكانوا أول معمرينها. وكانت إسبانيا تفضلهم على غيرهم من أبناء الدول الأوروبية الأخرى، وتقفّل أبواب أمريكا في وجه أي شخص لم يكن من رعايا التاج. ولقد قدر بعض الجغرافيين عدد المهاجرين من شبه الجزيرة الأيبيرية بعشرة آلاف شخص في المتوسط سنوياً، ووصل من ذلك إلى مليونين من المهاجرين في القرنين الأولين للاستعمار، ومليونين ونصف إلى ثلاثة ملايين ونصف لفترة ثلاثة قرون، ومنهم مليون من البرتغاليين. وأما الأهالي غير المخلطين لم يرتفع عددهم إلا إلى ١٥٠ أو ٢٠٠ ألف من الإسبان والبرتغاليين بعد قرن، ومليونين بعد ثلاثة قرون. ونلاحظ هنا أن نسبة الوفيات في الحروب، وبالحمل، والإرهاق قد فعلت فعلها، وأن الخصوبة قد أعطت المخلطين أكثر مما أعطت من أبناء قشتالة^(١).

وقد تولى أصحاب هذه الطبقة بشكل عام أعلى المناصب السياسية، والدينية، والاقتصادية، والقضائية في المستعمرات، ولم يكن يسمح لغيرهم من باقي الطبقات بالوصول إلى هذه المناصب.

٢ - الكريول أو المولدين (Mestizos):

لقد أدى عدم وجود النساء الإسبانيات -ولاسيما في العقود الأولى من الاستعمار- إلى حدوث حالات كثيرة من التخليط. ولكن نادراً ما كان يحدث تزاوج بين النبلاء الإسبان والهنديّات؛ نتيجة تشدد القانون الإسباني بما يتعلق بعدم

(١) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج ٤، ص

السماح للنبلاء بالزواج من الطبقات الدنيا، ولكن هذا السبب لم يمنع من وجود حالات كثيرة تزوج فيها النبلاء من هنديات ينتمون إلى الطبقات الدنيا. أما بالنسبة للطبقات العامة من الإسبان، فقد تزوجوا بهنديات وملونين؛ لأن الإسبانيات أحياناً لم يكن بمتناول اليد أو نظراً لقلّة أعدادهن^(١).

وقد نقاسم الكريول المناصب (السياسية، والدينية، والاقتصادية، والقضائية) الأدنى مرتبة من الإسبان القادمين من البلد الأم. وقد شكّل هؤلاء الكريول فيما بعد طبقة اجتماعية مهمة في القارة الأمريكية، وبدأت أعدادهم تزايد بشكل واضح إلى أن تجاوز عددهم عدد الإسبان أنفسهم، وهم الذين نقلوا السلطة إليهم فيما بعد عندما قاموا بما يعرف باسم حروب الاستقلال^(٢).

٣- الهنود:

اعترف القانون الإسباني ضمناً بوجود الهنود، ولكنه جعل فوقهم البيض الأوروبيين الذين يتمتعون بمرتبة الأسياد أصحاب الكلمة العليا. ولهذا كان يظهر بين الإسبان أحياناً من يحاول الرأفة بالهنود، وتخفيف الظلم الذي كان يقع عليهم من قبل مستغليهم من البيض، ويعود ذلك إلى الانطباع الحسن الذي تركته الشواهد الحضارية الأصلية في أمريكا اللاتينية في نفوس القادمين الجدد، وبسبب وجود قدر من الأفكار المسيحية الرحيمة لدى بعض المبشرين الذين رافقوا الحملات الاستيطانية.

وقد أصاب الهنود الأمريكيين ضيّم كبير في أثناء ما يسمى بعملية **توزيع الهنود** ففقد الكثير منهم حريته التي اعتادها في أثناء عيشه في الطبيعة كما

(١) رودريجيث، ثقافة وحضارة، ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٥.

يشاء، بعد أن جند للعمل المضني من دون مقابل ضمن بيئات صعبة غير مرغوب فيها من قبل الإنسان، ويكفي أن نورد فيما يلي نص أمر حكومي ضمن السياسة الرامية إلى سلب حرية الهنود، واستخدامهم لصالح المستعمرين. يقول النص مخاطباً المستعمرين البيض: **تضع تحت تصرفكم خمسين أو مئة هندي مع رئيسهم، لخدمكم في مشاريعكم ومناجمكم، ولكي تنقلوا إليهم عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة**^(١).

٤- **الزنج، المولاتين (Mulattos)، الزامبوزين (Zambos):** يشكل هؤلاء معاً أكثر فئات العنصرية بؤساً تربطهم مع بعضهم حياة مشتركة قاسية، ويشكلون مجتمعاً خاصاً بهم شبيهاً بمجتمعات سائر الأقليات المضطهدة في العالم اليوم. وفي النهاية، فإن المؤرخين يقولون: إنه خلال فترة الاستعمار بالرغم من وجود القوانين التي كانت تحمي الهنود إلا أنهم في الواقع كانوا يعيشون في حالة سيئة أكثر من الزنج، وبالتالي فإنهم يحتلون قاعدة الهرم الاجتماعي. وهكذا تغير الوجه الإنساني لأمريكا اللاتينية الحديثة، وعاش فيها البيض، والحر، والسود. ولم يكن بوسع البيض أن يحافظوا على حكمهم وتحكمهم إلا إذا اعتقدوا في أنهم سادة، وأنهم متفوقون على غيرهم، وإلا إذا ما نجحوا في فرض أنفسهم -بهذه الصفات- على غيرهم^(٢).

(١) ساطع محلي، أمريكا اللاتينية، ٨٦، ٨٧.

(٢) جلال يحيى: التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج ٤، ص ٢٣٤-٢٣٦.

وقد أدى هذا التقسيم الظالم إلى نتيجة اقتصادية واضحة المعالم أسفرت عنها حالة من التوتر والاستياء بالغ الشدة، وأدت -إضافة لعوامل متعددة أخرى- إلى تفجر الحرب والكفاح من أجل الاستقلال^(١).

ب- المستعمرات البرتغالية:

كان المستعمرون الأوائل للبرازيل مجرمين أرادت البرتغال أن تتخلص منهم لا أن تصلح بهم البرازيل، ويظهر أن السياسة العنصرية البرتغالية لم تكن تختلف في خطوطها العامة عن الإسبانية، إلا أن البرتغاليين كانوا أكثر تسامحاً في هذه الناحية من جيرانهم الإسبان. ولعل ذلك يعود إلى اضطراب الرجال البرتغاليين الذين قدموا إلى البرازيل من دون اصطحاب زوجاتهم إلى الاختلاط بالسكان الأصليين الذين كان يجمعهم الجزويت (اليسوعيين) في قرى يشرف عليها رجال الدين المبشرين هدفها نقل الثقافة البرتغالية إلى الأمريكيين القدماء؛ لتنصيرهم، وتربيتهم على الطريقة الأوروبية. ونتيجة لاتصال البيض بالسكان الأصليين نشأت جماعات مختلطة من البيض، ومن سكان البلاد الأصليين أطلق عليها اسم الباوليستانيين والمملوكين والباندائرانتيين (صائدو العبيد).

نشأ عن هذا الاختلاط جنس مولد من دم أوروبي وهندي استخدم لحمل لواء المغامرة أو التوسع والبطش ضد ما كان يسمى بالمتوحشين؛ لتمتين جذور دولة البرازيل الحالية، وتوسيع حدودها نحو الداخل بتتبع مجاري الأنهار نحو بارانا، ومنطقة لابلاتا العليا؛ طمعاً في الحصول على ثروات معدنية ثمينة، كما فعل الإسبان في المكسيك والبيرو. ثم التفت هؤلاء الباوليستانيين إلى ملاحقة الهنود لأسرهم، واستعبادهم، والمتاجرة بهم، بل وتمادى الباندائرانتيين في اضطهاد

(١) رودريجيث، ثقافة وحضارة، ص ١١٥.

الهنود في بلادهم، وتتبعوهم إلى مراكزهم البعيدة التي يسيطر عليها القساوسة الجزويتيين في الباراغوي^(١).

بشكل عام، فقد كان البرتغاليون المولودون في البرتغال أقلية تحتقر الأغلبية المؤلفة من الزنوج والمخلطين والهنود، وكانوا يتولون -كما عند جيرانهم الإسبان- أعلى المناصب والمراكز السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والدينية. ويطلق على البرتغاليين المولودين في البرازيل اسم (موثامبوس)، وهم يشبهون الإسبان المولودين في أمريكا الإسبانية، وقد تجاوز عدد هؤلاء عدد البيض الذين ولدوا في الطرف الآخر من المحيط الأطلسي، وفي نهاية القرن الثامن عشر كان أغلب أصحاب المزارع والمناجم من هذه الطبقة.

ثم يلي هؤلاء البرازيليون المنحدرون من الاختلاط أو مزج عدة أجناس، وبشكل عام كل شخص يكون لون بشرته قاتماً كان وضعه الاجتماعي منخفضاً، ويأتي بعدهم في الهرم الاجتماعي العبيد المعتوقون. وأخيراً يأتي العبيد من زنوج، وهنود في المرتبة الأخيرة^(٢).

(١) ساطع محلي، ص ٩٤-٩٥.

(٢) رودريجيث، ثقافة وحضارة، ص ١٤٠-١٤١.

ثانياً- السياسة الدينية الأوروبية في أمريكا اللاتينية:

I- سياسة التبشير الإسبانية:

١- المركزية والعمل التبشيري والرعاية الملكية:

نظر ملوك إسبانيا إلى التبشير بأنه واجبهم الأول. ومنذ سنة ١٥٠٨م تولى الملوك الكاثوليك رعاية كنيسة الهند حيث : يقترح الملوك إحداث الأسقفيات، والخورنيات، وينفذ البابا مقترحاتهم، ويقدم الملوك للبابا مرشحهم للأسقفيات، ورئاسة الأديرة، وللأساقفة مرشحهم للمناصب الكنسية الأخرى. منذ عام ١٥١٢م- ١٥١٣م أنشئت ثلاث أسقفيات في الجزر. وفي سنة ١٥٢٨م أحدثت أسقفية مكسيكو مع ٢٣ أسقفية أخرى. وفي سنة ١٥٤٦م جعلت كل من ليما ومكسيكو مركزاً لرئيس أساقفة. وفي سنة ١٥٥٥م انعقد أول مجمع إقليمي في مكسيكو، كما انعقد في سنة ١٥٦٧م أول مجمع إقليمي في البيرو. وتأسست جامعات في مكسيكو، وليما، وسانتا في، وكوردوبا، وكاراكاس .

وقد وجدت المركزية الإسبانية عوناً لها في العمل التبشيري حيث توغل المرسلون في البلاد وراء المستعمرين من أصحاب المناجم والمشاريع الزراعية، فبعد أن التمسوا تأييد الملك، تحولوا بالمقابل عوناً قوياً للسلطة الملكية.

فوض شارل الخامس شؤون كنيسة المكسيك إلى جمعيات الرهبان المتسولين؛ لأنه لم يطمئن إلى الكهنة العلمانيين. وفي ٩ أيار من عام ١٥٢٢م، وجّه البابا أوربانوس السادس مرسوماً إلى شارل الخامس حول بموجبه سلطته الرسولية للرهبان؛ لهداية الهنود في كل مكان يبعد أكثر من مسيرة يومين عن الأساقفة. وكان أسقف مكسيكو الأول فرنسياً هو الأخ (خوان دي زومارغا "١٥٢٨م-١٥٤٨م")، وعين بعد ذلك أساقفة من بين الكهنة العلمانيين، ولكن المسافات، وتأثير الرهبان على البلديين شلّت سلطتهم.

أ- الأديرة:

قامت الأديرة في كل مكان، متقاربة في المناطق المكتظة بالسكان، ومتعاقبة على جوانب طرق المواصلات في المناطق الأخرى. وفي سنة ١٥٥٩م كان للفرنسيين ٨٠ ديراً و ٣٨٠ راهباً، وللدومينيكان ٤٠ ديراً و ٢١٠ راهباً، وللأوغسطينيين ٤٠ ديراً و ٢١٢ راهباً^(١).

احتلت الأديرة مواقع استراتيجية على مرتفعات داخل القرى أو في جوارها، وقامت في أغلب الأحيان على أنقاض معابد بلدية قديمة. وصممت بشكل كتلة مرتفعة تتألف من دور واحد فتحت نوافذه في أعلى الجدران، وتدعمها من الخارج ركائز كبيرة مربعة الشكل، وتقوم أمامها مصطبة للمدفعية، وفناء واسع يحيط به سور مرتفع. وشكلت حصوناً لضبط الهنود في نطاق الطاعة وملاجئ للسكان الأوروبيين في حال اندلاع الثورات.

وغالبا ما كانت الأديرة ضخمة، وكنائسها زاهية فاخرة؛ لأن الهنود كانوا شديدي التأثير بالأبهة والفخامة، وشديدي الولع بروية دير جميل بفعل غطرستهم المحلية. ولكن أديرة كثيرة كانت أبنية عادية.

تجنب المرسلون جهد المستطاع -خشية من الهرطقة- الاستفادة من التشابه بين الديانات المحلية، والديانات المسيحية، وذلك على الرغم من نظريات الفرنسيين (برناردو دي ساحاغون)، وبحثه المستفيض حول السكان المحليين. ولكنهم استفادوا من عادات الهنود ونزعاتهم. فقد استمر الشيوخ كما في السابق في مرافقة تلامذة الصفوف الابتدائية إلى المدرسة، ولكن لتعلم مبادئ الدين المسيحي -وكما في السابق- تلقى أبناء الطبقة الأرستقراطية الهندية دروساً خاصة، وأُشبع ميل الجماهير الهندية إلى الموسيقى، والرقص، والتمثيل، وعظمة الاحتفالات.

(١) موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، ج ٤، ص ٥٠٩.

حاول المرسلون -بالاتفاق مع نواب الملك- إعادة تجميع الهنود الذين أرغموا على النزوح عن قراهم، وتحسين سكنى الجماعات التي لم تغادر قراها. فأحدثت قرى التجميع التي أطلق عليها اسم المعادَات منذ عام ١٥٩٥م. تبني المرسلون آراء رئيس أساقفة مكسيكو (زومارغا)، واعتقدوا أن الهنود لن يلبثوا أن يتخلقوا بالأخلاق القشتالية إذا ما عاشوا على الطريقة الإسبانية في قرى مماثلة لقرى إسبانيا. وفي سبيل هذه الغاية، تعاقبت الأوامر الملكية بين عامي ١٥٢٣م و ١٥٧٠م. وأفاد الرهبان مما له طابع جماعي في النظم البلدية الإسبانية؛ بغية تسهيل الانتقال من نظم الأرتك الجماعية. فبنوا من ثم قرى ضمن ساحة عامة، وكنيسة، وداراً للبلدية، ومستشفى، وسجنًا. وشيدوا حول هذه الأبنية أحياء هندية، على غرار **الكلبولي** القديمة. اشتملت منازلها على أكثر من غرفة. وأحدث المرسلون بلديات هندية، وأنشؤوا صناديق قروية. وكان على الهنود أن يديروا شؤونهم بأنفسهم. فتم التوفيق بين الملكية الجماعية والملكية الفردية. امتلك كل هندي بيتاً وأرضاً. وأعطى رؤساء العائلات أراضي أخرى يستثمرونها مدى الحياة على أن يزرعوها ولا يبيعونها. واستثمرت بعض الأراضي المشاعية بجهود مشتركة لتغطية النفقات البلدية. وتسلمت البلديات الهندية مراعي غير قابلة للبيع لتربية الضأن والماعز، وحكم الرهبان بين الناس، واعتنوا بالأرامل والأيتام. ولكن الهنود لم يتجمعوا تجمعاً كافياً، وكان عدد الرهبان ضئيلاً جداً لا يتجاوز الاثنین مقابل مئة ألف هندي أحياناً. وغالباً ما سعى الهنود وراء العيش في عزلة وانفراد، بدافع من روحهم الاستقلالية حيناً، وعجزهم عن تعود حياة جديدة حيناً آخر، ورغبتهم في الاستسلام لردائهم في أكثر الأحيان^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٥١٠-٥١١.

ب - المُعَادَات:

في سنة ١٦٠٧م أسند ملك إسبانيا إدارة البلاد إلى اليسوعيين (الجزويت)؛ بغية تحضير الهنود في قرى أطلق عليها اسم "المُعَادَات" لأنها أنشئت "لإعادة الهنود إلى الحياة المدنية والكنسية". وضع الآباء تحت سلطة الملك ومجلس الهند ونائب الملك في البيرو، وسلطة مجلس كاراكاس، وشونكيساكا وبوينيس إيرس القضائية، ورقابة حاكمي باراغوي وريو دي لا بلاتا اللذين زارا المعادات زيارات منتظمة. وطبق اليسوعيون شرائع الكنيسة تحت سلطة أسقفي أسومبسيون و بوينيس إيرس اللذين كانا يتفقدان المعادات.

لم يمر وقت طويل حتى توارد بين الناس أن المعادات مواطن حرية. فتهاافت عليها الرؤساء والأمراء مع قبائلهم. وتأسس أول مُعاد وهو معاد "سان اينياسيو غوازو" في ٢٣ كانون الأول سنة ١٦٠٩م على مسافة ١٢٠ كم إلى الشرق من أسومبسيون. ثم تأسس حوالي ثلاثين معاداً آخر، إلا أن هذه المعادات قاست الأمرين من هجمات تجار الرقيق في ولاية القديس بولس البرتغالية بمساعدة قبائل التوبي-غواراني الباقية على وثيبتها الذين كانوا يقبضون على الأسرى، ويبيعونهم للبولسيين مقابل مقصات، وسكاكين، وصنابير. ولم تعرف المعادات الهدوء والسكينة إلا بعد أن حصل اليسوعيون من ملك إسبانيا على إذن بتسليح الهنود بأسلحة نارية، وألحقوا بالبولسيين هزيمة نكراء عام ١٦٤١م.

شيدت المُعَادَات على مرتفعات؛ لأسباب تتعلق بالسلامة، وكان يتوسطها ساحة عامة كبرى تحيط بها الكنيسة، والمدرسة، وبيت الأرامل، ومستشفى الشيوخ، ودار البلدية، ومركز إقامة الآباء. وتحيط بها كذلك شوارع كثيرة تكون بتقاطعها مربعات تتوزع فيها المساكن.

أخضع الهنود للنظام الاجتماعي الأوروبي حيث وجدت طبقة أشراف وراثية تتألف من الأمراء الهنود وأقاربهم جعلت في نظر القانون على مستوى طبقة

الأشراف الإسبان. لكل أمير سلطة على ٣٠ أو ٤٠ هندياً يقومون نحوه بواجب الطاعة والعمل. ويتمتع الهنود بالاستقلال الذاتي في نطاق المعادات. لكل معاد بلديته الهندية، يعين الحاكم فيها قاضياً أولاً مدى الحياة بناء على توصية الآباء.

وتم إنشاء المعاد في مكان منعزل حفاظاً على الهنود من معايب الإسبان، ولا يسمح بدخوله لا لإسباني ولا لزنجي ولا لخلاسي. وعليه من ثم أن يستقل اقتصادياً. كل الأراضي ملك الجماعة وفقاً لعادات الهنود القدماء. وعلى الرجال كافة أن يعملوا يومين أسبوعياً في حقول الجماعة التي تقدم البذار، والأدوات، والمحاريث، وحيوانات الجر. تجمع محاصيل الأرض المشتركة في مخازن خاصة. يباع قسم منها لتسديد الضريبة، وشراء الملح، والحديد. ويستخدم الباقي لإعالة الشيوخ، والأرامل، والأيتام. ويقسم ما يتبقى من أراضي الجماعة قطعاً صغيرة وتوزع للاستثمار مدى الحياة على رؤساء العائلات الذين يتبقى لهم أربعة أيام لزراعتها ويكون حصاها ملكاً خاصاً.

يضم المعاد عدداً من المصانع البلدية التي يمارس فيها الهنود كل الحرف بإتقان كامل، وتتصرف الهنديات إلى الغزل في بيوتهن. أما المصنوعات، فتجمع في مخازن مشتركة، وتوزع ملكاً شخصياً صرفاً بحسب الحاجة.

يتوقف العمل في الساعة الرابعة أو الخامسة مساءً؛ بغية إفراح المجال لشؤون العبادة. أيام الأعياد ينقطع الهنود فيها عن العمل، وتقام فيها الاحتفالات الدينية، وترافقها ضروب اللهو المختلفة: الموسيقى، والرقص، وإطلاق النار على المرمى، وألعاب الكرة، والتمثيليات.

وجدير بالذكر، أن الحياة الدينية تسيطر على الحياة اليومية: صلوات وتعليم مسيحي صباح مساء، وأناشيد دينية قبل العمل وبعده،... الخ.^(١)

(١) موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، ج ٤، ص ٤٨٢-٤٨٣.

إن المُعاداة اليسوعية في الباراغواي كانت خير مثال لسلسلة مؤسسات مماثلة أنشأها اليسوعيون في أنحاء أمريكا كافة على طول حدود الاستعمار الأوروبي، وأعطت النتائج نفسها تقريباً^(١).

ج- التربية الدينية:

استخدم المرسلون -في تعليم السكان المحليين العاجزين تقريباً عن التجدد العقلي(بحسب وجهة النظر الإسبانية)- طرائق متعددة للتأثير في الحواس، وربط الأفكار بالجسم كله، والحواس كله. كانت الأبجدية صعبة الإدراك بالنسبة للهنود، فوجب ربط تمثيل الأحرف بتمثيل الأشياء التي كانت في متناول يد التلميذ: فمثلت A بالبركار و B بالقيثارة و C بنعل الفرس، إلخ... وأعطى المرسلون المثل في تقانيهم الكلي في سبيل ترسخ العلم في عقولهم. ورفضوا أبداً استيفاء ضريبة العشر من الهنود. وارتدوا نسيجاً صوفياً خشناً، وتثقلوا حفاة، وافترشوا الألواح الخشبية، وتغذوا بالجذور، وامتنعوا عن اللحوم، والخبز، والنبيد، وتمثلوا بالهنود. وإذا ما سُئل هؤلاء عن سبب محبتهم للفرنسيين، أجابوا: "لأنهم فقراء وحفاة مثلنا، يأكلون ما نأكل، ويقيمون بيننا، ويعيشون بينا مسالمين". عاشوا معهم وماتوا من أجلهم. وقد بلغ من عناء الرهبان وحرمانهم أن نسبة الوفيات بينهم كانت مرتفعة جداً. وحين كان الأخ (أنطونيو دي روا) يتكلم عن الجحيم، كان يلقي بنفسه إلى النار، ويلفت نظر الهنود إلى أنه إذا لم يستطع تحمل مثل هذا الألم، فماذا سيكون من النار الأبدية. وكلما صادف أو نصب صليباً طلب أن يُجلد، ويُصفع، ويُهان، ويُبصق في وجهه؛ لأن يسوع المسيح قد تحمل كل ذلك كفارة عن خطايا البشر. فكان يرسخ بذلك ذكرى تعليمه في ذاكرة الهنود.

(١) المرجع السابق، ص ٤٨٩.

واستعان الرهبان بلوحات تشكل تعليماً مسيحياً مصوراً؛ كما استعانوا بالمرح، وتمثيل الأسرار أو انتصارات المسيحيين على أعدائهم. وحملوا الهنود على أن يعيشوا التعليم الروحي بإلزامهم على أن يتناولوا الخدمة أسبوعاً في المستشفى. وحولوا تلاوة فعل الإيمان كل صباح ومساءً، والصلاة، وترتيل صلاة السحر ركوعاً إلى ممارسات لا تلبث أن تصبح حسية بخدمة القريب. وعامل الرهبان الهنود بحلم، ومسامحة، واكتفوا منهم بتقديم بطيء.

٢- عوائق التبشير:

إلا أن عملهم التبشيري قامت في طريقه عقبات كثيرة. فكانت هنالك مقاومات السكان المحليين:

- قبائل متوحشة تحرق الكنائس، والصلبان، وتشعل النار في الأديرة، وتقتل الأخوة.
- كهنة وثنيون، وسحرة يدعون إلى الثورة في سنوات ١٥٤١م-١٥٤٧م-١٥٥٠م؛ وملحدون ينضمون إلى الثائرين.
- هنود يفرون أمام المرسلين، ويختبئون. ويستمررون في ممارسة المحظورات الدينية كاللواط.
- وغالباً ما اصطدم الرهبان بالمقاومة السلبية: فقد تظاهر الهنود بالاهتداء، ومارسوا عبادة الأوثان سراً في الليل. وروى لهم كهنتهم أن الرهبان أموات وملابسهم أكفان، يختفون ليلاً للالتحاق بنسائهم في الجحيم، ولا يتركون على الأرض سوى عظامهم وثيابهم. أما مصدر هذه الأوهام، فهو عدم إدراك الهنود لمعنى الإماتة، والبتولية، وصلاة السحر.
- وكان لتصرف بعض رجال الدين دور في إعاقة التبشير:

- فبعض فرنسيسبي المكسيك أو البيرو قد جمعوا الثروات، وخلعوا الثوب الرهباني، وعادوا إلى إسبانيا؛ ليعيشوا فيها حياة غنية، ومستقرة.
- حوالي عام ١٥٦٢م شوهد الأخ (أنطونيو دي سان-إيزيدورو) رئيس دير مكسيكو، ينام مع سريّة، ويرزق منها ابنة، ويبرهن عن مهارة كلية في أعمال تجارة مثمرة. دفعت روح التضامن بالجمعيات الرهبانية إلى التشاجر، والتخاصم، ورفض طاعة الأساقفة.
- وحدث أحياناً أن جمع الرهبان هنودهم، وسلّحهم، وحملوهم على سلب كنائس جمعية أخرى ونهبها، وإحراقها، وطرد الزائرين الأسقفيين برشقهم بالحجارة. وبديهي أن مثل هذه الزلات تصدر عن الكهنة قد أبعدت الهنود عن المسيح.
- وأخيراً، غالباً ما قاوم العلمانيون رجال الدين. ففي سبيل تشغيل الهنود، حتى أيام الأحاد، والأعياد، أقدم بعض الملاكين على تشجيع ممارسة عبادة الأوثان، والاشتراك في الاحتفالات الوثنية، ومهاجمة المرسلين، وطردهم.

وعلى الرغم من أن الظروف لم تكن مؤاتية للتبشير، ولكن التبشير تقدم بشكل حثيث، حيث قام كورتيس، والفاتحون بإكراه الهنود للدخول في المسيحية، فقاموا بهدم المعابد، وتحطيم التماثيل، وقتل الكهنة، وأجروا التعميد الجماعي والإجباري. وطبقوا ما قالوا به من دون اعتدال. ولكن كاهن كورتيس الخاص، الأخ برتولومي دي أولميدو، والمرسلين الذي أحضرهم كورتيس الفرنسيين ١٥٢٤م، الدومينيكان ١٥٢٦م، والأوغسطينيين ١٥٣٣م قد عدّوا الهداية بالقوة عملاً جائراً. فاعتناق المسيحية يجب أن يكون هبة ذاتية طوعية. فنصحوا بأن يترك الهنود وشأنهم ويبشروا بالدين المسيحي بحلم وروية. واستغل أولميدو فضول المحليين. فكان الفاتحون يحضرون قداساً في الهواء الطلق، ويصلون بالسبحة ركوعاً، ويتلون

صلاة (الملاك) أمام الصليب كل يوم عندما يسمعون صوت الناقوس. وكان الهنود ينظرون إليهم بتأمل. وكثيراً منهم بدهشة. وكثيراً ما سأل بعضهم عن سبب تواضع الإنسان أمام هذه القطع الخشبية. فكان أولميدو يشرح حينذاك العقيدة المسيحية، ويفسر لهم كيف أن يسوعاً الإله والإنسان، مات على الصليب محبة بإخوته وكفارة عن خطايا البشر، ورغبة منه في إيصالهم إلى الحياة الأبدية.

ولم يفرض أولميدو في البدء ممن طالبوا التنصير سوى الامتناع عن اللواط، وعن الذبائح البشرية. وحين مات في سنة ١٥٢٤م، خلف وراءه تقليداً.

٣- موقف الهنود من التبشير:

كان موقف الهنود في البيرو من التبشير موقفاً أشد تصلباً من موقف هنود المكسيك. استؤصلت شافة الديانة الهندية، كما استؤصلت شافة المجتمع الهندي. لم يبق ذكر للكائن الأسمى والآلهة العظماء. ولكن بقي الهواك؛ أي الأرواح المقيمة في الأشياء. فهوака هي: الشمس، والجبّال، والآكام، والجداول، والبحيرات، والمناجم، ومدينة بوتاسي، والجثث المحنطة. أما المصنوعات الأوروبية من زجاج وحرير وشمع فقد أصبحت تعاويذ، وطلاسم. ومزج بعض السحرة بين مفاهيم المسيحية والأنكا، فبات يسوع، والشيطان أخوين تؤأمين، كما بات القديسون المسيحيون هواكا (الأرواح المقيمة) تدير العالم الطبيعي.

لم يصبح عدد الكهنة كافياً للقيام بجهود تبشيرية منتظمة إلا منذ أوائل القرن السابع عشر فقط. حاربوا الخطايا الرئيسة، اللواط، وشرب الخمر، وزواج الاختبار، وعبادة الهواكا. وأوعزوا بإلقاء القبض على الكهنة البلديين، والسحرة، وتدمير بيوت العبادة، وتحطيم الأصنام. وبين السنة ١٦٠٧م وسنة ١٦١٥م أحرق في ساحة ليما العامة أكثر من ٦٠٠ صنم هندي مازالت موضوع عبادة. وخلال سنتي ١٦١٧م و ١٦١٨م اكتشف ٦٧٩ ساحراً في ولاية شانكايا وحدها.

حوالي سنة ١٦٧٧م، كان إيمانهم بطبيعة الهواكا الإلهية قد تلاشى نهائياً، فلم يكونوا عبدة أصنام بل كاثوليك غير كاملين؛ لأن الثالوث لم يكن في رأيهم طبيعة واحدة في ثلاثة أقانيم؛ بل ثلاثة أقانيم متميزة، والأب أكبر سناً من الابن، ولم يميز بعضهم بين الله وملك إسبانيا. وكان الكهنة قد أسسوا أخويات أو جمعيات من المؤمنين تخصص مواردها لتعهد المذابح، والكنائس، وتنظم التطوفات، والاحتفال بالأعياد، وتبادل المساعدة في ظروف الوفاة أو المرض. انتخب الهنود أنفسهم رؤساء هذه الأخويات، وأداروا أنفسهم بأنفسهم، وأدت هذه الجمعيات خدمة جلى في محافظتها على الطوائف الهندية.

وهكذا نجح هنود البيرو أكثر من هنود المكسيك في الامتزاج بالنظام الأوروبي والاحتفاظ مع ذلك بفرديتهم. واستساغ هنود البيرو تقنيات أوروبية كثيرة لم يستسغها هنود المكسيك. وفضلوا الأوتومي والمكسيكا في الجمع بين الزراعة وتربية المواشي. ويبدو أنهم تمكنوا من تلبية طلبات الأوروبيين بمزيد من السهولة. ولكنهم فضلوهم بصورة خاصة في الاحتفاظ بشخصيتهم، وكان من نجاحهم في هذا المضمار أن الجماعات الهندية والأيلو القديمة قد أدت دوراً رئيساً في ثورات البيرو، ولاتزال حتى اليوم أحد مرتكزات الأمة البيروفية.

II - سياسة التبشير البرتغالية:

جعل المرسوم الصادر عن ألكسندر السادس بتاريخ ٤ أيار ١٤٩٣م من ملك البرتغال، "نائب المسيح في الأراضي المكتشفة حديثاً". فكان ملك البرتغال مسؤولاً شخصياً عن التبشير بالإنجيل. وقد أدرك جان الثالث (١٥٢١م-١٥٥٧م) مسؤولياته، فأوعز بإرسال الآباء اليسوعيين الستة الأوائل في عام ١٥٤٩ وتعهد بالإنفاق على معيشتهم. وحذا حذوه خلفاؤه من بعده. أما الحاكم الذي بعث الحركة الحاسمة، فهو "مم دي سا" الذي تولى مهامه منذ عام ١٥٥٧م حتى عام ١٥٦٨م

والذي كرّس الأيام الثمانية الأولى من ولايته للقيام بالتمارين الروحية بإشراف الأب "توبرغا". وعين أسقفاً على البرازيل في سنة ١٥٥١م. فانصرف الأساقفة إلى تبشير الهنود بالإنجيل، واشتهر منهم في هذا المجال الأسقف الثاني "بيدرو ليتاؤو".

إلا أن تقدم التبشير كان بطيئاً، وغالباً ما برهن كهنة الرعايا المرسلين من البرتغال غالباً عن جشع وفظاظة وسوء سلوك، بينما كان اليسوعيون قلة، ولم يتجاوز عددهم ١٤٢ في سنة ١٥٨٤م بينهم ٧٠ كاهناً فقط. وكان الهنود موزعين إلى قبائل صغيرة متنقلة؛ تشاهد الواحدة منها في الصباح، وتختفي بعد الظهر في السرتاؤو. تكلم الهنود لغة عامية مشتركة هي لغة التوبي التي لم يتقنها المرسلون قط، واضطروا بسبب ذلك إلى سماع الاعترافات بواسطة المترجمين. ولكن هنالك استثناءات، كالأب "انكيثا" مثلاً الذي وصل في سنة ١٥٥٣م إلى سانتو-باولو وألف أجرومية، وقاموساً، وكتاباً في التعليم المسيحي، وموجزاً لسامعي الاعترافات، وأناشيد، ومسرحيات دينية، وجعل من التوبي لغة حضارة؛ وإنما افترقت لغة التوبي إلى مفردات تعبر تعبيراً صادقاً عن المعتقد المسيحي. فقد اختار المرسلون للتعبير عن مفهوم "الله" كلمة "توبان" التي تشير إلى قصف الرعد والتي اعتقدوا بأنها تعني "الشيء الإلهي"؛ أي الكائن الجدير بصفات الإله المسيحي. ولكن "توبان" إنما تشير إلى شيطان الرعد، فجرّ استخدامهما إلى شتى ضروب اللبس والتشويش. وقد حدث مثل هذا اللبس والتشويش في تعابير دينية كثيرة بسبب فقر اللغة. وتوصل "السحرة واليسوعيون" بسهولة أخيراً إلى إقناع هؤلاء الهنود سريع التآثر، إلا أن هؤلاء كانوا يعودون إلى وثنياتهم بمثل السهولة نفسها بسبب تقلبهم وتغافلهم؛ لذلك وجب وجود الكاهن بصورة دائمة.

أفلح اليسوعيون في حمل الحكام على إلزام الهنود بالتجمع والعيش في قرى. تأسست القرى الأولى في سنة ١٥٥٧م، في منطقة "باهيا". ومنذ سنة ١٥٦٢م كانت هنالك عشر كنائس تجمع حولها بين ٣٠ و ٤٠ ألف هندي

متحضر. وعاون الآباء في مهمتهم "الميرنهوس" الأمراء الذين تعينهم السلطات المدنية قضاة بناء على اقتراح اليسوعيين.

فرض اليسوعيون بعض السلطة على الهنود بتعاطيهم الطب، والجراحة، والحدادة، والبناء، والنجارة. فقد أتى الهنود إلى التعليم المسيحي، وطلبوا إلى الآباء تربية أولادهم؛ بغية الحصول على الأدوات الحديدية. يبدأ النهار في القرية، وينتهي بالتعليم المسيحي، وتتخلله الصلوات في أوقات معينة على الطريقة الرهبانية تقريباً. استهدفت الجهود الأولاد بصورة خاصة، ومنذ سنة ١٥٥٠م استحضر الآباء بعض الأيتام من البرتغال، وأدخلوهم مدارسهم إلى جانب أولاد الغواراني؛ ليجعلوا من العرقين شعباً واحداً يعبد الله. أسندت إلى هؤلاء الأولاد مهمة التنبيه إلى الولادات والأمراض، كي يتاح للآباء توزيع سريع العماد والمسحة الأخيرة، ومهمة الوشاية بالسحرة، وتعليم الأولاد الآخرين، وحتى الفتيان، مبادئ الدين المسيحي. زد على ذلك أن هؤلاء الأولاد أثروا في الهنود بتطوافاتهم، وأناشيدهم.

استند التبشير بالإنجيل إلى دعوة نفعية. فقد بشر اليسوعيون الغواراني بأنهم إذا ما اهتدوا سيحصلون -بفضل الله- على غذاء وفير، وسيتمتعون بصحة جيدة، وسيحرزون النصر على أعدائهم. ارتعب الهنود من جهنم، فشدد اليسوعيون الكلام عن العقوبات الأبدية. وبغية التأثير في الهنود تعجباً واحتراماً، وبغية صرفهم عن "أعياد المسكر" والرقص، أكثروا من احتفالات الزاهية مع ما تستلزمه من موسيقى وأنشيد شغف بها الهنود، ونظموا تطوافات عديدة رفعت فيها الرايات الكنسية زاهية الألوان، والشموع، والمشاعل، وتخللتها الرقصات، ولاسيما الرمزية منها. وقد تجلت الرقصات الرمزية في المسرحيات الطقسية والإيمائية التي برهن الهنود عن أهلية كبرى لتمثيلها.

عَلَّمَ اليسوعيون الهنود مبادئ الدين ملياً وبطول أناة. فرضوا عليهم مرحلة إعدادية طويلة. طلبوا إليهم أن يختاروا بين نسايتهم العديداً واحدة يصرح الهنود

بأنهم يريدونها زوجة فريدة لهم مدى الحياة. وبعد زواجهم على هذا الشكل، "بحسب سنة الطبيعة" كان باستطاعة اليسوعيين تصيرهم بالعماد، وتزويجهم بعد ذلك "بحسب سنة النعمة". ثم يسمع اعترافهم بعد فحص ضميري تمهيدي. لم يفرض اليسوعيون عليهم سوى كفارات خفيفة، وكفارات أدبية بصورة خاصة. وهكذا حاولت الدولة البرتغالية هدي الهنود أي الانتقال بهم من المذهب القائل بوجود الروح في الأجسام الحية كافة إلى مذهب التوحيد، من منطق المشاركة إلى منطق الإدراك، من التفكير السحري إلى كفاية العقل النوعية.

ثالثاً - ضعف السلطة المركزية الإسبانية وبداية اللامركزية:

لم تكن المركزية قوية في يوم من الأيام. فالضباط الملكييون لم يلبثوا أن أصبحوا من كبار الملاكين؛ لأن مرتب الموظف في بلاد تفتقر إلى رؤوس الأموال يعطي إمكانات كبرى. فإن "تيخادا" المجاز في الحقوق، وعضو مجلس مكسيكو، وصل في سنة ١٧٣٧م، وبنى بيتاً في مكسيكو للتأجير، وحصل على أراض، ورواها، وجنى منها عشرة آلاف مد من الحنطة، وزرع التوت والكرمة والخضار، واقتنى قطعان المواشي، وخفض سعر الفواكه في أسواق مكسيكو. وغدا من ثم قوة حقيقية. أضف إلى ذلك أن نظام التبعيات والأنساب قد زاد من قوة الضباط والملاكين واستقلاليتهم. وكان قضاة مجلس الحدود كلهم على مقربة من غواتيمالا في عام ١٥٦٢م أصحاب أحماء أو أصهرة أو أختان الضباط المحليين، وأصحاب الامتيازات، وأصحاب المشاجر والمغارس.

أفسحت المركزية المكان -منذ السنة ١٥٧٣م- للامركزية تدريجية. أما السبب الأول في ذلك فافتقار الملكية الإسبانية إلى الأموال: فمال الملك إلى تحويل نفقات الاستعمار إلى عاتق الأعيان بتخليه لهم مقابل ذلك عن بعض سلطته. منذ سنة ١٥٧١م، حق لكل من يؤسس مدينة جديدة ضد البدو أن يحتفظ بحصون وراثية، ويمتلك ربع الأراضي، ويستعبد أسرى الحرب، ويحصل على امتيازات. ومنذ سنة ١٥٩١م انتقلت الأملاك والمراعي العامة، وأملاك الجمعيات الرهبانية - التي لم يسمح بها نظرياً- إلى الأعيان مقابل تسوية مالية. فحل محل الحقوق العرفية القديمة تملك حقيقي للأرض. وزاد من اتساع الأملاك إقدام الأعيان على اغتصاب حقوق الجماعات الهندية، وفوزهم بموافقة المسؤولين على اغتصابهم. وبلغت ذروتها ما بين سنة ١٦٤٢م-١٦٤٨م. وتصرف الملاكون في هذه الأملاك الكبرى تصرف الأسياد، وادعوا لأنفسهم بحقوق ملكية عدة. أما الملك، الذي لا

مال لديه والذي لم يوفد بعد ذلك سوى نواب الملك من إسبانيا، فقد تغاضى عما جرى مكتفياً بتأمين النظام والدفاع.

• العلاقات بين السيد الأوروبي وعماله وعبيده:

للسيد عبيده الزوج أو الهنود الذين يحملون في وجوههم سمة (المركز دل فاليه) أو (الدونا إيزابيل دي فيلينيغا). يمارس عملياً سلطة لا حدود لها على العمال الهنود الذين أطلق عليهم اسم المشاة الأزدرائي. العمال أحرار مبدئياً، ولكن الملاكين لم يعدموا وسيلة استدراك زوال أعمال السخرة التدريجي. يرغبون الهنود على تسلم قرض: مال، أو بالترفضيل، ملابس أو جوارب أو أحذية، وكلها فتنة لهؤلاء المساكين الذين يرون أنفسهم مرتدين ملابس مماثلة لملابس أسيادهم. فيرتبطون بالأرض، وإذا ما باع السيد الأرض، فإنه يبيع الهنود معها. وقد أرغم اغتصاب أراضي الجماعات عدداً متزايداً من الهنود المحرومين وسائل العيش على العمل في ملك مجاور حيث لا يلبثون أن يصبحوا فدادين بسبب ديونهم.

يقضي السيد بين عبيده، ولديه سجن وأصفاد وأغلال يتعرض لها مشاته أيضاً. وغالباً ما يتمتع بحصانة حقيقية؛ إذ أنه يحصل من نائب الملك على أمر بمنع الضباط العدليين من دخول أملاكه. والسيد في الوقت نفسه ضابط أو قائد الجيوش الملكية. هو يقود من جهة ثانية جيشه الخاص الذي يجنده من بين مشاته، ويعين ضباطه من بين مواليه بموجب إجازة ملكية يحصل عليها لقاء تعهد بخدمة الملك على نفقته الخاصة. وهو في الوقت نفسه قاض أيضاً في المدينة، وفي الولاية. وغالباً ما تكون هذه الوظيفة الملكية أو البلدية ملكه الخاص، لأن ملوك إسبانيا قد شملوا العالم الجديد أيضاً بنظام بيع الوظائف. وغالباً ما تؤلف أملاكه عقار شرف ممتنع البيع والتجزئة، فيمنحه الملك لقب كونت أو مركز؛ لا بل أن الملك قد باع هذه الألقاب بيعاً في أواخر القرن السابع عشر. وينشئ السيد

كنيسة لمستخدمي أملاكه، وديراً، ومدرسة، ويضع فيها رسومه، وأشعرته الشرفية ويمارس فيها حق التسمية لرواتب دينية، فيعين خوري الرعية، ورئيس الدير اللذين غالباً ما يكونان من أنسابه أو معاليه. وتربط السيد روابط تبعية، ونسب بالأسياذ المجاورين، وهم أرستقراطيون يحملون ألقاباً شريفة، وضباط مدنيون، وعسكريون، وأسياد يتمتعون بالحصانة، ويتولون السلطة العامة المحلية، وغالباً ما يكون حليف كبار موظفي المجالس في ليما ومكسيكو.

تشمل السادة (القرية أو العزبة التي تضم السيد وعبيده) على قرية حقيقية أو ضيعة تتألف من مساكن المشاة. مركز السادة ساحة عامة كبرى مربعة الشكل. يقوم على أحد جوانبها مسكن السيد، وهو بناء حجري كبير يتميز بأسوار ضخمة، وبأبراج لمقاومة قطاع الطرق، والثوار البلديين. يشتمل على فناء كبير ذي أحجية يدخل منها إلى القاعات، والغرف التي يسكنها السيد وترى فيها الأسرة ذات المظال، وصناديق المجوهرات، والآنية، والصحون من قطعة واحدة، والسُور في الجدران، وعلى فناء ثانٍ تحيط به الاصطبلات لخيول هؤلاء الفرسان الذين يقضون معظم حياتهم على ظهور الجياد، وللوازم من سروج خشبية وجلدية ثقيلة تزدان بالفضة، وجلول فاخرة، وملابس جلدية، ومهاميز كبرى. وغدت الأديرة مراكز سيادات أيضاً، وغالباً ما مارس رؤساؤها عملياً سلطات السيد كافة. أما أكليروس السيادات العلمانية، وهو خليفة السيد، فكان يتحول تدريجياً إلى أكليروس أرستقراطي، وعنصري.

وأنجزت الفدائية تفكيك القبائل وتقويضها. فقد عاش معاً في الأملاك الكبرى فداديون مدنيون انتسبوا إلى شتى القبائل، تصاهروا، وصاهروا الإسبان، وتعلموا الإسبانية أو حشوا لهجاتهم بالتعابير الإسبانية، ونقلوا عن الإسبان كثيراً من عاداتهم، وألفوا من ثم، -بالانصهار- فئات اجتماعية جديدة ستتألف منها الأمة المكسيكية.

• نتائج السياسية الاستعمارية البرتغالية:

كانت نتيجة الاستعباد الأولى على الهنود نقصاً في التغذية. لذلك فإن أصحاب المزارع لم يكثرثوا بزراعة المواد التي تدخل في تحضير الأطعمة، ولم يتمكن الهنود من الحصول على المنيهوت في يوم من الأيام، إلا بكميات محددة. كما أن المزارع أقصت الماشية، ولاسيما ماشية "سرتاوو" التي غدت أشبه بهياكل عظمية. وبات القنيص والسّمك أكثر ندرة كلما ارتفع عدد المستعمرين الأوروبيين. ولم يتناول العدد من الهنود العاملين في المزارع سوى وجبة طعام يومية واحدة قوامها معجون المنيهوت مع بعض الأرز.

تأثر الهنود تأثراً شديداً بالجذري، وفنك بهم داء الزهري؛ لأن العاملين جميعهم في المزارع قد عاشوا منذ سن الثانية عشرة حياة زنى دائم. وكان كل من لا تظهر فيه علائم الداء موضوع تهكم وسخرية. ونقلت إليهم الألبسة أمراضاً جلدية، وساعدت بتحويلها وظائف الجلد على انتشار الأمراض الرئوية. فتناقص عدد الهنود تناقصاً مستمراً.

ثانياً - الحياة الاجتماعية في المستعمرات الشمالية:

كان نوع الحياة في المستعمرات الأمريكية: بريطانيًا في البداية، ولكن نظراً لاختلاف الظروف في البيئة الجديدة، فقد بدأ هذا يخلق - تدريجياً - نوعاً مستقلاً من الحياة. هذه الظروف البيئية تمثلت في:

أولاً- في وجود الأرض المشاع التي كانت في حاجة إلى استيطان، ومن ثم استمرارية (الزحف الحضاري) من الساحل الشرقي نحو الغرب داخل قارة أمريكا الشمالية. هذه العملية خلقت إنساناً جديداً - متقشفاً، ومعتماً كلياً على نفسه.

وثانياً- يجب الملاحظة بأن هؤلاء المهاجرين كانوا مختلفين في خلفياتهم التاريخية والجنسية والاجتماعية، وأن وجودهم مجتمعين في بيئة جديدة؛ قد أدى إلى خلق مجتمع جديد، قومية جديدة - ما يسميه علماء الاجتماع (الانصهار الحضاري).

١ - سكان المستعمرات البريطانية والطبقات الاجتماعية:

كانت نسبة زيادة السكان في أمريكا مرتفعة جداً. يرجع هذا إلى العوامل الآتية: استمرارية الهجرة، واتساع رقعة الأرض المشاع الذي أعطى فرصاً كثيرة للمهاجرين للعمل ولتكوين الذات؛ ارتفاع نسبة المواليد نظراً لممارسة الزواج؛ ثم الرغبة في تكوين عائلات كبيرة للمساعدة في استصلاح الأراضي.

كان المهاجرين الذين حضروا في فترة الاستعمار البريطاني يشكلون ثلاث فئات: لاتين ألمان، ومن أسكتلندا، وأيرلندا، ثم الرقيق السود. بدأت هجرة الألمان هنا بعد عام ١٧١٠م، عندما وافق البرلمان البريطاني على منح الجنسية لكل بروتستنتي يحضر إلى أمريكا. لقد كان هؤلاء يتركون بلدهم بسبب عوامل الفقر، والحروب، والاضطهاد الديني، ولقد استقر هؤلاء في الداخل (بعيداً عن الساحل)

في مناطق بنسلفانيا حيث توفر الأرض واتساعها. وأصبحوا - فيما بعد - يسمون بهولنديي بنسلفانيا.

وقد لحق - بهؤلاء الألمان - مهاجرون من شمال أسكتلندا، وأيرلندا هؤلاء المسيحيون البريسبترليون حضروا إلى أمريكا؛ لكي يتجنبوا اضطهاد الكنيسة الأنجليكانية والكاثوليكية في أيرلندا؛ هذا بالإضافة إلى ندرة الموارد الاقتصادية هناك. وكانت منطقة استيطانهم تقع إلى الغرب والجنوب الغربي من المهاجرين الألمان الذين سبقوهم في المناطق الجبلية في فرجينيا والكارولاينا؛ بالإضافة إلى هذا كانت هناك مجموعات من المهاجرين الفرنسيين الهوجونوت (البروتستانت) الذين استوطنوا في الكارولاينا. وكان الأيرلنديون يحضرون في دفعات متتالية خلال هذه الفترة الاستعمارية، وقد فقد الكثير منهم شخصيتهم الأولى بانخراطهم في المجتمع الجديد. واستوطن الأسكتلنديون في الكارولاينا، وجورجيا. كان الهولنديون في نيويورك، واستوطن بعض السويسريين والسويديين في وادي ديلوير حيث كانوا يمثلون جزءاً من السكان في العالم الجديد .

وبالرغم من وجود التمايز الطبقي في العالم الجديد، إلا أنه تجدر الملاحظة بأن هذا التمايز كان أقل حدة بكثير مما هو عليه في أوروبا، في ذلك الوقت. كانت الأرستقراطية الجديدة في أمريكا تتمثل في: الموظفون الكبار، رجال الدين، الحرفيون، كبار رجال السفن والتجار، وكبار الإقطاعيين الذين كانوا من أصل بريطاني؛ ونظراً لتوفر الموارد الاقتصادية فقد دفع هذا إلى ارتفاع الأوضاع الاجتماعية في المجتمع الجديد. وهنا يجب التمييز بين الأرستقراطيين من كبار الموظفين في المستعمرات الذين كانوا من أصل بريطاني، وبين أولئك الذين استطاعوا تحسين أوضاعهم الاقتصادية نظراً لتوفر البيئة وغناها.

كانت **الطبقة الوسطى** تتمثل في: المزارعون، والتجار، والفنيون. وكانت هذه الطبقة تمثل الغالبية العظمى من سكان المستعمرات. **الطبقة الثالثة** تتمثل في

العمال الأحرار غير الحرفيين، هذا بالإضافة إلى طبقة رابعة متميزة تتمثل في: خدمة المتعاقدين، وكذلك الرقيق السود.

٢ - الأديان في المستعمرات:

لقد كان للدين والنظرة الدينية أثر فاعل، يزيد بكثير عما هو الحال الآن، في تشكيل أفكار السكان في تلك الفترة. وبما أن البروتستانتية المتطرفة وجدت لها ظروفاً بيئية مناسبة في العالم الجديد؛ وبالتالي فقد ازدهرت أكثر بكثير مما كان عليه الحال في أي بلد آخر. فإن تنوع الخلفيات الدينية التي حضرت إلى أمريكا، قد أدى إلى خلق التسامح الديني بالتدريج في العالم الجديد - أكثر من أي بلد آخر.

أ - البيوريتان في نيو إنجلند:

لقد كان للصفات التي تمتعت بها هذه الطبقة الدينية أكبر الأثر في حياة المجتمع الجديد أكثر من أية فئة دينية أخرى. من صفاتهم الدينية ما يأتي: أولاً- أنهم كانوا من أتباع جون كالفن الذين يؤمنون بأن الإنسان مسيرٌ وليس مخيراً.

ثانياً- بأن الرب هو الذي قرر بالفعل لأولئك الذين سينقذهم في الآخرة، وبالتالي فإن كثيراً من البيوريتان كانوا من المتصوفين، وذلك ليعرفوا فيما إذا كانوا من المختارين من قبل الرب، وكانوا يهتمون بتحسين أوضاعهم، وكذلك أوضاع الآخرين.

ثالثاً- كانوا يؤمنون بقانون أخلاقي صارم، وأصدروا بعض القوانين التي تحرم العمل يوم الأحد، وتجبر على الذهاب إلى الكنيسة. ومع أن هذه الفئة حضرت إلى أمريكا لتتمتع بالحرية الدينية، إلا أنها اضطهدت كثيراً من الفئات

الدينية الأخرى في أمريكا ، مثل: البابنتست (المعمدانيين)، والكويكرز، واليهود والكاثوليك، وغيرهم.

ومع ذلك يمكن الملاحظة بأن هذا عملاً قامت به معظم الديانات والمذاهب الأخرى في خلال القرن السادس عشر. من حيث التنظيم الكنسي، فإن البيوريتان كانوا يؤمنون بأن كل كنيسة يجب أن تكون حرة من أية سيطرة عليا خارجية (خارج الكنيسة).

ب- الدين في المستعمرات الوسطى:

كان تعدد الأديان من المظاهر الرئيسة التي تجب ملاحظتها في هذه المستعمرات. كانت فئة الكويكرز تمثل الغالبية العظمى في بنسلفانيا ونيوجيرسي؛ فقد جلب الأسكتلنديون الأيرلنديون مجموعة من اللوثريين، والمينونايتز، والمورافيين. واستوطن كثير من البيوريتان في نيوجيرسي . أما في نيويورك فقد كان هناك فئات من الهولنديين المصلحين، وكذلك الألمان المصلحين. ولكن لم يكن لمنطقة نيويورك صفة دينية غالبية، كما هو الحال في مناطق أخرى.

ج- الدين في المستعمرات الجنوبية:

كانت جماعات الكنيسة الأنجليكانية هي الفئة الغالبة في المناطق الساحلية، وكان مفروضاً على السكان ضرورة مساندة الكنيسة بالتبرعات جميعها لها. أما ميريلاند فقد كان يقطنها فئة كبيرة من الكاثوليك. وجود أتباع الكنيسة الأنجليكانية الذين كانوا يتمتعون بالطلاقة الاجتماعية والانفتاح على الحياة ميز الجنوب عن الشمال (البيوريتان)، ذلك الذي عرف التطرف الديني. أما البريستاريون، والمعمدانيون، والكويكرز فقد استوطنوا في المناطق الداخلية في الجنوب.

د - التسامح الديني:

كان للأفكار الدينية الأثر الفاعل في تشكيل نظريات معتقديها؛ وبالتالي فقد أثر في نظرة كل فئة دينية إلى غيرها من الفئات؛ مما أدى إلى انعدام التسامح، وإلى الصراع الديني المستمر. أدت الخلافات التي ظهرت داخل الكنيسة البرستارية إلى تفرع هذه الكنيسة إلى فئات مختلفة يكره الكثير منها، ليس فقط الكاثوليك، بل بعض الفئات داخل الكنيسة البروتستانتية نفسها. عدم التسامح الديني هذا كان ظاهرة ملحوظة، حيث إن حق التصويت في الانتخابات مثلاً كان محظوراً في منطقة ما، إلا على الفئة التي تدين بالمعتقدات الكاثوليكية نفسها. الذين يعيشون في الشمال ليس لهم حق التصويت. وأدى عدم التسامح الديني لدى البيوريتان في الشمال مثلاً إلى نفي الخارجين عن هذه المعتقدات، وإلى معاقبتهم بالضرب، وبالسجن أو حتى بالإعدام.

ظهر التسامح الديني كضرورة حتمية في منطقة ميريلاند، ولكنه كان جزءاً رئيساً من معتقدات المنشئ الأول (تجربة بن المقدسة). وشجع انتشار فكرة التنوير على تخفيف أثر المعتقدات الدينية في حياة الناس خلال القرن السابع عشر^(١).

(١) محمد محمود النيرب: المرجع نفسه، ص ٥٩-٦٢.



The background of the page features a large, faint watermark of the Damascus University logo. The logo is circular, with the Arabic text "وقل رب زدني علما" (Qul Rabbi Zidni 'Alima) at the top and "جامعة دمشق" (University of Damascus) at the bottom. In the center is a stylized sunburst or star symbol. Overlaid on this logo is the chapter title in Arabic.

الفصل السابع
الجوانب السلبية والإيجابية للاستعمار الأوروبي
في أمريكا



مقدمة

إنَّ أيَّ غزوٍ لابدَّ أن يترك آثاره السلبية على الشعوب التي خضعت له، ولم يكن الغزو الإسبانيَّ خارجاً عن القاعدة، فقد تغيَّر العالم الجديد إثر اصطدامه مع المؤسسات الإسبانية القديمة سواءً بعيوبها أم بميزاتها. هذا وقد انتشرت المساوئ الإسبانية في أمريكا اللاتينية، وراحت تزداد وتتعدَّد حتَّى نجم عنها مساوئ أخرى؛ إذ أتى إلى العالم الجديد مع قوارب عصر النهضة مؤسسات تعود إلى القرون الوسطى.

فقد وجَّه مذهب الفردية أو الأناية الإسبانية - الذي استقرَّ في أمريكا اللاتينية الذي أدَّى إلى عدم نظام المكتشفين والغزاة - مجرى تاريخ أمريكا اللاتينية إلى طرق العنف، والثورة، والفوضوية، والحروب الأهلية. وتحوَّل الصراع التقليديُّ في شبه الجزيرة الإيبيرية بين النعرة الإقليمية، والمركزية الإدارية في أمريكا اللاتينية إلى صراع بين القوى التي تميل إلى المركزية وبين القوى الأخرى التي كانت تبتعد عنها وترفضها، وأحياناً كانت تعطيه وحدةً وتماسكاً، وأحياناً أخرى كانت تفتته إلى ذراتٍ تنقسم وتتشتَّت.

ومهما يكن فإنَّ الفكرة الأفلاطونية القديمة التي كانت تقول: "إنَّ بعض الناس قد وُلد ليحكم، وبعضهم الآخر قد وُلد ليكون محكوماً"، قد تعرَّضت للهزيمة في أمريكا اللاتينية حينما انحطَّت السلطات، وتحوَّلت إلى إداريين غير مؤهلين إثر الفساد الناجم عن محاباة الأقارب، وذوي النفوذ وعن المفاهيم السطحية لدور الكنيسة ورجال الدين. وبما أنَّ السيف قد عاونه الصليب^(١)، فإنَّ الغزو الذي تحقَّق خلال النِّصف الأوَّل من القرن الأوَّل للاستعمار كان عن طريق الحملات التي اعتمدت بشكلٍ رئيسٍ على الجنود والرهبان؛ لذلك حمل تاريخ أمريكا اللاحق هذين

(١) إشارة إلى أن الغزو الإسباني للقارة قام على أكتاف الغزاة والمبشرين.

الشعارين: العسكري، والديني. وعلى الرغم من الخلاف الذي كان ينشب بين الحين والآخر بين العسكريين، ورجال الكنيسة، فإنَّ الفريقين كانا يتحدَّان ضد القوى السياسية الجديدة، وكذلك كانا يتحدَّان لمساندة الملك، لاسيَّما حينما يحصل من الفاتيكان على حق الدعاية للسلطة الملكية: بمعنى السيطرة على تعيين السلطات الكنائسية في إسبانيا، ومستعمراتها^(١).

^(١)أوخينيو تشانج رودريجث: المرجع نفسه، ص ١١٩-١٢٠.

أولاً- الجوانب السلبية للاستعمار الأوروبي:

١- استعمار القارة الأمريكية من الوجهة الأخلاقية والقانونية:

أ- نقد السياسة الدينية الإسبانية:

وضع الغزو الإسباني أمام المسألة القانونية الآتية: "هل يحقُّ لهم احتلال الهند الغربية؟ وهل يحقُّ لهم استعباد الهنود؟". وقد نتج عن ذلك سيلٌ من الرسائل، والمذكرات، والكتب بين مؤيِّدٍ ومعارضٍ. ولمَّا استطلع ملوك إسبانيا رأي أتباعهم من أصحاب النفوذ في كلِّ ما يتعلَّق بالهند، جاءت النتيجة: إنَّ للملك حقَّ تملُّك البلاد، وإنَّ له حقَّ الفتح. واستندوا في رأيهم هذا إلى المرسوم الذي منحه البابا ألكسندر السادس بorgia في ٣ أيار ١٤٩٣م.

فقد قام البابا - بعدما بلغه أنَّ هذه الشعوب نفسها التي تعيش في الجزر المذكورة، وشتَّى مناطق البرِّ الجديد، تؤمن بإله واحد؛ الخالق في السماء، وتبدو مستعدة استعداداً كافياً لاعتناق الإيمان الكاثوليكي، وتلقّي مبادئ أخلاقية قيّمة". - بتعيين الملكين فرديناند وإيزابيلا "سيدي الأراضي التي اكتشفت والتي ستكتشف، مع ما يستلزم ذلك من صلاحية، وسلطة كاملة وحرّة مطلقة". ومن لقب السادة هذا استنتج ملوك إسبانيا أنَّهم مالكو العالم الجديد. ولهذا أصدر شارل الخامس عام ١٥١٩م أمراً بضمِّ العالم الجديد كلّهُ إلى أقاليم تاج قشتالة الملكي. ولهذا السبب أيضاً عدُّوا أنَّ لهم الحق، في أرضهم، في إخضاع الهنود.

ولكن هل كان من حقهم استعبادهم يا ترى؟ لم يخامر الشكُّ المستعمرين وعلماء نظريات كثيرين في ذلك. وكان أوفيفيدو أبعد هؤلاء تأثيراً. فقد قدم نظرياته منذ عام ١٥١٩م، وعاد إليها في كتابه "موجز في طبيعة الهند"، ثمَّ في كتابه "تاريخ الهند العام" الذي يعكس روح المستعمرين. يستصوب أوفيفيدو نظرية أرسطو؛ هناك أعراقٌ يُعدُّها تخلفاً للعبودية بموجب الحقِّ الطبيعي. والهنود من هذه الفئة. فهم كسالى، وفاسدون، وسوداويون، وجبناء، وكاذبون، وبهائم، زواجهم

من الطقوس المدنسة للمقدسات. وهم فوق هذا وذاك عبدة أوثان، وشهوانيون، وشاذون، لا يفكرون إلا بالمأكل، والمشرّب، وعبادة الأصنام، وارتكاب الفواحش. من هنا يجوز إباداتهم لأنّ الله يعاقبهم، على غرار معاقبة سدوم وعمورة؛ بسبب خطاياهم الجنسيّة. ولذلك يجب استعبادهم بالقوّة إلى الأبد؛ لأنّ تحويلهم إلى شعوب متحضّرة أمرٌ مستحيلٌ.

من جانب آخر أثبت آخرون، خلاف ما ذهب إليه أوفبيدو وأنصاره، فأروا أنّ الهنود كائناتٌ عاقلةٌ يجب معاملتهم كالإسبان، لكن بتحفظٍ ومداراةٍ؛ لأنّهم متأخرون حضارياً، كما هو واضح. وهذا هو جوهر نظرية الدومينيكانيين، لاسيّما نظرية عالم النظريات السياسيّة الشهير في جامعة سلمنكا "فرنسيسكو دي فيتوريا"، الذي توفّي في عام ١٥٤٩م. ففيتوريا يجاهر بأنّ هنالك خارج الحقائق الموحى بها، نظاماً زمنياً، أو حقاً بشرياً، يمكن إدراكه على ضوء العقل وحده. وهذا الحقّ الطبيعيّ هو مرتكز "النظام والاتفاق" وأساس المجتمعات كافة. فهذا "النظام والاتفاق" واحد للكائنات العاقلة كافة، من مسيحيين أو غير مسيحيين. ولما كان الهنود كائناتٌ عاقلة، من حيث إنّهم بشر؛ فهذا يعني أنّ الحقّ الطبيعيّ يشملهم كما يشمل الإسبان. لذلك كانت لهم حقوق الإسبان الطبيعيّة كافة؛ الحرّيّة، والتملّك، والقدرة على حكم أنفسهم^(١).

إنّ الآراء التي جعل منها فيتوريا علماً سياسياً، قد أطلقها، للمرّة الأولى، "مونتسينوس" في عظته في إسبانيولا يوم الأحد الواقع قبل عيد الميلاد في عام ١٥١١م. وفيما يلي خلاصة ما قاله مونتسينوس: "الهنود كائناتٌ عاقلة؛ فلهم

(١) برتولومي دي لاس كازاس: المسيحية والسيف، وثائق إبادة هنود القارة الأمريكيّة على أيدي المسيحيين الإسبان (رواية شاهد عيان)، ترجمة سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، د.ت.، ص ١٧-١٨.

الحق من ثم في أن يعاملوا معاملة الإسبان؛ ويجب بالتالي تلقينهم حقائق الديانة لتخليص نفوسهم؛ كما يجب الإبقاء على حريتهم، وعدم انتهاكهم بالعمل، وإعطاؤهم كفافهم من المأكّل؛ والاعتناء بهم في أمراضهم، ومخالصتهم الوّد. إنّ الإسبان القساة والمستبدين الذين لا يتقيدون بشيء من ذلك يكونون جميعهم في حالة الخطيئة المميّة^(١). إلا أنّ رئيس الدومينيكانيين في إسبانيا قد حذر على رهبانه في إسبانيولا التبشير بمثل هذا التعليم المشين، بناءً على شكوى المستعمرين، وعلى أمر صادر عن الملك.

لكن "برتلمايو دي لاس كازاس" قد ناب عن مونتينوس بعد ذلك في موقفه من الهنود. فقد كان كاهناً، وصاحب امتياز في إسبانيولا منذ عام ١٥٠٢م، ثمّ في كوبا منذ عام ١٥١٢م، ووقف موقفاً عدائياً منهم. وبينما كان يعدّ إحدى المواعظ في عام ١٥١٤م اقتنع بأنّ معاملة الهنود كانت ظالمة واستبدادية، فتخلّى عن ممتلكاته، وأعتق هنوده، وغدا نصيرهم المدافع عنهم منذ مذكّرتة الأولى عام ١٥١٦م إلى ملك إسبانيا^(٢).

ويرى لاس كازاس: أنّ سلطة الملك على الهنود سلطة غير شرعية، لأنّ البشر جميعهم أحرارٌ بموجب حقّ طبيعيٍّ؛ إذ إنهم مخلوقون على صورة الله أحراراً ومسؤولين. وكلّ ما استطاع البابا أن يفعله هو إسناد الإدارة إلى ملوك إسبانيا لمنع الهنود من طرد المرسلين أو قتلهم. لكن ليس لأحد حقّ في تخطي هذا الحدّ، أو في تنصير الهنود بالقوّة، أو في استعبادهم؛ لأنّهم بشرٌ كغيرهم. فالإغريق

^(١) موريس كروزيه: تاريخ الحضارات العام، ٧ أجزاء، الجزء الرابع (القرن السادس عشر والسابع عشر)، رولان موسنييه، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر، دار عودات، بيروت-باريس، ط ٢ ١٩٨٧، ص ٤٨٦.

^(٢) برتولومي دي لاس كازاس: مصدر سابق، ص ١٧-١٨.

الأقدمون، والنتّار، والهنود، والإسبان أفراد جنس بشريّ واحد، انطلقوا من مستوى واحد، وتوصّلوا إلى مستويات تقدّم مختلفة بفعل ظروف مختلفة.

من خلال ما سبق يتبيّن أنّه (كما أكد لاس كازاس) لا يوجد شعب في العالم مهما بلغ من قساوته، وبربريته، وخشونته، ووحشيته، يستحيل إقناعه واستمالاته، وإعادته إلى النظام، وترويضه، وجعله وديعاً سهل المراس، إذا ما اعتمدنا اللياقة، وسلكتنا هذه الطريق الطبيعيّة الخاصّة بالإنسان بدافع من المحبّة، والحلم، والوداعة، والبهجة. وإذا كنّا لا ننشد سوى هذه الغاية "التاريخ الدفاعي" فمن الممكن ترقية الشعوب كافة إذا ما نظرنا إليها نظرة أختيّة، وسعيًا جاهدين في سبيل هذه الغاية دونما سعي وراء فوائد شخصية أو قومية. وبالتالي يجب هديهم إلى الدّين القويم بالملاطفة، "بإقناع العقل"، ثم "بتحريك الإرادة برفق". فهي الوسيلة الوحيدة لاستمالة الشعوب كافة إلى الديانة الحقيقيّة^(١).

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إنّ الإسبان هم الهمجيون. ففي مؤلّفه "بيان موجز في تدمير الهند" (١٥٤٢م) المرفوع إلى الإمبراطور شارل الخامس، يُظهِر لاس كازاس الهنود عند قدوم الإسبان مطيعين، أوفياء لرؤسائهم، ضعفاء، متبصرين، هادئين، وديعين، صادقين، طيبي القلب، سليمي السريرة، فقراء، مجرّدين من الغايات، متحلّين بذكاء حادّ، وجديرين بتقبّل الإيمان الكاثوليكي المقدس. دخل الإسبان ديار هؤلاء المتوحّشين الطّيبين، وكأنّهم ذنابّ، ونمور، وأسودّ تتصوّر جوعاً. فاقترصر عملهم على تقتيل الهنود، وإسخان أعينهم، وتعذيبهم، وإفنائهم بوحشية نادرة. لا بل منعوا الرهبان من التبشير بالإنجيل. وقد دفعهم إلى كلّ ذلك تكالِبهم على الذهب^(٢).

(١) المصدر السابق، ص ٢٢ - ٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٤.

ومهما يكن فقد أقرت قوانين "بورغوس" مبدأ اللجوء إلى منح الامتيازات. وبناءً على مطالبة الدومينيكانيين، أعلن تفسير قوانين بورغوس في عام ١٥١٣م أن باستطاعة بعض الهنود المثقفين معايشة الإسبان، بشرط أن يحصلوا من القضاة على إعلان حريتهم. لكن المستعمرين ولاس كازاس اعترضوا على ذلك لأسباب مختلفة.

وأمام تضارب الآراء، قرّر الكاردينال "كسيميليس دي سيسنروس" إجراء تحقيق بواسطة لجنة تعين لهذه الغاية. فأرسل ثلاثة أخوة إيرونيميين مع " لاس كازاس " الذي أطلق عليه اسم "حامي الهنود". طرح المحققون على كل شاهد سبعة أسئلة، صيغ ثالثها على الشكل الآتي: "هل يعلم الشاهد أو يعتقد، أو هل سمع أو لاحظ أنّ هؤلاء الهنود، لاسيما هنود إسبانيولا، رجالاً ونساء على السواء، يتحلّون بمعرفة وكفاءة تتيحان إعطاءهم حريةً كاملةً؟. هل هم قادرون على ممارسة حياة سياسية على غرار الإسبان؟. هل يستطيعون تأمين حاجاتهم بجهودهم الخاصة، كأن يستخرج كلُّ هنديٍّ الذهب من المناجم، أو يحرث الأرض، أو يؤمن معيشته بعمل يوميٍّ آخر؟. هل يعرفون كيف يستفيدون ممّا قد يدره عليهم هذا العمل بأن ينفقوا على حاجات حياتهم فقط كما يفعل العامل القشتالي^(١)؟" أجاب المستعمرون كلّهم بالنفي، وكان أحدهم متزوجاً من هندية منذ أربعة عشر عاماً. واستندوا في ذلك إلى اختبار الحاكم "أوفندو". أعطى هذا الأخير في عام ١٥٠٨م، الحرية لرئيسين هنديين متصرّين تعلّما الكتابة والقراءة، وأتقنا الإسبانية، وكانا متزوجين وأبوي عائلة. جعلهم أوفندو صاحبي امتيازات. لكنّ هذين الهنديين قضيا ست سنوات أحراراً من دون أن يحرثا الأرض، أو يتمكّنا من إعالة نفسيهما، وتأمين ملبسهما بعملهما. فبدت هذه النتائج حاسمة في نظر

(١) موريس كروزيه: مرجع سابق، ص ٤٨٦.

إيرونييمين الذين جمعوا الهنود في قرى تحت سلطة محافظين إسبان، وتسببوا بعملهم هذا في انتشار وباء الجدري الفتاك.

اعترض لاس كازاس، وحصل من الملك الإسباني شارل الخامس على أمر باختبار جديد أجراه خلال عامي (١٥١٩م-١٥٢٠م)، في إسبانيولا "رودريغو دي فيغوروا" اختار هذا الأخير عدداً من الهنود ممن رأى فيهم الكفاية، وقدم لهم سلف أغذية وملابس وأدوات، وعيّن لهم مناجم ذهب ترك لهم أمر استثمارها، وترك لهم الحرية في العمل على هواهم. فجاءت النتيجة فشلاً ذريعاً.

وفي عام ١٥٢٦م استطاع المستعمر القديم "باريونيوفو" الذي كان في المستعمرة منذ ٢٤ عاماً الاستشهاد بمثل هنديات كثيرات تزوجن من إسبان، أو دخلن الأديرة مكرّسات أنفسهن لخدمة الجمعيات الرهبانية. فما أن يصبحن أرامل، أو يخرجن من الدير حتى يتخلقن حالاً بالأخلاق الهندية، بما فيها العري والحرية الجنسية، كما لو أنهم لم يعيشوا طيلة سنوات عيشة أوروبية. وأكد باريونيوفو بأن لا أمل يرتجى من الهنود عموماً؛ بسبب ضعف تفكيرهم وذاكرتهم. فهم ينسون صلاة "السلام عليك يا مريم" إذا مرّ يوم واحد من دون أن يتلوها.

وكذلك أجريت اختبارات أخرى في كوبا، وفنزويلا، وغواتيمالا، وفي المكسيك عند الشيشميك^(١). فجاءت النتيجة إخفاقاً في كل مكان. وحاول الإسبان بين عامي ١٦٣٥م و١٦٧٦م إنشاء مستعمرات ثابتة، يضم بعضها الإسبان، وبعضها الآخر الأوتوميس في الجبال التي لجأ إليها الشيشميك، ثم جمع الشيشميك في قرى منفصلة خاصة يتعودون عليها، على غرار جيرانهم المزارعين، حياة الاستقرار والزراعة. فلم يفلحوا في هذه المحاولة أيضاً؛ إذ إن الشيشميك رفضوا الإقامة في القرى، ولم يأتوا إليها إلا لبعض الاحتفالات الدينية. وكانوا يقدمون على الانتحار

(١) الشيشميك: إحدى القبائل التي ينتسب إليها السكان الأصليون في المكسيك.

إذا ما أرغموا على حضور القداس بانتظام أيضاً. فكان في النهاية أن أباد الإسبان الشيشميك في القرن الثامن عشر. ومن هنا يتضح إخفاق الإسبان باستمالة أقوام القناصين، والصيادين، والمزارعين الوقتيين.

إلا أن المسيحيين لم يعترفوا بالإخفاق، فقد أعلن البابا بولس الثالث في مرسومه "الحقيقة نفسها" المؤرخ في ٢ تموز عام ١٥٣٧م، أن الهنود الحمر بشر حقيقيون، وأن لهم نفوساً جديرة بالحياة الأبدية، وأن معاملتهم يجب أن تستوحي هذه الحقائق. بيد أن مجمع ليما الثالث الذي انعقد في عام ١٥٨٣م أخذ نتائج الاختبار بالحسبان، واعترف بأن الهنود الحمر على الرغم من كونهم بشراً فقد بقوا في حالة طفولة، وأن الواجب يقضي بأن تضمن لهم حماية دائمة. فتولّى اليسوعيون اختبار شيوعية أبوية، في باراغواي كمرحلة أولى، بغية الانتقال بالهنود الحمر إلى الحياة الشخصية. وكان هؤلاء من قبيلة التوبي غواراني الذين أخفقت في تبشيرهم بعض الإرساليات المتنقلة. وفي عام ١٦٠٧م أسند ملك إسبانيا إدارة البلاد إلى اليسوعيين؛ بغية تحضير الهنود في قرى أطلق عليها اسم "المعادات" لأنها أنشئت "لإعادة الهنود إلى الحياة المدنية والكنسية". وضع الآباء تحت سلطة الملك، ومجلس الهند، ونائب الملك في البيرو، وسلطة مجلس كاراكاس، وشونكيساكا وبوينيس إيرس القضائية، ورقابة حاكمي باراغوي وريو دي لا بلاتا اللذين زارا المعادات زيارات منتظمة. وطبق اليسوعيون شرائع الكنيسة تحت سلطة أسقفي أسومبسيون و بوينيس إيرس اللذين كانا يتفقدان المعادات^(١).

(١) موريس كروزيه: المرجع نفسه، ص ٤٨٦.

٢ - الميراث الاقتصادي:

قام الأوروبيون منذ دخولهم أمريكا بالجهود جميعها التي تهدف إلى تسخير سائر الموارد الاقتصادية فيها لصالحهم فقط من دون أن يؤخذ بالحسبان مصلحة السكان الأصليين. فبدؤوا باتباع سائر السبل التي تكفل تأمين الغذاء الكافي للأعداد المتزايدة من المهاجرين الأوروبيين، واهتموا بالحصول على الثروات المعدنية التي يمكن استعمالها لتجارة خارجية رابحة؛ هذا بالإضافة إلى عملهم على الحصول على سلع أوروبية أو محلية يستطيعون بواسطتها تغطية حاجة السوق المحلية، وتحقيق أرباح كافية. أما السكان الأصليون فقد ترك قسم منهم لأعمال السخرة الزراعية في المناطق التي تم احتلالها بالقوة، وطُرد قسم آخر إلى مناطق الغابات أو المناطق الجبلية النائية ليمارسوا الزراعة البدائية، أو تربية المواشي، أو صيد الأسماك النهرية^(١).

وهكذا تكالب المستعمرون الأوائل لأمريكا اللاتينية من الإسبان على تحقيق المنافع الخاصة بهم من دون الاهتمام بالسكان الأصليين، أو المجموعات البشرية غير الإسبانية. فتركوا آثاراً سيئة جداً في النواحي البشرية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية كلها، وذلك بسبب اندفاعهم بنهم شديد نحو استثمار خيرات البلاد الزراعية والمعدنية على الشواطئ البرازيلية، وجبال الأنديز على حساب الشعب الهندي الأصل؛ وفقاً لنظام إقطاعي ظالم، يُسام فيه العمال الزراعيون سوء العذاب، سواء أكانوا من أهل البلاد، أم من الجماعات الإفريقية السوداء التي أتت بها الأسياذ للقيام بالعمل الصعب في المناطق الاستوائية الساحلية المنخفضة تحت شروط مناخية طبيعية مضيئة^(٢).

(١) ساطع محلي، المرجع نفسه، ص ١٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٨١.

على الرغم مما يُطْلَقُ على الكشوف الجغرافية، إلا أنها كانت نتيجة مباشرة لروح عصر النهضة الجديد الذي تسرّب ببطء لشبه الجزيرة الإيبيرية. ومما يدعو للسخرية هو أن الغزاة جلبوا معهم إلى العالم الجديد بقايا مخلفات الإقطاع الإسباني؛ إذ إن واحدة من المؤسسات التي أقيمت في أمريكا اللاتينية ما يعرف باسم (المزارع أو الضيعات الواسعة جداً) وهي عبارة عن ملكية زراعية شاسعة جداً، ولقد تنكّرت منذ عهد قريب بأسماء حديثة، مثل: أملاك، وضيعة، وعزية. كما أن جزءاً من التقاليد المحافظة القويّة، ومن أساليب الحياة في المدن الصغيرة كان يرجع إلى العصور الوسطى، وكذلك النظام الاقتصادي، وقانون الشرف، والفلسفة الكلامية، والتعصّب الديني الذي حمته أو دافعت عنه بقوة، وغيره محاكم التفتيش، كان هذا كله يرجع إلى العصور الوسطى.

لقد تعرّضت المؤسسات الأخرى، مثل: الوصايا على الأهالي، وولاية المستعمرات، والخدمة العسكرية الإلزامية، ومزايا طبقة النبلاء في أمريكا اللاتينية إلى تحولات غيّرت من أصولها التي تنتمي إلى العصور الوسطى.

فقد تمسك نواب الملك بفكرة أن الأرض هي مصدر الثروة، ومع مرور الوقت ظهر أن هذه الفكرة ضارّة؛ لأنها حدّت من وجود صناعات جديدة من جهة، ومن استغلال مصادر الدخل الأخرى من جهة أخرى. وكذلك أصبح الاهتمام بالمناجم وحدها وباءً بيد أن أبناء أمريكا اللاتينية تغلّبوا عليه في بعض الدول بعد صراع طويل مع النظريات الاقتصادية الجديدة⁽¹⁾.

وعلى أية حال، فإن احتقار الأنشطة اليدوية الذي كان متأصلاً في إسبانيا بين طبقة النبلاء تواجد في أمريكا اللاتينية بشكل كبير، ولحسن الحظ، فإن رفض القيام بالنشاط التجاري الذي كان يعدّ في إسبانيا نشاطاً مقصوراً على اليهود

⁽¹⁾ MADARIAGA Salvador de , The Rise of the Spanish American empire, the free press, New York 2 edition 1968, p. 127.

والمسلمين، لم يستمر طويلاً. فقد بدأ النبلاء يشعرون بقيمته شيئاً فشيئاً في العالم الجديد، ومع مرور الوقت -وبسبب افتقارهم- توجّهوا نحو التجارة، وبدؤوا يعتمدون على الأنشطة التجارية، وذلك لتحسين أوضاعهم الاقتصادية، والمحافظة على صيتهم في المجتمع^(١).

ومن جهة أخرى، وكما مر معنا سابقاً فإن استغلال الإمبراطورية واستثمارها هو شأن خاص من شؤون إسبانيا وحدها، فيحظر على هذه الإمبراطورية أن تنتج أيّ صنف تنتج مثله إسبانيا. ومن هنا وجدت البيرو صعوبة في الحصول على ترخيص يسمح لها بزراعة الزيتون في أراضيها المعتدلة. وهي لم تحصل على ذلك الترخيص إلا بعد التعهّد بعدم تصدير أيّ شيء من إنتاج هذين الصنفين إلى أي جزء من أجزاء الإمبراطورية الإسبانية التي تتموّن زيتاً وزيتوناً من الوطن الأم. وقد جاء في رسالة أحد نواب الملك الإسباني إلى خليفته: "إنّه من الضروري الاعتماد على إسبانيا في كل شيء؛ مثل ذلك ينبغي ألا يكون هناك أيّ أعمال في الغزل والنسيج. وإنّ الكروم وأشجار الزيتون لا يمكن زراعتها. ولا ينبغي أن يتمّ استيراد أيّ قطعة قماش من الصّين، بحيث القماش، والكرمة، والنفط، والحرير يجب أن تأتي من قشتالة"^(٢).

والحق قد استطاعت إسبانيا - على الرغم من كثرة العوائق والظروف غير المواتية - أن تفتح أبواب التجارة لها^(٣)، فقد كان هناك أساطيل تجارية تؤلّف قوافل منتظمة، تغادر قادش المرفأ الوحيد الذي له حق الاتجار مع أجزاء الإمبراطورية الإسبانية في أمريكا اللاتينية باتجاه مرفأ بورتو بلو، وقرطاجنة، وفيراكروز، حيث يجري تفريغ الأصناف المشحونة، ثم تباع البضاعة في الأسواق التجارية، وهي

(١) رودريجيث: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١٢١-١٢٢.

(٢) MADARIAGA Salvador de , Op.Cit, P 127

(٣) Ibid.: P 128

أسواق تستمر طيلة أربعين يوماً، ومنها تنتقل برّاً إلى أطراف الإمبراطورية جميعها. كذلك كانت تُشحن من هذه الموانئ محاصيل بلدان الإمبراطورية جميعها.

ولا بدّ من التنويه في هذا المقام إلى أنّ البضاعة الوحيدة التي كان يجري نقلها مباشرة بين الإمبراطورية الإسبانية وبلاد المنشأ، هي تجارة الرقيق التي بقيت احتكاراً إنكليزياً، وذلك منذ عام ١٧١٣م. فلإنكليز الحقّ بنقل الرقيق مباشرة من إفريقية إلى بوينس إيرس، وقرطاجنة، وبورتو بلو، اختصاراً للوقت وللمسافات، واستعجالاً للمعاملات، لما تتعرّض له هذه البضاعة السريعة العطب من أخطار ومهالك.

وهذا النظام القائم على الحظر، والاحتكار، والاستثناء، الذي فُرض على الإمبراطورية التي اضطرت للنزول عنده والأخذ به، ألزمها الشراء بسعر عالٍ، والبيع بسعر متدنٍ، وقد أدّى ذلك إلى تأخّر مرافق الزراعة والصناعة فيها. ففي هذا النظام كلّ المساوئ، وقد عانت منه البرازيل في النظام البرتغالي، فالطريقة التي يجري عليها الاستثمار لا تساعد قطّ على توفير ما تحتاج إليه البلاد من رؤوس الأموال والأيدي العاملة. فإسبانيا والقائمون بأعمال التهريب من قراصنة البرّ والبحر، يسلبون الإمبراطورية ما لديها من معادن ثمينة، فيقلّ النقد من التداول، وتتأخّر حركة البيع والشراء^(١).

٣- الميراث الاجتماعي:

كان مجتمع الاستعمار في أمريكا اللاتينية -كما مرّ معنا- مقسماً بشدة إلى طبقات اجتماعية، حتّى إنّ الإسبان أنفسهم قد تقبّلوا الوضع بوجود **نظام**

^(١) Ibid., p 131.

الأجناس". وقد اتُّبع هذا التقسيم الاجتماعي في القارة عن كثب الحدود العنصرية لدرجة أنه وصل لخلق نوع من الفوارق الاجتماعية بناءً على لون البشرة^(١).

ومما يلاحظ على هذا العالم الخارج من رحم الغزو والاحتياح أن مكافأة النصر كانت متمثلةً بالشهرة والثروة المعتمدتين على عمل الكتل السكانية المحلية الأصلية. وبالتالي فقد بات المجتمع الجديد مقسوماً من البداية بين أهل الأرض من جهة، والإسبان من جهة ثانية. وجرى تصنيف السكان الأصليين مجتمعين تحت عنوان "الهنود الحمر" رغم وجود اختلافات واضحة في لغاتهم وثقافتهم.

هذا وقد كان الإسبان الغزاة، وأبناءؤهم، وأحفادهم، وجميع القادمين اللاحقين والمتطلعين إلى أن يكونوا في مرتبتهم فوق السكان الأصليين، ولذلك تحكّم هؤلاء المستعمرون بالسكان الأصليين، وسخروهم في العمل في مناجم الذهب والفضة، ومارسوا ضدهم كل أنواع القسوة والاضطهاد، وقد نجم عن ذلك حصول موجات موت جماعي في صفوف السكان الأصليين، فانخفض عددهم بشكل كبير. ومهما يكن الرّقم الأساسي، فقد تمخّض عن ذلك التدهور هلاك السكان. وبعد أن أدرك الإسبان حجم الكارثة التي تسببوا بها لهؤلاء السكان اتجهوا نحو سياسة استعمارية جديدة تقوم على أساس صياغة جماعات هؤلاء السكان في قوالب حكم غير مباشر، بقيت استقلاليتها الذاتية محددة باستمرار عبر آليات عمل الاستعمار الإسباني الذي كان الهنود الحمر يقومون بتزويده بالعمالة الرخيصة والسلع، ويشترون منه البضائع بالإكراه في الغالب.

ولم يكتف الإسبان بذلك، بل عملوا على إدخال حضارتهم، ولغتهم، وثقافتهم، وديانتهم الكاثوليكية إلى القارة الجديدة. بيد أن السكان الأصليين لم يتقبلوا في أوّل الأمر هذه السياسة الإسبانية قبولاً حسناً؛ لأنهم كانوا متأثرين بموجات

(١) رودريجيث: ثقافة وحضارة، ص ١١٤.

الغزو الأولى، وما صاحبها من الاعتداء، والسلب، والتسخير؛ مما جعلهم ينظرون إلى الغزاة الإسبان نظرةً عدائيةً. ولكنَّ البعثات الدينية التبشيرية التي أرسلتها إسبانيا سارت جنباً إلى جنب مع حركات الغزو والاستعمار، وأخذت تنتشر الكاثوليكية بين السكَّان حتَّى أصبحت كلُّ أمريكا الوسطى والجنوبية التي تسمَّى أمريكا اللاتينية كاثوليكية. واستمرَّ الاستعمار الإسباني قائماً في أمريكا اللاتينية إلى الآن^(١).

ومهما يكن فقد نجم عن الروابط الاجتماعية والوفاء للأسرة ما يسمَّى بسلطة الأب على أفراد الأسرة جميعهم، ومحابة الأقارب، والمحسوبية، ونظام الأشبين، والخضوع أو التذلل، وتسبَّب كلُّ ذلك في ظهور مساوئ كثيرة على مرِّ تاريخ أمريكا اللاتينية. وقد أدَّى مفهوم المحبة أو الإحسان إلى الغير، وكذلك غياب المسؤولية إلى ضعفٍ شديدٍ في الهيكل الاجتماعي للشَّعب؛ وبالتالي أسهم هذا الهيكل الاجتماعي المغلق، والتعصُّب الديني، وزيادة الجشع، والدعاية على مستوى كبير مع مرور الوقت في إيجاد أسطورة غياب الموقف الموحد الذي اتخذ ضد الأجناس الأخرى، والتفرقة العنصرية في العالم الجديد.

وليس من الصعب البرهان على عدم مصداقية هذا الرأي، فمن المؤكد أنَّ جزءاً من الشَّامح العنصري في العالم الإسباني له تقاليد تاريخية طويلة. وتبرهن الأدلة التاريخية على أنَّه كانت هناك بالفعل تفرقةً عنصريةً في أمريكا اللاتينية خلال فترة الاستعمار، ولكنها لم تكن ضارَّةً أو مؤذيةً مثل التفرقة العنصرية التي كانت موجودةً في أجزاء أخرى من العالم آنذاك. ولكن ما نطلق عليه بالأسطورة

(١) عمار فاضل حمزة، أمريكا اللاتينية: تاريخ من الظلم المتواصل، د.ت، ص ٢٤.

البيضاء أو أسطورة عدم تواجد الموقف العنصري في أمريكا اللاتينية كانت محض خيال وأكذوبة رخيصة من السهل دحضها^(١).

ثانياً-الإسهام الإيجابي للأيبيريين في أمريكا اللاتينية:

على الرغم من كل ما ذكر من الجوانب السلبية في الاستعمار الإسباني للعالم الجديد، فهذا لا يمنع من تقييم الإسهامات الإيجابية التي قام بها الإسبان في أمريكا اللاتينية، فإليهم يعود الفضل في جعل أمريكا اللاتينية تتصل بالحضارة الغربية. وكذلك في ضم جزء كبير من الفكر، والثقافة، والشخصية الغربية إلى هذا العالم الجديد. وقد أُستُخدِمَ كل ما جلبه الإسبان كقاعدة لانطلاق الثقافة والحضارة الحالية في أمريكا اللاتينية. حيث إنَّ النُّور الذي أتى من الغرب سيضيء ويتوهج بشدة بداية القرن الثامن عشر، وسيتألق في القرن التاسع عشر.

وكذلك فإننا نجد أنه بالإضافة إلى إدخال استخدام الحديد والدراجة التي استخدمت كوسيلة للانتقال، فإنَّ الإسبان قد جلبوا معهم إلى العالم الجديد حيوانات جديدة، وخاصة الحصان الذي ربما من دونه لم يكن لينمَّ الغزو. كما أنهم أحضروا معهم أبقاراً، وخرافاً، وخنازير. هذا بالإضافة إلى الأنواع الأخرى من الكلاب والحيوانات الأليفة.

كما أنَّهم أثروا الزراعة بنباتات جديدة مثل: القمح، والعنب، والبن، وقصب السكر، وأشجار التوت، والعديد من أشجار الفاكهة، مثل: التين، والليمون. وهذه الأشجار الجديدة غيرت مجريات الاقتصاد، وأثرت النظام الغذائي في القارة.

(١) رودريجث، ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١٢٤.

وكذلك يعود الفضل للإسبان في إدخال الحديد والاختراعات العظيمة، مثل: البوصلة، والورق، والمطبعة، والحريز، والبارود؛ الأمر الذي أدى إلى توسيع أفق الحضارة في العالم الجديد^(١).

وكانت المدن -منذ وقتٍ غير بعيد- هي مراكز الحضارة، وكانت المدينة في بعض الحضارات الأمريكية الهندية العظيمة هي مراكز السلطة المدنية والعسكرية والدينية، ومن هنا نجد أن الجهود تركّزت على تشييد المعابد والقصور، بينما كان القرويون يعيشون في الأكواخ. ولقد اتبع الإسبان إلى حدٍّ ما العادة نفسها في تشييد المباني، أو إضافة بروزٍ لها، ولاسيما المباني الخاصة بالسلطات الدينية المدنية. ومن جهة أخرى، فقد قاموا بإدخال النظام الإغريقي الروماني على المدينة. وهذا النظام عبارة عن ميدانٍ توجد من حوله الشوارع مرسومةً على هيئة لوح شطرنج، ويوجد المجمع المدني والكنيسة رمزياً في هذا النظام كلّ منها بمواجهة الآخر، حيث يستشعر بنبض المستعمرة؛ إذ إنّه يعدّ المركز الحيويّ للأنشطة المدنية، والعسكرية، والدينية، حيث يمكن مشاهدة الفرق الموسيقية وهي تعزف، وكذلك مشاهدة العروض العسكرية، ومصارعة الثيران، والعروض المسرحية، والمواكب الدينية؛ إذ تجتمع العائلات، والسلطات التي ترتدي أفضل ملابسها.

ومن بين هذه المدن كلها كانت مدينة المكسيك المدينة الرئيسة، فهي تعدّ من أكبر مدن القارة، وأجملها حتّى بدايات القرن التاسع عشر. وكذلك كانت مدينة بوتاسي التي تقع بجوار أغنى منجم فضة في العالم، ومدينة ليما التي تقع على بعد خمسة أميالٍ من المحيط الهادئ، والتي كانت بحقّ تستحقّ اسمها كمدينة للملوك.

(١) رودريجت: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١١٧-١١٨.

وإلى جانب هذه الإسهامات المدنية كانت هناك إسهامات ثقافية، ومن ذلك اللغات اللاتينية (الإسبانية، والبرتغالية) والكتابة بالحروف، أضف إلى ذلك المذهب الكاثوليكي، والفلسفات الجديدة تجاه الموت والحياة، والمفاهيم الجمالية الجديدة في الفنون التشكيلية، والمسموعة والمرئية. فقد أدخلت هذه الإسهامات كلها العالم الجديد إلى الحضارة الدولية، وحياة العالم^(١).

وأخيراً يمكن القول: إنَّ إسبانيا حينما نشرت ثقافتها في العالم الجديد قدّمت كلَّ ما لديها في ذلك الحين، وقد أعطت نظرتها الخاصة لمذهب الإنسانية المادية، والتيار الفكري، كذلك التربية الأرستقراطية والتأملية بدلاً من الرؤية الديمقراطية والتجريبية.

(١) رودريجث، ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١١٨-١١٩.

خاتمة:

إنَّ محصلةً أو نتاج هذا الميراث الثقافي، والسياسي، والاجتماعي، والاقتصادي الإسباني سواءً بجوانبه السلبية أم الإيجابية قد تبدّلت صورته في المناخ الأمريكي الجديد، وذلك باندماجه مع الميراث الأصلي الأمريكي والإفريقي؛ إذ بدأت تُشكّل الثقافة الإسبانية الأمريكية اللاتينية.

إنَّ اندماج العناصر الإسبانية، والهندية، والإفريقية قد خلق فلسفةً مهجّنة، كما خلق أيضاً أسلوباً جديداً للحياة، ولذلك فإنَّ التّهجين في أمريكا اللاتينية يبعد كثيراً عن كونه مجرداً اختلاطٍ جنسيٍّ فقط. وقد بدأ التّهجين في العالم الجديد منذ السنوات الأولى للغزو، وزاد إبان فترة الاستعمار الإسباني، حيث اندمجت عدّة ثقافات متباينة بما ورثته من ثقافة، ومع مضي الوقت فإنَّ محصلة الأفكار والمشاعر الجماعية، والقواعد الأخلاقية لسكان أمريكا اللاتينية وضعت رويداً رويداً قواعد الوعي في القارة.

وهكذا فقد تركّزت خلال فترة الاستعمار الإسباني في أمريكا اللاتينية المظاهر الأولى للكريول أو جموع الإسبان المولودين في العالم الجديد.





الفصل الثامن
حرب الاستقلال الأمريكية



مقدمة:

تأسست ثلاث عشرة ولاية إنكليزية في العالم الجديد في الجزء الشمالي منه، وهو ما يسمى بالولايات المتحدة الأمريكية. وقد امتدت هذه الولايات من الشمال إلى الجنوب محاذية للمحيط الأطلسي فكانت ولاية نيو هيمشير، وولاية ماساتشوستس، وولاية نيويورك، وولاية رود آيلند، وولاية كنكتيك، وولاية بنسلفينيا، وولاية نيو جيرسي، وولاية دالوير، وولاية ماري لاند، وولاية فرجينيا، وولاية نورث كارولينا، وولاية ساوث كارولينا، وولاية جورجيا.

ومن هنا فإن هذه الولايات لم تكن ولايات متجانسة، ولا توجد بينها رابطة طبيعية أو ما يسمى بالوحدة الطبيعية المشتركة. وتظل قضية مهمة جمعت بين هذه الولايات، وهي قضية المواطنة والقانون الجديد في البلاد الجديدة. وصار الأفراد الأوروبيون من الإنكليز، والفرنسيين، والسويديين، والهولنديين، والإيرلنديين يرتبطون معاً برابطة المواطنة، والانتماء للوطن، والأرض. وقد عوض هذا المبدأ النقص الذي اعترى هذه الجماعات من ناحية عدم تجانسها في الأمور الأخرى^(١). كان انتصار الثورة الأمريكية، كما ذكر أحد المؤسسين الأوائل؛ إنما يشبه محاولة جعل ثلاث عشرة ساعة تدق في الوقت نفسه. كانت المستعمرات البريطانية شديدة الاختلاف فيما بينها لدرجة يمكن معها القول بأنه من المفارقات العجيبة أنها وصلت إلى الفكرة نفسها في الوقت نفسه. لقد أنشئت هذه المستعمرات في فترات مختلفة، ولأغراض متنوعة، واستمرت في طريقها نحو الاستقلال في ثلاثة عشر اتجاهًا. لقد كان من الصعب الاتفاق بين سكان ولاية ما من الولايات. وهكذا فقد كان جعل ثلاث عشرة مستعمرة تسلك طريقاً واحدة، يبدو شبه مستحيل. تلك كانت هي المشكلة الرئيسة التي واجهت المستعمرات في حرب الاستقلال.

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٤٩.

ولكن هذا الاختلاف بين المستعمرات اتضح بأنه سلاحها السري في حرب الاستقلال. فإذا كان سكان المستعمرات متناثرين في مساحات شاسعة، وإذا افتقدوا وجود مركز واحد لهم؛ فإن ذلك سبب الاضطراب لأعدائهم، فالمستعمرات كانت كأخطبوط بعدة رؤوس، وكان يمكنها أن تحافظ على بقائها رغم فقدان بعضها. كان ذلك هو الذي أزعج العسكريين الإنكليز، و هو الذي جعل من شبه المستحيلات أن ينتصر الإنكليز في تلك الحرب.

ومع نجاح هذه المستعمرات في حرب الاستقلال، وفي الوقت الذي كانت تظهر فيه أمة جديدة إلى الوجود؛ فإن ذلك التنوع الغريب بين تلك المستعمرات كان من أهم المشكلات التي واجهت بناء أمة واحدة. فكل ولاية جديدة كانت تريد أن تتصرف بوصفها دولة مستقلة لوحدها، وكان من الصعب على هذه الولايات أن ترى ضرورة العمل مجتمعة. ففي السنوات الأولى للاستقلال، وتحت دستور كونفدرالي واحد، كان الأمريكيون يتحسسون طريقهم لكي يعرفوا ماذا يعني أن يكونوا سكاناً لأمة واحدة^(١).

تعد حرب الاستقلال الأمريكية واحدة من أبرز معالم تاريخ القرن الثامن عشر، وأسباب تطور هذه الحرب ليست مرتبطة بالتطورات التي وقعت في المستعمرات الإنكليزية في أمريكا الشمالية أو في أوروبا خلال أزمة حرب السبع سنوات فقط، بل مرتبطة بالطريقة التي بدأ بها الإنكليز عملياتهم الاستعمارية في أمريكا الشمالية^(٢).

(١) النيرب، محمد محمود: المرجع نفسه، ص ٨٣.

(٢) بطريق، عبد الحميد، نوار، عبد العزيز: التاريخ الأوروبي الحديث، ص ٢٦٩.

١ - الأسباب الرئيسية للثورة الأمريكية

أسباب الثورة كثيرة التعقيد، ولكن ذكر العوامل الآتية ربما يساعد على فهم الظروف التي دفعت بالمستعمرات إلى إعلان استقلالها عن البلد الأم:

أولاً- لقد تعودت المستعمرات طوال فترة استعمارها على نوع من الاستقلال والحرية التي لم يتمتع بها سكان إنكلترا نفسها، كما أن إنكلترا طوال نصف قرن من الاستعمار لم تكن جادة في تطبيق قوانين صارمة تجحف بالسكان. وإن مجيء الكثير من المهاجرين إلى القارة الجديدة؛ إنما كان غرضهم البحث عن حياة حرة طليقة. لذلك عندما تغيرت السياسة البريطانية - فيما بعد - عام ١٧٦٣ م، واتجهت في تطبيق القوانين؛ خصوصاً تلك الخاصة بضرورة إسهام المستعمرات في نفقات الحرب مع فرنسا، ولم يكن السكان على استعداد أن يتقبلوا مثل هذه القوانين لعدم تعودهم عليها، حتى إن حزب (الوجز) البريطاني نفسه كان يعارض في تطبيق هذه السياسة.

ثانياً- سياسة إنكلترا الجديدة هددت مصلحة فئات عديدة من السكان، مثل: تجار الفراء، والمستوطنون، والصناع، والعمال، ومضاربو الأرض، ثم البروتستانت، ثم سببت عداوة هؤلاء - بما لهم من نفوذ محلي - ودفعت إلى أن يتكاتف الجميع منهم لمقاومة هذه السياسة بالقوة.

ثالثاً- ربما كان التوقيت الذي أعلنت فيه السياسة الجديدة هو الدافع إلى ظهور المقاومة لها. ففي عام ١٧٦٣م كانت المستعمرات تشعر بنوع من الاستقلال الذاتي والثقة بالنفس؛ إذ نظرت إلى السياسة الجديدة على أنها تخالف أي سياسة سابقة لإنكلترا في أمريكا.

رابعاً- الخلاف الدستوري حول وضع المستعمرات الأمريكية داخل الإمبراطورية البريطانية. إن السكان رفضوا قبول فكرة التمثيل بالتبعية أو إنهم جزء ثانوي داخل الإمبراطورية.

خامساً- العامل الديني كان له أثر قوي في إعلان الاستقلال. فكثير من المهاجرين كانوا من المتطرفين البروتستانت الذين هربوا من الاضطهاد الديني في أوروبا؛ ساعين وراء إيجاد حرية دينية أفضل في العالم الجديد، ولذلك فإنهم رأوا أن السياسة الجديدة؛ إنما هي إنذار لهم بأن إنكلترا ربما تريد في المستقبل أن تدعم وجود الكنيسة الأنجليكانية (القريبة من الكاثوليك) شرعياً في أمريكا؛ بتعيين بيشوب أنجليكاني لها.

سادساً- العامل النفسي؛ وهذا يتمثل في أنه كان لموظفي الإمبراطورية البريطانية ميزات، ومكانة تختلف عن الأمريكيين. وهكذا فقد حسد الأمريكيون هؤلاء الموظفين على وضعهم، ولم يتقبلوا فكرة تمثيلهم طبقة ثانوية.

سابعاً - كان السكان الذين جاؤوا من إنكلترا نفسها لم يزدوا على النثلث من مجموع سكان المستعمرات، وبالتدريج فإن سكان العالم الجديد سرعان ما أصبحوا مجتمعاً وقومية مختلفة عن تلك التي يتمتع بها أولئك في الوطن الأم. وحتى الذين كانوا من أصل بريطاني سرعان ما انصهروا في البوتقة الجديدة، كما أنه يجب عدم نسيان حقيقة أن البعد الجغرافي كان عاملاً مشتركاً في حركات الاستقلال كلها التي قامت في المناطق الاستعمارية.

ثامناً- كانت فلسفة جون لوك التي تؤمن بحريات الإنسان الطبيعية، وبحقه في الثورة ضد الحاكم إذا لم يراع هذا مصلحة المحكومين، هي الفكرة الأساسية التي أخذتها المستعمرات تعليلاً لضرورة إعلان استقلالها.

تاسعاً- إيمان قسم كبير من السكان بإمكانية الاستقلال. و شجعهم المستقبل الزاهر على المضي في طريقهم، ولاسيما أن القارة الأمريكية واسعة الأراضي، وغنية، بينما إنكلترا نفسها لم تكن إلا جزيرة صغيرة فقيرة في مواردها الطبيعية. كما أنه وجد الأمل الكبير في إيجاد حليف أجنبي يساعد المستعمرات ضد إنكلترا،

وهكذا فلم تكن الثورة عملاً يائساً لجأ إليه السكان بعد إخفاق وسائل أخرى؛ وإنما كانت عملاً مختاراً تشوبه الآمال الكبيرة بالنجاح. كان استقلالاً له أوانه، وسواء عاجلاً أم آجلاً، فإن تلك المستعمرات كان يمكن أن تحصل على استقلالها، ولكن وسيلة الاستقلال التي اتبعتها المستعمرات - الكفاح المسلح - كما اتبعت إنكلترا ذلك مع كثير من مستعمراتها في الإمبراطورية، وأصبحت هذه - فيما بعد - ضمن ما سمي (بالكومنولث). لكن الوسيلة كانت مختلفة باتباعها طريق الكفاح المسلح^(١).

(١) النيرب، محمد محمود: المدخل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٩٣-٩٤.

٢- التحرك نحو الاستقلال:

أ- ضريبة الدمغة (الطابع)^(١)

بعد النصر الإنكليزي على الفرنسيين، ومع تحقيق الهدف الأول للتاج الإنكليزي، حاولت الحكومة تسوية العلاقات بين التاج، والمستعمرات تسوية جوهريّة؛ وتبلور ذلك الاتجاه بشكل واضح في عهد الملك جورج الثالث منذ سنة ١٧٦٠م، ولاسيما بعدما كشفتته حرب السنوات السبع من ضعف الرابطة بين إنكلترا، ومستعمراتها من حيث عدم اهتمام الأمريكيين كثيراً بتلك الحرب الدائرة على أراضيهم؛ لا بموقف الإنكليز ولا بموقف الفرنسيين، حتى إنهم أحياناً استمروا في تجارتهم مع الفرنسيين هناك^(٢).

ولكن الملك تشبث بحقوق السيادة المطلقة على المستعمرات، ومن أبرز مظاهر هذه السيادة فرض الضرائب. بدأت ملامح حرب الاستقلال الأمريكية تظهر عندما فرضت الحكومة الإنكليزية ضريبة عُرفت بضريبة الدمغة (رسوم الطوابع) سنة ١٧٦٥م، فواجهت الحكومة مقاومة شديدة من جانب المستعمرين الذين تمسكوا بحقوقهم في فرض الضرائب وتحديدها^(٣). وهكذا فقد قامت الجماهير

(١) ضريبة الدمغة: وهي مجموعة رسوم فرضتها حكومة جرنفيل الإنكليزية على الصحف، والكراريس، والمستندات القانونية وغيرها، وهذه الضريبة كانت بهدف إعالة الجيوش الإنكليزية بتقديم الوقود، ومصادر الإنارة، ومعدات النوم، وأواني الطهي، والمأوى. انظر: عمر عبد العزيز عمر: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٢، ص ٣٤١.

(٢) نوار، عبد العزيز، جمال الدين، محمود محمد: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٥١.

(٣) فرضت على المستعمرات الإنكليزية مجموعة من الضرائب سبقت ضريبة الطابع، ومن أهم هذه الضرائب: ضريبة السكر سنة ١٧٦٤م، وبموجبه فرضت ضرائب جمركية على البضائع=

بأعمال شغب في جهات متعددة من المستعمرات، وقام ما سموا (بأبناء الحرية) بأعمال التهديد، وحرق هذه الطوابع، وأجبروا موظفي الطوابع على الاستقالة^(١). وجاءت المعارضة الشديدة لقانون الطابع لسببين رئيسيين، الأول دستوري - ومؤداه أن الأمريكيين يرون أنه لا يحق للبرلمان الإنكليزي أن يفرض عليهم ضرائب مادام أنهم غير ممثلين فيه، وهو مبدأ برلماني إنكليزي قديم ينص على أن الضرائب لا تُفرض إلا بموافقة الشعب ممثلاً بنوابه، والسبب الثاني - كون تلك الضريبة لمصلحة الدفاع عن المستعمرات، ومنها: إحكام الرقابة على حركة الملاحة، والتهريب، ومن ثم تقوية الرقابة الجمركية والمالية؛ وهو أمر سيحقق المبدأ التجاري القاضي بجعل الاقتصاد الأمريكي متماً للإنكليزي، وفي هذا ضرر كبير لمصلحة رجال الأعمال، والتجارة في المستعمرات^(٢). وقد أدت المقاومة إلى انعقاد مؤتمر في نيويورك اشتركت به تسع ولايات سنة ١٧٦٥م، وقامت بمطالبة الحكومة الإنكليزية بإلغاء القانون. وبعد انصياح الحكومة لمطالب السكان ألغت ضريبة الدمغة إلا أنها تمسكت بحق برلمان لندن في أن يفرض الضرائب^(٣).

=الواردة من المناطق الإنكليزية، كما كان يقضي بعدم استيراد العسل الأسود إلا من المناطق الخاضعة للسيطرة الإنكليزية. ومن ثم فقد فرضت الضرائب على العسل، والنبذ، والحرير، والبن، وعدد من المنتجات الواردة من مناطق أخرى؛ إضافة إلى قانون مساكن المستعمرات الذي نصَّ على مسؤولية المستوطنين عن إعداد أماكن لإيواء القوات الملكية التي فرض عليها أن تكون مسؤولة عن حماية الحدود الغربية ضد هجمات الهنود؛ ولحفظ الأمن. انظر: نوار، عبد العزيز، جمال الدين، محمود محمد: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٥٢-٥٣.

(١) محمد محمود النيرب: المدخل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٨٦.

(٢) عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٥٤.

(٣) عبد الحميد بطريق، عبد العزيز نوار: التاريخ الأوروبي الحديث، ص ٢٧٤.

ب- فترة الهدوء النسبي (١٧٧٠-١٧٧٣م):

جاء روكنجهم رئيساً للوزراء بعد جرنفيل، وقد اتبع هذا سياسة المصلحة مع المستعمرات؛ مما دفع بالملك البريطاني إلى معارضته، واتهموه بمخالفة سكان المستعمرات على حساب مصلحتهم، وهكذا أجبروه على الاستقالة، وجاء بعده تاونشند رئيساً للوزراء الذي عزم على مواجهة مشكلة الضرائب في المستعمرات، وأمر تاونشند مستعمرة نيويورك بحل المجلس التشريعي فيها الذي رفض الموافقة على قانون الإسكان؛ حتى يجعل منهم عبرة لبقية المستعمرات حتى لا يجلب سخط المستعمرات كلياً. كما لقد قرر تاونشند فرض الضرائب على استيراد الزجاج، والرصاص، والورق، والدهان والشاي. وكانت هذه الضرائب مقبولة من قبل السكان، كما أوجد إدارة جديدة للجمارك وأعطاهم السلطة القانونية الكافية لمنع حوادث التهريب بأي حال من الأحوال.

ونتيجة للضرائب الجديدة قام التجار في بوسطن بإعلان مقاطعتهم للواردات البريطانية، وأيد كثير من المستعمرات هذا العمل. وفي بوسطن، تزعم حركة الاحتجاج هذه شخص يدعى صمويل آدمز الذي أقنع المجلس التشريعي في بوسطن بأن يعلن ما يسمى (بالرسالة الموزعة) التي عارض المجلس بمقتضاها حق البرلمان في فرض الضرائب على المستعمرات. وفي بنسلفانيا تزعم مثل هذه الحركة شخص يدعى جون دكنسون في كتاباته (رسائل من مزارع). لقد اعترف السكان في المستعمرات بحق البرلمان البريطاني، وأشعل آدمز عواطف الجماهير باختلاقه الأكاذيب ضد قوات الحامية البريطانية في بوسطن. وعندما هاجمت الجماهير القوات البريطانية هناك (كان يطلق عليها المستعمرون اسم أصحاب المعاطف الحمراء)، فقد قام الجنود بإطلاق النار عليها؛ مما أدى إلى إصابة بعضهم، وموتهم. وحتى يزيد من إشعال عواطف الجماهير، اتخذ من هذا الحادث ذريعة لزيادة هجومه، وسمي الحادث (مذبحة بوسطن ١٧٧٠ م)، ومع أن وزارة

اللورد نورث قد أوصت بتطبيق هذه القوانين، إلا أن البرلمان لم يوافق عليها، ونقضها جميعاً ماعدا الضريبة على الشاي. وهكذا شعر سكان المستعمرات بأنهم قد حازوا على انتصارهم الثاني.

بعد نقض قوانين تاونشند، ساد المستعمرات هدوء نسبي؛ مما أدى إلى تحسين الأحوال الاقتصادية. لقد حُرّ هذا الهدوء النسبي في نفوس المتطرفين - من أمثال جون آدمز - الذين كانوا يتوقون نحو الاستقلال التام عن بريطانيا، ومع أنهم لم يجرؤوا على المطالبة العلنية بذلك، إلا أنهم نجحوا في إبقاء شعلة المعارضة، حيث نظموا في ١٧٧٢ م ما سمّوه بلجان المراسلة في أنحاء المستعمرات كلها، وكان الغرض منها الدعاية ضد الحكومة الإنكليزية المبالغة في التركيز على أخطاء البريطانيين، بالدفاع عما سموه بحق المستعمرات.

في ١٧٧٢ م قام مهربو رود آيلند بحرق سفينة المراقبة البريطانية، وفي شمال غرب مستعمرة كارولينا الشمالية، ظهرت حرب أهلية صغيرة؛ حيث قام رجال الحدود بالاحتجاج الشديد ضد أعمال حاكم المستعمرة نترفون، بغرض ما سموه بضرائب باهظة، وسوء المحاكم، وقلة التمثيل. كل هذه الأعمال يقال بأنها كانت نتيجة تحريض من طبقة التجار. وفي بنسلفانيا قامت حركة باكستون بويز. وذلك بالاحتجاج على إهمال الحكومة لحماية السكان من الهنود الحمر. كانت هذه الحركات الغربية تمثيلاً للإجحاف الذي مر به سكان هذه المناطق ضد الطبقات العليا الحاكمة على ساحل الأطلسي^(١).

(١) محمد محمود النيرب: المدخل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٨٧-٨٨.

ج- حفلة شاي بوسطن (١٧٧٣م):

بموت تاونشند، آلت السياسة الإنكليزية إلى خلفه نورث الذي سنَّ قانوناً جديداً سُمي بقانون الشاي بغرض إنقاذ شركة الهند الشرقية من الإفلاس، حيث منحت الشركة بمقتضى هذا القانون حق تصدير الشاي إلى المستعمرات البريطانية، وكانت الشركة في الوقت نفسه معفاة من دفع أي ضريبة على التصدير، ما عدا ضريبة اسمية صغيرة تحت قانون تاونشند. لقد مكن القانون الجديد الشركة من بيع الشاي بأسعار أرخص حتى من أسعار المهربين، ومن ثم أصبحت هذه الشركة تحتكر تجارة الشاي مع المستعمرات، ولم يكن هذا احتكاراً فحسب؛ ولكنه كان احتكاراً لمصلحة شركة إنكليزية بحتة.

وعندما شعر تجار الشاي بأن هذا يشكل خطراً على مستقبل تجارتهم، بدؤوا يميلون إلى تأييد المتطرفين في المستعمرات، وقاموا بتشجيع الآخرين على منع تفرغ الشاي في الموانئ، وفي بوسطن كان صمويل آدمز وجماعته المتطرفة مسؤولين عن تنظيم ما سمي (بحفلة شاي بوسطن ١٧٧٣ م)، وتبع ذلك موائى أخرى في المستعمرات، حيث قام المتطرفون بإغراق الشاي في البحر، كما شجعوا المستهلكين على استعمال القهوة والشوكولاتة بدلاً من الشاي^(١).

وأمام هذا الوضع قرر اللورد نورث رئيس الوزراء، والملك جورج الثالث اتخاذ سياسة حازمة تجاه ماستشوستس على الأخص - التي قادت المستعمرات الأخرى في التنكيل ضد الحكومة الإنكليزية. تقتضي هذه السياسة تنفيذ أربع مقررات وافق عليها البرلمان البريطاني، وهي: إغلاق ميناء بوسطن حتى يدفع

(١) عبد المجيد نعنعي: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٨٣، ص ٧٤-٧٥. وانظر أيضاً: عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٥٧-٥٨.

الأهالي تعويضاً للبضاعة التي خسرت؛ وتخفيض سلطات المجلس التشريعي في ماستشوستس؛ وعدم محاكمة المتهمين من موظفي الحكومة الإنكليزية داخل المستعمرة، وأخيراً إرغام المجلس التشريعي على تهيئة المأوي، والمأكل للحامية الإنكليزية هناك^(١).

د - المؤتمر القاري الأول:

قرر الأمريكيون مجابهة الحكومة البريطانية، فاجتمعوا في مدينة فيلادلفيا في ولاية بنسلفانيا، وعقدوا مؤتمراً فيها عرف بالمؤتمر القاري أو ما يسمى بمؤتمر فيلادلفيا عام ١٧٧٤م. وقرر المجتمعون مقاطعة البضائع البريطانية، وقرروا فرض هذا على الأمريكيين جميعهم بالقوة بواسطة ممثلين محليين لهيئة المؤتمر. وأعلنوا أن أي اعتداء على أي ولاية من قبل السلطة البريطانية يعد اعتداءً موجهاً ضد الولايات الأمريكية جميعها؛ الممثلة في المؤتمر. واحتجوا على الأعمال الجائرة التي قامت، وتقوم بها الحكومة البريطانية ضد مدينة بوسطن^(٢).

وهكذا فبدلاً من أن يؤدي القانون إلى تأديب ماستشوستس - كما أرادت الحكومة الإنكليزية - فإنه دفع إلى تكوين ممثلين مختارين من المجالس التشريعية في المستعمرات للاجتماع لحسم الأمور المتفاقمة مع البريطانيين^(٣). وقد حضر المؤتمر أعضاء من الولايات جميعها باستثناء ولاية جورجيا التي لم تحضر

(١) عُرِفَت هذه القرارات باسم القوانين الإلزامية التي صدرت سنة ١٧٧٤م. انظر: محمد محمود

النيرب: المرجع نفسه، ص ٨٨.

(٢) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٥٣.

(٣) عبد المجيد نعنعي: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، ص ٧٧.

المؤتمر. وكان من بين الأعضاء: جورج واشنطن^(١)، وجون آدمز، وبنيامين فرانكلن^(٢) وغيرهم^(٣).

كان عدد المتطرفين في هذا المؤتمر يفوق بكثير عدد المعتدلين. وقد وافق المؤتمر على القرارات الآتية :

♦ قرارات سفولك؛ حيث رفض - فيها - المؤتمر الاعتراف بشرعية القوانين الإلزامية، وقانون كيبك^(٤).

(١) جورج واشنطن: شاب من ولاية فرجينيا لمع اسمه خلال حرب السبع سنوات، عُرف بشجاعته، واتزانته، وكفائته الإدارية.

(٢) بنيامين فرانكلين (١٧٠٦م-١٧٩٠م): وهو من أبناء بوسطن، اشتغل بالطباعة، واهتم بعلم الأخلاق، وكان عالماً، ومخترعاً، وسياسياً بارعاً. نجح في الظهور بمظهر البطل أمام الرأي العام الفرنسي والعالمي لما اتصف به من خلق رفيع، وذكاء نادر، وسياسة حكيمة. فهو لم يشبه فولتير ولا روسو من حيث المناداة ببعض المبادئ؛ فولتير رغم ما اتصف به من الحكمة والنزاهة لم يكن مستقيماً، وكثيراً ما أثار الرأي العام بحوادث منازعاته، وبؤسه، ومصائبه. كما كان روسو الذي أحبه الناس لاهتمامه بالفرد، ولم يكن مصيباً في الكثير من آرائه، كما كان يعيش عيشة غريبة غير مستقرة، بينما كان فرانكلين فيلسوفاً حقاً، فقد اتصف بالاستقامة والحكمة في بساطة وصدق؛ مما حجب النفوس إليه؛ لتعلقه بالمثل العليا في غيرة وتعصب، وكانت تتسلط عليه فكرة واحدة وهي الدفاع عن قضية ذلك الشعب الذي كان ينتمي إليه، وكان يعمل على حريته. انظر: جرانت، أ. ج.، تمبرلي، هارولد: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩م-١٩٥٠م، ترجمة بهاء فتحي، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، ط٦، القاهرة ١٩٥٠، ص ٣٤. وانظر أيضاً: عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ٦ أجزاء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٥، ج ٤، ص ٤٨٧.

(٣) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٥٤.

(٤) قانون كيبك: كان هذا القانون خاصاً بالرعايا الفرنسيين الذين أصبحوا تحت الحكم البريطاني بعد هزيمة فرنسا، وقد سن البرلمان البريطاني هذا القانون حيث يقضي بمد حدود منطقة كويبك لتشمل المنطقة شمال الأوهايو وشرق نهر المسيسيبي؛ واعترف بشرعية الكنيسة الكاثوليكية في =

♦ إعلان (حقوقهم وشكواهم) ضد الحكومة البريطانية، حيث طالبوا بإلغاء القوانين التشريعية التعسفية كلها التي أقرتها الحكومة منذ سنة ١٧٦٣ م، وبذلك فقد أبرزوا فكرة النظرية السياسية الأمريكية التي بمقتضاها عارضوا حق البرلمان البريطاني في فرض ضرائب على المستعمرات (لا ضريبة دون تمثيل).

♦ تكوين لجنة قارية يكون من شأنها تنظيم المقاطعة ضد التجارة البريطانية.

♦ وأخيراً، رفض المؤتمر الموافقة على ما يسمى (بخطة جالوي) التي اقترحها بعض المعتدلين ، حيث طالبوا فيها بتكوين اتحاد مع بريطانيا على أساس تكوين برلمان واحد للمستعمرات البريطانية تكون له سلطات تشريعية في المستعمرات كلها مع ضرورة موافقة البرلمان البريطاني على قرارات هذا البرلمان^(١).

= كل كويك، كما أعطى الرعايا الكاثوليك حقوقهم السياسية. سبب هذا القانون عداوة البروتستانت الأمريكيين؛ لأنهم ظنوا أنه ربما يكون خطوة أولى نحو تدعيم شرعية الكنيسة الأنجليكانية التي تختلف قليلاً عن الكاثوليكية في أمريكا ضد حقوق البروتستانت، كما اعترف القانون بحرية العبادة للكاثوليك، مع السماح بتطبيق القانون المدني الفرنسي عليهم - ذلك القانون لم ينص على ضرورة استخدام المحلفين، كما هو الحال في القانون المدني البريطاني. وهكذا فقد أحس مضاربو الأراضي بأن القانون سيمنع نشاطهم في المناطق الغربية، كما أن تجار الفراء كانوا يخشون من سلطة الموظفين البريطانيين الموجودين في مونتريال. انظر: محمد محمود النيرب: المرجع نفسه، ص ٨٩. وانظر أيضاً: عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٥٧.

^(١) عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٥٨. وانظر أيضاً: عبد الفتاح إسماعيل أبو عليّة، أحمد ياغي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ص ٢٢٧-٢٢٨.

وتظل مسألة مهمة وهي أن المؤتمرين في مؤتمر فيلادلفيا، -وعلى رأسهم جورج واشنطن- لم يدر في خلدكم فكرة الانفصال عن الحكومة الأم إذا قبلت بالمقررات التي يطالب بها المؤتمرين والتي يُعدونها نوعاً من أنواع المحافظة على حقوق الحرية. وقد ركزت مطالبهم على وثيقة إعلان الحقوق، وهي على نمط قانون ملتمس الحقوق^(١) الذي صدر في إنكلترا من أجل أن يحد من السلطة المطلقة فيها وهو عهد جديد يعترف للأمة الإنكليزية بحقوقها منذ قيام العهد الأعظم عام ١٢١٥م. عُدَّت وثائق ملتمس الحقوق الإنكليزية من أهم وثائق التاريخ الإنكليزي، وبالمقابل عدَّ الأمريكيون قانون الحقوق الذي صدر عن مؤتمرهم هذا من أهم وثائق التاريخ الأمريكي. وقرر المؤتمرين كذلك أن يجتمعوا ثانية في مدينة فيلادلفيا في أيار من العام القادم ١٧٧٥م، على أن تقدم الدعوة للكنديين لحضوره كي يصوغ الجميع عريضة ترفع إلى الملك الإنكليزي، والشعب الإنكليزي كنداء موجه لهم يطلبون منهم رفع الظلم عنهم، وإلغاء الإجراءات الطائشة التي تضر بالعلاقات الودية بينهما^(٢).

(١) وتعرف هذه الوثيقة بأنها واحدة من أهم الدعايم التي تقوم عليها الديمقراطية والحياة الدستورية في إنكلترا. كما تُعد من أهم الوثائق في التاريخ الإنكليزي. وضمت وثيقة ملتمس الحقوق مجموعة من المطالب، أهمها:

١. ألا تفرض جباية القروض، والضرائب، والتهبات من دون موافقة البرلمان.
٢. ألا يسجن أحد من الرعية سجنًا تعسفيًا، ولا يعامل إلا بمقتضى قوانين البلاد.
٣. ألا يجبر الشعب على إيواء الجند، والبحارة في منازل المواطنين أو استضافتهم بأي حال من الأحوال. انظر: عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين: التاريخ الأوروبي الحديث، ص ٢٠٧.

(٢) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٥٤.

٣- المؤتمر القاري الثاني سنة ١٧٧٥م:

بالرغم من الاحتجاجات الأمريكية استمرت الحكومة الإنكليزية في سياستها، وأرسلت قوات عسكرية جديدة إلى بوسطن في الوقت الذي أخذت فيه الولايات الأمريكية تعد قواتها المحلية لمقاومة القوات الإنكليزية، ولتكون سنداً للولايات الأمريكية في حركة استقلالها عن الوطن الأم.

ثم عقدت الولايات الأمريكية مؤتمراً ثانياً في فيلادلفيا في ١٠ أيار ١٧٧٥م، ومن أهم ما جاء فيه من قرارات:

- ♦ إنشاء جيش موحد من الولايات المشتركة في المؤتمر.
- ♦ إرسال التماس إلى الملك جورج يطالبون فيه إعادة النظر في الإجراءات التعسفية ضد ولاياتهم؛ وخاصة ضد الأعمال التعسفية في مدينة بوسطن. وكان هذا الالتماس بمنزلة الحل الأخير للوصول إلى تفاهم مع الملك الإنكليزي يحصلون بواسطته على حل وسط يرضون به، ويرضى به الملك، وحكومته^(١).

وقد وجد المؤتمر نفسه يسير تحت وطأة الأحداث نحو مواقف عنيفة، فبالرغم من أن أعضائه طالبوا الملك بإعادة السلم، إلا أنهم على كل حال اضطروا لتبني الجيش المحارب حول بوسطن، وعدوه جيشاً أمريكياً يخص المستعمرات كلها لا واحدة منها. وقد عينوا لقيادته جورج واشنطن.

ورغم تكوين الجيش الوطني، واستمرار الحرب الفعلية فإن أكثرية الأمريكيين ظلت معادية لفكرة الانفصال عن التاج البريطاني. وكان المعتدلون يجدون تسويغاً لتصرفاتهم المتناقضة بأنهم كانوا في حرب ضد الحكومة البريطانية وليس ضد الملك، إلا أنهم مع الوقت أخذوا يجدون صعوبة في الاستمرار في وضعهم

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، أحمد ياغي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ص ٢٢٧.

المتناقض، ولا سيما أن إنكلترا لم تحاول أن تصل إلى اتفاق معهم، كما أصدر الملك جورج في ٢٣ آب سنة ١٧٧٥م تصريحاً أعلن فيه أن المستعمرات في حالة عصيان^(١).

وعندما بدأ الأمريكيون الحرب مارسوها بوصفهم إنكليزاً يعملون للدفاع عن حقوق تقليدية لهم تحاول حكومة لندن سلبهم إياها؛ بل إنه حينما تسلم جورج واشنطن قيادة الجيوش الأمريكية كانت فكرة الاستقلال تبدو له "فكرة مريعة" كما كان يقول، إلا أن أحداثاً كبيرة جرت في البلاد بعد سنة ١٧٧٥م أخذت تجعل زعماء البلاد يتجهون بها نحو الاستقلال بكثير من التردد والخوف؛ ذلك أن الفكرة الوطنية لم تكن قد شملت غير جزء من السكان وليس كل السكان الذين كانوا منقسمين حيال الموقف الواجب اتخاذه تجاه الإنكليز.

وبصورة عامة، نجد أن فئة الوطنيين كانت تضم في غالبيتها أبناء الطبقات الدنيا والمتنفة، بينما كانت فئة الموالين للوطن الأم إنكلترا تضم القسم الأكبر من الملاك والأثرياء. وكان هناك فئة ثالثة ضمت حوالي ثلث السكان لم تأخذ موقفاً محدداً؛ وإنما كانت تفضل الانتظار قبل أن تحدد موقفها.

إن الفئة الوطنية، والمؤيدة للانفصال كانت أقلية بين السكان، إلا أنها كانت تتميز بحيويتها ونشاطها، وبخبرة من الزعماء المخلصين، وذوي الأفكار الواضحة في مقدماتها. وهذا ما ساعد على أن تُجر البلاد كلها إلى المصير الذي أرادته هي. لقد عمل هؤلاء، بعد المؤتمر القاري الثاني، بكثير من الحذر والحيلة على تهيئة الرأي العام لتقبل فكرة الانفصال، وجعل الناس يفكرون في الاستقلال بوصفه مخرجاً وحيداً لأزمته. وقد ساعدتهم عوامل كثيرة، من أبرزها:

(١) عبد المجيد نعنعي: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، ص ٧٨-٧٩. وانظر أيضاً: عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٦٠.

- ♦ صدور كتاب "الإدراك" للتاجر الإنكليزي توماس باين^(١) في ١٠ كانون الثاني ١٧٧٦م، والمعروف عنه تأييده لفكرة الاستقلال، حاول أن يظهر فيه للأمريكيين أن بإمكانهم أن يحكموا أنفسهم إذا استقلوا بأفضل مما فعله حكومة لندن. وأن بإمكانهم إقامة حكومة متحررة من ظلم ملك أوروبي. وقد لقي هذا الكتاب رواجاً كبيراً، وبيع منه أكثر من مئة ألف نسخة، وكان له أثر كبير في إقناع المترددين في السير نحو الاستقلال.
- ♦ بما أن الحرب الأمريكية لم تلقَ تأييداً من عامة الشعب الإنكليزي، فإن حكومة لندن أخذت تجد صعوبة كبيرة في جمع المتطوعين لإرسالهم إلى المستعمرات؛ مما جعل الملك جورج الثالث يلجأ إلى الجنود المرتزقة من الألمان، فاستأجر من أمير مقاطعة هس الألمانية حوالي عشرين ألف جندي أرسلهم لمحاربة الأمريكيين. وقد أساء هذا التصرف إلى سمعة الملك بدرجة كبيرة.
- ♦ تصلب موقف حكومة لندن المتزايد تجاه المستعمرات؛ ذلك أن آخر ملتصم للسلام أرسله المؤتمر إلى الملك مع رسول خاص لقي تجاهلاً تاماً؛ بل إن الملك رفض مقابلة الرسول^(٢).

(١) توماس باين: وهو من كبار رجال الثورة، كان تاجراً إنكليزياً، هاجر، واستقر في فيلادلفيا عام ١٧٧٤م، عُرف بأنه من أشهر المنادين بالاستقلال التام عن بريطانيا العظمى. وكان كاتباً فصيحاً يكره الملكية إلى حد كبير، وقد بينَ في كتابه (الإدراك) التناقض التام في وضع الأمريكيين. فهم يقاتلون جيوش الملك من ناحية، ويرجون الصلح من ناحية أخرى. فكان ينادي "إنكلترا للإنكليز، وأمريكا لنفسها". انظر: عمر عبد العزيز عمر: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص ٣٤٩.

(٢) عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٦٠-٦١. وأيضاً: عبد المجيد نعنعي: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، ص ٨٠-٨١.

٤- إعلان الاستقلال^(١) ٢ تموز ١٧٧٦م:

في تموز سنة ١٧٧٦م تقدم الزعيم لي (Lee) من فرجينيا إلى أعضاء المؤتمر القاري (الكونغرس) باقتراح يدعو المستعمرات لأن تكون دولاً حرة مستقلة. ولقد لقي هذا الاقتراح تأييداً عاماً؛ فشكّلت لجنة من خمسة زعماء من أهمهم (فرانكلين، وجيفرسون، وأدمز) مهمتها إعداد وثيقة الاستقلال، وفي الثاني من تموز أقرت الوثيقة التي أعدها جيفرسون بعد إدخال تعديلات عديدة عليها من قبل الكونغرس، ثم أعلنت بشكل نهائي في الرابع من تموز موضحة للعالم ولادة أمة جديدة مستقلة.

وقد أبرزت هذه الوثيقة للعالم الأسباب التي دعت الأمريكيين للانفصال عن العرش الإنكليزي، وحددت الخطوط الرئيسة للمعتقدات السياسية عند الأمريكيين:

- ♦ إن البشر خلقوا متساويين، وإنهم منحوا من قبل خالقهم حقوقاً ثابتة من بينها حق الحياة والحرية والبحث عن السعادة.
- ♦ إن الحكومات تنشأ للمحافظة على هذه الحقوق، وهي تستمد سلطتها العادلة من موافقة المحكومين. فعندما تسيء الدولة استخدام سلطتها يحق للشعب أن يبدلها أو يلغيها أو يستبدل بها حكومة أخرى تقوم على الأسس التي تبدو له أكثر موافقة لتأمين سلامته وسعادته.

^(١)قوى صدور هذا الإعلان مركز المتطرفين في المستعمرات. وتجدر الإشارة إلى أن السكان كانوا قد انقسموا قسمين: ما سمي (بالوطنيين) الذين آمنوا بضرورة حمل السلاح للدفاع عن الاستقلال، وما سمي (بالمخلصين) أولئك الذين مازالوا يريدون الوصول إلى طريقة سلمية بالتسوية أو المصالحة مع إنكلترا، وبإعلان ضرورة الكفاح المسلح من أجل الحصول على الاستقلال. انظر: محمد محمود النيرب: المدخل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٩١.

وبصورة عامة، فإن وثيقة الاستقلال حملت في طياتها بذور الفكر الديمقراطي، وأكدت المبدأ الذي طالما نادى به رواد الفكر التحرري في أوروبا. وهو أن الدولة وجدت لخدمة الشعب، وأنها إنما تستمد سلطتها منه. وأن مسوغ وجود الدولة يزول متى انحازت هي عن مهمتها الأساسية وهي العمل لخير محكوميهها. ولعل أفكار لوك، وروسو، ومونتسكيو تبدو إلى حد كبير السند الأيديولوجي، والفلسفي لكثير من مبادئ وثيقة إعلان الاستقلال^(١).

استمر نضال الثوار الأمريكيين ضد الجيوش الملكية الإنكليزية ست سنوات^(٢)، وشملت المعارك المستعمرات الأمريكية جميعها. وبالرغم من الظروف القاسية صمدت قوات الثورة أمام القوات الإنكليزية. فقد هزم جورج واشنطن القائد الإنكليزي بورجوين، وقواته عند مزرعة فريمان، واضطره إلى التسليم عند ساراتوجا "Saratoga" في أثناء محاولته التقدم من كندا نحو مدينة نيويورك. ونتج عن موقعة ساراتوجا عدة نتائج مهمة، نذكر منها:

١. انتشرت حركة القوات الحكومية التي خطط لها أن تتوجه إلى مدينة نيويورك، ومنها إلى مدينة فيلادلفيا المركز الرئيس للقيادة السياسية للولايات أو المركز الرئيس للكونجرس.
٢. أعلنت فرنسا دخول الحرب إلى جانب الثوار الأمريكيين. وكانت فرنسا قبل هذه الموقعة تساعد الأمريكيين سراً خشية نشوب الحرب بينها وبين بريطانيا، حتى أن أكثر الأسلحة التي استخدمها جورج واشنطن وقواته في هذه الموقعة كانت من فرنسا.

(١) عبد المجيد نعنعي: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، ص ٨١-٨٢.

(٢) للتوسع في معارك الثورة الأمريكية انظر: عمر عبد العزيز عمر: دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص ٣٥٠-٣٥٣.

٣. أعلنت إسبانيا الحرب ضد بريطانيا، ووقفت إلى جانب الثوار، واعترفت باستقلالهم. وكان إعلان الحرب على الإمبراطورية البريطانية من قبل كل من فرنسا وإسبانيا قد عطل المواصلات البحرية تعطيلاً بالغاً، وكانت إسبانيا ترجو من عملها هذا طرد بريطانيا من جبل طارق من جهة، وإضعاف خطرهما في بلدان أمريكا الجنوبية من جهة أخرى. والجدير بالذكر أن إسبانيا كانت لا تخشى الولايات المتحدة بالقدر الذي تخشاه من بريطانيا.

٤. اعترفت فرنسا رسمياً باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية في ٦ شباط ١٧٧٨م بعد هزيمة بورجين في سارتوجا، ودخلت معها في حلف عسكري ضد بريطانيا.

٥. واعترفت هولندا باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، وأخذت تساعدها في حربها ضد بريطانيا؛ مما أضطر الحكومة البريطانية أن تعلن الحرب على هولندا كما أعلنته على فرنسا وإسبانيا من قبل.

٦. زاد عطف الرأي العام الأوروبي على الثوار الأمريكيين، وعلى ثورتهم، وكانوا بذلك يشكلون ضغطاً قوياً على حكوماتهم من أجل مساعدة الثوار على أخذ حريتهم من بريطانيا^(١).

ارتفعت معنويات الثوار الأمريكيين بعد الانتصارات المتلاحقة على قوات الحكومة الإنكليزية. فالأمريكيون جماعة تحارب على أرضها، وتعرف المناطق والتضاريس. وتتلقى الإمدادات بشكل سريع، ومدعومة من قوة الشعب، ويتحلى رجال قواتها بالعزيمة الأكيدة عندما قرروا التخلص من الحكومة الأم.

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٦٠-٦١.

وكان الجنود الإنكليز يحاربون في مستعمرات تابعة لبلادهم، وتبعد عنها آلاف الكيلومترات، فالمواصلات مع بلادهم صعبة، والإمدادات غير متلاحقة والمعنوية القتالية عندهم منخفضة. كما أن المعارك فتحت عليهم من كل صوب، من كل الولايات الأمريكية متسعة الأرجاء، زد على ذلك سوء إدارة قيادتهم وتعنت حكومتهم، وتشبثها بالحكم الاستبدادي.

أسهمت فرنسا بدور غير بسيط في مساعدة الثوار ضد الحكومة الإنكليزية، وقد أرادت فرنسا أن تثار من عدوتها التقليدية إنكلترا التي سلبتها معظم مستعمراتها في العالمين القديم والجديد. قدمت فرنسا المساعدات العسكرية والمالية للثوار الأمريكيين، وكل ما يحتاجون إليه من مؤن وعتاد، حتى إنها قدمت لهم الرجال والمحاربين؛ ليحاربوا إلى جانبهم ضد حكومة إنكلترا. وكانت هذه المساعدات سريعة ومستمرة، وتأتي من مكان قريب للمعارك (من كندا). وأخذت فرنسا تجمع المتطوعة وترسلهم لمساندة الثوار حتى بلغ عددهم أكثر من ستة آلاف جندي مدرب.

كانت آخر الهزائم التي مني بها الإنكليز في أمريكا هزيمة القائد الإنكليزي كورنواليس عندما ارتد إلى مدينة يورك تاون عند مصب نهر يورك بعد أن هاجمه جورج واشنطن بجيش خليط من الأمريكيين والفرنسيين، قوامه ١٦ ألف رجل. كما أن مواصلات القوات الإنكليزية كانت قد قطعت بواسطة الأسطول الفرنسي الذي منع القوات الإنكليزية أيضاً من الهرب بطريق البحر. وتعدّ هذه المعركة من أقوى المعارك، وأشدّها ضد الإنكليز الذين هزموا فيها هزيمة شنعاء في تشرين الأول سنة ١٧٨١، ولم يبق بيده سوى مدينة نيويورك.

وهكذا لم يعد بقدرة إنكلترا استخدام العنف في حل قضاياها في أمريكا بعد هذه الهزائم المتلاحقة ضدها. عندها لجأت إلى طلب الصلح وإلى التفاوض. وقد تم توقيع معاهدة بين الإنكليز والأمريكيين سنة ١٧٨٣م، ومن أهم بنودها:

١) اعتراف إنكلترا باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، ومنحها الأراضي كلها الواقعة بين جبال اللجاني ونهر الميسيسيبي. وظلت الحدود الشمالية كما هي عليه.

٢) العمل على تحسين العلاقات بين الحكومة الإنكليزية، والدولة الأمريكية المستقلة.

٣) أن تقوم علاقات تجارية واقتصادية بين الدولتين على أساس الند للند^(١).

٥ - الاستقلال والدستور الأمريكي:

بمقتضى صلح باريس عام ١٧٨٣م أصبحت المستعمرات البريطانية الثلاث عشرة في أمريكا الشمالية الممتدة من مين إلى فرجينيا دولة مستقلة متحدة. وهكذا ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية كوحدة سياسية مجتمعة في العالم الجديد. أما كندا البريطانية، فظلت تدين بولائها، وتبعيتها للتاج البريطاني في لندن. وعلى الرغم من تصلب موقف بريطانيا من الثورة الأمريكية إلا أن الحكومة البريطانية حاولت عند المفاوضات الدائرة بينها وبين الأمريكيين أن تلطف الجو المشحون بالبغض في تساهلها في قبول مطالب الأمريكيين أحفادها. وكان لهذا الموقف أثره الحسن في المرحلة القادمة في العلاقات البريطانية الأمريكية. وقد انعكست العلاقة الحسنة بين الطرفين على علاقة الولايات المتحدة بكندا البريطانية.

وكان لحرب الاستقلال الأمريكية أثر بالغ الأهمية في الموقف البريطاني العام في المستعمرات؛ إذ هبت رياح الحرية والاستقلال على المستعمرات

(١) عبد الفتاح إسماعيل أبو عليّة، أحمد ياغي: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ص ٢٢٨-٢٢٩. وانظر أيضاً: عبد الحميد بطريق، عبد العزيز نوار: التاريخ الأوروبي الحديث، ص ٢٧٦.

البريطانية جميعها. وقد كلف هذا بريطانيا الكثير من المتاعب العسكرية والسياسية إلى جانب المصروفات المالية العامة الأخرى.

وأمر بديهي أن تظل الولايات المتحدة مدة من الزمن تعيش في غياب الحكومة المركزية العامة للولايات جميعها؛ لأن وجود الحكومة المركزية القوية لا بُدَّ أن يعتمد على قيام دستور عام ينظم سير الأمور في الولايات الأمريكية الموحدة إلى جانب ما لها من دساتير داخلية. وعلى الرغم من هذا فقد ظلت الولايات المتحدة الأمريكية راغبة في الاستمرار في الاتحاد متحدية كل الصعوبات والمشكلات التي اعترضت سبيلها بعد الاستقلال مباشرة. وكانت رغبتها هذه قد عجلت في عمل دستور عام للولايات جميعها بدأ العمل في وضعه عام ١٧٨٧م. لقد رأى الأمريكيون أنه لا بد أن تحدد الأطر الرئيسية للدستور الجديد بما يأتي:

١. المحافظة على المواد الرئيسة التي جاءت في وثيقة إعلان الاستقلال كالحقوق الشرعية للسكان.
٢. أن يضمن الدستور الجديد حق الشعب في الإشراف على السلطة التنفيذية، ومراقبتها كي تكون سلطة ساهرة على مصالح الشعب، وسعادته.
٣. الاهتمام بإظهار الأمة الأمريكية المستقلة ذات الحكومة المركزية القوية.
٤. التركيز على المبادئ الديمقراطية، وقيام السلطة المعتمدة على الأنظمة الدستورية.
٥. العمل على توفير الجو الملائم لاستمرار الاتحاد القائم بين الولايات المتحدة الأمريكية.
٦. العمل على توفير الحرية، والسيادة الداخلية لكل ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية.

٧. أن يتمتع الكونغرس بسلطات قوية.
٨. أن يتمتع رئيس الدولة المتحدة بسلطات واسعة.
٩. قيام الدولة المتحدة مع قيام الدولة الدستورية^(١).

لقد كانت كل ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية تشكل جمهورية مستقلة. وبدأت علائم مساوئ هذا النظام القديم ظاهرة للجميع. فقررت الولايات المتحدة الأمريكية إقامة مؤتمر خاص لوضع الدستور المكتوب الذي عُدَّ فيما بعد أقدم وثيقة حكومية مكتوبة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية بعد استقلالها. لقد كان الائتلاف يسود الولايات الأمريكية الثلاث عشرة قبل وضع الدستور العام. ولكن ظل هذا الائتلاف مهدداً، وبدأت تظهر بعض المساوئ في أنظمتها بخاصة في مسألة التصويت، فكان لكل ولاية صوت واحد في الكونغرس مهما كانت مساحة الولاية وعدد سكانها. وكان لا بد من نجاح أي مشروع يعرض على الكونغرس أن ينال موافقة ثلثي الأعضاء؛ أي تسعة أعضاء من المجموع. وكان الكونغرس يتمتع بسلطة واسعة مختصة بسن القوانين، وإعلان الحرب، وتبادل السفراء مع دول العالم... إلخ. وكان ينقص الائتلاف وجود سلطة تنفيذية عامة تعمل على تنفيذ ما صدر عن الكونغرس من أمور، ومسائل.

وظل الكونغرس لا يملك حق التنفيذ، والمحاكمة، والتجديد. وبناء عليه فإن الكونغرس عجز عن منع المنافسة التجارية بين الولايات، وعجز كذلك عن إصدار النقد الذي لا يعتمد على الأرصدة الذهبية، وعجز أيضاً عن وضع تعرفة جمركية عامة في الولايات، وعن إقامة جيش قوي يحمي حدود الولايات. وصارت مثل هذه الفوضى سبباً في المطالبة بضرورة قيام حكومة مركزية قوية تعتمد على دستور

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٦٢-٦٤.

عام. وقد دعا جورج واشنطن إلى ضرورة قيام الحكومة المركزية القوية كي تستطيع تنظيم الشؤون العامة في الدولة الائتلافية^(١).

٦- المؤتمر الائتلافي ووضع الدستور الفيدرالي:

عُقد المؤتمر الائتلافي بأمر من الكونغرس عام ١٧٨٨م لوضع الدستور العام للولايات المتحدة الأمريكية أو ما يسمى بالدستور الفيدرالي. وحضر المؤتمر عدد من الممثلين عن الولايات، ما عدا ولايدة رود أيلاند. وبلغ عدد الحضور في المؤتمر خمسة وخمسين عضواً مثلوا ولايات: فرجينيا، ونيوهامشير، ونيويورك، وبنسلفينيا، ودلووير، وماساتشوستس، وكارولينا الشمالية، وكارولينا الجنوبية، وكنتيكت، ونيو جيرسي، وجورجيا، وماري لاند. وقد انتخب الأعضاء جورج واشنطن رئيساً للمؤتمر الذي بدأ أعماله في ٢٥ أيار عام ١٧٨٨م، وانتهى في ١٧ أيلول من العام نفسه.

وقد نصت مواد الدستور الجديد على :

١. قيام سلطة تشريعية مؤلفة من مجلسين: الأول: مجلس الشيوخ، ويمثل كل ولاية فيه عضوان ينتخبان انتخاباً. وتظل عضوية الشيخ لمدة ست سنوات. والثاني: مجلس النواب وينتخب أعضاؤه لمدة سنتين عن طريق التصويت العام في الولاية. ويعطى لكل ولاية من الولايات الأمريكية عدداً من المقاعد النيابية حسب عدد سكانها. وعرف المجلسان باسم الكونغرس الأمريكي. وقد أعطى الدستور المجلس النيابي حق تقديم المشروعات الخاصة بالقوانين المالية. وأعطى الدستور السلطة التشريعية حق محاكمة الرئيس إذا أخل بالدستور، وإقالته إذا لزم الأمر.

(١) المرجع السابق، ص ٦٤.

٢. انتخاب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لمدة أربع سنوات، يتمتع بسلطات واسعة. فهو القائد الأعلى للجيش ويده السلطة التنفيذية. وله الحق في رفض قوانين الكونغرس في المرة الأولى، أما إذا أقرها الكونغرس مرة ثانية بأغلبية ثلثي الأعضاء، فتصبح سارية المفعول من دون موافقة الرئيس عليها. وقد حددت بعض سلطات الرئيس بخاصة في عملية عقد المعاهدات، وتعيين السفراء والقضاة في المحكمة العليا، وبعض الموظفين الإداريين المهمين بضرورة موافقة ثلثي مجلس الشيوخ عليها.
٣. إقامة محكمة عليا بيدها السلطات القضائية، وهي من ثمانية قضاة ورئيس، يظلون في مناصبهم مدى الحياة ماداموا يتمتعون بسيرة حسنة، وسلوك جيد. وقد أنشئت هذه المحكمة للمحافظة على الدستور، وللصل في المنازعات بين الكونغرس والرئيس الأمريكي، أو في المنازعات التي تحدث بين ولاية وأخرى.
٤. إعطاء الحرية للفرد الأمريكي في ديانته، ومذهبه، وكلامه، وصحافته، واجتماعاته، والمحافظة على روحه وماله.
٥. نص الدستور على ضرورة عرض القوانين على الهيئة القضائية قبل إقرارها، وذلك لمطابقتها بما جاء في الدستور. فإذا لم تكن ضمن مواده أو مضمونها، فإنه يحق للهيئة القضائية أن تلغيها، وتمنع إقرارها.
- وقد ناقش مجلس الكونغرس الأمريكي في الحكومة الائتلافية مواد الدستور في مدينة نيويورك وأجرى عليها بعض التعديلات الضرورية. ثم عرض بعد ذلك على الهيئات التشريعية في الولايات المتحدة الأمريكية، فأقرت التعديلات في عام ١٧٨٩م. ووهكذا أقر الدستور العام للولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٩م^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٦٤-٦٦.

وثمة مسألة جديرة بالاهتمام، وهي تخص الدستور الأمريكي العام، وهي مسألة فصل السلطات الحكومية الثلاث بعضها عن بعض كفصل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية كل واحدة في اختصاصها من دون أن تتعدى على السلطات الأخرى التي هي ضمن اختصاصات غيرها. واختلف بذلك الدستور الأمريكي العام عن الدستور الإنكليزي العام، وتشبّع الأمريكيون بآراء مونتسكيو الفرنسي، وأفكار لوك الإنكليزي اللذين قالاً بمبدأ فصل السلطات الثلاث.

ونلاحظ كذلك أن سلطات الحكومة المركزية الفيدرالية لم تتعارض البتة مع السلطات المحلية التي تتمتع بها الولايات المتحدة الأمريكية. وصار من حق السلطات المحلية في الولايات أن تقوم بإدارة السلطات المحلية، والإشراف على الأمن، والشرطة، والمدارس العمومية، وإنشاء الترع، والجسور، وشق الطرق، ومنح الشركات المحلية الامتيازات المنوطة بأعمالها في ولاياتها.

وما هذا كله إلا تطبيقاً للمادة السادسة، الفقرة الثانية من الدستور الأمريكي العام التي تنص على : "أن دستور الولايات المتحدة وقوانينها التي تُسنّ وفقاً لمواده ما هي إلا السلطة العليا في الولايات، وعلى القضاة جميعهم في كل ولاية من الولايات المتحدة الأمريكية أن يتقيدوا بها تاركين كل ما يخالفها"^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٦٧.

٧- النتائج العامة لثورة الإستقلال الأمريكية:

يمكن أن نوضح هنا بعض النتائج التي كانت وليدة قيام حرب الاستقلال الأمريكية. فكانت الثورة الأمريكية السبب المباشر في قيام الثورة الفرنسية؛ لأن فرنسا أنفقت أموالاً طائلة في حربها ضد بريطانيا في العالم الجديد، وهي تساند الثوار، وتساعدتهم، وتحارب إلى جانبهم؛ مما أرهق ميزانية الدولة الفرنسية، وحملها الكثير من الديون، فكانت سبباً في قيام الأزمة المالية الخائفة في عهد الملك البوربونى لويس السادس عشر الذي قامت في عهده الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م. وكان من نتائجها أن انتشرت عدواها إلى سكان أمريكا اللاتينية. وتشجع سكان المستعمرات البريطانية في آسيا وإفريقية على القيام بثورات ضدها كي يتخلصوا من استعمارها. وصارت الولايات المتحدة الأمريكية ملاذاً لدعاة الفكر من الأوروبيين، وصارت تعد رمزاً للجديد، والتجديد بعكس القارة القديمة في كل شيء. وتوجه الكثير من سكان أوروبا إليها للعمل، والإقامة الدائمة فيها. وقد استوعبت الولايات المتحدة الأمريكية الكثير من السكان الأوروبيين من ديانات مختلفة، ومذاهب مختلفة، وأجناس ولغات مختلفة. وقد استوعبتهم على السواء؛ لأن دستورها أعطى حرية الدين، والصحافة، والاجتماعات، وحرية المحافظة على الأموال، والأرواح للجميع فيها. وبناءً عليه فقد أخذت الولايات المتحدة الأمريكية في التوسع باتجاه الغرب والجنوب الغربي، وسار الانسياح السكاني في القارة الأمريكية الشمالية بفضل ما تمتع به السكان من حقوق، ومساواة أمام القانون الأمريكي.

والجدير بالذكر أن المستعمرات الإسبانية اللاتينية في القارة الأمريكية الجنوبية قد حذت حذو الولايات المتحدة الأمريكية في التخلص من الاستعمار الأوروبي بعد مرور حوالي عشرين سنة على حادثة استقلال الأمريكيين. لكن تجربة المستعمرات اللاتينية في أمريكا الجنوبية لم تكن دستورية بالمعنى الصحيح،

ولم تستطع هذه المستعمرات أن تشكل نوعاً من الوحدة أو الاتحاد فيما بينها، وظلت تشكل وحدات مستقلة منفصلة عن بعضها، وظلت منتشرة في أنحاء القارة الجنوبية دون رابطة سياسية حقيقية تربطها معاً. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هذه المستعمرات تشكل نواة جمهوريات لاتينية اشتهرت بينها العداوة، وسادها جو من عدم الاستقرار السياسي الذي أدى فيما بعد إلى قيام الفوضى، والاضطرابات الداخلية فيها.

لقد حاولت الولايات المتحدة الأمريكية أن تقف على الحياد في الصراع الدائر في أوروبا بعد اندلاع الثورة الفرنسية، بخاصة الصراع الدائر بين فرنسا وبريطانيا التي ترأست الجبهة العسكرية والسياسية المضادة للثورة الفرنسية في أوروبا، فكانت صلتها ببريطانيا الأم صلات قرابة دموية، وصلات أصول شابتها فترات من التردّي ثم عادت إلى عاداتها، ومجراها الطبيعي بعد اعتراف بريطانيا باستقلالها. وكانت تربط الولايات المتحدة الأمريكية بفرنسا رابطة طيبة بحكم ما قدمه الفرنسيون من مساعدات لها في أثناء حرب استقلالها بغضّ النظر عن أهدافها من وراء هذه المساعدة.

وظهرت في أوروبا حادثتان مهمتان أثرتا إلى حد كبير في سلوك العلاقة القائمة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين كل من بريطانيا وفرنسا في فترة الحروب النابليونية الأوروبية. الحادثة الأولى: وهي حادثة الحصار القاري الذي أعلنه نابليون ضد بريطانيا عام ١٨٠٦م، والحادثة الثانية: وهي العمل المضاد الذي أعلنته بريطانيا ضد الحصار القاري، وهو ما فرضته من حصار بحري على السواحل الأوروبية مما أدى إلى تعرض السفن التابعة للولايات المتحدة الأمريكية في السواحل الأوروبية إلى عمليات تفتيش صعبة رفضتها الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تطور هذا الأمر فأدى إلى نشوب حرب جديدة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين بريطانيا عام ١٨١٢م. وظلت الحرب الجديدة قائمة إلى أن تم

تسوية الأمور في اتفاقية غنت "Ghent" عام ١٨١٤م وهو العام الذي انهزم فيه نابليون، ودخلت الجيوش الأوروبية باريس، واضطر نابليون إلى التنازل عن العرش، ونفي إلى جزيرة ألبا.

وتعد الحرب الأمريكية البريطانية الثالثة من أهم العوامل التي قضت على أسباب الضعف الذي أخذ يسود الشعور الأمريكي تجاه اتحادهم الذي اعتراه نوع من التشكيك، فكانت حرب الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا عاملاً قوياً من عوامل توحيد الجهد الأمريكي والتفاهم حول استقلالهم واتحادهم. وأبعدت الحرب إلى حد ما من نفوسهم الكثير من الهواجس التي كانت تنتاب شعورهم بعضهم تجاه بعض. وشعروا أن قوتهم تكمن في المحافظة على ما حققوه من مكاسب في مجالات الحقوق والحرية.

وقد ساءت علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بنابليون بونابرت بسبب مسألة ولاية لويزيانا الفرنسية التي كان يمتلكها الإسبان منذ عام ١٧٦٣م. وقد تنازلت إسبانيا عنها لفرنسا في ظل حكم القصلية عام ١٨٠٠م على أثر توقيع معاهدة سانت أيلد بفوسو "San Ilde Fonso" السرية بينها وبين فرنسا.

وقد اهتمت الولايات المتحدة الأمريكية في شأن ولاية لويزيانا بعد أن تنازلت عنها إسبانيا لفرنسا. وقد أيدتها في ذلك الإمبراطورية البريطانية. وكان خوف الولايات المتحدة الأمريكية يكمن في تغلغل النفوذ الفرنسي في مناطق نهر الميسيسيبي خاصة في ميناء نيو أورليانز من جهة، وتغلغله في أمريكا الشمالية من جهة ثانية. وبناء عليه اهتم الرئيس الأمريكي جيفرسون بالأمر، وأرسل مونرو "Monroe" إلى فرنسا للتفاوض معها بشأن هذه المسألة. وركز الرئيس جيفرسون على موضوع شراء ولاية لويزيانا من فرنسا مهما كلف ذلك. وقد ساعدت الظروف العامة على حل الأزمة بين فرنسا وبين الولايات المتحدة الأمريكية التي تدعمها بريطانيا في موقفها هذا، حين وجد مونرو أن نابليون له رغبة أكيدة في بيع

الولاية؛ لأنه كان منشغلاً بأمر أوروبا وحروبه مع دولها من جهة، ولأنه كان يلقي متاعب كثيرة من جراء ثورة هايتي الفرنسية من جهة أخرى. كما أن نابليون كان يرى ضرورة إبعاد بريطانيا عن الموضوع مهما كلف الأمر. ورأى أن تقاربه مع الولايات المتحدة الأمريكية أفضل بكثير من خوض حرب معها ومع حليفها بريطانيا.

وقد تم بالفعل بيع ولاية لويزيانا في ٣٠ نيسان عام ١٨٠٣م بمبلغ ٦٠ مليون فرنك. وبهذا تمكن الأمريكيون من ضم ولاية لويزيانا إلى ولاياتهم، وحافظوا على علاقة حسنة مع فرنسا التي ساعدتهم في ثورتهم، وأبعدوها بشكل سلمي عن ميناء نيو أورليانز، وأبعدوها كذلك عن التدخل في الشؤون الداخلية للولايات المتحدة الأمريكية^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٦٧-٧٠.







مقدمة:

تعد حروب الاستقلال في أمريكا اللاتينية جزءاً لا يتجزأ من حركة عالمية من أجل التحرر من البورجوازية، ظهرت وتطورت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي تمثل الحلقة الثالثة من النضال التحرري ضد الوجود الأوروبي في القارة، بعد انتفاضة المستعمرات الثلاث عشرة الإنكليزية في أمريكا الشمالية، وثورة البرجوازية الديمقراطية في هايتي.

الواقع أن حركة الاستقلال كانت قد بدأت في أوروبا قبل أن تبدأ في المستعمرات. وإذا كان بعض الناس قد نظر إليها كعملية سلمية، فإن غيرهم قد عدّها علامة ضعف من الدول الاستعمارية. ولذلك فإن إلغاء قانون الدمغة ثم تراجع إنكلترا في أمر رسوم الاستيراد الأمريكية الإنكليزية، وكذلك المرسوم الذي أعطى حق الانتخاب للرجال الملونين في سان دومينغو، وموقف جان السادس البرتغالي الذي ترك ابنه بيدرو للبرازيليين، كانت كلها تُعدّ مظاهر لضعف الدول الأوروبية.

إن المواطنين في دول أوروبا نفسها كانوا قد بدؤوا في الثورة باسم الحرية، وأخذ المعمرون في التأثر بهذه الآراء. فإذا كان الفرنسيون قد استولوا على الباستيل، فما الذي يمنع الزوج من التحرر؟. إذا كان الإسبان قد ثاروا ضد عودة البوربون فلم لا يشارك المعمرون في هذه الحركة؟. وهكذا فقد كانت أخطاء أوروبا هي السبب في فقدهم لمستعمراتها نتيجة لضعف السلطة المركزية في بلادها.

وكانت مواقف الشدة لا تأتي في الوقت المناسب لها؛ بل كانت تجيء في أوقات يظهر فيها ضعف الوطن الأم أو اشتداد الروح التحررية في المستعمرات، وعدم التمكن من كبحها. فإذا كانت إنكلترا قد حاولت أن تفرض نفسها على أمريكا، وإذا كان بونابرت قد حاول إعادة غزو دومينغو، وإذا كان البوربون الإسبان

قد حاولوا استعادة إمبراطوريتهم الأمريكية، فإن هذه القرارات كانت قد جاءت متأخرة، وبعد فوات الفرصة^(١).

لقد عاشت الإمبراطورية الأمريكية التي منحها الغزاة لقشتالة مدة ثلاثة قرون. عاشت مع التحكم والروتين، ولكنها عاشت على أي حال، واستمر الإسبان في استغلال الوطنيين، وفي إجبارهم على شراء ملابسهم وتموينهم بأعلى سعر ممكن. ومنعوا زراعة عدد من الحاصلات الزراعية، ومنعوا عدد من الصناعات حتى لا ينافسوا إسبانيا، وأهمل الإسبان بعض المقاطعات مثل الجزء الإسباني من سان دومينغو. وإذا كانت أمريكا قد أخذت في التحرك ثم في الغليان، فإن الإسبان كانوا مسؤولين عن ذلك إلى درجة كبيرة^(٢).

إن الثورات ضد الحكم الإسباني سببتها الأزمات الاجتماعية والاقتصادية العميقة نتيجة للنظام الإقطاعي، والتفرقة العنصرية التي مارسها النظام الإسباني على طول ثلاثة قرون من الاستعمار؛ إضافة إلى فشل المحاولات الإصلاحية لأسرة البوربون التي حاولت إدخالها على إدارتها في المستعمرات الأمريكية اللاتينية. ولم تفلح الأفكار، والاقتراحات التي تقدم بها كبار رواد عصر التنوير الإسباني لاتخاذ تنازلات عدة لصالح سكان القارة لتجنب وصول رياح التغيير إليها.

وهكذا فقد شهدت المستعمرات الإسبانية ثورات، وتمردات امتدت ما يقارب الخمسة وثلاثين عاماً تم من خلالها تحقيق الحرية لأجزاء كبيرة من أراضي أمريكا اللاتينية.

(١) جلال يحيى، التاريخ الأوروبي، ج ٢، ص ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) جلال يحيى، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج ٢ ص ٩٨.

ومن المنفق عليه وجود العديد من الأسباب التي أدت إلى الثورة، والاستقلال نستطيع تقسيمها بشكل عام إلى: أسباب خارجية، وأخرى داخلية.

أولاً- الأسباب الخارجية لثورات الاستقلال الأمريكية اللاتينية:

١- الثورتان الأمريكية الشمالية والفرنسية:

خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر، اهتزت الامبراطورية الإسبانية في أمريكا بأصدااء التمرد الذي اجتاحت المستعمرات الإنكليزية الثلاثة عشرة الذي أسفر عن استقلال هذه المستعمرات، وقيام الولايات المتحدة الأمريكية. حيث بدأت الأفكار الانفصالية تجد طريقها إلى المستعمرات الإسبانية.

وكان إعلان الاستقلال الأمريكي عام ١٧٧٦ حدثاً بالغ الأهمية ترك أثره العميق على القارة؛ إذ إن أفكار جيفرسون، وشعبية فرانكلين ألهمت حماس المفكرين الليبراليين في أمريكا اللاتينية.

ومن جهة أخرى، كانت أصدااء قيام الثورة الفرنسية على النظام الملكي الفرنسي، ونجاح الأفكار التي نادى بها كبار رجالات عصر التنوير الفرنسي، وتحول هذه الأفكار إلى واقع نجم عنه انقلاب على الملكية الفرنسية، وقيام الجمهورية القائمة على العدل والمساواة. وحينما انتصرت الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩م عرفت المواد القانونية لإعلان حقوق الإنسان. وكان الكريول المتنفذين في ذلك الوقت يصبون إلى تطبيق مثل هذه الحريات في قارتهم الأمريكية.

٢- الدور البريطاني:

لم يكن دور بريطانيا في إشعال وقود الثورة التحريرية سلبياً، فقد وجدت الحكومات البريطانية المتعاقبة التي كانت في حروب على فترات متقطعة مع إسبانيا في سخط المستعمرات الإسبانية عصا تضرب بها منافسيها الدائمين،

وأمضى محقق الاستقلال الفينزويلي ميراندا أعواماً عديدة في لندن وهو يجمع مؤيدين من الحكومة البريطانية ومؤيدين لقضيته، بينما عاش المحرران النابهان سيمون بوليفار وسان مارتين فترة طويلة في بريطانيا، وحينما نشبت المعارك حارب فيلق بريطاني من أجل بوليفار في فنزويلا وكولومبيا، كما أنشئ الأسطول الأرجنتيني بواسطة الأدميرال بوزن بأيرلنده، وكما أنشئ الأسطول الشيلي بواسطة الأدميرال لورد كوشران، كما أصبح بيرناردو أوهيجنز الأيرلندي أول رئيس لدولة شيلي^(١).

٣ - انحطاط الإمبراطورية الإسبانية وتدهورها:

إن أحد الأسباب القوية التي دعت الأمريكيين إلى البحث عن استقلالهم تكمن في الانحطاط والتدهور العام الذي أصاب المملكة الإسبانية التي كانت قد فقدت مستعمراتها الأوروبية في القرن الثامن عشر، كما أنها لم تعد كما كانت القوة العظمى في الغرب لدرجة أنها تنازلت عن أراضي أمريكية لأعدائها في العالم القديم.

هذا بالإضافة إلى التحديات الإنكليزية والفرنسية والهولندية التي كانت تظهر على شكل حرب مفتوحة في الغالب عن طريق قراصنتهم؛ مما عرّض وحدة الأراضي الإسبانية والسلام والأمن في المستعمرات الإسبانية للخطر. ولقد تسربت أفكار عصر التنوير إلى إسبانيا، ومن هناك انتقلت إلى أمريكا اللاتينية، كما أن المهربين واللاتينيين الذين عادوا من أوروبا بعد أن تلقوا تعليمهم هناك ساعدوا على نشر الفكر التنويري في القارة الأمريكية سواء بين الليبراليين أو بين دوائر المحافظين. وكان طرد رجال الدين اليسوعيين من أمريكا

(١) فرجسون، ثورات أمريكا اللاتينية، ص ١٧-١٨.

اللاتينية عام ١٧٦٧م بمثابة إعلان عن هذا الاضطراب الليبرالي الذي كان يرغب في الحصول على السيادة العلمانية. ويرجع الفضل أساساً في تطوير أفكار عصر التنوير إلى الأفكار الثورية للفيلسوف ديكارت ومؤلفي الموسوعة الفرنسية ديدرو ودي لامبرت ومونتسكيو وجان جاك روسو وفولتير. كما كانت هناك إسهامات إنكليزية مهمة أيضاً لكل من هوبس ولوك وهيوم الذين قاموا بإضافة المادة الفلسفية للتنوير في الوقت الذي أثار فيه مواطنهم نيوتن ضجة في مجال العلوم والمعارف.

ولقد قام بينيتو خيرونيمو فيخو (١٦٧٥م-١٧٦٤م) بنشر الأفكار الجديدة وتعميمها في العالم الإسباني، وأحياناً كان يدافع عن هذه الأفكار، وأحياناً أخرى كان ينتقدها. وعلى أية حال، فإنه حينما تفجرت الثورة الأمريكية عرفت أمريكا اللاتينية مبدأ السلطة الشعبية، وفكرة تقسيم السلطات أو توزيعها التي عرضها روسو، وكذلك معارضة السلطة المطلقة للملوك.

وكان غزو نابليون بونابرت لشبه القارة الإيبيرية عام ١٨٠٧م حدثاً بالغ الأهمية، حيث أتاح الفرصة أو مهد الطريق لبدء الكفاح من أجل الاستقلال^(١). حيث وقف الإسبان منذ البداية من المحتل الفرنسي موقف العداء الشديد. وبدأت المقاومة في الأوساط الشعبية، وبين الفلاحين في الأرياف تخلق المصاعب للمحتلين، وفي الوقت نفسه كانت جيوش الاحتلال في تزايد مستمر لتصبح قادرة على احتلال الأراضي الإسبانية. وعندما شعر الملك الإسباني بنوايا الفرنسيين حاول مع أعوانه وعائلته أن يترك العاصمة، ويستقر في المرفأ الإسباني الشهير قادش حيث يمكنه إذا اشتد الخطر أن يسافر إلى أمريكا الجنوبية. استاء الشعب كثيراً في العاصمة من هذا التصرف الذي يفتقر للشجاعة، والعزة القومية، فثار

(١) رودريجث، ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١٨٥-١٩٠.

وأجبر الملك على التنازل عن العرش لابنه فرديناند السابع. تذرع القائد الفرنسي ميرا بهذه الاضطرابات، وأمر جيوشه بدخول العاصمة مدريد للقضاء على المقاومة الإسبانية، وفرض النظام والأمن فيها. ولما لم يتمكن من التوفيق بين الملك المخلوع - وكان قد أقنعه بالبقاء في العاصمة وعدم الهرب - وبين الملك الجديد الحائز ثقة جماهير الإسبان وعطفهم، أرسل ميرا العائلة المالكة كلها إلى بايون في فرنسا، حيث استخدم نابليون كل ما عنده من أسباب الحيلة والدهاء، وجعل الاثنين يتنازلا عن العرش الإسباني، وعهد بتاج مدريد إلى شقيقه جوزيف؛ لم يفهم الإسبان الأحداث الجديدة، وظلوا متمسكين بملكهم المخلوع، وبولائهم لعائلتهم المالكة، وبضرورة إعادة فرديناند إلى عرشه كونه الوريث الشرعي الوحيد للعرش. أما الملك الجديد جوزيف بونابرت فلم يروا فيه إلا وجهاً أجنبياً مغتصباً مستعمرًا^(١). وقد أثار اعتلاء جوزيف الأول عرش إسبانيا السخط، والفجع في العالم الإسباني الذي أدرك عدم كفاية قادته في الدفاع عنه ضد الأسلحة الفرنسية. ومن هنا بدأت الحرب من أجل الاستقلال في الوقت نفسه الذي حدث فيه التمرد الشعبي في مدريد في الثاني من شهر أيار عام ١٨٠٨م، وفي ذلك الوقت كان هناك جزء من الشعب يساند الملك الديكتاتوري كارلوس الرابع، لكن الأغلبية كانت تفضل ابنه فرديناند السابع واعتقد الأمريكيان بأنه الوقت المناسب للتعبير عن مساندتهم، ووقفهم إلى جوار ابن كارلوس الرابع.

ومن أجل ذلك، فإنه تم عقد سلسلة من الاجتماعات كان من بينها عقد اجتماع في مجلس علني في المكسيك عام ١٨٠٨م، وفي مدينة لاباث عام ١٨٠٩م، وفي مدينة كيتو عام ١٨٠٩م أيضاً، وفي مدينة كاراكاس عام ١٨١٠م، وفي بوجوتا وسانتا في دي شيلي عام ١٨١٠م. وكانت المعارضة شديدة حتى

(١) عبد العزيز نوار، عبد المجيد النعنع، المرجع نفسه، ص ١١٣.

داخل إسبانيا نفسها، وعقدت المجالس للاجتماعات في جنوب البلاد التي لم يكن قد وصلها الفرنسيون بعد، وحضر تلك الجلسات الإسبان؛ بالإضافة إلى ممثلين عن أمريكا اللاتينية. وفي مدينة قادش الإسبانية قام الإسبان واللاتينيون بإعداد دستور إسبانيا الذي نص لأول مرة على الحكم الدستوري، وتم إصدار هذا الدستور عام ١٨١٢م^(١).

(١) رودريجيث، ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١٨٦.

ثانياً - الأسباب الداخلية:

أ - تسرب أفكار عصر الأنوار إلى المستعمرات:

إن الاهتمام العلمي الذي أثاره التنوير في القرن الثامن عشر فضلاً عن الرغبة الجامحة في دراسة الإمكانيات التجارية المستقبلية أدى إلى إرسال البعثات العلمية إلى العالم الجديد من أجل تعديل أو ضبط الخرائط، وتثبيت خطوط الطول والعرض فلكياً، وأيضاً من أجل دراسة طبيعة النباتات، والحيوانات الموجودة بالقارة. وكانت إسبانيا في ذلك الوقت متحمسة للثقافة الفرنسية؛ مما جعلها تتعاون في البداية مع هذه البعثات ثم دفعت بعلمائها بعد ذلك. وكانت للعديد من هذه البعثات أهمية خاصة؛ وذلك نظراً للانعكاس السياسي الذي أسفر عنها. ومن هذه البعثات على سبيل المثال: البعثة التي كونها تشارلز دي لاكونده مينييه الذي قام في عام ١٧٥٣م بقياس درجة خط الاستواء، وذلك بالقرب من منطقة كيتو. وقد شارك في هذه البعثة العلمية عالمان إسبانيان، وهما (خورخي خوان، وأنتونيو دي أويوا) اللذان قاما بجمع ملاحظاتهم الملاحية والجغرافية والاجتماعية العديدة في كتابين مشهورين، هما: (قصة تاريخية حول السفر إلى أمريكا الجنوبية) و (أخبار سرية) قاما بتوجيه نقد لاذع للنظام الاستعماري، والمعاملة القاسية التي كان يلقاها الهنود كما أنه تضمن نقداً لحالات متعددة من الظلم الاجتماعي.

وكان من بين البعثات المهمة أيضاً بعثة الإسباني (فاوستو ستو دي اليهودي) عام ١٧٨٥م، وكان طالباً في قسم العلوم الخالصة والتطبيقية بألمانيا، وقد قام بتنظيم بعثتين مكونتين من العلماء الألمان بحيث تؤديان خدماتهما في أمريكا، وقد ترأس اليهودي إحداها بنفسه، وهي البعثة التي ذهبت إلى مكسيكو، واستمرت هناك لمدة ٢٥ عاماً عمل خلالها في دعم الدراسات العلمية، وتحسين أساليب العمل والإنتاج في المناجم. أما الحملة الثانية، فكان طاقمها كله من العلماء الألمان ظلت في البيرو لمدة ٢٠ عاماً حيث قامت بتشجيع الدراسات

العلمية، ومساعدة (جمعية محبي الوطن) التي برز من خلالها طبيب البيرو خوسيه إيبوليتو أونانونيه (١٧٥٨م-١٨٣٣م) مؤلف كتاب (المناخ في ليما) الذي يعد أول المقالات العلمية والاجتماعية التي كتبت في أمريكا اللاتينية. حينما وصل العالم الألماني (ألكساندر فون هومبلدت) إلى أمريكا اللاتينية في نهاية القرن الثامن عشر؛ وذلك للقيام ببعض الدراسات حول الطبيعة الأمريكية وجد بها علماء أمريكيين لهم شهرتهم العالمية، وكذلك علماء لامعين في مجال الدراسات الإنسانية، ومعجبين بالمذهب الفرنسي (الموسوعيين). كما وجد هناك صحفاً قامت بنشر أفكاره، مثل: صحيفة الدور الصحفي لها فانا (١٤٠٨-١٧٩٠) وصحيفة الميركوريو بروانو أو ترمومتر البيرو (١٧٩١م-١٧٩٥م).

وقام اللاتينيون باتباع نموذج إسبانيا التتويرية، وذلك بإنشاء مؤسسات وجمعيات أدبية وعلمية، مثل: جمعية (أصدقاء الوطن) التي كان يناقش فيها إمكانية تحرير أمريكا اللاتينية من وطأة الاستعمار الإسباني.

ويمكن تقييم المخاوف الفكرية أو الانزعاج الذي أصاب دوائر المثقفين؛ وذلك عن طريق ما قام به، وكتبه، وقاله بعض علماء أمريكا اللاتينية، فعلى سبيل المثال: طالب الدكتور (أوغسطين جوريننتشاتجي ديل كوسكو) في عام ١٧٧١م بمطابقة الأفكار للطبيعة وليس العكس. وفي العام نفسه انتقد الأب بالبيردي في مدينة كاراكاس أفكار أرسطو، وأطلق على هذا الفيلسوف اليوناني أنه ماركيز الأحداث، وقائد عام للباطن وفي الفترة نفسها كان لدى خوسيه باكيخانو الجرأة لزم التخلف الثقافي علانية، وقام بذلك في البيرو. ومع ذلك فإن المناخ السياسي لم يكن ملائماً لهذا الانتقاد، ويؤكد ذلك أن محكمة التفتيش ظلت وراءه؛ لأنها كانت تعتقد بأنه يمتلك كتب مقطورة، وبعد سنوات عدة قليلة لاقى مواطنه (توريبيو رودريجيث دي ميدوثا) مشكلات كبيرة مع المحكمة ذاتها، وذلك لقيامه بإعداد محاضرات في الفيزياء والطبيعة، وإدخالها في برنامج الدراسة. وقد قام أيضاً رجال

الدين اليسوعيون في المنفى بمعارضة صريحة لنظام الحكم الإسباني المستبد. وقد برز من بينهم بعض رجال الدين اليسوعيين المكسيكيين، ولكن برز من بينهم بشكل خاص خوان ريانو بيسكاردو جوثمان (١٧٤٦-١٧٩٨) الذي قام بكتابة عمله الثوري (رسالة إلى الإسبان الأمريكيين من أحد مواطنيهم) وذلك في أثناء الاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة لاكتشاف الأمريكيتين. وبعد نشر هذا الكتاب في لندن تم نشره مرة أخرى في فيلادلفيا ثم انتشر بسرعة مذهلة في أرجاء القارة^(١).

وكان من بين المتحمسين والمروجين لأفكاره الفينزويلي فرانسيسكو دي ميراندا (١٧٥٠م-١٨١٦م) لأنه كان يُعدُّ رسالة بيسكاردو أول إعلان للثورة من أجل الاستقلال، كما قام المتعاطفون مع هذه القضية في فرنسا وإنجلترا بترجمة هذا العمل إلى الفرنسية والإنكليزية. ويلخص بيسكاردو في هذا العمل المنطق الجدلي للإسبان المولودين في العالم الجديد في كفاحهم ضد سياسة القمع الإسبانية، كما يعرض بإيجاز الأفكار السياسية، والاقتصادية المطروحة من أجل أمريكا الحرة الجديدة.

ففي هذه الأراضي الحرة التي يهيمن عليها الشعب، سيعامل الهندي أو سيلقى معاملة حسنة. وهذه الرسالة للرجل في المنفى استخدمت كعنصر قوي في الدعاية حيث كان يشار إليها، ويتم عرضها بإيجاز في إعلان الثورات الأولى في أمريكا اللاتينية وهذا العمل له قيمة خاصة؛ لأنه يضيف طابعاً سياسياً ودينياً على الكفاح من أجل الاستقلال، وذلك حينما يصرُّ بل ويجبر اللاتينيين على المطالبة بحقوقهم الطبيعية التي منحها الله للإنسان.

لقد قدم رواد الحركة الثورية خدمات جليلة للقضية الثورية. ومن المحتمل أن فرانسيسكو دي ميراندا الذي ذكرناه آنفاً يعدُّ أهم هؤلاء الرواد، حيث تعاون

(١) رودريجيث، ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١٨٧ وما بعد.

بالإضافة إلى مواطنين آخرين من أمريكا اللاتينية في حرب استقلال الولايات المتحدة. ولقد كانت حياة هذا المواطن المتحمس مليئة بالنشاط حيث عمل جنرالاً في الثورة الفرنسية التي كسب فيها احترام نابليون، وإعجاب الشعب الفرنسي. ويبرهن على ذلك اسمه الذي مازال محفوراً في قوس النصر في باريس، كما أنه كان رحالة لا يتوقف عن التجول، فقد تجول بأوروبا كلها. وفي روسيا سلب عقل كاتالينا العظيمة، وقام في لندن بتأسيس الرابطة الماسونية (لاوتاروا)، وقد تأثر بشكل مباشر بهذا الرجل شباب من أمريكا اللاتينية، أمثال: بوليفار، وسان مارتين، وأوهيجنز الذين أصبحوا قادة للثورات بعد زيارتهم لأوروبا. كما اقترح ميراندا إقامة إمبراطورية مستقلة للأنكا في أمريكا اللاتينية. وبفضل صداقته مع رجال الدين في الولايات المتحدة الأمريكية، فإنه قام بتنظيم حملة لتحرير فنزويلا في نيويورك، لكنه فشل لأن العمل العسكري كان مازال سابقاً لأوانه. وتعاون هذا الرجل الذي يعبد الحرية فيما بعد مع بوليفار، وعاد عام ١٨١٠م ليشترك في ثورة وطنه، لكنه وقع بعد عامين أسيراً في قبضة الإسبان حيث قادوه إلى مدينة قادش مكبلاً بالسلاسل، حيث لاقى منيته بها. وقام أنطونيو مارينيو (١٧٦٥م-١٨٢٣م) من بوجوتا، وكان صاحباً لإحدى أكبر المكتبات الخاصة في أمريكا بنشر إعلان حقوق الإنسان والمواطن وتوزيعها سراً، لكنه اكتشف، وأودع السجن، وتمت مصادرة أمواله وأرسل إلى إسبانيا سجيناً.

أما المواطن الكولومبي كاميلو توريس (١٧٦٦م-١٨١٦م)، فإنه قام بنشر (رسالة إلى الإسبان الأمريكيين)، وتظاهر ضد السلطات الإسبانية، ليلقى منيته في سبيل قضية الاستقلال الأرجنتيني. ماريانو مورينو (١٧٧٨م-١٨١١م) الذي نادى بالحرية الاقتصادية باسم أصحاب الأملاك في منطقة ريو دي لابلاتا، وكان يقرأ لزملائه المقالات حول الخدمة الشخصية للهنود، وقد قام بتأسيس جريدة بوينس إيرس عام ١٨١٠م التي تعد أول صحيفة في منطقة ريو دي بلاتا حيث قام

بنشر العديد من المقالات حول الانتخابات العامة والحريات المدنية والحريات الشعبية والمشكلات الاقتصادية الأمريكية بهذه الصحيفة، وفي العام نفسه ١٨١٠م قام بترجمة عمل جان جاك روسو (النقد الاجتماعي) الذي يتناول كيفية التزام الفرد بخضوعه للإرادة العامة أو للقيادة من أجل صالح المجتمع.

ب- الأوضاع الاجتماعية:

لقد احتفظت إسبانيا للإسبان المولودين فيها بإشغال الوظائف العامة واحتلالها، أما المخلطون، وعدد منهم من دماء إسبانية، رغم أنهم ولدوا في أمريكا، فإنهم قد أخذوا يحسدون ثم يحقدون على من ولدوا في إسبانيا. أما المخلطون من الهنود، والزنج، والذين كانوا يكونون طوائف أدنى. فلقد كان لهم أن يشتكوا أكثر من غيرهم. وحين أعلن توباك أماروا الثورة ثم قتل، عده الهنود آخر أبناء الشمس، رغم أنهم احتفظوا باتجاه سلبي تجاه الحكومة.

كما طبقت إسبانيا في القارة سياسة استعمارية عنصرية قامت على أساس تقسيم السكان بحسب اللون والعرق، وعدت أن العنصر الأوروبي الأبيض هو المهيمن، والمتفوق على باقي سكان القارة؛ مما أدى إلى حدوث اضطرابات، وشكاوى كثيرة داخل المجتمع الأمريكي. وبدأت تظهر للعيان الثورات العرقية، وعلى رأسها ثورة الهنود بقيادة توباك أماروا، وثورة الأفارقة الأمريكيين بقيادة نابليون الأسود (توسانت أوفيرتور).

وكان الكريول هم العناصر الرئيسية التي يمكنها أن تتخلص من الطغيان. فقد عانى هؤلاء من عقدة التفوق، وانعدام الثقة بالإدارة الإسبانية التي حرمتهم من حقهم الطبيعي بالمشاركة في إدارة شؤون بلادهم. لذلك قرروا الثورة لتولي الإدارة التي يُعدونها من حقهم الطبيعي. وكانوا قد قرؤوا روسو، ورينال، وديديور، وعرفوا كيف قام روبيرتسن بالقضاء على الطغيان الإسباني في كتابه عن تاريخ أمريكا

التي منعت مدريد نشره، وتداوله. وكانوا يعرفون مثل التحرر الذي أعطاه معمرو أمريكا، وزنوج سان دومينغو. وساعدت هذه العوامل كلها على ارتفاع درجة الحمى تحت شمس المناطق المدارية.

وكان للحركة التحررية أنصارها في مدريد نفسها فنجد، أن الكونت دراندا يقترح ألا تحتفظ إسبانيا إلا بكوبا، وبورتوريكو، وبجزء من أمريكا الجنوبية، وتضحي ببقية إمبراطوريتها، وتنشئ عدداً من الممالك المستقلة في المكسيك، وفنزويلا، والبيرو، ولصالح أبنائها في العالم الجديد. ولم يهتم أحد بهذا المشروع. ولكن الإسبان في أمريكا اللاتينية كانوا يعرفون أن البذور قد أخذت في النمو^(١).

ج- الأوضاع الاقتصادية:

كان المؤرخون البريطانيون يميلون إلى التعرف إلى بذور الثورة في عدم الاستقلال الاقتصادي للمستعمرات، والقوانين التي قيدت تجارتهم مع شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد عانت بريطانيا نفسها من هذا التقييد. وكان من الطبيعي أن يميل مؤرخو القارة الأمريكية ويركزوا اهتمامهم على ضمور الديمقراطية في المستعمرات الإسبانية، وعلى سخط المستعمرين من سيطرة مدريد، وعلى الحقيقة الواضحة من أن أعلى المناصب في المستعمرات كافة كانت محجوزة لأولئك المولودين في الأماكن التي لا يزال الأمريكيون اللاتينيون يطلقون عليها الوطن الأم. وكانت ثورة الكريول تعني من الناحية الفكرية بالنسبة لهم حفل الشاي في بوسطن، والمطالبة بعدم فرض ضرائب من دون تمثيل، وكذا قرارهم المتزن بإحلال الملكية بنظم

(١) جلال يحيى، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، ج ٢، ص

جمهورية، وبالرغم من أن هذا الرأي يحمل بعض الصحة إلا أن وجه الشبه هنا زائف مثله مثل الرأي البريطاني^(١).

كانت الثورة في المقام الأول نتيجة لنمو أرستقراطية الكريول على حساب الأرستقراطية الإسبانية. فقد نشأت هذه الطبقة -ولعدة أجيال- على أرض يُعَدُّونها ملكاً لهم، وهم الذين كانوا يسيطرون على زمام الهند الاقتصادية، لديهم مزارع وقطعان هائلة من العبيد، وهم التجار وكبار المستثمرين في المناجم، وهم النخبة الاقتصادية والاجتماعية في مجتمع يعطي للبيض المولودين في إسبانيا التفوق.

ومن جهة أخرى، فإن نفوذها السياسي يكاد يكون معدوماً؛ وقد عبّر سيمون بوليفار -أحد أشهر قادة الثورات- بكتابه "الحقوق التاريخية للثورة" بقوله: "حالة السكان في نصف الكرة الغربي سلبية بحتة ولعدة قرون، وجودها السياسي هو الصفر، نحن في حالة أسوأ من العبودية، وعلى الرغم من رفع بعض القيود الاقتصادية في عهد شارل الخامس، فقد ظهرت مشاكل جديدة جلبت القمع الذي ازداد مع انفجار الثورة الفرنسية. إن مركزية الإدارة الاستعمارية أدت إلى ازدياد الاحتجاجات. إن إسبانيا ترفض أي مشاركة لنا في حكومة بلادنا، وترسل أموالنا إلى إسبانيا، وتفرض قيوداً كثيرة على التنمية الاقتصادية في بلادنا.

وهكذا فقد كان الكريوليون يمثلون طبقة اجتماعية غنية لديها الإمكانيات المادية الكافية لتمويل العمليات العسكرية ضد الدول الأوروبية الأم؛ بغية الاستقلال عنها، والانفراد بالثروة والسلطان. وكان هؤلاء يشعرون بأنهم مظلومون من قبل الإدارة المدنية، ومن قبل الكنيسة والقضاء، ولا تعطى لهم الحقوق التي تعطى لزملائهم المولودين في إسبانيا أو البرتغال، كما ساءهم أن تكون مراكز الإدارة الرئيسية المهمة في إسبانيا والبرتغال لا في بلادهم حيث يعيشون، ويعملون،

(١) فرجسون، ثورات أمريكا اللاتينية، ص ١٤-١٥.

ويكدون. زد على ذلك عدم ثقتهم بسيادة سيطرة الدولة، واحتكارها التجارة والإنتاج بعد أن أمر القانون البرتغالي سنة ١٧٥٨م، مثلاً بإغلاق المعامل البرازيلية الخاصة التي تقوم بمعاملة الذهب والفضة والصوف والكتان؛ مما أدى إلى خنق الصناعة الوطنية البرازيلية لصالح الصناعة البرتغالية التي كانت تريد إبقاء البرازيل سوقاً مستهلكاً لها (وهذا ما يعبر عنه شاعر القرن السابع عشر الإسباني الساخر غريغوريو دي ماتوس غوريا بقوله: ليس البرازيليون سوى بهائم مضطرة إلى الشقاء طوال الحياة في سبيل المستغلين للصمص من البرتغاليين)^(١).

وجدير بالذكر، أن الكريول -خارج الدوائر المثقفة- لم يهدفوا من ثورتهم الوصول إلى النظام الديمقراطي الذي لم يعرفه على الإطلاق، ولعلمهم كانوا لا يقبلوه إذا مارسوه. وكان الدافع لمعارضتهم للحكم الإسباني في مناسبات عديدة، يعود إلى السخط إزاء الجهود الأبوية التي بذلتها مدريد لكي يعاملوا الهنود معاملة طيبة أكثر ما يعود إلى المثالية العالمية. ولكن معارضة الكريول الإنسانية للإسبان القاطنين بشبه الجزيرة الإيبيرية والذين كانوا يمثلون عبئاً ثقيلاً عليهم أدت من دون شك دوراً كبيراً في إبعادهم عن ولائهم التقليدي بالرغم من أنه من العدل القول: إن المجالس المحلية كانت تتمتع بالفعل بسلطات لها اعتبارها^(٢).

(١) ساطع محلي، ص ١٠٠.

(٢) فرجسون، ثورات أمريكا اللاتينية، ص ١٥.

ثالثاً - الثورات:

١ - مقدمات الثورات:

أ- ثورة باراغواي وثورات توباك أماروا وثورة أصحاب الأملاك في منطقة ثيب كبيراً:

لقد حدث خلال القرن الثامن عشر سلسلة من الثورات المتعاقبة من أجل الاستقلال، وكان من بين هذه الثورات ثلاث ثورات ذات أهمية خاصة، وهي: ثورة باراغواي، وثورات توباك أماروا، وثورة أصحاب الأملاك في منطقة ثيب كبيراً: قام مجلس مدينة أسونسيون في باراغواي بالثورة ضد الاتجاه المركزي للحكم الملكي؛ وذلك دفاعاً عن المؤسسات التي كانوا يمتلكونها آنذاك. لكن الثورة أو التمرد اكتسب بعد ذلك نغمة استقلالية بفضل القاضي خوسيه دي أنتكيريا حيث قام هذا الثائر بتنظيم الميليشيات، ومهاجمة القوات النظامية الإسبانية، ولكنه مني بالهزيمة، وقادوه إلى ليما حيث أعدم رمياً بالرصاص عام ١٧٣١م أمام الحشود الغفيرة الغاضبة من شعب البيرو الذين أبدوا تعاطفهم مع هذا الشهيد. وواصل أتباع أنتكيريا الكفاح بعد ذلك لبضعة أشهر، وكانوا يدافعون عن الفكر الثوري الذي كان يؤمن بأن سلطة الشعب أعلى وأقوى من سلطة الملك نفسه.

وفي عام ١٧٨٠م تمرد الهندي خوسيه جابريل كوندوركانكي، وأعلن نفسه ملكاً على الأنكا في البيرو، واتخذ اسم توباك أماروا الثاني، وقام بحشد جيش من الهنود بلغ تعدادهم ٦٠ ألفاً، واحتل كوثكو. وامتدت ثورته إلى أن وصلت جنوب البيرو، ورغم ذلك فقد استطاع نواب الملك في بوينس إيرس، وليما بإرسال أعداد لا حصر لها من القوات لإخماد هذه الحركة، وسقط توباك أماروا الثاني أسيراً عام ١٧٨١م، وتم تقطيع جسده إلى أشلاء حيث قاموا بقطع لسانه هو، وزوجته، وابن أخ له، وبعض أقاربه قبل إعدامهم. وواصل الكفاح من بعده أخوه ديبغو توباك

أماروا، ولكنه تخلى عن السلاح بعد أن حصل على عفو عام من إسبانيا عام ١٧٨٣م.

وفي الفترة نفسها من الثورة المسلحة التي نشبت في البيرو قام أصحاب الأملاك في ثيباكيرا الواقعة بالقرب من بوغوتا بالثورة ضد الضرائب الفادحة التي كانت مفروضة آنذاك، وامتدت صرخة الاحتجاج إلى عدة أقاليم أخرى مثل الأنديز في غرناطة الجديدة، وكذلك في بعض القرى القريبة من حدود فنزويلا. وقد أقسم هؤلاء بتوباك أماروا على إعادة تشييد إمبراطورية الأنكا، ولكن يد نائب الملك الصارمة عملت على جعل أصحاب الأملاك يتحلون بالهدوء.

ب- ثورة هاييتي:

بدأت معارك الحروب الاستقلالية أول ما بدأت في سانت دومينغو، وكان المحرك الأول للمساعي الاستقلالية في الجزيرة وصول الأخبار الاستقلالية إلى المستعمرات الفرنسية فيما وراء البحار من أوروبا بعد نجاح الثورة الفرنسية. وما خلفته من نزاعات فكرية بين الجماعات المختلفة، بين البيض من أصحاب المزارع الكبرى القابضين على الاقتصاد والعبيد المظلومين من المملوكين والمحرومين، والمولائين، والبيض الفقراء على قلتهم، وما تبع ذلك من ثورات مسلحة انتهت بحرب ضروس قادها السود من أبناء الجزيرة سنة ١٧٩١م بقيادة زعيمهم القوي نابليون الأسود توسانت أوفيرتور.

كان القائد الأسود مؤمناً بمبادئ الثورة الفرنسية لا يعترف بالفرقة العنصرية. السود والهنود والمولائون الأحرار والبيض المسالمون الذين لا يقفون في طريق الحرية العنصرية والسياسية سيان في نظره. وهذا ما دفع بكل الفئات المضطهدة إلى الالتفاف حوله في ثورة اتخذت شعاراتها من المبادئ التي أتى بها

ميرابو ولافييه وبروسبير ضد العبودية لضمان حقوق أهالي المستعمرات وإشاعة العدل فيها.

أعلن توسانت مبدأ التعاون السلمي بين سائر الناس بغض النظر عن ألوان بشرتهم، بعد أن اعترفت حكومة المديرين سنة ١٧٩٨ بحرية العبيد ومساواتهم مع الآخرين من أبناء البشر، وعينته قائداً عاماً أعلى لقواتها في جزيرة هاييتي ليكون أول أسود يرفع إلى منصب حكومي رفيع في المستعمرات الأوروبية البعيدة لينال فيما بعد بحنكته البالغة تنازلات لا بأس بها من البيض لصالح العناصر الجنسية الأخرى في البلاد على الرغم من معارضته من قبل خصومه من الطبقات الأرستقراطية من الكريوليين والمولاتيين المنحدرين من دم فرنسي، عن طريق العقوبات التي وضعها في سبيل تأخير تطبيق برنامجهِ الاجتماعي والاقتصادي والإصلاحي مدة طويلة؛ بغية الحفاظ على مكاسبهم، حتى اضطر أخيراً إلى استبدال سياسة السلم بسياسة العنف، وسفك الدماء في سبيل إنجاح عمله الثوري. ولعل هذه الثورة العنصرية هي التي أدت إلى خوف نابليون على ضياع الجزيرة، وبخاصة بسبب تحريضه من قبل جوزيفين الكريولية من دون أن يدرك، كما يقول هيربرت ويندت: إن مساعيه في سبيل إزاحة هذا الزعيم الأمريكي المصلح لن تؤدي إلى إعادة أحوال المستعمرة الفرنسية إلى ما كانت عليه؛ بل على العكس إلى استقلالها نهائياً عن فرنسا على يد الجنرال الأسود دسالين في الأول من شهر كانون الثاني ١٨٠٤م، الذي خلف بوناپرت الأسود، بعد تسليم الأخير نفسه إلى الفرنسيين عام ١٨٠٣م، وأعلن نفسه قيصراً على هاييتي تحت اسم القيصر جاك الأول.

أصبحت هاييتي مثلاً يحتذى في المستعمرات الأمريكية الشمالية للخلاص من البلد الأم إنكلترا بعد انتشار أفكار الثورة الفرنسية في البلاد الجديدة عن طريق رينال، ومونتسكيو، وروسو، وغيرهم. وقد ساعد على ذلك وصول قواد شجعان

محلين من سكان البلاد الأصليين إلى السلطة يؤمنون بالثورة الإصلاحية المعتمدة على المناداة بالاستقلال والمساواة والحرية، (مثل القائد أمارو من الأنكا)، ولكن نجاح الحركات الاستقلالية في أمريكا اللاتينية عن الدول الأوروبية لم يتم إلا بمساعدة الفئات الأخرى من السكان أنصاف الأوروبيين، وبشكل خاص الكريول أي الإسبان المولودون في أمريكا الذين عاشوا، وترعرعوا فيها.

٢- ثورة فنزويلا:

أ- فرانيسكو دي ميراندا (١٧٥٠م-١٨١٦م)

بعد أن أرغم نابليون بونابرت الملك الإسباني فرديناند السابع على التنازل عن عرشه، وعين أخاه جوزيف بونابرت مكانه، شعر الإسبان بالإهانة، ورفضوا الطاعة لنابليون، ورفضوا الخضوع لفرنسا التي عدوها دولة أجنبية تهدف إلى إخضاعهم لنفوذها، فكانت ثورتهم ضد نابليون وضد أخيه جوزيف، وأرسلوا إلى المستعمرات الإسبانية في أمريكا طالبين عدم الاعتراف بحكم الملك الجديد الذي أصبح حكمه يمتد إلى المستعمرات الإسبانية بحكم تبعيتها السياسية للأسرة الإسبانية المخلوعة. وكان لهذا النداء أثره الجذاب في سكان المستعمرات اللاتينية، فأعلنوا رفضهم المطلق للاعتراف بحكم جوزيف بونابرت عليهم. وشكل الإسبان مجلساً تنفيذياً مركزياً لإدارة حكم البلاد في كل من إسبانيا، والمستعمرات عام ١٨٠٨م متحدّين بذلك الحكم الفرنسي.

لقد انقسم سكان المستعمرات اللاتينية على أنفسهم: فمنهم من أيد المجلس التنفيذي المركزي، ومنهم من رفضه، وطالب بتشكيل مجالس تنفيذية في بلادهم تقوم بإدارة شؤونها السياسية والإدارية والمالية. وعلى الرغم من أنهم أعلنوا ولاءهم لأسرة البوربون المخلوعة، لكنهم كانوا في قرارة أنفسهم مقتنعين بضرورة الاستقلال

التام عن إسبانيا الأم على غرار ما قام به الأمريكيون في الشمال تجاه البريطانيين^(١).

إن النجاح الأول الذي حققته الثورات التي تفجرت من أجل الاستقلال قد حدث بعيداً عن مراكز السيطرة في أمريكا اللاتينية (ليما والمكسيك)^(٢). فقد قامت حركات ثورية في فنزويلا ضد إسبانيا تطالب بالحكم الذاتي، لكن تصلب الموقف الإسباني ضدها جعلها تطالب بالاستقلال التام بدلاً من الحكم الذاتي. وتكونت جماعة حربية، أو مجلس ثورة في فنزويلا، وادعت أنها تحتفظ بحق السيادة الشرعية، وسمحت بانتخاب مؤتمر تضاربت فيه وجهات نظر الملكيين أنصار إسبانيا، ووجهات نظر الجمهوريين أنصار الحرية. وفي ١٩ نيسان ١٨١٠م تمكن المجلس الثوري من الإطاحة بالحاكم الإسباني فنسينت دي امبران وإقامة حكم عسكري. في عام ١٨١١م أعلن المجلس الوطني استقلال فنزويلا كجمهورية منفصلة عن السيادة الإسبانية، واختار هذا المؤتمر ميراندا قائداً عاماً سنة ١٨١١م.

يعد فرانسيسكو دي ميراندا (١٧٥٦م-١٨١٦م) أشهر قادة حرب الاستقلال الأمريكية الأوائل. فقد اشترك بحروب الثورة الفرنسية، وعرف بدعوته في فرنسا وإنكلترا إلى تحرير أمريكا اللاتينية من الإسبان.

كان ميراندا هذا يحلم بأن يجعل أمريكا اللاتينية كلها -ما عدا البرازيل- دولة واحدة يقوم على رئاستها قيصر مختار من الأنكا بمساعدة مجلسين للنواب، على غرار نظام الحكم في إنكلترا، وأنظمة إدارية أخرى مقتبسة من روما، ومن دستور الولايات المتحدة الأمريكية. وقد نجح ميراندا بين عامي ١٨١١م و ١٨١٢م

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، المرجع نفسه، ص ٨٦-٨٧.

(٢) رودريجيث، ص ١٩٢.

في الوصول إلى منصب القائد العام للجمهورية الأمريكية الأولى فنزويلا ثم أصبح رئيساً دكتاتوراً^(١).

وقد تعرضت الحركة الثورية الفنزويلية إلى انتكاسة عندما حاربها المؤيدون للحكم الإسباني من جهة (الملكيون)، ونتيجة لوقوع الزلزال الذي دمر المدن التابعة للوطنيين الجمهوريين، ولم تتعرض له المدن الأخرى الواقعة تحت سيادة المؤيدين لإسبانيا من الجماعة غير الجمهوريين من جهة أخرى، ونتيجة لقيام رجال الدين الكاثوليك بدعم الحكومة الإسبانية عندما أعلنوا للسكان بأن الزلزال هو عقاب للجمهوريين، وإشارة واضحة على أن الله لا يؤيدهم في حركتهم الانفصالية عن إسبانية الأم من جهة ثالثة. فاستطاع أنصار الحكم الإسباني التغلب عليه، وعلى أنصاره، وتم أسره وإرساله، إلى قádiz. وهكذا فشلت ثورة ميراندا عام ١٨١٢م وانتهى الأمر منفيًا في إسبانيا حيث مات هناك عام ١٨١٤م^(٢).

ب- سيمون بوليفار (١٧٨٣م - ١٨٣٠م)

بوليفار هو الشخص الذي تدين له جمهوريات أمريكا اللاتينية باستقلالها عن الحكم الإسباني. ولد سيمون بوليفار القائد الثوري والسياسي في كاراكاس " فنزويلا" في ٢٤ تموز عام ١٧٨٣م، تأثر خلال دراسته بالفلسفة، ودرس بشكل خاص جان جاك روسو الذي ترك أثراً عميقاً في شخصيته. سافر بوليفار في مطلع شبابه إلى فرنسا حيث التقى بالعالم الألماني إسكندر هومبولت الذي نقل له اعتقاده بأن المستعمرات الإسبانية في حالة استعداد للتحرر، فراقت الفكرة لبوليفار، وأخذ يمعن النظر في تحرير بلاده.

(١) ساطع محلي، ص ١٠١.

(٢) عبد الفتاح حسن أبو علي، تاريخ الأمريكيتين، ص ٨٨.

في العام ١٨٠٧م عاد بوليفار إلى فنزويلا واشترك في الاجتماعات الوطنية للإطاحة بالسلطات الإسبانية التي كانت تحكم بلاده. وانخرط في الجيش تحت قيادة فرانسيسكو ميراندا، وأصبح عقيداً ثم عميداً. وبعد هزيمة الجمهورية الفنزويلية بقيادة ميراندا، غادر بوليفار إلى قرطاجنة في غرناطة الجديدة التي أصبحت فيما بعد باسم كولومبيا. ومن هناك أكد أن انقسام شعب فنزويلا هو الذي أعادها إلى العبودية، فتجاوب معه شعب غرناطة، وتم تعيينه قائداً لحملة هدفها تحرير فنزويلا.

في العام ١٨١٣م اشتبك مع الإسبان في ست معارك، ودخل منتصراً إلى كاراكاس بصفته منقذاً للبلاد. وحصل من جراء ذلك على لقب "المحرر"، واستولى على الحكم، إلا أنه أسس حكماً ديمقراطياً قوياً، وأنزل أحكاماً قاسية بمعارضيه؛ مما أدى إلى اندلاع حرب أهلية، فاستغلت إسبانيا الوضع وأعدت احتلال كاراكاس، في حين غادر بوليفار فنزويلا، والتجأ إلى كارتاجينا. واصل بوليفار ثورته، وأقام اتصالات مع ثوار السهول الذين انضموا إليه، وفي ربيع ١٨١٩م قاد حملة لضرب القوات الإسبانية في غرناطة الجديدة. ويُعدُّ هذا الهجوم من أكثر الحملات جرأة في تاريخ الحملات العسكرية؛ إذ قام به جيش صغير (٢٥٠٠ رجل) سلكوا طريقاً صغيراً في جو ممطر، وقطعوا بحيرات وجبالاً، كان الإسبان يُعدُّون المرور فيها متعذراً، وحتى مستحيلاً.

بعد استسلام القوات الملكية لبوليفار، تم إعلان جمهورية كولومبيا الكبرى، وانتخابه رئيساً ودكتاتوراً عسكرياً. لكن هذه الدولة الفيدرالية التي ضمت فنزويلا وكيكو (الإكوادور) وغرناطة الجديدة، كانت حبراً على ورق؛ لأن فنزويلا وكيكو كانتا لا تزالان تحت سيطرة إسبانيا. وشعر بوليفار أن الثورة في أمريكا الجنوبية أصبحت حتمية، فعاد لمجابهة القوات الملكية، وحرر كاراكاس في حزيران

١٨٢١م، فأخذت بذلك تسمية جمهورية فنزويلا البوليفارية. جاءت بعدها الإكوادور في أيار عام ١٨٢٢م. وبذلك تم تحرير جمهورية كولومبيا الكبرى بأسرها. ولم يبق بأيدي المستعمرين سوى البيرو التي تمكن بوليفار من تحريرها في كانون الأول ١٨٢٤م باستثناء القسم الأعلى منها الذي حرره مساعده بعد عام فقط. واتخذت هذه الدولة اسم بوليفيا تيمناً ببوليفار. أصبحت جمهورية كولومبيا الكبرى تضم كلاً من فنزويلا، وكولومبيا، والإكوادور، وبوليفيا. في عام ١٨٢٦م شكّل القائد المنتصر حلفاً يضم دول أمريكا الإسبانية. ووقعت إثر ذلك معاهدات بين كولومبيا، والبيرو، وأمريكا الوسطى، والمكسيك التي اتخذت قراراً فيما بينها بإنشاء جيش، وأسطول مشتركين، وتعهدت بأن تحل جميع مشاكلها بالتحكيم. في مطلع عام ١٨٢٧م، دبّ الخلاف بين بوليفيا وفنزويلا فأصلح بوليفار الوضع، إلا أن الأخيرة ما لبثت أن انفصلت عن كولومبيا الكبرى في شتاء عام ١٨٢٩م وبعدها بدأت سلسلة تطور جمهوريات أمريكا اللاتينية إلى تقسيماتها الجديدة، أصيب بوليفار باليأس، وغادر البلاد بناءً على دعوة أحد الإسبان المعجبين به. وكذا أنهى بوليفار حياته في بيت إسباني في كانون الثاني عام ١٨٣٠م ليتحطم الحلم بوحدة أمريكا اللاتينية.

٣- سان مارتن (قديس السيف) وثورة الأرجنتين والبيرو:

قام مجلس بوينس إيرس في ٢٥ أيار عام ١٨١٠م بإعلان استقلال ولاية ريو دي بلاتا، وكان مانويل بيلجرانو (١٨١٠م-١٨٢٠م) عضو المجلس الثوري، يرغب في إعادة إقامة إمبراطورية الأنكا بالرغم من أن الوقت والظروف لم تكن مؤاتية لتحقيق هذا المشروع أو أي مشروع آخر، وكان لابد من هزيمة القوات الإسبانية في البيرو، وفي باقي أرجاء أمريكا اللاتينية لكي يتم توطيد الانتصار الوطني.

ولتحقيق هذا الهدف خرج **بيلجرانو** على رأس جيش لمساعدة المواطنين الثوار في البارغواي، لكن حملة المساعدات هذه فشلت، وتم إرسال **بيلجرانو** بعد ذلك لمحاربة القوات الإسبانية في تشاركي ببوليفيا، وهي القوات التي كان قد أرسلها نائب الملك في البيرو إلى هذا الإقليم.

وهزمت قوات **بيلجرانو** أمام القوات الإسبانية، وحينئذ قامت قيادة الثورة في بوينس إيرس بتكليف الجنرال خوسيه دي سان مارتين (١٧٧٨م-١٨٥٠م) بقيادة الجيوش الأرجنتينية. وهو قائد محنك تمرس في الحروب حينما كان يحارب في إسبانيا ضد قوات نابليون. وكان سان مارتين يعلم تماماً أنه من الصعب اقتحام البيرو عن طريق تشاركي، ومن أجل ذلك فإنه استعد لتحرير شيلي، وسلك طريق ميندوسا بقواته، وعبر السلاسل الجبلية في عام ١٨١٧م بجيش الأنديز الذي كان يتألف من أربعة آلاف مقاتل حيث قام ببطولة عسكرية أعظم من عبور جبال الألب الذي قام به هانيبال، ونابليون.

هزم سان مارتين الجيش الإسباني الذي كان قد انتصر على الحركة الثورية الأولى في شيلي، وذلك أثناء معركة تشاكابوكو عام ١٨١٧م، وسمح هذا الانتصار لقوات جيش الأنديز باحتلال عاصمة شيلي، وتم اختيار سان مارتين قائداً أعلى، ولكنه تنازل عن المنصب لبرناردو أوهيجنز.

وفي عام ١٨١٨م وعلى ربوة مايبو التي تقع على بعد بضعة أميال من مدينة سنثياغو دي شيلي لقيت القوات الإسبانية الهزيمة النهائية. وهكذا تمت المرحلة الأولى من خطة سان مارتين، وبعد تأكيد استقلال شيلي أمر سان مارتين قواته المحررة بالتوجه نحو البيرو؛ لقتال القوات الإسبانية.

ورحلت القوات في عام ١٨٢٠م من منطقة باليا، وكان قوامها ٤ آلاف رجل و ١٥ ألف بندقية بقيادة القائد الإنكليزي توماس إيه كوتشاريه (١٧٧٥م-١٨٦٠م)، ونزلت القوات المتحدة جنوب ليما في خليج باراكاس، ويطلق على هذه

المدينة اليوم اسم الاستقلال (لا إندبندنسيا)، حيث قامت القوات باحتلال مدينة بيسكو المجاورة بسرعة، ومن دون أية صعوبات. وضرب الحصار حول ساحل البيرو، وخرج نائب الملك سيرنا مع أربعة آلاف رجل صوب الجبال، وحينئذ أسرع سان مارتين بتحرير ليما، وهناك أعلن استقلال البيرو، وذلك في ٢٨ تموز ١٨٢١م بكلماته الشهيرة الآتية "لقد أصبحت البيرو منذ هذه اللحظة دولة حرة مستقلة، وذلك بفضل إرادة شعبها، وعدالة قضيتها التي يدافع عنها الله".

ولأن الكفاح في البيرو كان وضعه محيراً، كما أن المواطنين لم يُعدّوا أنفسهم أقوى بما يكفي لكي يستطيعوا هزيمة الإسبان، ومن أجل هذا أبحر سان مارتين لكي يقابل بوليفار في جوا ياكيل لكي يطلب منه المساعدة. وحينما عاد سان مارتين إلى ليما جمع المجلس، وتنازل في العشرين من أيلول عام ١٨٢٢م عن السلطات جميعها التي خولت إليه، ورحل إلى الأرجنتين. وغادر بعد ذلك موطنه، حيث نفى نفسه إلى فرنسا، وهناك لقي حتفه عام ١٨٥٠م، وعاش في فقر مدقع. ونسيه أولئك الذين ضحى لأجلهم كي ينالوا حريتهم، ولأنه كان روحاً من الأرواح النبيلة، ولأنه كان أقل طموحاً من رواد الحركة الاستقلالية في أمريكا اللاتينية، فإنه قد أطلق عليه بحق لقب "قديس السيف".

٤ - استقلال المكسيك:

في الخامس من أيلول عام ١٨١٠م قام القس ميغيل أيدالجو أي كوستيا (١٧٥٣م-١٨١١م) الذي كان يخدم في قرية صغيرة تدعى دو لورس بالثورة مطلقاً صرخة الحرب "فليحيا الملك فرديناند السابع وليمت الجاتوبينيس (ويقصد بهؤلاء الإسبان الذين كانوا يريدون الاستقرار في أمريكا)" واستطاع أيدالجو بجيش قوامه ٥٠ ألف رجل يحملون راية "عذراء جوادالوبي" باحتلال مدينة غوانا خوانوا، وعلى إثر ذلك قامت الكنيسة في مدينة المكسيك بتحريم الكنيسة عليه،

وأعلنته مهرطقاً. وبعد احتلاله لمدينة بايا دوليد التي يطلق عليها اليوم اسم موريليا أصبح قوام جيشه ثمانين ألفاً، وواصل زحفه باتجاه العاصمة، ووصل إلى مشارفها، ولكنه تردد، وامتنع عن الدخول فيها، وشرع بالتقهقر بسرعة. وقد أثار هذا الخطأ التكتيكي الغضب بين الهنود، كما ترك الجيش مجموعات كبيرة من المقاتلين، وبدأ الجيش الثائر يتقلص بسرعة كبيرة مثلما تكون. ومن حسن حظه أن مدينة جواد لاخارا سقطت، وأصبحت تحت سيطرته حيث استطاع إعادة تنظيم الجيش حتى اكتمل عدده مئة ألف، ولكن الحرب للأسف أخذت دوراً سيئاً حيث سقط القائد أيدالجو مع بعض من جنرالاته في الأسر، وتم إعدامهم، وعلقت رؤوسهم حتى عام ١٨٢١م.

وبالرغم من أن الشمال خسر الثورة بموت المواطن العجوز إلا أن القس خوسيه ماريّا موريلوس أي بانوبه (١٧٦٥م-١٨١٥م) استمر في الكفاح بالجنوب. واستولى عام ١٨١٥م على قلعة أكابولكو، وعقد بالقرب من هذا المكان مجلس الثورة، وقامت هذه الهيئة التشريعية بإعلان استقلال المكسيك، وأعلنت موريلوس قائداً أعلى للقوات. وواصل زحفه إلى مدينة بايا دوليد، لكن قوات نائب الملك الإسباني هزمت هزيمة ساحقة. وتم القبض عليه عام ١٨١٥م وتم إعدامه.

لكن الكفاح المسلح المكسيكي لم ينته بموت موريلوس. وفي بداية عام ١٨١٦م وبالرغم من أن الثوار كان لديهم ستة وعشرون ألف جندي يتزعمهم قادة جسورون أمثال (بيسنتي جريروا، وجوادلوبى فيكتوريا، ومانويل ميران تيران)، إلا أن هذا العام كان يمثل كارثة بالنسبة للمواطنين. وفي عام ١٨١٧م نزلت حملة على ساحل المكسيك تضم أبطالاً دوليين، وكان يتزعمها فرنسيكو خابيير مينا (١٧٨٩م-١٨١٧م) وهو شاب فدائي إسباني اشتهر في أثناء الحرب ضد نابليون، وقد قرر الكفاح لكي تنال المكسيك استقلالها، وحريتها. وكان قد أتى معه في هذه الحملة ٣٦ ضابطاً من جنسيات مختلفة إسبان، وفرنسيين، وإنكليز، وإيطاليين،

وأمرىكين. وهذه الحملة تمّ تنظيمها في لندن عام ١٨١٦م، وزادت قوتها في الولايات المتحدة، وسانتو دومينغو التي كانت قد تحررت في ذلك الوقت من إسبانيا.

وبعد أن نزل مينا في المكسيك زاد من عدد قواته العسكرية إلى أن بلغت ١٠٠ ألف، وحارب بشكل بطولي إلى أن سقط أسيراً، وقام المدافعون عن التاج بإعدامه رمياً بالرصاص، ولم يكن يتجاوز الثامنة والعشرين من العمر. وهكذا وضعت القوات النظامية نهاية لواحد من الفصول غير العادية في تاريخ المكسيك. وفي عام ١٨١٩م وجد الثوار أنفسهم مهزومين تماماً باستثناء بيسنتي جريرو الذي استمر في المقاومة في الجنوب. وفي العام التالي أعيد قيام الدستور الليبرالي الإسباني لعام ١٨١٢م، ويرجع الفضل في ذلك إلى التمرد الذي قام به الجنرال رفائيل بيجوا (١٧٨٥م-١٨٢٣م). ولقد ألقى انتصار الليبراليين الإسبان الرعب في قلوب المستبدين المكسيك، ومن أجل ذلك فإنه حينما أعلن نائب الملك قيام الدستور الليبرالي، فإن الأرستقراطيين (الكرىول) بدؤوا يعتقدون قضية الاستقلال التي لم يشعروا بها من قبل، وبدؤوا يتآمرون ضد الإسبان. فعلى سبيل المثال أعلن الكرىول أوغسطين أتوربيدي (١٧٨٣م-١٨٢٤م) الذي كان يشغل منصب كولونيل في الجيش الإسباني، وكان مشهوراً بأعماله ضد المواطنين، وانضمامه إلى الثوار المحافظين في ٢٤ شباط عام ١٨٢١م، وأعلن الثورة في أجوالات. وقد اقترح في خطته الشهيرة التي يطلق عليها اسم "خطة أجوالات" ثلاثة ضمانات أو شروط وهي:

١. أن تحول إسبانيا الجديدة إلى مملكة مستقلة تحت حكم الملك فرديناند السابع أو أي أمير أوروبي آخر.
٢. الحفاظ على امتيازات الكنيسة الكاثوليكية.
٣. المساواة بين الأجناس جميعهم.

وبعد انتظار وصول فرديناند السابع الذي كان قد وعد بالهروب من ليبرالي إسبانيا، والإقامة في المكسيك، ولكن ذلك كان سدى، وقام أتوريبيدي بتتويج نفسه إمبراطوراً في عام ١٨٢٢م متخذاً اسم أوغستين الأول، ولكن فترة حكمه لم تستمر طويلاً؛ وذلك لأن الكولونيل الشاب أنتونيو لوبيث دي سانتا أننا قام بالثورة بفرقة العسكرية حيث استطاع الحصول على مساندة الجنرال جوادا لوبي دي فكتوريا الذي كان يعادي النظام الملكي.

وقام المجلس بحل الإمبراطورية، ودعا لانعقاد جمعية دستورية، وأعلن قيام الجمهورية عام ١٨٢٣م، ورحل أتوريبيدي إلى المنفى في إيطاليا، لكنه ارتكب حماقة بعودته إلى المكسيك عام ١٨٢٤م، وبمجرد نزوله الأراضي المكسيكية سقط في الأسر، وتم إعدامه بسرعة، وهكذا انتهت أول تجربة ملكية في المكسيك.

٥ - البرازيل وبقية المستعمرات:

وكذلك نجحت البرازيل في الانفصال عن البرتغال، وإن كان ذلك الانفصال قد حدث من دون مشاكل. فعندما طرد الفرنسيون الملك يوحنا السادس من دولته، ذهب، وأقام في ريو دي جانيرو عام ١٨٠٨م، وفتح البرازيل على التجارة الأجنبية، وأعجبه البرازيل بدرجة أنه نسي أن يعود إلى بلاده بعد انهيار إمبراطورية نابليون، فاضطر الكورتيز إلى الإصرار على ضرورة عودته إلى البرتغال سنة ١٨٢١م، وسمحوا له بترك ابنه بيدرو نائباً عنه هناك، ووصياً على العرش. ولم تكن المستعمرات الإسبانية المجاورة كلها قد نجحت في التخلص من سيطرة مدريد، ولذلك فإنه حينما قام الكورتيز في لشبونة بمحاولة إعادة البرازيل إلى وضعيتها كمستعمرة، وطلب من بيدرو في سنة ١٨٢٢م العودة إلى البرتغال، أعلن البرازيليون أن بيدرو هو حاميمهم، ثم إمبراطورهم الدستوري، فانتهى الانفصال

برئاسة أباطرة من الأسرة المالكة نفسها في البرتغال، قبل أن تأخذ البرازيل سيرها في شكل جمهورية لها معيشتها الخاصة.

لقد تحررت كل أمريكا اللاتينية، ولم يبق فيها إلا المستعمرات الأوروبية في غويانا، وهندوراس البريطانية، ورغم ذلك فإن إسبانيا قد احتفظت بجزر الأنتيل؛ ولأسيما كوبا التي حضر إليها أنصار الملكية بعد طردهم من شبه الجزيرة الإيبيرية. أما إذا تساءلنا عن السبب الذي لم تسمح لكوبا بالتحرر، فإننا نلاحظ أن الولايات المتحدة بعد ضمها لفلوريدا كانت تُعدُّ كوبا امتداداً طبيعياً لشبه جزيرة فلوريدا لذلك قررت ترك الإسبان فيها حتى لا تقع في أيدي الأنكلوساكسون.

وكانت سان دومينغو آخر المستعمرات، لقد عاد القسم الغربي من هذه الجزيرة لفرنسا على الورق سنة ١٨١٥م، وفي أثناء معاهدات الصلح. ولكن المخلطين والزنج كانوا يسيطرون عليها. رغم أنهم كانوا يتحاربون فيما بينهم، فرفضوا المفاوضة مع مندوبي باريس. ولم يكن هناك داع للإصرار، خاصة وأن تحرير العبيد كان يغير أحوال الإنتاج، كما كانت منافسة سكر البنجر (الشوندر) قد هزت احتكار سكر قصب السكر من أساسه. ولذلك فإن حكومة باريس قد تنازلت عن ادعاءاتها عام ١٨٢٥م نظير وعد بتعويض المستوطنين القدماء. وأصدرت باريس مرسوماً ملكياً في السنة نفسها، منحت فيه الاستقلال للمواطنين في سان دومينغو، رغم أنهم كانوا مستقلين بالفعل منذ سنوات طويلة.

وحينما اشتملت جمهورية هايتي على كل الجزيرة، كانت تختلف عن جمهوريات أمريكا الشمالية والجنوبية؛ لأنها لم تكن دولة للمعمرين؛ بل كانت أولى العمليات التي ينجح فيها الرجال الملونون أمام استعمار الرجل الأبيض.

خاتمة:

إن حروب الاستقلال لم تضع الأمريكيين في مجال مضاد تماماً للإسبان، فكما رأينا فإن حروب الاستقلال بدت تقريباً حرباً أهلية حيث أجبر الأمريكيون الهنود بشكل خاص على الكفاح من أجل القضية الملكية. ومن جهة أخرى فإن بعض الإسبان حاربوا بشكل بطولي من أجل تحرير المستعمرات، كما وقف الكثير من المولدين الإسبان إلى جانب قضية التحرير، وقد حارب أيضاً في كلا الجبهتين هنود، ومولدون وزنوج وغالباً ما كانوا مجبرين على القيام بذلك، فعلى سبيل المثال قام جيش مؤلف من الأفروبيروانوس (ويقصد بهم الزنوج الأفارقة في البيرو سواء العبيد أو العتقاء) بإخماد ثورة مواطني الإكوادور في منطقة كيتو، وقام جيش آخر مؤلف من هنود البيرو بإخماد حركة الاستقلال الأولى في شيلي، وشارك كريول من البيرو في المعارك التي شنت ضد المواطنين في بوينس إيرس، وفي بوليفيا، وفي شمال غربي الأرجنتين. ومن المحتمل أن ذلك حدث بسبب التقديرات المختلفة التي أعطيت للثورة الأمريكية من أجل الحصول على الاستقلال، وحول ممثليها الانفصاليين، وهكذا فإن البعض قد تعاطف مع نظام الحكم المطلق الإسباني بينما ساند الآخرون قضية التحرير الإسبانية التي فهموها أولاً بطريقة خاطئة حينما اعتقدوا أن ممثليها هو فرديناند السابع ثم صدر دستور قادش لعام ١٨١٢م بعد ذلك.

وقد أدى هذا إلى انقسام الإسبان لدرجة أن بعضهم مثل البطل فرنسيسكو خابيير مينا قرروا الكفاح ضد أشكال الطغيان والاستبداد جميعها بالرغم من أن مواطنيهم كانوا يمثلون هذه الأشكال، واتضح أن الأغلبية من قادة أو زعماء القضية الوطنية من الكريول، ومن الممثلين عن الطبقة المهاجرة كانوا يرغبون في الحصول على حريات أكبر من أجل مؤسساتهم الاقتصادية الخاصة. كما أن الكثير من المولدين الذين تأثروا بالأفكار الثورية اعتنقوا قضية الاستقلال.

فيما يتعلق بالهنود والزنج، فإنهم تأقلموا على الظلم والاضطهاد، ومع ذلك فإنهم لم يستوعبوا تماماً الفكر التحرري. وأجبر سادتهم العديد منهم على الحرب في جبهات مضادة. والاستقلال مثلما كان يخيّل للبعض لم يكن ليؤثر عليهم كثيراً، لأنه كما سنرى بعد ذلك أن الثورة الانفصالية التي بدأت في بدايات القرن التاسع عشر اتضح أنها ثورة استعمارية، لأنها قدمت سادة جسدوا جموع الهنود والمولدين والزنج^(١).

(١) رودريجث، ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ص ١٩٩-٢٠٠.





الفصل العاشر
الحرب الأهلية



مقدمة:

إن الباحث المدقق لما يجري في الولايات المتحدة يستطيع إقناعنا بسهولة بأن هناك تيارين متعاكسين في تلك البلاد، حيث يجريان متعاكسين في القناة نفسها، هذان التياران المتعاكسان، هما: (القومية) و(الإقليمية). فبنمو الأمة كانت تنمو قوة كل من هذين التيارين، وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، حاول قادة الطرفين - القوميون والإقليميون - جاهدين على الإبقاء على وحدة البلاد. لقد تناقشوا وأصدروا قوانين متسامحة. وسنرى كيف أنهم حاولوا بجد وحزم، وكيف أنهم كانوا قد فشلوا في هذه المهمة، أمة انقسمت على نفسها، ولم يجد طرفاها بداً من اللجوء إلى القوة لتحقيق ما يريدان.

لقد كانت الحرب الأهلية أكثر الحروب الأمريكية دموية، وأكثر الحروب العالمية دموية في القرن التاسع عشر، فمن كل عشرة دخلوا الحرب قتل أو جرح أربعة منهم. وبذلك يمكن القول: إنه لم تدفع أية أمة حديثة أعلى من هذا الثمن للحفاظ على تماسكها^(١).

بحلول النصف الثاني من القرن التاسع، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تتمتع بازدهار كبير يعم مختلف أنواع الحياة في البلاد. وبعد نظرة فاحصة في الوقت نفسه يمكن القول أيضاً بأنه كانت توجد هناك دلالات واضحة على وجود تباين - وبعبارة أدق انقساماً - بين شمال وجنوب هذه الولايات. هذا التباين أخذ بالظهور بشكل متزايد الواضح، فأمريكا التي أرادها الرئيس واشنطن أن تكون دولة فدرالية موحدة كان يبدو أنها في منتصف القرن التاسع عشر تتجه نحو أن تكون دولتين: الولايات المتحدة الأمريكية الشمالية، والولايات الأمريكية الجنوبية. هذا التباين المذكور كان يتزايد مع الازدهار الاقتصادي، والتطور الحضاري العام

(١) محمد محمود النيرب: المدخل في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ٢١٨.

للبلاد. فبينما كانت الولايات الشمالية تتجه لأن تكون المركز الرئيس للصناعة والمال والتجارة كانت الولايات الجنوبية تتجه نحو تطوير زراعة القطن، والأرز، وقصب السكر، بحيث تصبح هذه الزراعة دعامة اقتصادها الأساسية. وبهذا يمكن القول بأن كلا من الشمال والجنوب كان يسير في طريق اقتصادي مختلف عن الآخر، مع ما يؤدي إليه هذا الاختلاف من تباين في العقلية، ونوعية التفكير، وطرق الحياة عند سكان الإقليمين.

والواقع أن التباين الاقتصادي كان انعكاساً للتباين الطبيعي بين الإقليمين، فطبيعة كلاهما مختلفة من حيث التكوين الجيولوجي والجغرافي؛ وبالتالي المناخ والتربة والمياه. وبناءً عليه كان لا بد أن يكون لكل منها أسلوبه الاقتصادي الخاص؛ ذلك الذي يفرض بالضرورة نمط معين من التفكير السياسي. وهكذا فإن انقسام البلاد إلى مجتمعين: صناعي في الشمال، وزراعي في الجنوب، أوجد تضارباً للمصالح بينهما. هذا التضارب في الواقع بدأ في الظهور منذ عهد الاستقلال، ولكنه أخذ في التزايد مع مطلع القرن التاسع عشر، وأخذ ينذر بكارثة الانقسام بين القسمين مع بداية النصف الثاني للقرن التاسع عشر^(١).

(١) المرجع السابق، ص ٢٢١.

أولاً- الأسباب العامة للحرب الأهلية:

١- قضية الرقيق الأسود:

من الطبيعي أن تظهر قضية مهمة كقضية الرقيق في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك لازدياد نسبة الرقيق بازدياد حركة استجلابهم من إفريقية نتيجة للضغط المتزايد عليهم في الولايات الجنوبية الأمريكية التي تشكل الزراعة أساس الحياة الاقتصادية فيها. وطبيعي لا بد وأن تظهر مشكلات أساسية في العلاقات الاجتماعية بين البيض الأسياد، والبيض الرقيق الذين يعاملون معاملة العبيد في تلك البلاد، كما أن هذا الأمر لا بد أن يؤثر في العلاقة بين ولايات أمريكية تفر الرق، وتشجعه، وأخرى لا تقره في دساتيرها؛ بل وتبغضه أحياناً.

نعم لقد كان وضع الرقيق الأسود في الولايات الجنوبية وضعاً مزرياً، فهم يعملون في المزارع من الفجر إلى الليل، ويشرف عليهم رجل زنجي مثلهم يضربهم بالسوط حال تفاقلهم وتباطئهم عن العمل. وكان يشرف على الجميع رجل أبيض يراقب العمل عن كثب. وكان طعامهم رخيصاً، وغير مكلف، ولا أجور لهم. وكانوا جهلة ليس من حقهم التعلم ودخول المدارس. إنه عمل مضنٍ، وشاق، وعناية قليلة، وجهد وتأزم في أحوالهم النفسية. هذا كله سبب هوة واسعة بين الرجل الأبيض والرجل الأسود، وقد تراكمت البغضاء حتى وصلت بينهم إلى حد الكره، وشكلت الحالة هذه حواجز نفسية بين المجتمع الأبيض وبين جماعات السود في الولايات المتحدة الأمريكية.

وبناءً عليه فقد انقسمت الولايات المتحدة الأمريكية إلى اتجاهين:

- الأول: يطالب بإبقاء الرق؛ لأنه يساعد على تدمير الأرض، وزراعتها، واستيطانها بأقل تكلفة اقتصادية، أضف إلى هذا كله مسألة تنصير جماعة وثنية. وفي هذا العمل خدمة جليلة للمسيحية.

• والثاني: ويطالب بالغاء؛ لأنه ظلم واضح لفئة بشرية؛ ولأنه لا يساوي بين أفراد المجتمع المتعايش في ظل قانون واحد، ومواطنة واحدة، وآمال وآلام واحدة؛ ولأنه يولد الكره بين فئات المجتمع في الولايات الأمريكية؛ ولأنه يتعدى على حقوق الإنسان. وقد تبنت الولايات الأمريكية الشمالية هذا الاتحاد، ووضعته موضع التنفيذ. فألغى دستور ولاية ماساتشوستس الرقيق عام ١٧٨٠م.

وحرر دستور ولاية نيويورك العبيد عام ١٧٩٩م. وعملت ولاية بنسلفانيا على تحرير الرقيق بشكل تدريجي. ومنع إدخال العبيد إلى الولايات الجديدة، مثل: ولايات وسكانسن، وميتشيغان، والينوي، وإنديانا، وأوهايو. وقامت جمعيات تطالب بتحرير الرقيق، وإعادتهم إلى موطنهم الأول في إفريقية. وكان رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، والمؤسسون في الولايات الشمالية يعيرون على البلاد العمل بقانون الرق. ولكن كانت هناك أمور تجعل الولايات الجنوبية تتمسك به، كازدياد زراعة القطن والطلب عليه، واتساع نطاق زراعة قصب السكر، واتساع نطاق الأراضي الزراعية، وحاجة الجنوب إلى عمال في هذه المجالات. كما أن الرقيق كان يشكل قناة اقتصادية من قنوات الاقتصاد في الولايات الجنوبية. وكان يشكل ثروة كبيرة لدى الكثير من البيض؛ لذا كان لا بد أن يعوضوا أموالاً كثيرة قبل الشروع بعملية تحرير الرقيق بشكل تدريجي. فكان عدد الرقيق في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٥٠م يزيد على ثلاثة ملايين نسمة من أصل ثلاثة وعشرين مليوناً؛ أي: إن السود يشكلون ثمن عدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية وقتذاك. وكانوا يشكلون أكثر من نصف سكان ولاية كارولينا الجنوبية وولاية الميسسي، ويعادلون سكان ولاية لويزيانا. ووصل عددهم في ولاية ألباما إلى أقل من نصف سكانها. أما في الولايات الشمالية، فكانت لديهم الصناعة والتجارة، وكان الذين يعملون فيها هم من البيض. وعليه لا بد أن تختلف نظرة الشمال للرق عنه في

الولايات الجنوبية التي تزعم أنها لا تستغني عنه. وقامت جماعات كانت مركزها في الشمال تعمل على مطالبة الولايات الجنوبية بتحرير رقيقها، ولو بشكل تدريجي. وظهرت مجموعة من الصحف والكتابات التي تتادي بذلك مثل صحيفة المحرر في مدينة بوسطن.

وتحت ضغط الولايات الشمالية على الولايات الجنوبية في مسألة تحرير العبيد السود في ولاياتها بدأت علامات الانفصال تظهر في الولايات الجنوبية. وهددت ولاية ساوث كارولينا بالانفصال عن الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٢م.

وهكذا نلاحظ الخطر المحدق بالاتحاد الأمريكي من مسألة الرقيق، وأخذت المسألة تزداد تعقيداً من يوم لآخر؛ بسبب دخول الولايات الجديدة في الاتحاد الأمريكي. وفي عام ١٨١٨م وصل عدد الولايات الأمريكية التي لا تقر الرق إلى إحدى عشرة ولاية. وبلغ عدد الولايات التي تقره إلى عشر ولايات. وعندما دخلت الولايتان: ميسوري وألباما الاتحاد الأمريكي حدث تعقيد جديد بين الولايات الشمالية المخالفة للرق وبين الجنوبية المؤيدة له؛ خاصة بعد انضمام ألباما التي اشترطت أن تحتفظ بمبدأ إقرار الرق فيها إذا ما قبلت في الاتحاد الأمريكي. وقد تعدل الموقف بعض الشيء عندما دخلت ولاية مين "Maine" الاتحاد الأمريكي وهي ولاية لا تبيح الرق، ولا تقره، ولا تعمل به، فعدّل دخولها موقف الولايات الشمالية. وصدر قانون من الكونغرس الأمريكي يمنع الرق في لويزيانا الولاية المشتراة من فرنسا. وساد جو من الاستقرار النسبي في الولايات المتحدة الأمريكية، وظل الاستقرار معلقاً؛ لأنه كان مجرد هدنة، وليس استقراراً دائماً، ومقبولاً، لأنه لم تلتق بعد وجهات نظر الولايات الجنوبية مع الشمالية في مسألة مهمة جداً؛ وهي مسألة الرق الذي عدته الولايات الجنوبية بأنه مسألة مصيرية ذات ارتباط بالكيان الاقتصادي القائم فيها؛ خاصة بعد تطور زراعة القطن، وقيام مملكته في الجنوب

من جهة وتطور صناعته من جهة ثانية. كما أن زراعة القطن شغلت معظم الأراضي في ولاية كارولينا الجنوبية وجورجيا ومناطق حوض الميسيسيبي. أضف إلى هذا كله فقد تطورت كذلك زراعة قصب السكر في المناطق الجنوبية الحارة ذات المياه الكثيرة، وازدادت زراعة التبغ في أرض فرجينيا، وكنتكي، وتينيسي. وقد تطلبت هذه الزراعات كلها المنتشرة في الجنوب إلى عدد كبير من العمال الذين لهم تجربة في هذا الميدان الزراعي من جهة، ولديهم القدرة، والتحمل على مزاولته من جهة ثانية. ولهذا الأمر فإن مسألة الرق ستبقى مدة طويلة، وهي مسألة الساعة، ومسألة الخلاف بين الولايات الشمالية، وبين الولايات الجنوبية في الاتحاد الأمريكي^(١).

٢- قضية تكساس:

كانت تكساس تابعة للمكسيك، وكانت الحكومة المكسيكية في أول الأمر تشجع سكان الولايات المتحدة الأمريكية على الاستيطان في تكساس التي تفصل الولايات المتحدة الأمريكية عن المكسيك. وصارت جماعات الأمريكيين تأتي إلى تكساس بأعداد كبيرة. وسنت الحكومة المكسيكية عدداً من القوانين التي شجعت الأمريكيين على الهجرة إلى تكساس والاستقرار فيها. وكان معظم الأمريكيين المهاجرين إلى تكساس يأتون من مناطق حوض الميسيسيبي الأدنى.

لقد غيرت الحكومة المكسيكية وجهة نظرها تجاه هجرة الأمريكيين إلى تكساس. بعد أن أحست بأنها ارتكبت خطأ كبيراً عندما فتحت باب الهجرة لهم للاستيطان فيها، إذ كانت ترى أن إقامة الجماعات الأمريكية في تكساس التابعة للمكسيك سيجعلها تتحول إلى مكسيكيين، وقد حدث العكس تماماً إذ أصبح للأمريكيين نفوذ كبير في تكساس، وصاروا يضغطون على حكومتهم من أجل ضم تكساس إلى

(١) عبد الفتاح حسن أبو علي، تاريخ الأمريكيين، ص ١٣٩-١٤٢.

الولايات المتحدة الأمريكية إلى وطنهم الأم، وشجعوا حركة الاستقلال التي قامت في تكساس فيما بعد لتصبح دولة مستقلة عن المكسيك كمقدمة لضمها إلى الاتحاد الأمريكي.

لقد قاومت الحكومة المكسيكية حركة تدفق الهجرة الأمريكية إلى تكساس باستصدار عدة قوانين عام ١٨٣٠م للحد من الهجرة الأمريكية إلى تكساس، نذكر منها:

١- فرضت ضرائب جمركية عالية على الحدود بين تكساس، وبين الولايات المتحدة الأمريكية.

٢- زادت أعداد الجيش المكسيكي المقيم في تكساس لضمان بقائها تحت السيادة المكسيكية.

٣- سمحت للأوروبيين والمكسيكيين باستعمار أرض تكساس في الزراعة، والاستثمار الاقتصادي، وأعمال التعدين، وغيرها.

٤- شددت على دخول الأمريكيين إلى تكساس كوسيلة من وسائل تقليل عدد الأمريكيين فيها؛ وبالتالي تقليل تأثيرهم هناك.

وتعد القوانين المكسيكية الجديدة هي التي أدت إلى تأزم الموقف بين الحكومة المكسيكية، وبين تكساس التي طالبت حكومة المكسيك بإلغاء هذه القوانين. ولما لم تستجب الحكومة المكسيكية لطلب تكساس، أعلنوا استقلالهم عنها في آذار عام ١٨٣٦م. ولم ترض الحكومة المكسيكية بذلك فاشتعلت الحرب بين المكسيك، وبين تكساس. وكان سانت آنا "Santa Anna" رئيس جمهورية المكسيك يقود القوات المكسيكية بنفسه التي تحارب في تكساس، ولكنه انهزم، وأسر في موقعة سان جاكيننتو "San Jacinto"، واستطاعت تكساس أن تحصل على استقلالها عام ١٨٣٧م بعد انتصارها على القوات المكسيكية.

لقد كان موقف حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه ثورة تكساس موقفاً متردداً. فكان الرئيس الأمريكي جاكسون يرغب في ضم تكساس إلى الاتحاد الأمريكي، لكنه كان مع الولايات الشمالية التي تعارض ضم تكساس ما دام أنها تعمل بقانون الرق. وجدير بالملاحظة أن من بين الأسباب الرئيسية التي أدت إلى ثورة تكساس ضد المكسيك كان إلغاء المكسيك لقانون الرق عام ١٨٢٩، ولم يقبل بهذا الإجراء أصحاب الرقيق في تكساس، فبذلوا كل ما في وسعهم للعمل على فصل بلادهم عن المكسيك.

وجدير بالملاحظة هنا أن الحكومة في الولايات المتحدة الأمريكية برئاسة جاكسون رفضت مساعدة الثوار في تكساس، ووقفت على الحياد في الحرب الدائرة بين تكساس، وبين المكسيك. ولكنها في الوقت نفسه اعترفت رسمياً باستقلال تكساس عام ١٨٣٧م كأسلوب من أساليب فتح الباب مع الحكومة الجديدة في تكساس.

وقد حدثت حرب بين المكسيك، وبين تكساس مرة ثانية بعد إعلان تكساس استقلالها. وطلب رئيس جمهورية تكساس سام هوستون "Sam Houston" الذي انتصر على رئيس جمهورية المكسيك سانتا آنا في وقعة سان جاكينتنو من فرنسا وإنكلترا أن تساعداه ضد المكسيك مقابل منحهما امتيازات في بلاده، كما نوه للحكومة البريطانية بأنه سيعمل على إلغاء قوانين الرق في بلاده. وكان هدف سام هوستون من وراء الضغط على حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لإجبارها على التدخل في الحرب لصالح تكساس. وبالفعل فقد بدأت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تهتم بمسألة ضم تكساس إلى الاتحاد الأمريكي في الفترة من ١٨٤٠م - ١٨٤٤م في عهد رئاسة جون تايلور الذي تسلم الرئاسة بعد وفاة وليم هنري هاريسون الذي خلف الرئيس الأمريكي مارتن فان بورن. وقد انضمت تكساس إلى الاتحاد الأمريكي عام ١٨٤٥م تحت ضغط الولايات الجنوبية التي تشجع الرق،

وتطالب بإباحته في تكساس، علماً أن القانون المكسيكي المطبق في تكساس يحظر العمل بهذا القانون. وهكذا فقد أضاف انضمام تكساس إلى الولايات المتحدة الأمريكية مشكلة جديدة بين الولايات الشمالية والجنوبية.

ونتج عن ضم تكساس إلى الاتحاد الأمريكي، وما أحدثه ذلك من خلافات بين الولايات المتحدة الأمريكية، والمكسيك أن اندلعت حرب جديدة بين الطرفين؛ بسبب ما نشب بينهما من خلاف حول حدود تكساس؛ وبسبب توجه الولايات المتحدة الأمريكية لامتلاك كاليفورنيا. وقد انتصرت قوات الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة زاخاري تيلور "Zachary Taylor"، وهزمت المكسيك في مواقع عدة. وبعد معارك طاحنة اضطرت المكسيك إلى طلب الصلح؛ فتم الصلح بين الدولتين، وأخذت الولايات المتحدة الأمريكية بموجبه كاليفورنيا، والمنطقة الواسعة الواقعة بين كاليفورنيا والمكسيك، وهي ما تعرف باسم نيو مكسيكو. وبهذا الضم الجديد ازدادت حدة الخلافات حول مسألة الرق بين الشمال والجنوب، إلى جانب ظهور مشكلات جديدة للاتحاد الأمريكي ككل، مثل: مشكلة المحيط الباسيفيكي ومشكلة مناطق الكاريبي، ومشكلة بنما، وغيرها من المشكلات التي واجهت الولايات المتحدة الأمريكية؛ بسبب هذا التوسع في مناطق الغرب^(١).

٣- قضية تقدم الشمال على الجنوب:

كانت الولايات الشمالية أكثر تقدماً من الولايات الجنوبية، وأكثر غنى منها، وأنظمتها الداخلية أكثر استقراراً وتجاوباً مع متطلبات السكن فيها، كما أنها أكثر تلاحماً وتجاوباً مع الحكومة الفيدرالية. فالشمال بلدان صناعية، وتجارية، وفيها الزراعة أيضاً. كما أن بلادهم ذات موقع استراتيجي يطل على ساحل المحيط

(١) عبد الفتاح حسن أبو علي، تاريخ الأمريكيتين، ص ١٤٢-١٤٥.

الأطلنطي، وله سواحل تكثُر فيها الموانئ، والمراكز البحرية المهمة، إلى جانب أن الشمال أكثر تقدماً في الناحية العلمية والثقافية والفكرية. وقد أدى هذا التفوق دوراً بارزاً في إيجاد عقدة دائمة لدى سكان الجنوب، وظل الشماليون يعدّون أنفسهم أنهم أول من وصل إلى القارة الأمريكية الشمالية، وعليه فقد تكبدوا الكثير من الصعاب في تكوين هذه البلاد. كما أنهم كانوا يُعدّون أنفسهم نواة حرب الاستقلال الأمريكية، فمن بوسطن اندلعت الثورة، واندلعت المقاومة ضد الحكومة البريطانية. وبناء عليه، فقد تولدت لدى سكان الجنوب نزعة الاستقلال عن الشمال خوفاً من تغلبهم عليهم، وسيطرتهم الكاملة على أجهزة الدولة الفيدرالية. ومن هنا تولدت فكرة تغلب الشمال على الجنوب؛ مما أدى بالجنوب إلى العمل على الانفصال عن الشمال مهما كلفهم ذلك من مقاومة، وجهد، ونفقات^(١).

٤ - القضايا الاقتصادية:

ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية تباين اقتصادي واضح بين الولايات التي انتظمت في الاتحاد الأمريكي. فكانت الولايات الشمالية والشرقية ولايات رأسمالية حرة تتحكم بما لها من صناعات، وتجارة، وغير ذلك من الأمور الاقتصادية التي تتجمع فيها الثورة؛ وبالتالي أصبح أهل الشمال، والشرق يطالبون الحكومة الفيدرالية باتخاذ القوانين التي تعمل على تنشيط الصناعة، والتجارة، وتحد من منافسة الصناعة الخارجية للصناعة الوطنية عن طريق فرض جمارك عالية على المصنوعات غير الوطنية، وعن طريق تشجيع الصناعة الوطنية بغرض حمايتها والمحافظة عليها. كما أنهم طالبوا بتحسين المواصلات التي هي شريان الحركة الصناعية والتجارية، وطالبوا الحكومة بتشجيع الهجرة، وسن القوانين المشجعة

(١) المرجع السابق، ص ١٤٦.

عليها؛ بخاصة الهجرة القادمة من أوروبا؛ لأنهم أصبحوا بحاجة إلى عمال ممارسين في الصناعة. وطالبوا بإنشاء عملة مركزية قوية كي تعمل على دعم الاقتصاد الأمريكي، وبنك وطني يساعد على تطوير الحركة المالية والتمويلية التي تقوي الاقتصاد الصناعي، وتسهل حركة التبادل التجاري، وحركة التمويل الخاصة بالصناعات الوطنية.

أما في الجنوب والغرب، فهناك تركيز كبير على الزراعة، فظهر في الجنوب كبار المزارعين. ومن هنا فإن مشروعات الولايات الجنوبية والغربية لا بد أن تقوم في الأساس على دعم الزراعة، وحماية قوانين الرق، والعمل على تطوير الحركة الزراعية بالتوسع في امتلاك الأرض، والتوسع في عملية زراعتها، واستيطانها وجلب الرقيق للعمل فيها. ومن هنا كان لا بد أن تختلف الأهداف وتتباين بين الولايات الشمالية والشرقية من جهة والجنوبية، والغربية من جهة أخرى. لقد طالب المزارعون الحكومة الفيدرالية تشجيع عملية بيع منتجاتهم في الأسواق الأوروبية؛ لأنها أكثر فائدة وربحاً لهم. ومن هنا كان همهم الأول إيجاد الأسواق في الخارج لبيع منتجاتهم الزراعية المتنوعة، بخاصة في أسواق إنكلترا، وعليه فإن المزارعين عارضوا فكرة فرض جمارك عالية؛ لأن هذا الأمر يضر بمصالحهم الاقتصادية، وينفع فقط مصالح الولايات الشمالية والشرقية. كما أنهم طالبوا أن يظل أمر العملة تابعاً للمجالس التشريعية وعارضوا كذلك إقامة بنك وطني؛ لأن هذا ليس من سلطات الحكومة الفيدرالية، وإنما هو أمر يعود إلى السلطات المحلية في الولايات.

وظهرت مشكلة ذات صلة بالاقتصاد إلى حد ما؛ وهي أن أهالي الجنوب أرادوا التوسع في الغرب، وامتلاك الأراضي فيه بالمجان، وقد عدّ أهالي الشمال والشرق أن هذا الأمر سيؤدي إلى هجرة عمالهم إلى هذه المناطق، وبالتالي تصبح حاجتهم ملحة لهؤلاء العمال. ومن هنا كان لا بد من وقوع الاختلاف، والتصادم

في الفكر الاقتصادي، والمصالح الاقتصادية بين الشمال والجنوب، حتى أن هذا الخلاف أثر كثيراً في العمران، فحدث عمران متطور في الشمال، ومناطق الشرق لم يقابله تطور في عمران الجنوب.

وهكذا نلاحظ أن خلافات حادة ظهرت بين الشمال والجنوب في مسألة الرق، والاقتصاد، ومذاهبه، وطرقه، ووسائله، وفي مسألة التقدم العلمي والعمراني، ومسألة الاختلاف في المعيشة، وأساليب العيش؛ بين الفئات الاجتماعية لمجتمع الاتحاد الأمريكي، أضف إلى هذا كله، فإن عدد سكان الشمال كان يفوق عدد سكان الجنوب، ومن هنا كان لا بد من وقوع الاحتكاك؛ وبالتالي كان لا بد من انفجار الموقف، وإعلان الحرب التي سميت في التاريخ الأمريكي بالحرب الأهلية أو حرب الأخوة^(١).

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، تاريخ الأمريكيتين، ص ١٤٦-١٤٨.

ثانياً - قيام الحرب:

• انفصال الجنوبيين:

لقد تشدد الديمقراطيون في برنامجهم الانتخابي الخاص بالرئاسة والمتوقع إعلانه عام ١٨٦٠م، فطالبوا الحكومة الفيدرالية بالاعتراف الكامل بالسيادة المستقلة لكل ولاية أمريكية داخلية في الاتحاد الأمريكي. وطالبوا كذلك بحق أي أمريكي أن يقوم ومعه عبيده باستيطان المناطق التي مازالت غير داخلية في الاتحاد الأمريكي، وطالبوا الكونغرس الأمريكي بسن القوانين التي تحمي الرق في الولايات التي تعمل به. وحدث انشقاق في الحزب الديمقراطي الذي أراد أن ينتخب ممثله للرئاسة عام ١٨٦٠م في اجتماعهم في مدينة تشارلوتون في كارولينا الجنوبية. وكان سبب الانقسام هو عدم موافقة مندوبي الولايات الشمالية على هذا البرنامج، فانشق الحزب، وتعرث اختيار الممثل الديمقراطي في هذا الاجتماع، وانسحب ممثلو ولاية المسيسيبي، ولويسيانا، وساوث كارولينا، وفلوريدا، وجورجيا، وتكساس، وأركنساس. وكان هذا الانقسام قد شَدَّ من عضد الحزب الجمهوري المعارض الذي رشح عنه للرئاسة إبراهيم لنكولن. ووضع الحزب الجمهوري خطة تقول إنه لا يحق لأية سلطة تشريعية أو تنفيذية إعطاء الرق صفة شرعية، وقانونية في الولايات الأمريكية. وقالوا بوضع حد لتجارة الرقيق. وقالوا بإدخال كنساس في الاتحاد الأمريكي بشرط أن تكون من الولايات التي لا تقر الرق. وقالوا بضرورة قيام إصلاحات داخلية متنوعة للمرافق العامة. وطالبوا بحماية الصناعات الوطنية من منافسة الصناعات الخارجية لها.

لقد انتخب لنكولن، وتسلم الرئاسة عام ١٨٦٠م؛ مما أغضب الولايات الجنوبية، فأعلنت ساوث كارولينا الانفصال عن الاتحاد الأمريكي بعد قرار اتخذته جمعيتها العمومية التي صادقت على دستور الولايات المتحدة عام ١٧٨٨م. وأقر هذا القرار من قبل مجلس الولاية التشريعي. وانسحبت بعد ذلك كل من ولاية

فلوريدا، وألباما، وميسيسيبي، وتكساس، ولوزيانا، وجورجيا، وانسلخ بذلك الجنوب عن الشمال. وجدير بالملاحظة أنه ليس كل سكان الجنوب كانوا يؤيدون الانفصال؛ بل على العكس تماماً، فإن أعداداً كبيرة من سكان الجنوب حاربوا إلى جانب الشمال المؤيد لبقاء الاتحاد الأمريكي ضد الثوار في الجنوب الذين يطالبون بالانفصال التام عن الشمال، أضف إلى هذا أعداد السود الذين يؤيدون الشمال؛ لأنهم يعملون على تحريرهم من ظلم أسيادهم في الجنوب.

لقد ازداد نشاط الجماعات المؤيدة للرق في الولايات الجنوبية، وأخذوا يصفون الانفصال بأنه علامة تاريخية تخص فوائدها الولايات الجنوبية، حيث تفتح أمامهم حرية تجارة الرقيق، مما يسبب في كثرة أعداده؛ وبالتالي سيؤدي حتماً إلى رخص الأيدي العاملة، وإلى تطوير العمل الزراعي، وتوسيع رقعة الأرض المزروعة بالقطن، وقصب السكر، والتبغ، وغيرها من المشروعات. لقد بينوا للناس أنهم سيكونون مستقلين أحراراً في سن قوانينهم، وضرائبهم، وجماركهم، وفي استيراد ما يشاءون من بضائع، وبيع منتجاتهم لمن يريدون.

وقد تمكنت سبع ولايات جنوبية من الاجتماع في مدينة مونتغمري بولاية ألباما في شباط ١٨٦١م، وشكلت فيما بينها ولايات ائتلافية أو ما تسمى بالولايات الأمريكية المتحالفة "Confederate States of America" وانتخب جفرسون ديفس "Jefferson Davis" رئيساً مؤقتاً لها. وهكذا تشكلت رسمياً دولة أمريكية جنوبية خارجة عن الاتحاد الأمريكي، هادفة الابتعاد كل البعد عن أنظمة الولايات الشمالية وقوانينها؛ و متمسكة تماماً بمبدأ الرق، والعمل به في كل مكان متخفية بذلك تسوية ميسوري التي حددت خط عرض ٣٦.٣٠ ليكون فاصلاً بين الولايات التي تعمل بالرق وبين الولايات التي لا تعمل به، ولا تقره. فسمح للولايات الواقعة جنوب هذا الخط العمل بمبدأ الرق، وحرم العمل به في الولايات، والمناطق الواقعة شماله.

• موقف الولايات الأمريكية الشمالية من انفصال الجنوب:

وقف الشمال بولاياته البالغ عددها ثلاث وعشرون ولاية موقفاً متصلباً تجاه ما حدث في الجنوب، وأصرّوا على المحافظة على الاتحاد الأمريكي بأي ثمن، وكان الرئيس الأمريكي لنكولن حريصاً على أمرين، هما:

١. المحافظة على بقاء الاتحاد الأمريكي مهما كلف ذلك من حروب،

ونفقات، وجهد.

٢. العمل على تحرير الرقيق بشكل تدريجي، وعلى مراحل متتابعة.

وهناك أمر جدير بالملاحظة، وهو تفوق الولايات الشمالية على الجنوبية من حيث العدد، فكان الجنوب في حدود تسعة ملايين نسمة منهم الثلث تقريباً من الرقيق الذين بلا شك سيناصرون الشمال الذي يطالب بتحريرهم. وكان عدد السكان في الولايات الشمالية في حدود ثلاثة وعشرين مليوناً في معظمهم من البيض، وقليل منهم من السود. كما أن الشمال بلد صناعي متطور في آلياته، وأسلحته، وصناعاته الاستراتيجية، وغير الاستراتيجية. وهم يشكلون أيضاً أكثر الولايات التي يتشكل منها الاتحاد الأمريكي. وكان الشمال يتفوق على الجنوب في الثروة، وأكثر احتكاكاً بالغرب الأوروبي، بيدهم الشؤون التجارية الداخلية والخارجية. وكان الشمال أكثر تقدماً في المواصلات، والعمران، والتقدم العلمي.

أما الجنوب، فكانوا يتصورون أنهم لا بد أنهم سيتفوقون على الشمال؛ لأنهم يحاربون، وهم لا يراودهم أدنى شك بأنهم منتصرون، وكانوا يتمسكون بالنظرية القائلة بأن الصناعة تحتاج إلى مواد خام، فصناعة الشمال القائمة على القطن، وقصب السكر، والتبغ لا بد من أن يتعثّر سيرها إذا أصر الشمال على استمرار الحرب ضد الجنوب الذي بيده حق التصرف في المواد الخام. وكان الجنوب يخطط أن باستطاعتهم كسب ود بريطانيا، وفرنسا، وبيعها المواد الخام وشراء الأسلحة منهما التي سيحاربون بها الشمال، كما أن تقريبهم من فرنسا

وبريطانيا سيؤدي ذلك إلى الاعتراف باستقلالهم، وهذا بدوره سيقود إلى اعتراف دول أخرى بهذا الاستقلال، وعندها يضطر الشمال إلى القبول بالأمر الواقع.

ويبدو أن الغرور كان يسود عقلية الجنوب الذين استخفوا بقدرة الشمال الحربية مقتنعين بأن الشمال إذا دخلوا الحرب ضدهم فلن يدوم أمدها، كما أن لديهم قادة لهم شهرة كبيرة في فنون الحرب؛ ناسيين أو متناسيين قدرة الشمال الصناعية إذا ما تحولت هذه إلى صناعات حربية، بينما يظل اعتماد الجنوب في جلب الصناعات الحربية، وشرائها على الدول الأوروبية، وهذا يكلفهم أموالاً كثيرة، وسيحتاجون إلى وقت طويل كي تصل هذه الأسلحة إليهم، وكي يتدربوا على استخدامها. أضف إلى هذا ما كانت تتمتع به الولايات الشمالية من قوة بحرية تسيطر على السواحل الشرقية، وهي مراكز التجارة والموانئ الرئيسية للتجارة القائمة بين أوروبا، والقارة الأمريكية الشمالية.

وثمة مسألة أخرى مهمة، وهي ما كان يتمتع به لنكولن من ثبات، وجرأة، وصبر، وتحمل للصعاب، وإصرار على النجاح. أما الرئيس الجنوبي جفرسون ديفس، فكان رجل حصيف الرأي معتزاً بنفسه، وصلابة قدرته، لكنه كان كثيراً ما ينفذ صبره، ويغضب؛ مما يؤدي إلى صدور أحكام فجأة، إلا أنه وجماعته في الجنوب كانوا يؤمنون بالقتال، وكانوا يؤمنون بأن النصر سيكون حليفهم؛ لأنه ليس من المعقول أن يخضع الشمال بحروبه أرض الجنوب الشاسعة مترامية الأطراف ما دام أهلها مصرّين على الثبات.

وهناك أمر مهم ساعد على ثبات الموقف في الشمال، وهو أن إبراهيم لنكولن كان يؤمن بالاتحاد، وكان عدواً لدوداً لمسألة الرق، فكان قد وضع نصب عينه ألا تتمزق وحدة الولايات المتحدة الأمريكية إلى صفيين متباينين، ومتناحرين، كما أنه لم يسر في البداية في صف المتحمسين لتحرير العبيد بسرعة؛ لأنه كان يرى أن تحريرهم يجب أن يكون على مراحل مع دفع التعويض اللازم لتحريرهم من

خزينة الدولة الفيدرالية. وهكذا فإن صدور قانون إلغاء الرق في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٦٥م وقد رافقه قانون آخر؛ وهو قانون التعويضات في حال تحريرهم أو عتقهم.

وعلى الرغم من طرح مشروعات تسوية لحل الأزمة بين الشمال والجنوب، كمشروع جون كريتندن "John Crittenden" الذي يقوم بالعمل بتسوية ميسوري، إلا أن لنكولن لم يوافق على مشروع السيناتور الأمريكي ممثل ولاية كنتكي معتقداً أن مثل هذه الحلول ما هي إلا حلول مؤقتة، ولا بد أن تنفجر الأزمة مهما طال الانتظار، وطال معه زمن الهدنة القائمة بين الطرفين. كما أنه رفض مطالب الجنوب، بخاصة في موضوع الرق؛ مشيراً إلى أن هناك روابط دموية، واجتماعية، وثقافية، ودينية، وسياسية، وجغرافية لا يمكن أن تنفصل عراها بمثل هذه السهولة التي يفكر فيها أهل الجنوب. وأنه بصفته رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية لا بد أن يتمسك بحق الدولة في الاحتفاظ بأملاكها، ومؤسساتها، ومرافقها في الجنوب، ولو أدى ذلك إلى احتلالها بالقوة. وأصدر إنذاراً إلى الجنوب بالعودة إلى الاتحاد، وإنهاء المشكلة، وقرر كذلك أن الحكومة الفيدرالية سوف لن تكون هي البادئة بإعلان الحرب على الأخوة في الجنوب خلال الزمن المعطى لهم للتفكير في أمر تعديل موقفهم. وكان رأي وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية المستر وليم سيورد أن تقوم بلاده بإثارة الخلافات مع الدول الأوروبية، وتعلن عليها الحرب؛ لأن هذا الأمر سينقذ الموقف، وسيجعل الولايات التي انفصلت عن الاتحاد تعود إليه من جديد تحت عملية التهديد الخارجي للولايات. ونعتقد أن هذا الإجراء ليس إجراء مضموناً، إذ ربما عدت الولايات المنفصلة هذا الأمر فرصة للتعاون مع دول

أوروبا كي تساعد على استقلالها؛ وبالتالي تنتهي الحرب المصطنعة، وتخسر الولايات الشمالية الكثير من دون مقابل^(١).

ثالثاً - مراحل الحرب:

وجه الرئيس لنكولن قوات عسكرية في نيسان ١٨٦١م للسيطرة على قلعتي سمتر وبيكتر كونها من قلاع الحكومة الفيدرالية في الجنوب. وكان موقف جفرسون ديفس أن أمر قواته بالرد على هذا الإجراء بضرب قلعة سمتر بالمدفعية بعد أن احتلتها قوات لنكولن. واضطرت قوات الشمال إلى الاستسلام بعد يومين من ضربها بمدافع الجنوب، وقد أثار هذا العمل نقمة الشمال، فأمر لنكولن مستغلاً سلطاته، وصلاحياته، وغياب اجتماعات الكونغرس التي لم تبدأ دورته إلا في شهر تموز بتأليف قوات من ٧٥ ألف متطوع للعمل على تنفيذ قرارات الحكومة الفيدرالية، وأوامرها؛ ولتقوم بحصار موانئ الولايات المنفصلة. وهكذا بدأت الحرب بين الشمال والجنوب. وقررت أربع ولايات جنوبية أخرى من ولايات الرق الانضمام إلى الولايات المتحالفة، هي: فرجينيا، ونورث كارولينا، وأركنساس، وتنيسي. ونقلت العاصمة بعد ذلك من مدينة مونتغمري في ألباما إلى ريتشموند بولاية فرجينيا. ولم تدخل مناطق فرجينيا إلى جانب الجنوب، بل ظل الجزء الغربي منها يؤيد الشمال، فدخلت هذه المناطق الاتحاد الأمريكي عام ١٨٦٣م باسم ولاية فرجينيا الغربية. وظلت أربع ولايات كانت تعمل بالرق تابعة للاتحاد الأمريكي على الرغم من أن بعض سكانها حاربوا إلى جانب الجنوب، تلك الولايات، هي : ديلور، وكنتكي، وميسوري، وماري لاند.

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، تاريخ الأمريكيتين، ص ١٤٩ - ١٥٢.

لقد وضع الشمال خطة حربية كبيرة من أجل إخضاع الولايات الجنوبية المنفصلة عن الاتحاد الأمريكي، فقرروا قطع المواصلات الرئيسة عنها حتى يتعذر عليها تلقي الدعم، والمساعدات، والمواد الغذائية حتى تتشل تحركاتهم العسكرية. وقرروا فرض حصار على العاصمة الجنوبية ريتشموند، والقيام بعمليات عسكرية متشعبة الاتجاهات ضد جموع الجنوب، وجيوشهم، وخططوا لفرض السيطرة على نهر الميسيسيبي، وعلى معظم موانئ الجنوب.

لقد حاول الشماليون السيطرة على عاصمة الجنوب ريتشموند، لكنهم هزموا أمام قوات الجنوبيين في معركة بول رن "Ball Run" في شمال فرجينيا على يد قائدين جنوبيين مشهورين، هما: بوريجارد "Beauregard"، وجوزيف جونسون "Joseph Johnson"، واندحر الشماليون إلى واشنطن بعد أن تشتت شملهم في تموز ١٨٦١م.

لقد أحرز الشماليون بواسطة قائدهم بوليسيس جرانت انتصاراً على الجنوبيين في مناطق الغرب، وسيطر جرانت على قسم من ولاية تينيسي. وصد هجوماً جنوبياً عند شيلو "Shiloh"، واحتل مدينة ممفيس "Memphis" الواقعة على نهر المسيسيبي. وكان الشماليون قد أحرزوا انتصاراً آخر على الجنوب عندما استولوا بواسطة قوة بحرية قادمة من الشمال على مدينة نيو أورليانز على مصب نهر الميسيسيبي. وهكذا نجحت خطة الشمال في السيطرة على مناطق نهر الميسيسيبي.

وقامت معارك بين الشماليين، وبين الجنوبيين في الرق عام ١٨٦٢م، وشدّد الشماليون من ضغطهم على الجنوبيين في مدينة ريتشموند علّهم يسقطوها، إلا أن محاولاتهم لم تفلح. وحدث اصطدام بين قوات الشمال بقيادة جورج مكيلان "George McCellan" وقوات الجنوب التي يقودها القائد المدرب، والقدير روبرت لي "Robert Lee" الذي خلف القائد الجنوبي جونسون بعد إصابته بجروح في

المعارك. ودامت الاصطدامات سبعة أيام، انسحبت على أثرها قوات الشمال باتجاه العاصمة واشنطن بعد أن وردت إليهم أوامر بذلك. وقد فسّر المؤرخون سبب الانسحاب الشمالي بأن القيادة الشمالية كانت تشك في صدق قتال القائد مكيلان. وقد كلفها شكها هذا زمناً طويلاً وصل إلى حدود السنتين حتى تمكنت من الوصول إلى أطراف ريتشموند، بينما كانت قواتها قبل انسحابها تشارف عليها.

وبانسحاب الشماليين تمكن الجنوبيون من الزحف نحو الشمال، وانتصروا على الشماليين في وقعة مناساس "Manassas" ووقعة بول رن الثانية، واستطاعوا عبور نهر باتوماك "Potomac" الذي يمر بمدينة واشنطن. وبدأ تفوق واضح للجنوبيين على الشماليين، وهم الآن يهددون عاصمتهم واشنطن، ويخططون للهجوم على ولاية بنسلفانيا.

ودارت معركة كبيرة بين القائد الشمالي مكيلان الذي أعاده لنكولن، وبين القائد الجنوبي لي في أنتيتام "Antietam" في ولاية ماري لاند في الجزء الغربي منها. واستطاع مكيلان أن يهزم لي في أيلول عام ١٨٦٢م، وارتدت على أثرها جيوش الجنوب إلى فرجينيا، ولم يتابع مكيلان فلور الجنوبيين؛ مما أدى إلى عزله. واستطاع لي بعد شهر من معركة أنتيتام أن ينتصر على قوات الشمال في فردركسبرج واستطاع لي بعد هذه المعركة أن يقطع نهر الباتوك، ويدخل أرض بنسلفانيا في منتصف عام ١٨٦٣م، إلا أنه ارتد بعد هزيمته في معركة جيتسبورغ "Gettysburg" الفاصلة، وانسحب على أثرها متراجعاً إلى الجنوب.

وكان الشماليون بقيادة جرانت قد استولوا على قلعة فكسبرج آخر مراكز القوات الجنوبية في الغرب، وذلك في تموز ١٨٦٣م، ولم يبق للجنوبيين أي حصون على الميسسيبي. كما انتصر الشماليون على الجنوبيين في معركة حاسمة عند تشيكاموجا، وتمكنوا بذلك قطع مواصلات السكك الحديدية المتجهة إلى الجنوب الشرقي والجنوب الغربي. وأصبح الأمر بيد الشماليين الذين ركزوا هجومهم

على الجنوبيين الذين بدؤوا يتراجعون بشكل تدريجي بعد معركة عام ١٨٦٣م. وفي الوقت نفسه كان القائد الشمالي جرانت قد حقق نصراً كبيراً على الجنوبيين، وأجبروهم على التراجع إلى أتلانتا "Atlanta" وقد عين الرئيس لنكولن جرانت قائداً عاماً لقوات الشمال. وخلفه القائد الشمالي وليم شيرمان "William Sherman" في قيادة منطقة الغرب. وقد استولى شيرمان على أتلانتا عام ١٨٦٤م. وانتصر الشماليون بقيادة القائد توماس على الجنوبيين في وقعة ناشفيل "Nashville". واستطاع شيرمان أن يخترق صفوف الجنوبيين ماراً بجورجيا متجهاً إلى الأطلنطي؛ ليقضي على كل المقاومة الجنوبية المنتشرة في هذه الساحة الواسعة.

لقد قرر جرانت بعد أن جهز جيشاً كبيراً اختراق جورجيا، والتوجه إلى ريتشموند عاصمة الجنوب. واستطاع أن يصل إلى مناطق قريبة منها على الرغم من المقاومة الشديدة التي أبداها الجنوبيون لإجباره على الابتعاد عن عاصمتهم. وعسكر جيش جرانت يقابله جيش الجنوب قريباً من ريتشموند عام ١ٸ٦٤م، وظل لي مُعسكراً مدة ستة أشهر من دون أن يحصل على نتيجة حاسمة. ومع اقتراب موعد انتخابات الرئاسة، وفوز الجمهوريون برئاسة لنكولن على مرشح الديمقراطيين الجنرال مكيلان عام ١٨٦٥م. واستمر لنكولن في الحرب، واستطاع القائد الشمالي شيرمان الاستيلاء على مدينة سافانا في نهاية عام ١٨٦٤م. نتج عن ذلك أن تضعضعت صفوف الجنوب بعد أن مزقت جيوش الشمال وحدتهم ومقاومتهم، وقل عدد القوات الجنوبية نتيجة فرار عدد كبير منهم بعد أن يُسوا من القتال.

لقد ركز الشماليون ضغطهم على ريتشموند، واضطر القائد الجنوبي لي الانسحاب منها ليعسكر في الجبال المطلة عليها، لكن القائد شيرمان الشمالي قطع عليه خط الرجعة، فاضطر لي أن يتفاوض مع جرانت من أجل التسليم النهائي في أبوماتوكس "Appomatox" التابعة لفرجينيا. وبعد مفاوضات بين الطرفين استسلم لي، واستسلم القائد الجنوبي الثاني جوزيف جونسون ديفس بعد أن هرب إلى

الجبال؛ ليقود المقاومة هناك ضد الشمال. وما أن حل شهر أيار من عام ١٨٦٥م إلا وكانت المقاومة الجنوبية قد انتهت واستسلمت جميعها. وبذلك انتهت الحرب الأهلية. وجدير بالملاحظة أن لنكولن قد قُتل في ١٤ نيسان ١٨٦٥م قبل أن تنتهي الحرب بقليل، مع العلم أنها كانت قد تقرررت لحساب الشمال. وقد قتله ممثل اسمه جون ويلكس بوث "John Wilkes Booth" بمسدسه، وهو يشاهد تمثيلية في مسرح فورد بمدينة واشنطن، وقيل: إن الممثل القاتل كان معتوهاً^(١).

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، تاريخ الأمريكيتين، ص ١٥٢-١٥٥.

رابعاً- النتائج العامة للحرب الأهلية الأمريكية:

انتهت الحرب الأهلية الأمريكية بانتصار الولايات الشمالية على الجنوبية، ولكنها كبدت الطرفين خسائر فادحة، فقد اشترك فيها من الجانبين ما يقارب الأربعة ملايين جندي، وذهب ضحيتها ما يزيد على ٦٠٠ ألف جندي، هذا عدا ضحاياها من الجرحى، والمشوهين، وما سببته من خسائر مادية جسيمة عانت منها الولايات المتحدة الأمريكية لفترة غير قصيرة^(١).

لقد تمخض عن الحرب الأهلية هذه عدد من الآثار كان من أهمها:

١- سادت حالة من التبرم، والشك في الولايات المتحدة الجنوبية تمخض عنها قيام حاجز نفسي بين هذه الولايات وبين الولايات الشمالية، على الرغم من قيام المصالحة، واستمرار الاتحاد الأمريكي. كما أنها تأصلت لدى الشمال فكرة سيئة عن الجنوب بعد موقفهم الذي أدى إلى إشعال الحرب مدة أربع سنوات مستمرة.

٢- أصدر الكونغرس الأمريكي الموحد قانونين في كانون الثاني ١٨٦٥م، أحدهما بخصوص إلغاء الرقيق إلى الأبد. وينص الثاني على دفع التعويضات الخاصة بمسألة تحرير الرقيق.

٣- أخذت الحكومة الفيدرالية تعمل على إضعاف الخلافات، والعمل على إزالة الحواجز النفسية عن طريق قيامها بإصلاحات عامة متناسبة، ومتناسقة، وعن طريق إيجاد العمل الجماعي القومي، وغرس الوطنية، وحب الاتحاد في نفوس الأمريكيين شمالهم، وجنوبهم.

٤- عملت الحكومة الفيدرالية على إضعاف الفكرة القائلة بتفوق الشمال، وتسلطهم على الجنوب. وعملت على إيجاد جو من التفاهم بين الشمال

(١) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص ٣٨١.

والجنوب. وعبر أبراهام لنكولن عن هذا الأمر قبل مقتله بقليل عندما وضح بأن مذهبه هو الصلح، وإعادة تكوين الحكومات الموالية للاتحاد الأمريكي في الولايات الجنوبية المهزومة.

٥- إن الحرب الأهلية قضت على مبدأ حقوق الولايات الذي كانت تطالب به الولايات الجنوبية قبل اندلاع الحرب الأهلية. واستطاعت الحرب أن تحافظ على الاتحاد الأمريكي بالقوة العسكرية. وخلفت الحرب الأهلية دولة وطنية وحكومة اتحاد قوية، لكنها لم تستطع أن تقضي على النزعة السائدة لدى الجميع بأن هناك شمالاً، وهناك جنوباً، وهناك غرباً...الخ.

٦- تمكنت إسبانيا من استعادة سيطرتها على جمهورية سانتو دومينجو. وقامت بحرب ضد شيلي وبيرو؛ أي: إن إسبانيا استفادت من اندلاع الحرب، فبدأت تثبت كيائها الضائع في مناطق الكاريبي، وأمريكا الجنوبية، والوسطى. كما حدث تدخل بريطاني، وآخر فرنسي في شؤون القارة الأمريكية الجنوبية والوسطى. وقد عدت الولايات المتحدة الأمريكية هذا التدخل بأنه انتهاك لمبدأ مونرو.

٧- عمت البلاد الأمريكية موجة من العمل الجاد في سبيل البناء، وترميم ما أتلفته الحرب. وبدأ العمل الجاد في التصنيع، وشق الطرق، والقنوات، والترع، وبناء السكك الحديدية التي أصبحت العامل الرئيس للتقدم والازدهار في الولايات المتحدة الأمريكية وفي بلدان أمريكا الجنوبية. وقد ساعدت هذه الطرق على خلق حياة جديدة في الولايات المتحدة الأمريكية أسهمت إلى حد كبير في التخفيف من حدة الخلاف، والتباين بين الشمال، والجنوب^(١).

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، تاريخ الأمريكيتين، ص ١٥٥-١٥٦.



الفصل الحادي عشر
التوسع الخارجي للولايات المتحدة الأمريكية
وجامعة الدول الأمريكية



أولاً - مبدأ مونرو وعزلة الولايات المتحدة الأمريكية:

تُعدّ الحرب الأمريكية-الإسبانية عام ١٨٩٨م نقطة تحول مهمة في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية التي أصبحت دولة عالمية غير محصورة في نطاق القارة الأمريكية؛ بل دخلت حلبة الصراع العالمي. لقد اتبعت الولايات المتحدة الأمريكية منذ عهد جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية (١٧٨٩م-١٨٩٧م)، مبدأ عدم التدخل في تعقيدات الشؤون الأوروبية، غير أن ذلك لا يعني عدم استغلال الأمريكيين المنازعات الأوروبية لتحقيق مصالحهم الخاصة في أمريكا اللاتينية، وفي المحيط الهادئ. لقد صدر مبدأ مونرو عام ١٨٢٣م في الواقع حماية للمصالح الأمريكية في القارة، وكان بمثابة المنفذ لتدخل الولايات المتحدة في شؤون القارة .

١- جيمس مونرو (١٧٥٨ - ١٨٣١م):

ولد مونرو في مقاطعة وستمورلاند بولاية فرجينيا التي كانت مستعمرة إنكليزية في ذلك الوقت. ترك مونرو الدراسة، وعمره ١٨ عاماً لينضم لجيش المستوطنين، ويقاتل ضد الإنكليز في الثورة الأمريكية. قابل توماس جيفرسون، وكان وقتها حاكماً لفرجينيا عام ١٧٧٨م، وقد بدأ مونرو دراسة القانون بتوجيه من جيفرسون. انتخبت الهيئة التشريعية في فرجينيا مونرو عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي عام ١٧٩٠م. وبوصفه عضواً (سيناتوراً) في مجلس الشيوخ تحالف مونرو مع جيمس ماديسون وجيفرسون -الذي كان وقتها وزيراً للخارجية- على هيئة معارضة عنيفة ضد البرنامج الفيدرالي لوزير الخزانة ألكسندر هاملتون. وقد أسس الفرجينيون الثلاثة الحزب الديمقراطي الجمهوري. ويعتقد بعض المؤرخين أن هذا الحزب قد تطور إلى الحزب الديمقراطي الحديث. عمل مونرو من عام ١٧٩٤م سفيراً في فرنسا، وحاكماً لفرجينيا، وكان وزيراً للخارجية من (١٨١٢م - ١٨١٦م) ومسؤولاً

عن الشؤون الخارجية، كما كان أيضاً وزيراً للدفاع من عام ١٨١٤م إلى عام ١٨١٦م. انتخب مونرو رئيساً للولايات المتحدة عام ١٨١٦م، وقد كان حاكم نيويورك دانيال دي تومبكنز نائباً له. اختفى الحزب الفيدرالي بعد انتخابات عام ١٨١٦م، وأصبح الجميع تقريباً من أنصار الحزب الديمقراطي الجمهوري. ازدهرت البلاد، وازدهرت الصناعات التي تقدمت سريعاً، وقد أدت الحملة العسكرية داخل ولاية فلوريدا إلى اكتسابها من إسبانيا عام ١٨١٩م. اشتهرت إدارة مونرو بفترات مميزة في مجال الدبلوماسية الأمريكية.. فهناك اتفاقية رش- باجوت الموقعة مع بريطانيا عام ١٨١٧م التي تحظر التحصينات على البحيرات العظمى. وقد وافقت بريطانيا عام ١٨١٨م على المتوازي الـ ٤٩ كحدود بين أمريكا وكندا، ووافقت على الاحتلال المشترك لإقليم أوريغون. أُنقِص الدبلوماسيون الأمريكيون إسبانيا بالتنازل عن حقوقها في إقليم أوريغون عام ١٨١٩م، وقد وافقت روسيا على اتفاقية مماثلة عام ١٨٢٤م. لم يجد مونرو معارضة لرئاسته في انتخابات عام ١٨٢٠م. وأثناء الحروب النابليونية في أوائل القرن التاسع عشر، تورط الإسبان كثيراً في الشؤون الأوروبية، ولم يهتموا كثيراً بمستعمراتهم في شمالي أمريكا وجنوبيها. أعلنت معظم المستعمرات استقلالها عن إسبانيا. أثارت ثورات أمريكا اللاتينية العطف في الولايات المتحدة. وفي آذار من عام ١٨٢٢م، أوصى مونرو بالاعتراف باستقلال تلك المستعمرات. في كانون أول عام ١٨٢٣م، نادى مونرو بما أصبح يعرف بمبدأ مونرو، ففي رسالته للكونجرس أشار إلى أن الأوروبيين الأمريكيين لا يمكن عدّهم من الآن فصاعداً رعايا للقوى الأوروبية المستعمرة. ومن الناحية العملية، فإن هذا المبدأ تضمن الحماية ضد التدخل الأوروبي للدول المستقلة جميعها في نصف الكرة الغربي .

٢- مبدأ مونرو:

لما كانت الدول الكبرى، روسيا وبروسيا وفرنسا، قد وقعت في سنة ١٨١٥م التحالف المقدس الذي أخذ على عاتقه مهمة حماية الحكام الشرعيين في أوروبا من الثورات والأنظمة الحرة، حتى لو اضطره الأمر إلى التدخل العسكري في شؤون الدول الأخرى. وأمام عجز ملك إسبانيا عن وقف الحركة الثورية الاستقلالية في مستعمراته الأمريكية، فقد لجأ إلى التحالف المذكور طالباً منه المساعدة لاسترجاع مستعمراته، أما الإنكليز، فكان لهم رأي آخر. كانت إنكلترا ترى ضرورة المحافظة على استقلال هذه الدول الأمريكية، حيث وجدت أسواقاً واسعة لمنتجاتها، ومراكز غنية بالمواد الأولية اللازمة لصناعاتها، وانطلاقاً من هذه النظرة أخذت إنكلترا تعارض مساعي الحلف المقدس للتدخل في أمريكا الجنوبية، كما أن وزير خارجيتها كانينج حاول إقناع الولايات المتحدة أن تصدر الدولتان إعلاناً تعربان فيه عن معارضتهما لأي تدخل خارجي في شؤون الدول الأمريكية.

وكانت الولايات المتحدة تنتظر بكثير من الشك والريبة إلى أطماع بعض دول الحلف المقدس في العالم الجديد، وخاصة أن روسيا كانت تبدي اهتماماً متزايداً بشؤون آلاسكا التي كانت تابعة لها آنذاك. إلا أن وزير الخارجية الأمريكي آدامز لم يكن ميالاً للتعاون مع الإنكليز، ولا سيما أنه كان يرى في مثل هذا الإعلان محاولة إنكليزية لإبعاد الولايات المتحدة عن شؤون أمريكا اللاتينية، وعلى هذا فقد اقتنع الرئيس مونرو بأن تتصرف الولايات المتحدة لوحدها انطلاقاً من سياسة العزلة، وعدم التدخل في الشؤون الأوروبية التي سار عليها أسلافه^(١).

(١) عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ١٠٠.

وعلى هذا فقد عرض الرئيس في الرسالة السنوية التي وجهها للكونغرس في ٢ كانون الأول سنة ١٨٢٣م سياسته تجاه أوروبا، وأمريكا اللاتينية التي أطلق عليها منذ ذلك الوقت "مبدأ مونرو"، وأبرز نقاط هذا المبدأ:

- إن قارتي أمريكا، بما تتمتعان به وتحافظان عليه من حرية واستقلال، أصبحتا غير خاضعتين لاستعمار أية دولة أوروبية في المستقبل.
- إن النظام السياسي للدول المتحالفة يختلف تماماً عن نظام أمريكا، ويجب أن نعد أية محاولة من جانب تلك الدول لفرض نظامها على أي جزء في هذا النصف من الكرة الأرضية خطراً على سلامنا وأمننا.
- لم نتدخل، ولن نتدخل في شؤون المستعمرات القائمة أو البلاد التابعة لأية دولة أوروبية.
- لم نسهم بتاتاً بأي نصيب في الحروب التي نشبت بين الدول الأوروبية لأمر خاصة بها، كما أنه ليس مما يتفق مع سياستنا أن نفعل ذلك^(١).

والواقع أن هذه الرؤية الأمريكية لصنع السياسة الخارجية المؤثرة لم تكن وليدة قرارات فجأة أو أحكام متسارعة؛ وإنما وليدة تجربة أمريكية سبقت عهد الرئيس مونرو. وقد تمثلت هذه التجربة بحرص الرئيس جفرسون على شراء ولاية لويزيانا وامتلاك فلوريدا. وقد أثرت الأحداث الخارجية في اهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بهذا المبدأ عندما قامت روسيا القيصرية، وطالبت بمد حدودها إلى جنوبي ألسكا حتى خط عرض ٥١. وهذا معناه وصول النفوذ الروسي القيصري إلى منطقة أوريغون. وتفاهمت الولايات المتحدة الأمريكية مع بريطانيا، فاحتلتا معاً منطقة

(١) موجز التاريخ الأمريكي، ص ٦٤

أوريجون، ولمدة عشر سنوات بدأت بعام ١٨١٨م. واعترفت إسبانيا عام ١٨١٩م بهذا الوضع الجديد.

ومن هنا فإن مبدأ مونرو كان جواباً على خطط الروس التوسعية، وكان إعلاناً أمريكياً صريحاً بعدم التدخل الأوروبي أو غيره في شؤون القارة الأمريكية: الشمالية والجنوبية على حد سواء. وكان الجواب الأمريكي يلزم الأوروبيين وغيرهم بأن الولايات المتحدة الأمريكية ستظل في قارتها بعيدة عن الصراعات التي تسود العالم القديم.

وقبل أن يودع الرئيس الأمريكي جورج واشنطن الرئاسة الأمريكية ألقى خطابه الأخير مركزاً فيه على ضرورة ابتعاد الولايات المتحدة الأمريكية عن خضم الصراع الأوروبي حتى تتجنب الدخول في حرب مدمرة لكيانها وحضارتها. وقد دعم الرئيس جفرسون هذا المبدأ القائل بعدم التدخل في شؤون القارة الأوروبية، وعدم تدخل القارة الأوروبية في شؤون القارة الأمريكية. وأصبح هذا المبدأ حقيقة قائمة، ونصاً مكتوباً، وسياسة أمريكية متبعة في عهد الرئيس مونرو. وظل هذا المبدأ معمولاً به فترة طويلة من الزمن، ولم يكسر مبدأ العزلة الأمريكية القائمة على أساس مبدأ مونرو إلا بعد حدوث ظروف قاهرة أجبرت الولايات المتحدة على التخلي عن هذا المبدأ فترة زمنية ثم أجبرت مرة أخرى على العودة إليه. وظل العمل بهذا المبدأ في حدود أكثر من قرن^(١).

وتشير المصادر إلى وجود تفاهم بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بشأن مبدأ مونرو؛ وهو أنه لا خلاف بين الدولتين في هذه المسألة؛ لأن مبدأ مونرو ليس موجهاً ضد بريطانيا بقدر ما هو موجه ضد مطالب الروس التوسعية، وضد التدخل الإسباني الرامي لوقف الثورات في أمريكا الجنوبية التي تطالب

(١) عبد الفتاح حسن أبو عليّة، تاريخ الأمريكيتين، ص ٩٩-١٠٠.

باستقلالها، وحريتها، وضد تدخل الدول الأوروبية الأربع ذات التحالف الرباعي في شؤون القارة الأمريكية الجنوبية أو في شؤون الجمهوريات المسماة بالجمهوريات اللاتينية، وضد فرنسا التي كانت تتوي إرسال قوات فرنسية إلى أمريكا الجنوبية لمساعدة إسبانيا في إخماد ثورة شعوبها.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد نظرت بجدية إلى موقف فرنسا ومساعدتها إلى إسبانية في هذه القضية، ومن هنا كان عليها أن تعتمد في المقام الأول على مناصرة بريطانيا ضد فرنسا في حال إقدام الأخيرة على إرسال جيش إلى أمريكا الجنوبية لمحاربة الثوار ولمساعدة إسبانيا. وعليه لا يمكن تفسير مبدأ مونرو بأنه موقف مضاد لبريطانيا بقدر ما هو موقف متفق عليه من قبل الدولتين؛ بخاصة وأن الولايات المتحدة الأمريكية ما زالت تنتظر إلى البحرية البريطانية في المنطقة بمثابة دعم لها ضد أي هجوم بحري تقوم به دول أوروبية أخرى ضدها أو ضد الجمهوريات التي تناصرها، وتدعمها في قارة أمريكا الجنوبية أو غيرها.

ومما يفسر ظاهرة التعاون بين الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وتعاونهما في إخراج مبدأ مونرو، ولو أنه أعلن عنه من قبل طرف واحد هي الولايات المتحدة الأمريكية، ما قام به البريطانيون من دعم استقلال الأرجنتين، والمكسيك، وكولومبيا، وبوليفيا، والبيرو، وتشيلي. وهذا أمر يخالف رغبات إسبانيا، وفرنسا، وروسيا القيصرية، وبروسيا، والنمسا. وجدير بالملاحظة هنا أن بريطانيا لم تدخل مع الدول ذات التحالف الرباعي في حلفها المسمى بالحلف المقدس، وعدت الولايات المتحدة الأمريكية أن هذا الموقف يبرهن على أن بريطانيا تناصر الحكومات الحرة^(١).

(١) المرجع السابق، ص ١٠١-١٠٢.

٣- الموقف الأوروبي من مبدأ مونرو:

لقد دعمت بريطانيا مبدأ مونرو؛ لأنه أمر موجه ضد فرنسا وإسبانيا. وكان أمر التدخل الفرنسي في شؤون القارة الأمريكية الجنوبية والوسطى يهم بريطانيا كثيراً، وتعمل بكل ثقلها على منعه مهما كلف ذلك حتى، ولو أدى بها إلى دخول حرب ضدها. وكانت بريطانيا تراقب تطورات الموقف في بلدان أمريكا اللاتينية قبل صدور مبدأ مونرو. وقد وجهت إنذاراً إلى فرنسا في ٩ تشرين أول عام ١٨٢٣م تحذرها من التدخل في شؤون بلدان أمريكا اللاتينية عن طريق مساعدة إسبانيا في إجهاض ثورة الشعوب اللاتينية في أمريكا الجنوبية والوسطى. ونحن نعرف أن بريطانيا لم تساعد الثوار اللاتين في أمريكا الجنوبية رغبة منها في حریتهم؛ وإنما لتبين لهم أنها دولة محبة لاستقلال الشعوب وحریتهم، وهي تتاصر حركاتهم التحررية، وتساند الحرية والتقدم، وتعمل على تنمية شعوب المنطقة، وكانت تحلم من وراء ذلك إلى الوصول إلى أسواق هذه المنطقة وإلى بيع مصنوعات وزيادة حجم تجارتها فيها. وقد استفادت بريطانيا من خلال هذا الموقف باستيلائها على جزر فوكلاند الاستراتيجية الواقعة في الجزء الجنوبي من القارة الأمريكية الجنوبية. كما أنها شاركت الولايات المتحدة الأمريكية في عملية شق قناة بنما بموجب معاهدة كلايتون-بلور.

وعلى الرغم من صدور مبدأ مونرو، فقد ظلت إسبانيا وفرنسا ودول الحلف الرباعي لا تعمل بمقتضاه. ونشب صراع مرير بين فرنسا والأرجنتين في الفترة ما بين عامي ١٨٤٠م-١٨٤٦م حول منطقة لابلاتا. وتدخلت فرنسا كذلك في شؤون المكسيك بقوة عسكرية في الفترة من ١٨٦١م-١٨٦٧م هادفة من وراء ذلك تنصيب مكسمليان النمساوي على عرش المكسيك، ولولا انشغال فرنسا في حروبها مع بسمارك من جهة، وموقف بريطانيا المعادي للتدخل الفرنسي في القارة الأمريكية الجنوبية من جهة ثانية، لولا هذا لظلت فرنسا تتدخل في شؤون القارة

الأمريكية الجنوبية والوسطى، ولظلت تعمل على تثبيت نفوذها في هذه المناطق، حتى ولو كان هذا على حساب المصالح الإسبانية، وما هذا التدخل إلا حلقة من حلقات التنافس الدولي الأوروبي على مناطق الاستعمار؛ بخاصة التنافس الدولي بين بريطانيا وفرنسا.

والواقع أن العزلة التي مرت بها الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن عزلة سياسية أو انقطاعاً عن العالم الأوروبي؛ وإنما هي عزلة عن اختيار القرار السياسي المناسب لمصالحها. وكان مبدأ مونرو عبارة عن تفرغ الولايات المتحدة الأمريكية للنظر في قضاياها الداخلية أولاً ثم التوجه إلى قضايا الدول الأمريكية الأخرى في أمريكا الجنوبية والوسطى. وقد ساعدها ذلك على الامتداد باتجاه الغرب والتدخل السياسي والاقتصادي في القارة الأمريكية.

وقد ركز الرئيس الأمريكي جيمس بولك على مبدأ مونرو عندما تدخل في مسألة تكساس التي انفصلت عن المكسيك منذ عام ١٨٣٦م، وأدى انفصالها إلى حرب طويلة بينهما، وبين المكسيك دفعت رئيس تكساس إلى الاستعانة بكل من بريطانيا وفرنسا لمساعدته ضد المكسيك مقابل أن يمنحهما امتيازات اقتصادية في تكساس. وتحت هذه الظروف لم يقف الرئيس الأمريكي جيمس بولك موقفاً متفرباً على ما يدور على الساحة المجاورة للولايات المتحدة الأمريكية، وكان يخطط لضم تكساس وأوريجون إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعدّ أي تدخل أوروبي في شؤون تكساس معناه تعدّ على مقررات مبدأ مونرو الذي تعتز به الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أدى تدخل بولك في شؤون تكساس إلى قيام حرب بين الولايات المتحدة الأمريكية والمكسيك انتهت بعقد معاهدة بينهما سميت بمعاهدة غواد لوب-هيدالجو في شباط ١٨٤٨م حصلت الولايات المتحدة الأمريكية بموجبها على تكساس، وكاليفورنيا، ونيو مكسيكو. وتدخل الولايات المتحدة الأمريكية في المسألة

الكوبية عندما ثارت كوبا ضد إسبانيا مطالبة بالاستقلال بزعماء جوزيه مارتى "Jose Marti" عام ١٨٩٥م. وكان تدخلها لسبيين، هما:

- مساندة الثورات المطالبة بالاستقلال في أمريكا الجنوبية، والوسطى، والبحر الكاريبي.

- خوفاً من تفوق ثورة الكوبيين، وبالتالي تسرب الثورة إلى الجزر الأخرى في منطقة الكاريبي من جهة، وفي المناطق الأمريكية الأخرى من جهة ثانية؛ مما يؤثر في المستقبل على امتيازات الولايات المتحدة الأمريكية، ومصالحها فيها.

لقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب ضد إسبانيا عام ١٨٩٨م، دامت الحرب في حدود شهرين ونصف الشهر كانت نتيجتها طرد الاستعمار الإسباني من الأرض الأمريكية جميعها، ومن مناطق المحيط الهادئ. وبعدها قامت الولايات المتحدة الأمريكية، فضمت بورتوريكو، وجزر هاواي، وأقامت في كوبا قاعدة عسكرية. وهكذا توغلت الولايات المتحدة الأمريكية في مناطق الكاريبي ومناطق أمريكا الجنوبية والوسطى، وحلّت من جديد محل النفوذ الإسباني الذي استعمر البلاد منذ الكشف الجغرافي الأوروبي في النصف الغربي من العالم.

ويمكن القول: إن مبدأ مونرو أفاد الولايات المتحدة الأمريكية كثيراً في التدخل في شؤون الجمهوريات اللاتينية في أمريكا الوسطى، والجنوبية، وفي جزر الكاريبي، فقد طبقت الولايات المتحدة الأمريكية على هذه الجمهوريات مبدأ الوصاية والحماية، وأحياناً أخرى، فقد جعلت من نفسها وسيطاً لحل النزاعات القائمة بينها. ومن هنا نلاحظ أن أمريكا استغلت مبدأ مونرو لبسط نفوذها في القارة الأمريكية الجنوبية، والوسطى، فبدلاً من الجهد الذي ستبذله في مشروعات التدخل في أمور القارة الأوروبية، فهي الآن تبذله في مشروعاتها التوسعية والاستعمارية، في ربوع بلاد أمريكا الجنوبية، والوسطى، وجزر الكاريبي بحجة

الاعتماد على المبدأ القائل: إن أمريكا للأمريكيين، فهي الدولة الكبيرة والقوية في أمريكا، وهي الدولة التي لها حق التدخل، والسيطرة، والحماية، والوصاية بحجة حماية القارة من أخطار الاستعمار الأوروبي من جهة، وحماية أمنها القومي من جهة أخرى.

وبناء عليه، فقد تدخلت الولايات المتحدة الأمريكية في شؤون الجمهوريات اللاتينية التي كانت في معظمها خاضعة للنفوذ الإسباني. فتدخلت ضد حركات التحرر التي اندلعت في تشيلي عام ١٨٩١م، وفي البرازيل عام ١٨٩٣م، وضمت بالقوة بورتوريكو عام ١٨٩٨م، والدومنيكان بعد انفصالها عن جمهورية هايتي، واحتلت هايتي بالقوة عام ١٩١٥م، وتوسّطت في الخلافات القائمة بين تشيلي والبيرو.

وفي الجانب الاقتصادي، فقد غمرت الولايات المتحدة الأمريكية بمصنوعاتها أسواق أمريكا اللاتينية. وقامت بحركة تجارية واسعة في هذه المناطق. وتنافست الشركات الأمريكية التجارية، والمصرفية على توظيف رؤوس أموالها في مشروعات اقتصادية في هذه البلاد.

وعليه، فقد تولدت في بلدان أمريكا اللاتينية موجة عارمة من السخط على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى تدخلاتها في شؤون هذه البلاد. وكرّد فعل من جانب دول أمريكا اللاتينية قامت الحركات المناهضة للولايات المتحدة الأمريكية مطالبة إياها بعدم التدخل في شؤونها، واستقلالها، وحرّيتها. فهم الذين قاوموا الاستعمار الإسباني والفرنسي، وهم الذين سيقاومون الاستعمار الجديد الذي تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية في قارتهم. وقد خاب أمل الشعوب في بلدان أمريكا اللاتينية نتيجة مواقف حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه حركاتهم

التحررية والاستقلالية، وتولد نتيجة هذا الشعور بغض شديد للولايات المتحدة الأمريكية من قبل جماعة كبيرة من سكان بلدان أمريكا الجنوبية والوسطى^(١).



(١) نوار، عبد العزيز، جمال الدين، محمود محمد: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ١٠٢ -

ثانياً- التوسع الأمريكي في البحر الكاريبي وأمريكا الوسطى والجنوبية :

أ- التوسع في البحر الكاريبي وأمريكا الوسطى:

١- قضية كوبا:

لقد تأثرت السياسة الأمريكية تجاه كوبا بعاملين أساسيين، هما: العامل الاقتصادي، والعامل الاستراتيجي. فالولايات المتحدة كانت في حاجة إلى المنتجات الكوبية؛ وخصوصاً السكر، والتبغ، كما أن مناجم الحديد الكوبية كانت محل تطلع الرأسماليين الأمريكيين. وفي عام ١٨٩٣م بلغ مجموع الاستثمارات الأمريكية في كوبا أكثر من ٥٠ مليون دولار، بينما بلغ حجم تجارة كوبا مع الولايات المتحدة في العام نفسه ١٠٠ مليون دولار. وفي عام ١٨٩٤ اندلعت ثورة مسلحة في كوبا ضد حكم إسبانيا ما لبث أن تطورت إلى حرب أهلية مدمرة، استغرقت أكثر من أربع سنوات. وقد أزعجت هذه الحرب الأهلية المستثمرين الأمريكيين؛ بسبب الخسائر الكبيرة التي لحقت بزراعة قصب السكر، والتبغ، وصناعة التعدين، ومرافق السكك الحديدية. ومن ثم قوى الاتجاه في الولايات المتحدة، لاسيما في المناطق الصناعية في الشمال والشرق إلى ضرورة ضم كوبا، وكذلك بورتوريكو إلى الولايات المتحدة، لحماية رؤوس الأموال الأمريكية المستثمرة في هذين البلدين. وهكذا يمكن القول: إن حماية المصالح الرأسمالية الأمريكية كان من أهم الأسباب التي أدت إلى اندلاع الحرب الأمريكية -إسبانية عام ١٨٩٨م.

وبالنسبة للأهمية الاستراتيجية لجزيرة كوبا، فإنها تحتل موقعاً حيوياً يسيطر على خليج المكسيك، ويتحكم في أحد مدخلي القناة البحرية المزمع حفرها عبر أمريكا الوسطى. وبسبب انفجار بارجة حربية أمريكية في ميناء هافانا في تموز عام ١٨٩٨ أعلنت الولايات المتحدة الحرب ضد إسبانيا.

وانتهت الحرب بهزيمة إسبانيا، وتم إبرام معاهدة باريس في كانون الثاني ١٨٩٨م بمقتضاها اعترفت إسبانيا باستقلال كوبا، وتنازلت عن بورتوريكو للولايات

المتحدة، كما تنازلت عن جزر الفلبين وجوام في المحيط الهادي مقابل عشرين مليون دولار. وأصبحت كوبا تحت الحماية المقنعة للولايات المتحدة، فقد أخضعت لحكم عسكري أمريكي لمدة ثلاث سنوات من ١٨٩٩م إلى ١٩٠٢م قبل انتقال السلطة إلى حكومة مدنية جديدة بمقتضى دستور جديد. ولم يوافق الكونغرس الأمريكي على نقل السلطة إلى حكومة مدنية إلا بشروط عرفت باسم "تعديل بلات - Platt Amendment" أدمجت في دستور كوبا الجديد، وتتلخص في الآتي:

١- لا يحق لكوبا إبرام معاهدات مع دول أجنبية من شأنها المساس باستقلال كوبا أو السيطرة على أي جزء منها أو من أجزاء الجزيرة.

٢- لا يحق لكوبا عقد قروض لا تتناسب ومقدرتها الاقتصادية العادية.

٣- يحق للولايات المتحدة التدخل المباشر لحماية استقلال كوبا، كما اعترفت كوبا بحق الولايات المتحدة في التدخل لحماية أية حكومة كوبية ترى الولايات المتحدة أنها قادرة على المحافظة على حياة المواطنين، وحريتهم، وممتلكاتهم.

٤- يحق للولايات المتحدة إقامة قواعد عسكرية بحرية في كوبا. وهكذا لم تدع الولايات المتحدة لنفسها حق التدخل في شؤون كوبا الخارجية فحسب؛ بل أعطت لنفسها حق التدخل المباشر في شؤون الجزيرة الداخلية. وقد طبقت الولايات المتحدة هذا الحق عام ١٩٠٦م عندما ثار الشعب الكوبي مثلاً في حزب الأحرار ضد رئيس الدولة الموالي للولايات المتحدة الذي انتخب عام ١٩٠٢م بمساعدة القوات الأمريكية التي كانت في الجزيرة آنذاك.

ومن أهم النتائج التي تترتبت على هذه التطورات أن القيود التي تضمنها "تعديل بلات" لم يطبق على كوبا؛ فحسب بل أصبح أساساً عاماً للسياسة الأمريكية في منطقة البحر الكاريبي، وأمريكا الوسطى^(١).

٢ - قضية قناة بنما:

لم تقتصر نتائج الحرب الأمريكية-الإسبانية على سيطرة الولايات المتحدة على منطقة الكاريبي، بل إن استيلائها على جزر الفلبين وجوام قد أدى إلى تدعيم مركزها في منطقة المحيط الهادئ. ومن ثم فقد أصبح موضوع حفر قناة بحرية تصل بين المنطقتين أكثر أهمية من ذي قبل، وأصبحت هذه القناة حجر الزاوية في الاستراتيجية البحرية الأمريكية. وبالرغم من إعلان مبدأ مونرو لم تتمكن الولايات المتحدة قبل توحيدها، وتعاضم قوتها العسكرية والاقتصادية من التغلب تماماً على منافسة الدول الاستعمارية الأخرى لها في منطقة أمريكا الوسطى، ولاسيما بريطانيا. ففي عام ١٨٥٠م اضطرت الولايات المتحدة الأمريكية إلى توقيع معاهدة كلايتون-بلور "Clayton-Bulwer" التي أنكرت على الولايات المتحدة الإشراف المنفرد على منطقة أمريكا الوسطى. وأمام رغبة الولايات المتحدة في إزالة العقبة القانونية التي كانت تعوق فرض سيطرتها التامة على المنطقة، رضخت بريطانيا التي كانت مشغولة بحرب جنوب إفريقية، وتم توقيع معاهدة هاي-بوينسيفوت "Hay-Pauncefote" في ١٨ تشرين الثاني عام ١٩٠١م التي ألغت معاهدة كلايتون-بلور، واعترفت بمبدأ حياد القناة، وحق الولايات المتحدة في الإشراف عليها، وإدارتها، والدفاع عنها، وحق التحصينات، والاستحكامات اللازمة.

(١) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص ٣٩٣-٣٩٦.

وعلى هذا يمكن القول: إن معاهدة هاي-بوينسفوت أطلقت يد الولايات المتحدة في منطقة أمريكا الوسطى.

واستمر توسع الولايات المتحدة بسرعة كبيرة، وفي كانون أول سنة ١٩١٣م عقدت الولايات المتحدة معاهدة هاي-هوران "Hay-Harran" مع كولومبيا، حيث حصلت الولايات المتحدة على امتياز تأجير منطقة برزخ بنما بعرض ستة أميال لحفر قناة بحرية فيها، وذلك لمدة ٩٩ عاماً مقابل عشرة ملايين دولار، وأجرة سنوية مقدارها ربع مليون دولار. وعندما رفض برلمان كولومبيا التصديق على المعاهدة لجأت الحكومة الأمريكية إلى تشجيع ومساعدة حركة انفصالية في إقليم بنما الذي كان تابعاً لدولة كولومبيا في ذلك الوقت، وحالت القوات البحرية الأمريكية دون قيام قوات كولومبيا بقمع الحركة الانفصالية التي أعلنت استقلال بنما عن كولومبيا، وأسرت الولايات المتحدة بالاعتراف بدولة بنما الجديدة في تشرين الثاني عام ١٩٠٣م، وعقدت معها معاهدة هاي-بونوفاريللا "Hay-Varilla" التي منحت الولايات المتحدة حقوق السيادة على منطقة القناة، كما نصت المعاهدة على حق الولايات المتحدة في امتلاك قناة بنما وتحسينها إلى الأبد، وحققها في احتلال جميع الأراضي اللازمة لإدارة القناة، واستغلالها، والدفاع عنها. ومن ناحية أخرى، تعهدت الولايات المتحدة بضمان استقلال جمهورية بنما الجديدة التي خضعت للوصاية الفعلية للولايات المتحدة. وبعد حفر القناة ازداد تدخل الولايات المتحدة في شؤون أمريكا الوسطى، والبحر الكاريبي انطلاقاً من مبدأ مونرو أحياناً، وبدافع تأمين قناة بنما أحياناً أخرى^(١).

(١) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص ٣٩٦-٣٩٨.

٤- قضية جمهورية الدومينيكان:

بين جزيرتي كوبا وبورتوريكو تقع جزيرة هسبانيولا "Hispaniola" التي تضم هاييتي والدومينيكان محتلة بذلك موقعاً استراتيجياً مهماً عند مشارف البحر الكاريبي، وفي مواجهة قناة بنما. ولذلك عملت الولايات المتحدة منذ فترة طويلة على منع الدول الاستعمارية الأوروبية من السيطرة على الجزيرة، واتبعت سياسة أكثر إيجابية إزاء باقي دول البحر الكاريبي، وأمريكا الوسطى بعد أن فرضت سيطرتها على جزيرتي كوبا، وبورتوريكو. ولم يعد الأمر محصوراً على منع الدول الأوروبية من السيطرة على المنطقة، ولكنه يعني أيضاً فرض السيطرة الأمريكية الفعلية عليها. وقد ساعدت الولايات المتحدة على تنفيذ هذه السياسة الإيجابية الجديدة تلك الاضطرابات والثورات التي شملت هذه الأقاليم بشكل مستمر، وأفضل دليل على ذلك تطور الأحداث في جمهورية الدومينيكان.

ظلت الدومينيكان منذ استقلالها عن هاييتي عام ١٨٤٤م تخضع لحكم دكتاتوري رجعي، واجه ثورات شعبية متكررة؛ بسبب فساد الحكم، وجشع الرأسماليين الأوروبيين، والأمريكيين الذين أثقلوا كاهل الدولة بالديون الخارجية، ولما لوحث الدول الأوروبية بالتدخل لحماية مصالح رعاياها الدائنين، طلبت حكومة الدومينيكان تدخل الولايات المتحدة لمساعدتها، وكانت فرصة انتهازها الرئيس الأمريكي روزفلت ليعلن رسمياً مفهومه الجديد لمبدأ مونرو، ففي ٦ كانون الأول ١٩٠٤ قال روزفلت في رسالته السنوية: "حيث إن الولايات المتحدة بمقتضى مبدأ مونرو لن تسمح للدول الأوروبية باستخدام القوة ضد هذه الشعوب الصغيرة المتمردة التي لا تسدد ما عليها من ديون، أو تستولي على ممتلكات الأجانب أو تسيء معاملة الأجانب المقيمين بها، فلقد وضع على كاهل الأمريكيين مسؤوليات لا مفر منها، وسوف تتولى الولايات المتحدة بنفسها مهمة مراقبة سلوك هذه الجمهوريات". وأضاف روزفلت أن قيام أية اضطرابات في دولة من

دول القارة الأمريكية سوف يقتضي التدخل بالقوة من جانب الولايات المتحدة عملاً بمبدأ مونرو. وهكذا أعطت الولايات المتحدة لنفسها سلطة البوليس الدولي في القارة الأمريكية.

وتحقيقاً لهذه السلطة المزعومة عينت الولايات المتحدة مراقباً مالياً في جمهورية الدومينيكان لتحصيل الرسوم الجمركية، وتوزيع جزء كبير منها على الدائنين الأوروبيين والأمريكيين، وأباحت الولايات المتحدة لنفسها حق حماية مراقبها المالي بالقوة إذا استدعى الأمر ذلك، ولكن الاضطرابات الداخلية استمرت في الدومينيكان؛ بسبب الصراع السياسي على السلطة، وتدخل الولايات المتحدة السافر في أمور البلاد؛ الأمر الذي أدى إلى تطور هذه الاضطرابات إلى حرب أهلية. وهنا تدخلت الولايات المتحدة مرة أخرى، وطالبت الدومينيكان بتوقيع معاهدة جديدة تقضي بتعيين مستشار اقتصادي أمريكي بجانب المراقب المالي الذي توسعت اختصاصاته، وذلك بهدف تحصيل موارد الدولة الداخلية جميعها، علاوة على الرسوم الجمركية؛ وبالإضافة إلى ذلك طالبت الولايات المتحدة بحق الإشراف على تنظيم الشرطة. ولكن حكومة الدومينيكان رفضت هذه المطالب لما فيها من مساس بسيادة البلاد. وفي أيار ١٩١٦م قرر الرئيس الأمريكي وودرو ولسون احتلال البلاد، وإخضاعها لحكم عسكري أمريكي، وهكذا تحولت جمهورية الدومينيكان إلى مستعمرة أمريكية من الناحية الواقعية، ومكنت القوات الأمريكية بها حتى عام ١٩٢٤م عندما تشكلت في البلاد حكومة موالية للحكومة الأمريكية^(١).

(١) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص ٣٩٨-٤٠٠.

٥- قضية المكسيك:

تُعَدُّ المكسيك من أهم دول أمريكا الوسطى من حيث عدد سكانها، ومواردها الزراعية، والمعدنية، وموقعها الجغرافي. وكان من المفروض أن تتدفق رؤوس الأموال الأجنبية على المكسيك لاستغلال مواردها المتعددة، واحتلت رؤوس الأموال الأمريكية المقام الأول بين الاستثمارات الدولية. وفي عام ١٩١٢م بلغت جملة الاستثمارات الأمريكية في المكسيك ٥٢% من مجموع الاستثمارات الأمريكية في دول أمريكا اللاتينية جميعها. وكما يحدث عادة في البلاد الضعيفة المتخلفة اقتصادياً، فإن الرأسمالية الأجنبية لا تستطيع التمكن من اقتصاديات البلاد إلا بالتحالف مع الطبقات الحاكمة من الإقطاعيين، والرأسمالية الوطنية التي لا تتورع عن استخدام أكثر أساليب الدكتاتورية تعسفاً لتحقيق مصالحها الخاصة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالرأسمالية الدولية. وهذا يمثل وضوح معالم الحكم في المكسيك في عهد الديكتاتور بروفيريو دياز "Profirio Diaz" الذي قبض على زمام الحكم في البلاد بيد من حديد لمدة تربو على الثلاثين عاماً من عام ١٨٧٠م إلى عام ١٨٨٠م ثم من عام ١٨٨٤م إلى عام ١٩١١م. وفي عام ١٩١٠ اندلعت ثورة شعبية قومية بزعامة فرنسيسكو ماديرو "Francisco Madero" ضد دكتاتورية بروفيريو دياز.

لقد اقتصررت ثورة ماديرو الذي ينتمي إلى الطبقة الإقطاعية رغم اعتناقه مبدأ اللبرالية السياسية على الجانب السياسي من دون معالجة المشاكل الاقتصادية، والاجتماعية. ولذلك تعرض حكم ماديرو (١٩١١م-١٩١٣م) لمقاومة بعض أتباعه أصحاب النزعات التقدمية. كما أن ديمقراطيته السياسية فتحت المجال للرجعية الأوتوقراطية باغتصاب الحكم مرة أخرى نتيجة انقلاب عسكري بزعامة الجنرال فيكتوريانو هويرتا "Victoriano Huerta" الذي تطلع إلى الانفرد بالسلطة المطلقة، والقضاء على منافسيه بكل أساليب الغدر والتكيل، وأشعلت هذه

السياسة الحرب الأهلية بين الرجعية، والعناصر التقدمية، مما ترتب عليه الأضرار بالمصالح الاقتصادية الرأسمالية الأمريكية. ومما تجدر الإشارة إليه أن شركات البترول الأمريكية كانت تؤيد حكومة هويرتا؛ لأنها كانت الأقدر على حماية المصالح الرأسمالية. ولكن حكومة الرئيس ويلسون التي تولت الحكم عام ١٩١٣م كانت أبعد نظراً من هذه الشركات، فساندت الحركة الديمقراطية على أمل استقرار الحكم في المكسيك بواسطة حكومة ديمقراطية معتدلة تستطيع أن تكبح جماح التيارات الثورية بتقديم بعض الإصلاحات الدستورية التي لا تؤثر في المصالح الرأسمالية الأمريكية في المكسيك. ولم تكتفِ الولايات المتحدة بعدم الاعتراف بحكومة هويرتا، ولكنها قدمت السلاح إلى الثوار، كما احتلت القوات الأمريكية ميناء فيرا كروز "Vera Cruz" لمنع حكومة هويرتا من الحصول على معونات خارجية. وبذلك نجحت الثورة المكسيكية بقيادة فنوستيا نو كرانزا "Venustiano Carranza" بفضل التدخل الأمريكي.

ولكن استيلاء كرانزا على الحكم في آب عام ١٩١٤م لم يمثل نجاحاً مطلقاً لسياسة الرئيس ويلسون، فقد كان رجلاً وطنياً يريد وضع حد لسيطرة الرأسمالية الأمريكية على البلاد. ومن هنا اصطدم كرانزا بحكومة ويلسون التي كانت سنده الرئيس في صراعه للوصول إلى الحكم. غير أن نجاح الثورة الشعبية في المكسيك لم يمنع من استمرار الاضطرابات؛ بسبب اختلاف زعماء الثورة على خطط الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي؛ الأمر الذي أدى إلى تدخل الولايات المتحدة بقوة السلاح في شؤون المكسيك بحجة الانتقام لمصرع بعض الأمريكيين في أثناء القتال بين زعماء الثورة المتصارعين؛ وبسبب قرب دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى اضطرت الحكومة الأمريكية إلى سحب قواتها من المكسيك في كانون الثاني عام ١٩١٧م. وفي العام نفسه أصدرت حكومة كرانزا دستوراً نص على ملكية الدولة للثروات المعدنية في البلاد، وإعادة توزيع الأراضي الزراعية

لصالح الفلاحين، وحق الدولة في تأميم الشركات الأجنبية التي تستغل ثروات البلاد المعدنية والزراعية. كما نص الدستور -أيضاً- على أن تتنازل الشركات الأجنبية التي تستمر في استغلال ثروات البلاد عن حق الحماية الدبلوماسية إذا ثار نزاع بينها وبين الحكومة المكسيكية حول عقود الامتياز. ولذلك قامت الشركات الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة بالتحريض على قلب الحكومة القومية في المكسيك، وتدخلت الولايات المتحدة مراراً لإقناع حكومة المكسيك بعدم التعرض للشركات الأجنبية^(١).

ب- توسع الولايات المتحدة الأمريكية في أمريكا الجنوبية:

لم يبلغ تدخل الولايات المتحدة في أمريكا الجنوبية درجة تدخلها في شؤون أمريكا الوسطى، فاكثفت بفرض نفوذها المالي والاقتصادي عن طريق الشركات الأمريكية الكبرى، والاعتماد على الأساليب الدبلوماسية لفرض نفوذها السياسي. ويرجع اهتمام الولايات المتحدة بأمريكا الجنوبية إلى أوائل القرن التاسع عشر عندما ظهرت حركات التحرر في هذه البلاد من الحكم الإسباني والبرتغالي. وقد أدى هذا الاهتمام إلى إعلان مبدأ مونرو عام ١٨٢٣م كما أسلفنا. وتعدّ الدوافع السياسية والاستراتيجية من أهم الدوافع التي وجهت اهتمام الولايات المتحدة بأمريكا الجنوبية، لاسيما الدول المطلة على البحر الكاريبي، مثل: كولومبيا، وفنزويلا.

ولكن أهم أسباب تدخل الولايات المتحدة في شؤون أمريكا الجنوبية كان سبباً ذا طبيعة اقتصادية. ولقد برزت هذه الأسباب منذ أواخر القرن التاسع عشر بعد تشبع السوق الداخلية الأمريكية، وعجزها عن استيعاب فائض الإنتاج الصناعي وفائض رأس المال، وبدأ الاقتصاد الأمريكي يواجه خطر الكساد. وتمثل أمريكا

(١) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص ٤٠٠-٤٠٢.

الجنوبية بمواردها الطبيعية الغنية، وقوتها البشرية مجالاً واسعاً أمام استثمار فائض رأس المال الأمريكي، وتنمية التجارة الأمريكية؛ الأمر الذي يؤدي إلى مزيد من التقدم، والازدهار للاقتصاد الأمريكي ككل. وقد ارتفعت الاستثمارات الأمريكية في أمريكا بمقدار عشرة أضعاف بين عامي ١٨٩٧م - ١٩١٤م. كما ارتفعت معدلات التجارة الخارجية مع دول أمريكا الجنوبية ارتفاعاً واضحاً في الفترة نفسها. وكان من الطبيعي أن تصطدم رغبة الولايات المتحدة في التغلغل الاقتصادي في أمريكا الجنوبية بمصالح الدول الاستعمارية الأخرى، وعلى رأسها بريطانيا. وانعكس هذا التنافس البريطاني-الأمريكي على النزاع الذي ثار بين فنزويلا، وبريطانيا حول الحدود بين مستعمرة غيانا البريطانية، وفنزويلا.

ويعود النزاع الحدودي بين فنزويلا وغويانا البريطانية إلى ما قبل منتصف القرن التاسع عشر حيث لم يسبق تحديدها من قبل. وحاولت الحكومتان التوصل إلى اتفاق بهذا الصدد. لكن جميعها باءت بالفشل إذ أرادت كل دولة فرض سيطرتها على مصب نهر أورينوكو "Orinoco" الذي يتحكم في تجارة جزء كبير من داخل البلاد. ومنذ عام ١٨٨٤م توترت العلاقات بين البلدين، وتمسك كل طرف بموقفه بعد اكتشاف مناجم الذهب في منطقة النزاع بينهما. وقررت حكومة فنزويلا في عام ١٨٨٧ قطع علاقاتها الدبلوماسية مع بريطانيا، وطلبت من الولايات المتحدة التوسط لحمل بريطانيا على قبول عرض النزاع على لجنة التحكيم. ورفضت بريطانيا الوساطة، كما رفضت عرض الموضوع للتحكيم، وتمسكت بمطالبها الإقليمية كاملة. حينئذ أرسل ريتشارد أولني "Richard Olney" وزير خارجية الولايات المتحدة في ٢٠ تموز عام ١٨٩٥م مذكرة شديدة اللهجة إلى الحكومة البريطانية أكد فيها حق بلاده التدخل في القضايا الإقليمية كلها المتعلقة بالقارة الأمريكية. واستندت هذه المذكرة إلى مبدأ مونرو، وادعى أولني أن هذا المبدأ له جانب إيجابي يهدف إلى حماية مصالح الولايات المتحدة وتأكيداتها في

القارة الأمريكية بأكملها. وفي نهاية المذكرة أُنذر أولني بريطانيا بضرورة عرض هذا النزاع على هيئة تحكيم مؤكداً أن الولايات المتحدة أصبحت تتمتع بالسيادة الفعلية على القارة، وأن إرادتها في مقام القانون الملزم فيما يتعلق بالموضوعات التي ترى التدخل فيها.

ومن ناحيتها رفضت بريطانيا هذا التفسير الأمريكي لمبدأ مونرو، وأنكرت على الولايات المتحدة حقها في فرض وساطتها في النزاع الفنزويلي البريطاني لمخالفة ذلك لقواعد القانون الدولي. فطلب الرئيس الأمريكي كليفلاند "Cleveland" من الكونغرس الموافقة على تكوين لجنة أمريكية لتقصي الحقائق في هذا النزاع. وأكد كليفلاند في رسالة الكونغرس بتاريخ ١٧ كانون الثاني عام ١٨٩٥م بأنه إذا اتضح لهذه اللجنة أحقية فنزويلا في المنطقة المتنازع عليها، فسوف تُعد حكومة الولايات المتحدة استيلاء بريطانيا على هذه المنطقة عدواناً على حقوق الولايات المتحدة ومصالحها التي من واجبها أن تدفع هذا العدوان بكل وسيلة ممكنة. وقد وافق الكونغرس على تكوين هذه اللجنة. ولكن بريطانيا تراجعت عن موقفها، وقبلت عرض النزاع على هيئة تحكيم تتكون من عضوين أمريكيين، وعضوين بريطانيين، وبرئاسة شخص محايد هو الفقيه الروسي الشهير دي مارتنز "F.F.de Martens" وبمقتضى قرار هيئة التحكيم احتفظت فنزويلا بسيطرتها على مصب نهر أورينوكو، وهو ما يحقق المصالح التجارية الأمريكية في المناطق التي يمر بها النهر. وتُعد هذه الفائدة ثانوية بالنسبة إلى الآثار السياسية العامة التي ترتبت على أسلوب تسوية هذا النزاع ونجملها بالآتي:

١. يُعدّ إصرار الولايات المتحدة على فرض وساطتها لتسوية النزاع الفنزويلي-البريطاني تطوراً مهماً لمبدأ مونرو؛ إذ ادعت الولايات المتحدة لنفسها حق التحكيم في كل نزاع ينشب في القارة الأمريكية، وعدته حقاً من حقوق

السيادة تلتزم به السياسة الأمريكية، وترضخ له الدول جميعها. وبالفعل رضخت بريطانيا؛ لأنها كانت مشغولة بقضايا استعمارية مهمة في آسيا، وإفريقية، ومنذ ذلك الوقت اتسمت العلاقات البريطانية- الأمريكية بطابع التعاون ليس في القارة الأمريكية فحسب؛ وإنما أيضاً في الشرق الأقصى، والمحيط الهادئ.

٢. تدخلت الولايات المتحدة في هذا النزاع دون تفويض من فنزويلا، وقد أثار هذا الأسلوب مخاوف دول أمريكا الجنوبية من فرض سيطرة الولايات المتحدة عليها، كما حدث في أمريكا الوسطى، وفي منطقة البحر الكاريبي. ونتيجة لذلك ظهرت بوادر التوتر في العلاقات بين دول أمريكا الجنوبية والولايات المتحدة؛ لأن الأخيرة أفصحت بوضوح عن نواياها الاستعمارية التي لم تختلف كثيراً عن سلوك الدول الاستعمارية الأوروبية التي حاربتها دول أمريكا الجنوبية للتخلص من سيطرتها. ولقد أضرت هذه المخاوف الوحدة الأمريكية، حيث رأت فيها دول أمريكا الجنوبية وسيلة لفرض السيطرة الأمريكية على دول القارة جميعها؛ الأمر الذي انعكس أيضاً على الحركة الأدبية والفكرية في أمريكا الجنوبية التي تبنت فكرة المحافظة على التراث الإسباني لمواجهة النفوذ الثقافي الأمريكي^(١).

(١) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، ص ٤٠٢ - ٤٠٦.

ثالثاً - جامعة الدول الأمريكية:

بعد أن امتد نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية في عدد من بلدان أمريكا الجنوبية، والوسطى، وجزر الكاريبي، وتطبيقاً للقواعد التي ارتكز عليها مبدأ مونرو، فقد رأت الولايات المتحدة الأمريكية أن تعمل على إيجاد نوع من الترابط والصلات بين دول القارة الأمريكية كنموذج من الروابط الإقليمية التي تجمع عدداً من الدول ذات الإقليم الواحد أو ذات المقومات الواحدة في منظمة أو هيئة أو جامعة واحدة. وقد رأت الولايات المتحدة أن قيام منظمة أمريكية تنظم فيها الدول الأمريكية سيساعد كثيراً على تثبيت دعائم نفوذها السياسي والاقتصادي في القارة الأمريكية؛ لأن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأقوى، والأعظم بين دول القارة الأمريكية، ومن هنا، لا بد أن تكون السيادة العليا لها في أية جامعة أو منظمة أمريكية يقترح قيامها.

لقد بدأ تفكير الولايات المتحدة الأمريكية في إقامة جامعة للدول الأمريكية منذ عام ١٨٨١. وكان الهدف من إنشاء هذه المنظمة، هو استخدامها كأداة لفرض السيطرة الأمريكية على القارة بأكملها. ففي عام ١٨٨١م دعا جيمس بلين " James Blaine " وزير خارجية الولايات المتحدة ثماني عشر دولة أمريكية لحضور مؤتمر يعقد في واشنطن في العام التالي لمناقشة التدابير الخاصة لمنع الحرب بين الدول الأمريكية، وتشجيع العلاقات التجارية بين الولايات المتحدة اللاتينية.

وقد تأجلت دعوة المؤتمر إلى الانعقاد إلى عام ١٨٨٩م لأسباب داخلية في الولايات المتحدة. وفي عام ١٨٨٨م طلب الكونغرس من الرئيس الأمريكي دعوة مؤتمر للدول الأمريكية في واشنطن في تشرين أول عام ١٨٨٩م. ووضع في جدول أعمال المؤتمر، كما وضعه الكونغرس، والحكومة: أن الولايات المتحدة تسعى إلى فرض سيطرتها على دول القارة في إطار منظمة إقليمية. فقد اقترحت الحكومة الأمريكية إقامة اتحاد جمركي، ونقدي بين الأعضاء، وإنشاء خط حديدي

قاري يربط الأرجنتين بالمكسيك، وقبول مبدأ التحكيم الإلزامي لفض النزاعات بين الدول الأعضاء.

ولكن دول أمريكا اللاتينية أبدت تحفظاً على خطة الولايات المتحدة، إذ شعرت فيها رغبة السيطرة والتسلط، فرفضت الاتحاد الجمركي، واقتربت بدلاً منه إبرام معاهدات ثنائية على أساس المعاملة بالمثل، وتم الاتفاق على مشروع معاهدة للتحكيم الإلزامي، ولكن لم يصدق عليه^(١).

وقد تمخض عن مؤتمر واشنطن إنشاء مكتب خاص للجمهوريات الأمريكية، أصبحت مدينة واشنطن مقراً لها، وأصبح الدبلوماسيون الممثلون للدول الأمريكية في واشنطن هم أعضاء هذا المكتب الذي خولها العمل على عقد مؤتمرات أخرى من أجل توطيد دعائم التعاون، والاتحاد بين هذه الدول^(٢).

ويرجع فشل الولايات المتحدة في إنشاء منظمة أمريكية عام ١٨٨٩م خاضعة لسيطرتها إلا أن تنفيذ هذه السياسة كان سابقاً لأوانه، لاسيما من الناحية الاقتصادية؛ فروؤوس الأموال الأمريكية المستثمرة في الخارج كانت ضئيلة نسبياً، بسبب اتساع مجال استثمارها داخل الولايات المتحدة حتى أواخر التسعينيات من القرن التاسع عشر. كما أن فشل مؤتمرات الاتحاد في الفترة التالية حتى عام ١٩١٤م كان بسبب الاعتبارات السياسية التي تلخصت في خوف جمهوريات أمريكا اللاتينية من سيطرة الولايات المتحدة عليها^(٣).

وظل المكتب كما هو عليه من دون أن يقدم عملاً كبيراً تجاه الوحدة أو الاتحاد الأمريكي حتى استبدل بما يسمى بالاتحاد الأمريكي "Pan American"

(١) عمر عبد العزيز عمر، المرجع نفسه، ص ٣٩٢-٣٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٩٢-٣٩٣.

Union" عام ١٩١٠م وقد ضم هذا الاتحاد عشرين دولة أمريكية تأتي في مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية. وقد انضمت إلى هذا الاتحاد كل من : هندوراس، وسلفادور، والمكسيك، وكولومبيا، وفنزويلا، ونيكاراجوا، وهاييتي، وسان دومنجو، والأرجنتين، وجواتيمالا، والبرازيل، وكوستاريكا، وباراجواي، وأوراجواي، وشيلي، وبوليفيا، والبيرو، والإكوادور، وكوبا.

ويلاحظ على هذا الاتحاد الأمريكي أنه اتحاد شكلي أكثر من كونه اتحاداً عملياً، وتنفيذياً. كما أنه لا توجد مقومات التكافؤ في القدرة السياسية والاقتصادية بين هذه الدول. كما وتوجد خلافات سياسية حادة بين بعضها، وتوجد خلافات أخرى بين بعضها، وبين الولايات المتحدة الأمريكية الدولة الكبرى في الاتحاد. وقد نظرت عدد من هذه الدول وشعوبها إلى الولايات المتحدة الأمريكية على أنها الدولة المستفيدة من الاتحاد الأمريكي؛ لأنه يضع دول أمريكا تحت مظلتها السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، ومن هنا فإن هناك تفاوتاً كبيراً بين نظرة الولايات المتحدة الأمريكية إلى الاتحاد الأمريكي، ونظرة الدول الأخرى له. وبناء على قاعدة التفاوت هذه، فإن الكثير من دول أمريكا رأت في الاتحاد وسيلة من وسائل اللقاءات، والاجتماعات، والمؤتمرات أكثر من كونه جهازاً تنفيذياً يعمل على إيجاد نوع من الوحدة أو الاتحاد بين دول أمريكا.

وقد استبدل اسم الاتحاد الأمريكي باسم جديد هو جامعة الدول الأمريكية عام ١٩٤٨م بعد اجتماع دول الاتحاد الأمريكي في كولومبيا. ووضع للجامعة الأمريكية دستوراً جديداً، وأقيم لها أمانة دائمة في العاصمة الأمريكية واشنطن.

ويعود سبب هذا التغيير باتجاه الأفضل إلى سياسة الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت الذي عمل على تقوية الجو بين بلاده وبين بلدان أمريكا اللاتينية عن طريق إيجاد نوع من العلاقات الودية، والاحترام المتبادل بين هذه الدول جميعها القائم على أساس الند للند، وإقامة قواعد جديدة لمبدأ حسن الجوار بين هذه الدول.

وقد برهن الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت قدرته على إزالة الحواجز النفسية بين بلاده، والبلاد الأمريكية الأخرى.

وقد نظمت أجهزة جامعة الدول الأمريكية على غرار أجهزة هيئة الأمم المتحدة أو عصبة الأمم من قبلها. ويبدو أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد أفادت كثيراً من تجربة الاتحاد الأمريكي الطويل، ومن خلال هذه التجربة كان العرض الأمريكي بإنشاء عصبة الأمم في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وهي بند من البنود الأربعة عشر التي قدمها الرئيس ويلسن عند دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب العالمية الأولى.

وظلت هناك منغصات تعترض سبيل سير جامعة الدول الأمريكية يأتي من أبرزها كسر الولايات المتحدة الأمريكية مبدأ العزلة الذي تمثل في مبدأ مونرو، وانشغالها في المسائل الاستعمارية العالمية التي غيرت نظرة الشعوب تجاهها، ومن بينها شعوب القارة الأمريكية والوسطى. أضف إلى هذا تغلغل المعسكر السوفييتي في بعض الدول الأمريكية التي تشل أعضاء في الجامعة، ومن هنا ظلت جامعة الدول الأمريكية مجرد منظمة إقليمية أمريكية لا تتوفر بين أعضائها عوامل الثقة والمحبة الصادقة على الرغم من وجود مقدماتها^(١).

(١) عبد العزيز نوار، محمود محمد جمال الدين: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ص ١٠٦ -



الفصل الثاني عشر

الولايات المتحدة الأمريكية والحربان العالميتان الأولى والثانية



أولاً- كسر العزلة في أثناء في الحرب العالمية الأولى:

أ- التمسك بالعزلة:

ارتبط مبدأ العزلة بالرئيس جيمس مونرو في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كما ارتبط كسر العزلة بالرئيس "وودرو ويلسون" Woodrow Wilson الذي اتصف بالمثالية، والعقل الراجح، والعلم، والواقعية، واللباقة والمهارة السياسية مع التمسك بالمبادئ الخلقية في السياسة الداخلية والخارجية؛ وذلك باحترام المواثيق والعهود. كما جمع بين الإخلاص الحار من أجل المبدأ وبين العنف والعناد من أجل المحافظة عليه، كما جمع بين الأحاديث القوية التي كان يلقيها على الشعب، وبين سمو الفصاحة، والجمال الشعري في الأسلوب؛ إلى جانب أنه كان من الباحثين في علم السياسة، وألف كتباً قيمة في نظام الحكم، وكانت له آراؤه الناضجة بشأن طبيعة الرئاسة ووظيفتها، والنظام الحزبي، ومكانة الولايات المتحدة في العالم^(١).

تولى الرئيس ويلسون الرئاسة لفترتين متتاليتين من عام ١٩١٣م إلى عام ١٩١٩م، ونظراً لأنه كان سلمي النزعة، ويغلب الاعتبارات المعنوية على المادية، فقد اتخذ بالنسبة لأوروبا سياسة المسالمة؛ لأن هذه السياسة تساعد على تحقيق طموح الأمريكيين لتحقيق حياة متحضرة حديثة؛ ولأن السلام يعني النظام والاستقرار، والبعد عن العنف، وإقرار الأمن والقانون، ومن ثم اقترح البعد عن الأساليب العنيفة، والحربية كما كان سائداً في الماضي^(٢).

كان ويلسون مواطناً فرجينياً عمل أستاذاً ثم رئيساً لجامعة بريستون التي تعلم فيها، ثم صار حاكماً لولاية نيو جيرسي. ولكونه عالماً مثالياً عارض السيطرة الخائفة

(١) ألن نفنز، هنري ستيل كومجر: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ترجمة مصطفى عامر،

القاهرة ١٩٥٢، ص ٤٦٧

(٢) Wiebe R.H.: The sersch for order, p. 260.

لأصحاب الأعمال الكبيرة، ولشركات الاحتكار، ووعده بإعادة شاملة للتنظيم. وحصلت مفاجئة للأمريكيين الذين كانوا يخشون ألا يستطيع الرئيس أستاذ الجامعة الخوض في معترك الكونغرس السياسي؛ إذ نفذ ويلسون وعوده الانتخابية التي تحدث عنها في سلسلة من الخطابات المطبوعة تحت عنوان الحرية الجديدة بخفة ورشاقة^(١).

والى ويلسون ترجع عملية كسر العزلة التي لم تتم فجأة؛ بل سبقتها مقدمات حدثت في عهود الرؤساء الذين سبقوه، تبدأ بإعلان سياسة الباب المفتوح في الصين منذ عام ١٨٩٩م، حين طلب وزير الخارجية الأمريكية "جون هاي John Hay" إلى الدول الأوروبية التي لها مناطق نفوذ في الصين أن تعد بألا تفرض ضرائب جمركية خاصة أو تجبي رسوماً للموانئ أو أجوراً للسكك الحديدية في داخل هذه المناطق، لاسيما أنه منذ أن منيت الصين بهزيمة مدوية على يد اليابان عام ١٨٩٥م صارت نهباً للدول الأوروبية لتحقيق مطامع اقتصادية وإقليمية وسياسية، كان من بين هذه الدول روسيا، وألمانيا، وبريطانيا.

وعندما تولى الرئيس تيودور روزفلت سارت السياسة الخارجية الأمريكية خطوات أخرى نحو كسر العزلة المفروضة على الموقف الأمريكي منذ عهد الرئيس مونرو، من ذلك وساطة الرئيس روزفلت في عام ١٩٠٥م لإنهاء الحرب بين روسيا، واليابان بعد صلح بين الطرفين على الأرض الأمريكية، وتحت رعاية الرئيس الأمريكي، ومن ذلك مشاركة الرئيس روزفلت في مؤتمر الجزيرة الخضراء عام ١٩٠٦م، ذلك المؤتمر الذي انعقد بذلك الميناء (الجزيرة) بجنوبي إسبانيا من

(١) فرانكلين أشر: موجز تاريخ الولايات المتحدة، ترجمة مهيبة المالكي، دار الثقافة ببيروت، ص

أجل الاتفاق على كيفية تنظيم شؤون المغرب العربي في مواجهة تصارع كل من إسبانية، وفرنسا، وألمانيا بصفة خاصة حول السيطرة على المغرب الأقصى.

حتى إذا تولى ويلسون منصب الرئاسة في الولايات المتحدة عام ١٩١٣م بدا وكأن العزلة التي عاشت فيها الولايات المتحدة سوف تنكسر على يد ويلسون، فقبل أن يهتم بهذه الخطوة في السياسة الخارجية لجأ إلى تنظيم السياسة الداخلية على أسس من إلغاء امتيازات لأية مجموعة من المواطنين، من ثم نجح في استصدار قانون بخفض الرسوم الجمركية تخفيفاً عن كاهل المواطنين، كما نجح في إصلاح نظام المصارف إصلاحاً شاملاً يبعد سيطرة أصحاب المصارف، ويجعل للحكومة رقابة على عملياتها، وأدخل اللامركزية في نظام المصارف، وأوجد مرونة نقدية عن طريق إصدار أوراق مالية احتياطية أفادت البلاد في أثناء الأزمة المالية العالمية زمن الحرب العالمية الأولى. كما فرض رقابة حكومية على الشركات الاحتكارية لكي تبطل المساوئ التي ارتبطت بأعمال هذه الشركات، مثل: قيام إدارات مشتركة لشركات متعددة، ومثل: التفرقة في الأسعار بين المشتريين. كما أسهم في التخفيف عن الفلاحين بإصدار قانون التسليف الزراعي الفيدرالي الذي يساعد الفلاحين للحصول على قروض بفوائد مخففة، وتحديد ساعات العمل لعمال السكة الحديدية، ورعاية السفن.

ثم جاءت سياسة ويلسون الخارجية لتتماشى في البداية مع طبيعته الخيرة مخالفاً بذلك -والى حد كبير- سياسة روزفلت الذي استخدم ما عُرف "بالعصا الغليظة" في السياسة الخارجية، فنراه وإن اضطر إلى التدخل في شؤون أمريكا اللاتينية أو اضطر إلى التدخل في الحرب العالمية الأولى بالميدان الأوروبي إلا أنه رفض بشدة أن يتخذ من التدخل عذراً للاستغلال، كما رأينا يستنكر سياسة الدولار، ويعد ألا تسعى الولايات المتحدة مرة أخرى وراء التوسع الإقليمي عن

طريق الغزو^(١). كما رفض ما اعتقده تيودور روزفلت، وجون هاي من أن التوسع الإقليمي في أمريكا اللاتينية، وشرق آسيا كان لمجرد إثبات الذات، وإيجاد مكان بين القوى الكبرى؛ لأن الظروف التي تساعد على تحقيق تلك السياسة في أراضي المستعمرات لا يمكن أن تتكرر في أوروبا، فالولايات المتحدة تتعامل مع الشعوب الصغيرة، والتي لا تكاد تستطيع المقاومة. ومن ناحية أخرى فالعلاقات الأمريكية الأوروبية تعتمد على الرغبة المتبادلة، وقبل عام ١٩١٤م أظهرت معظم الأمم رغبة قليلة لانضمام الولايات المتحدة إلى نظامهم الدبلوماسي^(٢).

ب- الحياد الإيجابي:

عندما اشتعلت الحرب العالمية الأولى وقفت الولايات المتحدة على الحياد بين دول الوسط (ألمانيا، والنمسا، وتركيا)، ودول الحلفاء (إنكلترا، وفرنسا، وإيطاليا). وامتنعت عن الدخول في المعارك الحربية تمثيلاً مع طبيعة التكوين النفسي للرئيس ويلسون، وهي الطبيعة الخيرة السلمية، ولكن هذه الطبيعة لم يكن باستطاعتها إغفال واقع الحياة الاقتصادية الأمريكية، كما أملت مقتضيات توازن القوى^(٣). وأدرك ويلسون أن الحياد السلبي -أي العزلة- في الوقت الذي تشتعل فيه الحرب العالمية الأولى يضرّ بالمصلحة الأمريكية اقتصادياً واستراتيجياً. فمع اقتناعه في مبدأ الأمر بالاستمرار في الوقوف على الحياد بين الطرفين المتقاتلين، وعدم التدخل في المعارك الحربية في جانب أي من الطرفين، إلا أنه رأى أن الحياد الإيجابي هو الطريق الذي يحقق المصالح الأمريكية.

(١) ألن نفز: المرجع السابق، ص ٤٧٣.

(٢) Wiebe R.H.: *Ibid.*, p. 256.

(٣) سمعان بطرس: العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين ج ١ (١٨١٥-١٩١٤)، دار المعارف، طبعة ثانية ١٩٧١، ص ٣٧٥.

وتتمثل وجهة النظر الأمريكية في الحياد الإيجابي في إيقاف الحرب بوساطة أمريكية من دون انتصار فريق على الآخر انتصاراً تاماً؛ لأن انتصار طرف على الآخر انتصاراً كاملاً سيؤدي إما إلى سيطرة روسيا القيصرية، وإما إلى سيطرة ألمانيا على القارة الأوروبية؛ وبالتالي السيطرة على العالم، كما أن الحياد الإيجابي سيؤدي إلى رواج التجارة الأمريكية حيث أصبحت الولايات المتحدة أكبر الدول المصدرة للسلع إلى الدول المتحاربة، ومن ثم أثرى الأمريكيون ثراء كبيراً من وراء هذه التجارة.

استمرت الوساطة الأمريكية بين الطرفين المتحاربين، وكانت آخرها محاولة الرئيس ويلسون نفيه التوسط بين الطرفين في كانون الثاني عام ١٩١٦م، ولكن من دون نتيجة؛ بسبب إصرار كل طرف على تحقيق نصر عسكري على الطرف الآخر، في الوقت الذي تعرضت فيه المصالح الاقتصادية الأمريكية لخطر التوقف؛ بسبب القيود الأوروبية ضد الموانئ الألمانية؛ وبسبب حرب الغواصات الألمانية التي بدأتها ألمانيا منذ شباط عام ١٩١٥م، ولم تسلم منها السفن الألمانية والتجارية الأمريكية.

واستمر الموقف الأمريكي صامداً أمام التحريضات والاستفزازات الأوروبية لجر الولايات المتحدة للدخول في المعارك الحربية، ولكن هذا الصمود لم يكن من الممكن أن يظل على حاله أمام تهديد المصالح الاقتصادية، والاستراتيجية الأمريكية. وأمريكا دولة رأسمالية النشأة والتكوين، وإذا كان بقاء الولايات المتحدة بعيداً عن ميادين المعارك الحربية يمثل اتجاهاً سياسياً وعسكرياً، فإنها من وجهة اقتصادية وسياسية إلى حد ما كانت تقدم قروضاً، ومعونات لدول الحلفاء، وتبيع الأسلحة، والمواد الغذائية لكلا الطرفين المتحاربين.

ويرى البعض أن الألمان كانوا ينظرون إلى الولايات المتحدة منذ بداية الحرب إلى أنها لم تكن محايدة، وأنها اتخذت سياسة متشددة من دول الوسط أكثر مما

أظهرته نحو إنكلترا وفرنسا، وقد اتضح هذا في التعامل التجاري الأمريكي مع دول
الوفاق (إنكلترا وفرنسا) وتطبيق سياسة الحصار الاقتصادي مع دول الوسط؛ بل
إن دول الوفاق تسلمت فيما بين تشرين الثاني عام ١٩١٤م وتشرين الثاني عام
١٩١٦م، على شكل حسابات ائتمانية أو قروض، ما قيمته ١٩٢٩ مليون دولار،
بينما لم تتسلم ألمانيا ما تزيد قيمته على خمسة ملايين دولار، وكان هذا تحايلاً
جديداً على الحياد كما قال الألمان^(١). وهذا صحيح إلى حد كبير؛ إذ كانت أغلبية
الشعب الأمريكي ترجو النصر، والفوز لبريطانيا، وفرنسا، وبلجيكا، وكانت ثمة مئة
رابطة من الحضارة، والتقاليد، ووحدة النظام، ووحدة التفكير تربط الأمريكيين
بالشعب البريطاني. ولم تكن ذكرى المعاونة التي قدمتها فرنسا في أيام الثورة
الأمريكية، والإعجاب ببطولة الفرنسيين والبلجيكيين في مقاومتهم للغزاة بأقل شأنًا.
كما كان واضحاً أن الألمان كانوا يؤمنون بنظرية السلطة المطلقة في الحكم، وفي
المجتمع، وأنهم إذا أخضعوا أوروبا، فإنهم لا شك سوف يقفون موقف الخصومة إن
عاجلاً أم آجلاً من الديمقراطيات الأمريكية^(٢).

وكان واضحاً أن الولايات المتحدة في علاقاتها بأوروبا في أثناء السنوات
الأولى من الحرب العالمية الأولى كانت تسعى للسلام في إطار من الحضارة
الحديثة، والسلام الذي تعنيه الولايات المتحدة يحقق النظام والاستقرار، والبعد عن
العنف، واحترام القانون، والتخلي عن استخدام القوة العسكرية، والوسائل جميعها
ذات الطابع البربري^(٣).

(١) جلال يحيى: العالم المعاصر، ص ٥٣

(٢) ألن نفنز: المرجع السابق، ص ٤٧٦.

(٣) Wiebe R.H.: *Ibid.*, p. 260.

ج- الاشتراك في الحرب:

كان من الطبيعي، والحالة هذه أن تسير الأمور بالولايات المتحدة الأمريكية إلى الاشتراك في الحرب العالمية الأولى في نهاية الأمر إلى جانب دول الوفاق، وضد دول الوسط. وكان السبب المباشر لاشتراك الولايات المتحدة في المعارك الحربية إصرار ألمانيا على الاستمرار في حرب الغواصات؛ مما أفقد الولايات المتحدة عدداً ليس بقليل من السفن، والمواطنين، ومن التجارة؛ مما أثار الشعب الأمريكي ضد ألمانيا، وطالب الرئيس ويلسون بإعلان الحرب ضد ألمانيا المعتدية على المصالح الاقتصادية الأمريكية.

اشتعلت معارك الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، ومع ذلك تأخر اشتراك الولايات المتحدة فيها إلى عام ١٩١٧م؛ بل واتخذت خطوتين في تحقيق هذا الاشتراك، جاءت الخطوة الأولى في إعلان الرئيس ويلسون في ٣ شباط عام ١٩١٧م قطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، ثم جاءت الخطوة الثانية بإعلان الولايات المتحدة الحرب رسمياً ضد ألمانيا في ٦ نيسان من العام نفسه بعد أن مارست الغواصات الألمانية إغراق السفن التجارية الأمريكية بصورة استفزازية نتج عنها مزيداً من الخسائر البشرية، والمادية الأمريكية.

وجاء إعلان الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا بعد أن صار هناك اقتناع عند الرأي العام الأمريكي بأنه يجب عدم ترك ألمانيا تحرز انتصارات على دول التحالف، وتبعاً لذلك فإن موقف الحياد الذي اتخذته الحكومة الأمريكية سيبعد الولايات المتحدة عن أن تكون من أبطال الديمقراطية في العالم^(١).

حقق دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب دول الوفاق هزيمة سريعة لألمانية التي ما لبثت أن طلبت عقد هدنة في ١١ أيلول عام ١٩١٨م، وبالرغم من أن الولايات المتحدة دخلت الحرب، إلا أن الرئيس ويلسون كان يفكر في أثناء

^(١) Wiebe R.H.: *Ibid.*, p. 269.

المعارك الحربية فيما بعد الحرب، ومن هنا جاءت نقاطه الأربع عشرة التي أعلنها في ٨ كانون الثاني عام ١٩١٨م في الوقت الذي بدت فيه تبشير النصر للحلفاء. ففي ٨ كانون الثاني عام ١٩١٨م حدد الرئيس ولسن في رسالته إلى مجلس الشيوخ الأمريكي أهداف الولايات المتحدة لإقرار السلام في المستقبل، وهي ما أطلق عليها اسم «المبادئ الأربع عشرة» أو مبادئ ويلسون، وقد تضمنت هذه المبادئ أسساً عامة، أهمها: حرية الملاحة في البحار، وتخفيض السلاح على أن يحل محل ذلك إقامة عصبة الأمم؛ لتأمين السلم العالمي، وكذلك القضاء أو التخفيف من القيود الاقتصادية، وكذلك القضاء على المعاهدات السرية بين الدول، وإنشاء جمعية عامة للأمم بموجب ميثاق تضمن الاستقلال السياسي لجميع الدول الكبيرة والصغيرة على السواء، وهناك مبادئ خاصة تتعلق بتسوية الألزاس واللورين إلى فرنسا، وتسوية قضايا دول البلقان بالطرق الودية مع مراعاة المصالح القومية على أنها أساس لتلك التسوية، وكذلك الاعتراف باستقلال بلجيكا، وتكوين الدولة البولونية المستقلة، على أن يُراعى في تشكيلها إيجاد منفذ لها على بحر البلطيق، وكذلك الاعتراف بالقوميات التي كانت تتكون منها الإمبراطورية النمساوية المجرية على أنها كيانات لها حق النمو ومعنى هذا أن المبادئ الأربع عشرة قد تضمنت حق تقرير المصير أساساً عادلاً لصلح دائم^(١).

كانت هذه النقاط تتماشى مع روح السياسة الأمريكية الداعية إلى عالم يعيش حياة سلام ورخاء. وهي نظرة متعمقة لجذور المشكلات

(١) للاطلاع على مبادئ ويلسون بالتفصيل انظر: مؤسسة الأهرام: ٥٠ عاماً على ثورة ١٩١٩،

الأوروبية، ولكنها على أية حال محاولة لإثبات الدور الأمريكي في صنع السلام. ومن ثم حرص الرئيس ويلسون على الحضور إلى باريس في مطلع عام ١٩١٩م ليحضر بنفسه مفاوضات الصلح، كما حرص على ضرورة إدخال نقاطه الأربع عشرة في معاهدة الصلح التي يتفاوض من أجل الوصول إليها زعماء الدول المتحاربة.

وقد تم التوقيع على معاهدة الصلح في فرساي في تموز عام ١٩١٩م. وقد تضمنت المعاهدة إنشاء عصبة الأمم^(١). وهذا بموجب النقطة الرابعة عشرة من نقاط الرئيس ويلسون، وإن كانت بقية النقاط التي هدف بها ويلسون تحقيق سلام عادل لم تطبق كاملة؛ مما دعا ألمانيا إلى الاحتجاج، ولكنه احتجاج المنهزم. وكان ويلسون أول من وقع وثيقة الصلح، معتقداً أنه فعل كل ما في وسعه، وأن المعاهدة ستمنع الحروب في المستقبل. وبعد أن وقع الوثيقة أرسل ويلسون إلى مجلس الشيوخ يطلب المصادقة على عمله^(٢).

لكن هل يصادق مجلس الشيوخ الأمريكي على انضمام الولايات المتحدة إلى عصبة الأمم، والتصديق على بقية بنود معاهدة الصلح أم سيتمسك بالعزلة، وعدم الارتباط بأية معاهدات مع أوروبا؟ لقد رفض مجلس الشيوخ التصديق على المعاهدة ككل بما فيها عدم الاعتراف بعصبة الأمم؛ متجاهلاً نداء ويلسون بأن التصديق "سيتيح لنا فرصة

(١) نصت العصبة على وجود مجلس تنفيذي مكون من تسعة أعضاء منها مقاعد دائمة تشغلها انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا واليابان، وجمعية استشارية، ومكتب عمل دولي، ومحكمة عدل دولية لتفصل في المنازعات الدولية.

(٢) فرانكلين أشر: المرجع السابق، ص ١٥٥.

لنكسب قيادة العالم". وقامت عصبة الأمم من دون اشتراك الدولة التي
كان رئيسها صاحب فكرة إنشائها.



ثانياً- العودة إلى العزلة بعد الحرب العالمية الأولى:

جاء رفض مجلس الشيوخ الأمريكي للتصديق على اتفاقية الصلح، والانضمام لعصبة الأمم نتيجة لعوامل داخلية وخارجية عدة، جعلت المجلس يخذل رئيس الجمهورية في موقفه الدولي، ويعود بالولايات المتحدة إلى عزلة دولية. رغم أن الولايات المتحدة وقعت صلحاً منفرداً مع ألمانيا عام ١٩٢١م، فإن نجاح الجمهوريين في الوصول إلى رئاسة الجمهورية عام ١٩٢٠م قد حقق شعار الحزب الجمهوري الداعي للعودة إلى الاستقرار؛ أي العزلة.

أ- العوامل الداخلية:

كانت أهم العوامل الداخلية المسؤولة عن عودة الولايات المتحدة إلى سياسة العزلة مرة أخرى، تقدم الإنتاج الأمريكي تقدماً مذهباً نظراً لحاجة دول الوفاق، وطلبات المحايدين، وحاجات القوات المسلحة الأمريكية ابتداء من عام ١٩١٧م، ونتج عن ذلك أن أثرى الأفراد ثراءً عظيماً، ونعمت الدولة بالرخاء حتى صارت الولايات المتحدة عام ١٩١٩م تقبض على نصف الذهب العالمي، وأصبحت دائنة لباقي دول العالم^(١). واعتقد الأمريكيون أن ذلك جاء نتيجة لموقف الحياد الذي ظلوا محافظين عليه إلى آخر مدى ممكن، وحيث انتهت ظروف خرق الحياد، فالعودة إليه ضرورة ليتفرغ الأمريكيون لمزيد من الإنتاج الاقتصادي.

ومن العوامل الداخلية كذلك الصراع بين الرئيس ويلسون، ومجلس الشيوخ الأمريكي؛ ذلك الصراع الذي اشتعل منذ أن استطاع الرئيس ويلسون في أثناء الحرب العالمية الأولى أن يستصدر القانون المعروف باسم "Overman Act" في كانون الثاني عام ١٩١٨م الذي يخوله سلطات استثنائية، وعندما انتهت الحرب

(١) نور الدين حاطوم: تاريخ القرن العشرين، بيروت ١٩٦٥م، ص ١٢٦.

شعر أعضاء مجلس الشيوخ بأن الرئيس ويلسون قد استخف بهم؛ لأنه وقع معاهدة فرساي، بينما ينص الدستور على ألا يتم توقيع الرئيس الأمريكي على أية معاهدات دولية من دون الحصول على موافقة ثلثي أعضاء مجلس الشيوخ. كما أن الرئيس ويلسون عاد من باريس ليعرض المسألة -أي معاهدة فرساي- على الشعب من فوق رؤوس أعضاء المجلس^(١). وكان هذا الصراع سبباً في عدم تصديق مجلس الشيوخ على المعاهدة، ومن ثم ظلت الولايات المتحدة بعيدة عن عصبة الأمم.

ب-العوامل الخارجية:

تمثلت العوامل الخارجية المسؤولة عن عودة الولايات المتحدة مرة أخرى إلى العزلة في أن الشعب الأمريكي سئم دور البطولة في قضية السلم العالمي، وأنه بقي متعلقاً بالمبدأ الذي وضعه جورج واشنطن في رسالة رادعة للشعب الأمريكي عام ١٧٩٦م: "يجب على الولايات المتحدة أن تبقى بعيدة عن ملاسبات الشؤون الأوروبية"^(٢)، وأن سياستنا الحقيقية هي تجنب محالفة دائمة مع أي حكومة أجنبية أياً كان نوعها، وإذا اقتضى الأمر مثل تلك المحالفة يجب أن تكون قصيرة المدى ما أمكن لتحقيق هدف معين، حتى إذا تحقق وجب أن تعود الولايات المتحدة إلى سيرتها الأولى^(٣).

(١) فرانكلين أشر: المرجع السابق، ص ١٥٦.

(٢) نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٣) بطرس بطرس غالي، محمود خيرى عيسى: المدخل في علم السياسة، القاهرة ١٩٧٤م، ص

وكان نجاح الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧م، وتبنيها الدعوة لنشر الشيوعية في العالم^(١)، والصدام بين روسيا الشيوعية ودول أوروبا، من عوامل الدعوة إلى العزلة في الولايات المتحدة للبعد عن ذلك الصراع الاستعماري الأوروبي، ومن ثم ترجمت هذه الدعوة إلى قوانين وافق عليها الكونغرس بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٥م حرم أولهما تقديم قروض أخرى إلى البلاد التي لم تنفذ التزاماتها السابقة، والثاني تحريم بيع الأسلحة لكل المعتدين في حروب أجنبية في المستقبل، وأعلن تحذيراً للأمريكيين من السفر على سفن أجنبية للمعتدين إلا على مسؤوليتهم.

ج- مظاهر العزلة بين الحربين:

بعد أن استعرضنا العوامل الداخلية والخارجية المسؤولة عن عودة الولايات المتحدة مرة أخرى إلى سياسة العزلة نناقش مظاهر تلك السياسة طوال فترة ما بين الحربين العالميتين. فعندما استقر الجمهوريون في الحكم جعلوا من سياسة العزلة سياسة رسمية، فكان وارن هاردنج "Werren Herding" الذي خلف ويلسون منسقاً لتحقيق مصالح أصحاب المصالح الكبرى على حساب مصلحة الحكومة، كما كان كالفن كوليدج "Calvin Coolidge" محدد الأفق من الناحية السياسية يرتاب في الاتجاهات التحررية. في حين كان هربرت هوفر "Herbert Hoover" الذي انتخب للرئاسة عام ١٩٢٩م أعظم كفاية، وإن أخطأ في تقدير أمريكا عالمياً.

وتمشياً مع سياسة العزلة اهتم الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت "Franklin Roosevelt" الذي تم انتخابه عام ١٩٣٢م لأربع فترات متتالية، باتباع سياسة مطبوعة بروح العدالة الاجتماعية للتخفيف من السيطرة الرأسمالية، فوضع ما عرف

(١) وكان ذلك سبباً جعل الولايات المتحدة تؤجل الاعتراف بالاتحاد السوفيتي حتى عام ١٩٣٣م، نتيجة للالزمة الصينية-اليابانية.

"البرنامج الجديد New Deal" الذي اهتم بالزراعة، والصناعة، وتوفير الخدمات المختلفة في مجالات النقل، والاتصالات، والإصلاحات الاجتماعية: كالتأمين ضد البطالة، والتأمين ضد الشيخوخة. وفي عام ١٩٣٥م أكد للكونغرس الأمريكي ميوله الانعزالية بالتصويت لصالح قانون الحياد.

وتمشياً مع العودة إلى سياسة العزلة، فقد سارت الولايات المتحدة نحو سياسة قومية ضيقة وتجنب المسؤولية. ومن ثم وافق الكونغرس الجمهوري في مستهل عام ١٩٢٠م على قانون خاص بفرض تعرفه جمركية احتياطية بقصد إقامة حاجز للحماية من المنتجات الأجنبية، وهذه الرسوم الجمركية لم توصل السوق الأمريكية أمام المنتجات الزراعية والصناعية الأوروبية فحسب؛ بل أدت إلى إصدار تعرفات تأرية أوصدت الأسواق الأوروبية في وجه السلع الأمريكية.

كما عملت الحكومات الأمريكية المتعاقبة خلال فترة ما بين الحربين على هدم ما وضعه الرئيس ويلسون من قوانين لفرض الرقابة الحكومية على نشاط الشركات الاحتكارية؛ إذ منحت الحكومة الأمريكية خلال الفترة من عامي ١٩٢٠ إلى ١٩٣٠م مساعدات مالية ضخمة للأسطول التجاري، وشركات الطيران التي تحمل بريد الولايات المتحدة، كما ألغت ضريبة الأرباح الزائدة، وخفضت كثيراً من الضرائب العادية والإضافية. كما أعادت الحكومة الأمريكية السكك الحديدية إلى أصحابها؛ لتمارس نشاطها الخاص دون إشراف حكومي، كما باعت جزءاً من الأسطول البحري الذي بني في أيام الحرب للشركات الخاصة بأثمان زهيدة^(١).

(١) ألن نفنز: المرجع السابق، ص ٣٨٩-٤٩٣.

ثالثاً - كسر العزلة نهائياً في أثناء الحرب العالمية الثانية:

وكما كُسرت العزلة تدريجياً على يد الرئيس ويلسون كسرت نهائياً هذه المرة أيضاً تدريجياً، ولكن على يد الرئيس فرانكلين روزفلت. وكما كانت هنالك عوامل، وظروف أدت بالرئيس ويلسون إلى كسر العزلة الأمريكية في عهد الرئيس روزفلت خلال أربع فترات رئاسية متتالية، لكي تنكسر العزلة نهائياً، فما هي هذه الظروف؟.

أ - على المستوى الداخلي:

توفرت عوامل داخلية اقتصادية، وسياسية عملت على كسر العزلة الأمريكية نهائياً. من بين العوامل الاقتصادية حدوث كساد كبير في الاقتصاد الأمريكي استمر حوالي عشر سنوات من عام ١٩٢٩م، ولم يكن له مثيل في طول مدته، وفي الفقر العام الذي انتشر بسببه، وفي المآسي التي أنزلها بالمجتمع. وكان من ناحية أخرى يختلف عن الأزمات السابقة، كما كان دليلاً على انهيار نظام توزيع الثروة، وتوزيع السلع^(١). ومما زاد من حدته أن الحكومة لم تتدخل بحزم لعلاج الكساد.

وكان من نتائج الكساد زيادة العاطلين عن العمل زيادة كبيرة؛ وبالتالي زيادة عدد الجائعين، في الوقت الذي انخفضت فيه أسعار المنتجات الزراعية إلى أدنى مستوى شهدته الولايات المتحدة، وإفلاس عشرات من المؤسسات التجارية وإغلاق آلاف المصارف أبوابها، وانخفض الدخل القومي إلى النصف، واكتفى الرئيس "هوفر" بالحديث بأن الرخاء على الأبواب، ورفض تقديم أية معونات للعاطلين والجائعين؛ مما جعل الشعب الأمريكي يبحث عن خلاص دستوري جاء

(١) ألن نفنز: المرجع السابق، ص ٥٠٤.

في شكل إزاحة الحزب الجمهوري بعد انتهاء فترة رئاسة هوفر، وانتخاب فرانكلين روزفلت من الحزب الديمقراطي.

تميز روزفلت بالشجاعة، وسعة الحيلة إلى جانب الذكاء، وحب الخير. وقد استخدم كل إمكاناته هذه في تنفيذ برنامجه المعروف باسم العهد الجديد " New Deal" الذي كانت اتجاهاته السياسية تقوم على تعزيز الأمن القومي والمحافظة على حرية الملاحة في البحار العالمية، وتوطيد دعائم القانون والأمن في الداخل، إلى جانب العمل على تأييد الديمقراطية في العالم الغربي، بينما كانت اتجاهاته الاقتصادية تعمل على ضرورة تقديم المساعدة للمحتاجين من العاطلين عن العمل، والجائعين مع القيام بإصلاحات تعالج الكساد الذي تمكن من الحياة الأمريكية.

وقد نجح العهد الجديد في علاج كثير من مشكلات الكساد الاقتصادي وبالفعل عن طريق فتح مجالات عمل للعاطلين، وصرف إعانات مالية لهم، ومساعدة كل المؤسسات المتعثرة في نشاطها إلى جانب طرح قروض فيدرالية أمدت الحكومة ببلايين الدولارات، وخفض قيمة الدولار بهدف رفع أسعار المنتجات الزراعية، ولكي يكون التضخم معقولاً، وتحقيق الإشراف الحكومي على المصارف، والقضاء على احتكار الشركات الكبرى مع زيادة الضرائب على الشركات الاتحادية، وبالجمله فقد شملت الإصلاحات النواحي الاقتصادية في الزراعة، والعمل، والعمال، والتأمين الاجتماعي، واستخدامات القوى المائية، كما شملت النواحي السياسية لتعميق الديمقراطية، وممارسة كل فرد لحريته في إطار القانون، وما يكفله الدستور. هذا إلى جانب هز الجهاز الإداري الأمريكي بصورة تساعد على تحقيق برامج الإصلاح بصورة طيبة.

ب- على المستوى الخارجي:

سارت الحوادث الأوروبية بسرعة نحو اشتعال الحرب العالمية الثانية، بدأت بغزو اليابان لمنشوريا عام ١٩٣١م، وأقامت دولة مانشو الألعبية، وتاخمت بذلك سيبيريا السوفيتية من ناحية، والصين من ناحية أخرى، إلى جانب هجوم اليابان على الصين، واستكملت الخطوات باحتلال إيطاليا للحبشة عام ١٩٣٦م، وتوسيع الاحتلال الإيطالي لليبيا على أمل إحياء الإمبراطورية الرومانية ولكن بزعماء الحزب الفاشستي الذي كان يترأسه بنيتو موسوليني، وأخيراً خرقت ألمانيا الهتلرية النازية معاهدة فرساي لعام ١٩١٩م بالتسلح الكبير مع احتلال أراضي الراين ثم ضم النمسا إلى الرايخ عام ١٩٣٨م، وبدأت تعمل على إنشاء ألمانية العظمى باحتلال تشيكوسلوفاكيا. هذا إلى جانب مساهمة كل من ألمانيا النازية، وإيطاليا الفاشية في إسقاط الجمهورية الإسبانية، وقيام الدكتاتورية هناك.

وتميزت هذه الحوادث بأن من صنعوها كانت فلسفتهم في الحكم تقوم على الدكتاتورية التي تنظر إلى المواطن باعتباره قليل الأهمية بالنسبة للدولة، ومن ثم لم يكن مكفول الحرية أو الحقوق أو الممتلكات؛ بل صارت حياته الاجتماعية وآماله غير ذات بال عند الدولة. ويقابل هذا في الدول الديمقراطية، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية أن الفرد أساس الحكم حقوقه، وحياته في التعبير والكتابة، والعبادة، والعمل، وتكوين علاقة اجتماعية مكفولة ومصانة، وأن هدف الحكومات الديمقراطية خلق الرجل الحر، وحمايته.

وإزاء هذه الأحداث شعر الأمريكيون -خطأ- أنهم يعيشون بعيداً عن أن يصيبهم شيء، وأن عزلتهم حماية لهم كما أنه تفصلهم عن أوروبا أرض العنف، وعن آسيا المتقلبة محيطان عظيمان الأطلنطي في الشرق، والهادي إلى الغرب من الأرض الأمريكية؛ بل آمنوا بأن سياسة العزلة هي العاصمة لهم من أن ينالهم شرر من تلك الشرور المنذلة في أوروبا أو في آسيا. ومن ثم تمسكوا بسياسة

السلم بأي ثمن؛ مما دفعهم إلى استصدار تشريعات الحياد بين سنتي ١٩٣٥م- ١٩٣٧م، رغم معارضة الرئيس روزفلت ووزير خارجيته "هل Hull"، تلك التشريعات التي حرمت إقامة أية علاقات تجارية أو مالية مع أية دولة من الدول المتحاربة^(١).

ولكن الرئيس روزفلت الذي اضطر إلى الموافقة على تلك التشريعات كان دائم التنبيه للشعب الأمريكي بخطورة الموقف العالمي، وضرورة استعداد الولايات المتحدة عسكرياً، وسياسياً، واقتصادياً لمواجهة الاحتمالات، ورفض أن يعترف بسياسة التخويف بالقوة، وكان لسياسته هذه أثرها في صلابة الروح الأمريكية، وانتباهها إلى اعتداءات الدول الدكتاتورية النازية والفاشية .

وقد صرح الرئيس روزفلت عام ١٩٣٧م في خطاب له بأن خرق القوانين العالمية في حالة انتشار، ولا يظن أحد أن أمريكا ستجوز؛ لأن العالم الحديث فيه تضامن فني، ومعنوي لا يسمح لأية أمة أن تعزل نفسها عن تبدلات العالم السياسية والاقتصادية، وأنه يجب على الولايات المتحدة إذا أرادت أن تتجنب الدخول في الحرب أن تبذل جهدها في صيانة السلام، وتعمل باتفاق مع الأمم المسالمة^(٢).

وعندما أعيد انتخاب الرئيس روزفلت لفترة رئاسية ثالثة عام ١٩٤٠م أعلن للشعب الأمريكي: "أن كل واقعي يعرف أن طريقة الحياة الديمقراطية في هذه الآونة مهددة في كل بقعة من العالم، وللأسف أجد من الضروري أن أقول لكم بأن مستقبل وسلامة بلادنا وديمقراطيتنا معرض للخطر في كل مكان"^(٣).

(١) ألن نفنز: المرجع السابق، ص ٥١٩.

(٢) Mowry. G.E., The Urban nation, p.129.

(٣) فرانكلين أشر: المرجع السابق، ص ١٧٣

وقد سار شوطاً بعد ذلك يدعو إلى تقديم مساعدات فاعلة إلى الدول الديمقراطية (إنكلترا، وفرنسا) التي تحارب الدكتاتورية في ألمانية، وإيطالية، واليابان. وجاءت هذه الدعوة في صورة ما عُرف بقانون الإعارة والتأجير "Lend-Lease Act"^(١) الذي بموجبه يُعدّ الدفاع عن الدول الديمقراطية دفاعاً عن الولايات المتحدة ذاتها، ومن ثم تقديم المساعدات اللازمة.

وتلا ذلك اتخاذ خطوات أمريكية إيجابية بالنسبة للحرب الدائرة بين دول الحلفاء من ناحية، ودول المحور من ناحية أخرى، وتمثلت هذه الخطوات في تقديم مساعدات عسكرية، ومالية لإنكلترا، كما جمدت الحكومة الأمريكية الاعتمادات المالية الإيطالية، والألمانية في الولايات المتحدة. كما عملت الحكومة الأمريكية على حماية السفن الأمريكية التي تحمل الأسلحة لإنكلترا، والاشتباك مع الغواصات الألمانية التي تعترض هذه السفن، كما انفق الرئيس روزفلت في اجتماع تم في عرض المحيط الأطلسي في آب عام ١٩٤١ م مع السير ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا على إعلان ميثاق الأطلسي الذي يتضمن التعاون لهزيمة دول المحور، وترتيبات ما بعد الحرب، وخاصة ما يتعلق بتأسيس منظمة دولية قوية للأمن الجماعي، والتعاون الاقتصادي الدولي، ولنزع السلاح.

ج- دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية:

تضافرت العوامل على المستويين الداخلي، والخارجي في النهاية على جرّ الولايات المتحدة للمشاركة في العمليات العسكرية ضد دول المحور، وإلى جانب دول الحلفاء وبالتنسيق بينها، ورغم أن الحكومة الأمريكية اتخذت -كما رأينا- منذ اشتعال الحرب بين دول المحور، ودول الحلفاء خطوات عدة، وصفت بأنها عداية للطرف الأول وودية جداً بالنسبة للطرف الثاني، فلم تكن هناك حرب رسمية بين

^(١) Mowry, G.E., *Op. Cit.*, p 146.

الولايات المتحدة من ناحية، ودول المحور من ناحية ثانية حتى حدث الاعتداء الياباني على قاعدة بيرل هاربور البحرية في جزر هاواي بالمحيط الهادئ في ٧ كانون الثاني عام ١٩٤١م، وتعرضت معسكرات الجيش الأمريكي، والمطارات، والقاعدة البحرية هناك لقذائف جوية، وبحرية يابانية عنيفة أدت إلى وقوع خسائر بشرية، ومادية كبيرة جداً لم تكن الولايات المتحدة تتوقعها، كما تعرضت جزر الفلبين، وجزر غوام، وغيرها من المراكز الأمريكية بالمحيط الهادئ لهجمات يابانية عنيفة.

وجاء الرد الأمريكي للاعتداء الياباني إعلان الحرب ضد اليابان في ٨ كانون الثاني أي في اليوم التالي للاعتداء الياباني على قاعدة بيرل هاربور، فأعلنت ألمانيا، وإيطاليا الحرب ضد الولايات المتحدة إلى جانب حليفتها اليابان، ومن ثم شاركت الولايات المتحدة مشاركة فعلية وعنيفة في الحرب في جبهتين: شرقية في المحيط الهادئ ضد اليابان، وغربية في أوروبا، وإفريقية ضد ألمانيا، وإيطالية حتى انتهت الحرب بهزيمة دول المحور آخر الأمر.

استسلمت ألمانيا من دون قيد أو شرط في ٧ أيار عام ١٩٤٥م، واستسلمت اليابان بعد أن ألقت الطائرات الأمريكية قنبلتين ذريتين على هيروشيما في ٦ آب وعلى ناكازاكي في ٩ آب من العام نفسه، وفي ٢ أيلول وقع مندوبو اليابان وثيقة الاستسلام على ظهر البارجة الأمريكية "ميسوري" الراسية في خليج طوكيو.

ولم يكن النصر الذي أحرزه الأمريكيون في الحرب العالمية الثانية بالذي يسمح بعودة الولايات المتحدة إلى العزلة مرة أخرى؛ بل إنه رغم انتخاب الرئيس روزفلت للمرة الرابعة عام ١٩٤٥م، وإن كان القدر لم يمهل ليرى النصر النهائي لسياسته إذ توفي في ١٢ نيسان من العام نفسه ليخلفه نائبه هاري ترومان، شاركت

الولايات المتحدة في تأسيس هيئة الأمم المتحدة في تموز عام ١٩٤٥م والتي اتخذت من مدينة نيويورك مقراً لها، وبدأت أعمالها رسمياً في عام ١٩٤٦.

وهكذا ساعدت الحرب العالمية الثانية، ومشاركة الولايات المتحدة فيها على تطبيق البرنامج الجديد "New Deal" وقوت الأنماط التي فرضت نفسها على حياة الأمريكيين؛ إذ استطاع روزفلت إزاحة كل المعوقات التي وقفت في وجه تنفيذ برنامجه، كما استطاع تقوية الحكومة، وتمركز السلطة بيدها، ومن ثم استطاعت حكومته البقاء، ومتابعة تنفيذ البرنامج. ومن ثم يمكن القول: إن النتيجة المباشرة للمشاركة الأمريكية في معارك الحرب العالمية الثانية كانت تقوية مركز الرئيس روزفلت الشخصي وتدعيمه^(١).

كما أدت الحرب العالمية الثانية، ومشاركة الولايات المتحدة في معاركها إلى كسر العزلة نهائياً؛ إذ جاء انضمام الولايات المتحدة إلى هيئة الأمم المتحدة دليلاً على تغيير السياسة الأمريكية نحو أوروبا، ثم بدأت الولايات المتحدة تمارس دوراً أساسياً وقيادياً في المنظمة الدولية؛ بل وسارت أشواطاً أبعد في التخلي نهائياً عن العزلة بالارتباط بسلسلة من المحالفات العسكرية في أوروبا وآسيا، واتباع سياسة الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفيتي^(٢).

^(١) Brock, W.R.: The Character of American History, 2nd edition, New York, 1965, p. 254.

^(٢) يطلق تعبير الحرب الباردة على حرب الدعاية بين المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي إلى جانب المقاطعة الاقتصادية والمعارضة السياسية لكل خطوات أو إجراءات يتخذها أي من المعسكرين على الصعيد الدولي.



المصادر والمراجع

أولاً- المصادر والمراجع العربية والمترجمة

١. محمد مظفر الأدهمي، أوروبا في القرن التاسع عشر دراسة في التاريخ والفلسفة، الرباط ١٩٨٥.
٢. محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
٣. إميل إده: الفينيقيون واكتشاف أمريكا، دار النهار، بيروت، ١٩٦٩.
٤. شكيب أرسلان: الحلل السندسية، المطبعة الرحمانية، مصر، ط١، ١٩٣٦م.
٥. فرانكلين أشر: موجز تاريخ الولايات المتحدة، ترجمة مهيبه المالكي، دار الثقافة بيروت.
٦. جورج أطلس، تاريخ البرازيل، ترجمة جورج أطلس، سان باولو البرازيل، ١٩١٧.
٧. جفري برون، تاريخ أوروبا الحديث، ترجمة علي المرزوقي، دار الأهلية للنشر، طبعة أولى، الأردن ٢٠٠٦.
٨. روز براون، البرازيل شعبها وأرضها، ترجمة محمد عبد الفتاح إبراهيم، مراجعة عز الدين فريد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة- نيويورك، ١٩٦٩.
٩. سمعان بطرس: العلاقات السياسية الدولية في القرن العشرين ج١ (١٨١٥-١٩١٤)، دار المعارف، طبعة ثانية ١٩٧١.
١٠. جان بيرنجيه، إيف دوران، فيليب كونتامين، فرنسيس راب، موسوعة تاريخ أوروبا العام، ترجمة وجيه البعيني، الجزء الثاني (أوروبا منذ

- بداية القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر)، منشورات عويدات، بيروت-باريس، طبعة أولى ١٩٩٥.
١١. أ.ج. ب. تايلور، الصراع على سيادة أوروبا ١٨٤٨-١٩١٨، ترجمة فاضل جكتر، المركز الثقافي العربي، أبو ظبي، ط ١، ٢٠٠٩.
١٢. أ.ج. جرانت، هارولد تمبرلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩-١٩٥٠، ترجمة بهاء فتحي، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، ط ٦، القاهرة ١٩٥٠.
١٣. نور الدين حاطوم: تاريخ القرن العشرين، بيروت ١٩٦٥م.
١٤. شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، القاهرة ٢٠٠٠.
١٥. يسري عبد الرزاق الجوهري، الكشف الجغرافية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٤.
١٦. سيمون الحايك: والعرب شاركوا في الاكتشاف أو كريستوف كلمبس، لبنان ١٩٩١م.
١٧. جمال حمدان، ١
١٨. استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق-بيروت، طبعة أولى، ١٩٨٣.
١٩. عمار فاضل حمزة، أمريكا اللاتينية: تاريخ من الظلم المتواصل، د.د.
٢٠. نبيل خليل خليل: أمريكا بين الهند والعرب، دار الفارابي، بيروت، لبنان، طبعة ثانية، ٢٠٠٦م.

٢١. فرانسوا جورج دريفوس، رولان ماركس، ريمون بوادوفان، موسوعة تاريخ أوروبا العام، ترجمة حسين حيدر، ثلاثة أجزاء، منشورات عويدات، بيروت، باريس، طبعة أولى ١٩٩٥.
٢٢. ميشال دوفيز: أوروبا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر، الجزء الأول، ١٩٨٠.
٢٣. زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٦.
٢٤. عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث، ١٩٩٧.
٢٥. رودريجث، أوخينيو تشانج: ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية، ترجمة عبد الحميد الغلاب وأحمد حشاد، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٧.
٢٦. بيير رونوفان، تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥-١٩١٩)، ترجمة جلال يحيى، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٨٠.
٢٧. هاينكه زودهوف: معذرة كولومبوس لست أول من اكتشف أمريكا، تعريب حسين عمران، مكتبة العبيكات، الرياض ٢٠٠١.
٢٨. مفيد الزيدي: موسوعة تاريخ أوروبا، أربعة أجزاء في مجلدين، ط ٣، ٢٠٠٩، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٤.
٢٩. لاوريت سيجورنه، أمريكا اللاتينية الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ترجمة صالح علماني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، طبعة أولى ٢٠٠٣.
٣٠. محمود شاكر : الكشف الجغرافية، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م.

٣١. صالح أحمد هريدي علي، أوروبة من الثورة الفرنسية حتى الحرب العالمية الأولى، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، طبعة أولى، ٢٠٠٧.
٣٢. ليلى الصباغ، تاريخ أوروبا في العصر الحديث، مطبعة جامعة دمشق، طبعة ثانية، ١٩٩٠، ص ٧٦-٧٧. عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث (من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة)، جزأين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.
٣٣. عبد الفتاح حسن أبو عليه، تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، دار المريخ-الرياض، ١٩٨٧.
٣٤. عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٢.
٣٥. بطرس بطرس غالي، محمود خيرى عيسى: المدخل في علم السياسة، القاهرة ١٩٧٤م.
٣٦. هـ. أ. ل. فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث، تعريب أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع، دار المعارف بمصر، ١٩١٨.
٣٧. هريبرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، ترجمة زينب عصمت راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٥.
٣٨. محمد قاسم، أحمد نجيب هاشم، التاريخ الحديث والمعاصر، دار المعارف، مصر ١٩٦٥.

٣٩. برتولومي دي لاس كازاس: المسيحية والسياف، وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية على أيدي المسيحيين الإسبان (رواية شاهد عيان)، ترجمة سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، د.ت.
٤٠. إغناطيوس كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر صلاح الدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧م.
٤١. موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط٢، ١٩٨٧، الجزء الرابع (القرن السادس عشر والسابع عشر، تأليف رولان موسنييه).
٤٢. عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ٦ أجزاء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٥.
٤٣. وليام لانجر، موسوعة تاريخ العالم، ترجمة محمد مصطفى زيادة، أربعة أجزاء، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة-نيويورك، ١٩٦٣.
٤٤. مجموعة من المؤلفين، الموسوعة العربية، دمشق ٢٠٠٧، ط١.
٤٥. ساطع محلي، أمريكا اللاتينية، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق ١٩٧٤.
٤٦. محمد محمدين: الجغرافيا والجغرافيون، دار العلوم للطباعة.
٤٧. خليل علي مراد، جاسم محمد حسن، عبد الجبار قادر غفور، دراسات في التاريخ الأوروبي المعاصر، بغداد ١٩٨٨.
٤٨. محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة)، دار الكتاب اللبناني، طبعة أولى، ١٩٨٣.
٤٩. علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح قاسم الرافعي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

٥٠. محمد العزب موسى، حضارات مفقودة، الدار المصرية اللبنانية، طبعة ثانية ١٩٩٢.
٥١. سيزار فرناندث مورينو: أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، قسمين، القسم الأول، العدد ١٦٦، آب ١٩٨٧.
٥٢. دونالدو مونك: أمريكا اللاتينية المعاصرة، ترجمة منيرة محمد بدوي، النشر العلمي والمطابع، الرياض ٢٠٠٨م.
٥٣. نعنعي، عبد المجيد: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٨٣.
٥٤. عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي: التاريخ المعاصر، أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية، دار النهضة، بيروت ١٩٧٣.
٥٥. عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٩.
٥٦. نوار، عبد العزيز، جمال الدين، محمود محمد: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩.
٥٧. تشومسكي، نعوم: ٥٠١ سنة الغزو مستمر، دار المدى، طبعة ثانية، دمشق ١٩٩٩.
٥٨. ألن نفنز، هنري ستيل كومجر: تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، ترجمة مصطفى عامر، القاهرة ١٩٥٢.

٥٩. إريك هوبزباوم، عصر الثورة، أوروبا (١٧٨٩-١٨٤٨)، ترجمة فايز الصايغ، المنظمة العربية للترجمة، طبعة أولى، بيروت، ٢٠٠٧.
٦٠. ه. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة، ١٩٥٨.
٦١. ب. م. هولت، صانعو أوروبا الحديثة، ترجمة موفق شقير، دمشق ١٩٨٠.
٦٢. صلاح هويدي: أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الأولى، ٢٠٠٧.
٦٣. هيريدوت: تاريخ هيرودوت، ترجمة عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبوظبي ٢٠٠١.
٦٤. عمر ابن الوردى: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح محمود فاخوري، دار الشرق العربي، حلب.
٦٥. جلال يحيى، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د. ت.
٦٦. -: كولومبوس: بداية الحلم أم ذروة المأساة، دراسة مركز أبحاث مجلة العربي (مجلة العربي، العدد ٤٠٠، آذار ١٩٩٢، ص ص ١٤٤-١٥٦).

ثانياً - المجلات والدوريات:

مجلة الفيصل: أعداد متفرقة

مجلة العربي: أعداد متفرقة

ثالثاً - المصادر والمراجع الأجنبية :

1. **A H N:** Archivo Histórico Nacional, Madrid, leg. 20343, Exp. 3/159.
2. Manuel de AMAT Y JUNIENT, *Memoria de Gobierno*, Edición y estudio preliminar de Vicente Rodríguez Casado y Florentino Pérez Embid, Sevilla, Escuela de Estudios Hispanoamericanos, 1947
3. Hugo D. BARAGELATA, *Histoire De L'Amérique Espagnole*, Avec 2 cartes dans le texte, Librairie Armand Colin 103, Boulevard Saint-Michel, Paris 1936.
4. Brock, W.R.: *The Character of American History*, 2nd edition, New York, 1965.
5. Pierre CHAUNU, *Histoire de l'Amérique Latine*, Dixième édition corrigée, Paris 1988.
6. Manfred KOSSAK, Walter MARKOV, *L'Espagne Et Son Empire D'Amérique*, Traduit Marcal David et Charles Minguet, Paris 1970.
7. -----, *voyage en Araucanie, au chili au Pérou et dans la Colombie, ou relation historique et descriptive d'un séjour de vingt ans dans l'Amérique du sud suivie d'un précis des révolutions des colonies espagnoles de l'Amérique du sud*, traduite de l'anglais de w. b. STEVENSON; par setier, tome I., paris, 1828.
8. Nathan BARBER, Peterson's AP European History, Thomson Peterson's, First Edition, USA, 2006.
9. DUISSELLE, J.B., *L'Europe de 1815* Anos Tours. P.U. F. 1976.
10. SEIGNOBOS, *History of Contemporary Europe*, 1929.
11. SIMPSON, F.A., *The Rise of Louis Napoleon*, 1925.
12. Robert ERGANG, *Europe From the Renaissance to Waterloo*, D. C. Heath and Company, Boston, 1954
13. Wiebe R.H.: *The sersch for order*.
14. Derwent Whittlesey, *Earth & state*, Wash., 1944.

اللجنة العلمية:

أ.د. سمر بهلون

أ.د. راغب العلي

أ.د. محمد أحمد

المدقق اللغوي:

الأستاذ الدكتور: فخري بوش

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات

